

السيد محمد رشيد رضا

الوحي المحمدي

شُبُوتُ النُّبُوَّةِ بِالْقُرْآنِ
وَدَعْوَةُ شُعُوبِ الْمَدِينَةِ إِلَى الْإِسْلَامِ
دَرَجَةُ الْأَمْرِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَالسَّلَامِ

عقيدة الدين

السيد محمد رشيد رضا

الوحى المحمدى

ثبوت النبوة بآيات القرآن وكيفية شعور المرسلين بالانطلاقة

دين الأخوة الإنسانية والسلام

الحج المبرور

جَمِيعُ الْحُقُوقِ مَحْفُوظَةٌ

مؤسسة عز الدين

للطباعة والنشر

الطبعة الثالثة مصححة صدرت سنة ١٤٠٦ هـ

الطبعة الثانية صدرت في يوم عرفة من سنة ١٣٥٢ هـ

الذي نزل فيه على النبي (ص) في حجة الوداع

﴿اليوم أكملتُ لكم دينكم، وأتممتُ عليكم نعمتي، ورضيتُ لكم الإسلام ديناً﴾

(كما صدرت الطبعة الأولى في يوم ذكرى المولد النبوي منها)

مؤتسمة عز الدين

للطباعة والنشر

٢٧٥٥٦-٢٧٥٨٦٧-صَبْ: ٥٢٥١/١٣ بيروت-لبنان

هاتف ۸۳۱۶۴ -

مصدّر كتاب الوحي المحمدي

(الطبعة الثانية)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمد الله جل ثناؤه أن جعل قبول هذا الكتاب وتأثيره فوق ما كنا نقدر ونحتسب ، على ما نظن من دقة اختبارنا للعالم الاسلامي ، فانه لم يكن إلا خلاصة عامة من تفسير المنار للقرآن الحكيم ، وأكثر المسلمين قد هجروا القرآن هجراً غير جميل ، إذ باتوا يجهلون أن فيه كل ما يحتاجون اليه من حياة روحية وأدبية ، وقوة سياسية وحربية ، وثروة وحضارة ونعمة معيشة ، بله ما يلزم ذلك من الفوائد السلبية كدفع طغيان الاجانب عليهم ، وصد عدوانهم عن بلادهم ، وإنقاذهم من استغلالهم لشعوبهم

في القرآن كل ما ذكرت وما هو أكثر منه وأكبر ، ولا يطلبونه منه ، ومنهم من يطلبه من غيره - حتى الحياة الروحية يعتقدون أنه هو ينبوعها الاعظم ، ويوجد فيهم من يطلبها من غيره (كالأوراد والاحزاب) بناء على أنها مستمدة منه ويقل فيهم من يزيد عليها تلاوة ألفاظه ، وإنما يتلوها تاليها منهم ومن غيرهم لأن لقارئها على كل حرف منه عشر حسنات ، لا للتدبر والادكار الذي أنزل لاجله القرآن (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الالباب * أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين ؟ أم لم يغرّفوا رسوّلهم فهم له منكرون ؟ * أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ؟ * إن الذين ارتدّوا على أذبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سوّل لهم وأملى لهم)

إن أكثر المسلمين مجهلون أن للقرآن تأثيراً صالحاً ما في حياتهم المعاشية والمدنية والسياسية وهي أكبر همومهم ولا مرشد لهم فيها، ويجهلون البرهان العقلي المقترن بالشعور الوجداني، على أنه وحي الله لنبيه ورسوله، وإن في اتباعه سعادتهم في دينهم ودنياهم، ولا يجدون أحداً من الذين يتولون تربيتهم وتعليمهم في بيوتهم ولا في مدارسهم يقنعهم به، وبربي فيهم ملكة الوازع النفسي لا تبعاه، لا يعرفون كتاباً من كتب عقائدهم أو تفاسيره يهديهم إلى هذا، والمجهول المطلق لا توجه إليه النفس، فلا عجب إذا هجروا القرآن وأعرضوا عن تدبره

إن تفسير المنار قد ألف لاستدراك هذا التقصير في كتب التفسير، ولكنه لا يدرس في المدارس، ولا يعتمد عليه في التربية، ولا يخطر في بال من لم يقرأه أنه يجد فيه بيان كل ما يحتاج إليه الأمة لتجديد حياتها ومجدها، ولا لدفع الغوائل عنها، ويوشك أن يكون أكثر من اطلعوا عليه لا ينوون بقراءته ما ألف لأجله من الإصلاح والهدى، وتجديد بثورته الأولى، «وإنما لكل امرئ ما نوى»

كل ما يحتاج إليه المسلمون من إصلاح وتجديد حضارة وملك متوقف فيهم على هداية القرآن وتنفيذ النبي ﷺ وخلفائه الراشدين (رض) له، ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما صلح به أولها كما قال الامام مالك (رح) وكيف السبيل إلى اقتناعهم بذلك ونحن ندعوهم إلى هذا منذ ثلاث قرن، وقل منهم من سمع فاستجاب، واستغفر ربه وخر راکها وأتاب، حتى أهابت بهم صيحة هذا الكتاب باسم الوحي المحمدي، وإعجاز القرآن للبشر بما تقتضيه حضارة هذا العصر وعلومه ومشكلاته السياسية والقومية، وتحدي علماء الافرنج بعلومه وإصلاحه، ودعوتهم إلى الاسلام به، لانقاذ العالم المدني من أخطاره وانتياشهم من تياره، فكانت أول صيحة صحت الاسماع، فأصغت الآذان، وأشخصت الابصار، وأهطعت الاعناق، بالقرآن للقرآن، فبادر أهل الغيرة إلى ترجمته بما اختلف من اللغات،

وبث دعوته في الاقطار ، فأسر ماسرني من تأثيره إنما هو توجيه القلوب إلى هداية القرآن ، وروح القرآن ، وأن اشترك فيه العربي والعجمي ، والسني والشيعة والاباضي ، ولا غرو فالقرآن فوق المذاهب والاجناس والاطوان ، ومن آياته المحكمات (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات) ومن خطابه للرسول ﷺ (إِنَّ الَّذِينَ قَرَّعُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ)

وانما مزية هذا الكتاب أنه يبين إعجاز القرآن للبشر بالدلائل العلمية المعاصرة التي يفهمها كل قارئ ، وأبرز لهم خلاصة إصلاحه للبشر مفصلة في عشرة مقاصد ، مؤيدة بالشواهد ، وذكرهم بما كان من إحداثه أعظم ثورة عالمية واقلاب ديني مدني في الارض ، وعرض على أبصارهم مالا مرأ فيه من فساد حال شعوب الحضارة الغربية ، وعجز علومهم وفنونهم عن تلافي شرها ، وتدارك خطرها بعبارة مختصرة ، تعلوها عناوين كبيرة أو صغيرة ، تشير الى ما تحتها من كنوز ، وما وراءها من ركز اسلامي مركز ، فلا تتعب القاريء الكسول ، ولا تنفر السامع الملول ، من الدلائل على تقبل جميع المسلمين له بقبول حسن ما أثبتناه في التقارير الملحق بهذه الطبعة ، من كتب أئمة الفرق الثلاث الكبرى التي تضم الملايين من أهل القبلة ، وما يرجى من مساعدتهم لنا على تعميم نشره . فأما إمام أهل السنة فانه أبدى لنا عزمه على ذلك وكانت نسخ الطبعة الاولى قد نفذت ، وأما امام العترة والشيعة الزيدية فانه عند مارآه كتب الينا يستأذننا بطبعه في اليمن لتعميم نشره فيه ، فكتبنا اليه بأننا سنعيد طبعه منقحاً من يدآ فيه ، فكتب ثانياً ما يراه القراء في أول التقارير

وقد كان بادر الى المساعدة على نشره من اول وهلة صاحب السعادة السري عزيز عزت باشا المصري فتبرع بثلاثين جنيها وزعناها نسخا كثيرة في اوربة

وغيرها ، وتبرع صاحب السعادة محمد صادق المجدي وزير الافغان المفوض في مصر بمائة نسخة منه المؤتمر الاسلامي في القدس ليوزعها رئيسه على فروعه في الافطار وتبرع آخرون بعشرات من النسخ على من يظنون انتفاعهم بالكتاب .
دع من انتدبوا للترغيب فيه ، ويعه لمن يشتره ، احتسابا لوجه الله عز وجل
وأما التقارير فقد نشرنا طائفة مما حفظناه منها لبيان آراء المسلمين في الكتاب من الطبقات المختلفة ، وأحسنهم رأيا من بين أنه فيض من عين معين القرآن ، اشتدت حاجة الناس اليه في هذا الزمان ، وأنه خير ما يدعى به إلى الاسلام ، وما يدحض شبهات المعطلين الماديين ، والملاحدة المتفرنجين ، وما يفند تضليل دعاة التنصير ، ويفضح ما يلبسون من شقوف الرياء والتزوير ، وما يلبسون على غيرهم من إفك وتغرير . فقد اقيمت عليهم الحجة في هذا الكتاب بأنه لا يمكن اثبات أصل دينهم ، ولا معجزات نبيهم (لاربيهم) الا بثبوت هذا القرآن ، وانه وحي من الرحمن

وأما الذين استأذنونا بترجمته باللغات المختلفة فقد أذنا لهم كلهم لأول وهلة ، ولم نلبث أن علمنا ان أحدمترجميه باللغة الاوردية (الهندية) قد أتم عمله ، وهو تلميذنا الشيخ عبد الرزاق المليح آبادي مؤسس جريدة (هند الجديد) في كلكتة ، وهو ينتظر صدور الطبعة الثانية ليدخل في ترجمته ما مجده من تنقيح وزيادة ، وإن مترجما آخر بها ينشر ترجمته في بعض الصحف تعجيلا للفائدة

وكذلك يترجمه آخران باللغة الصينية (أحدهما) الشيخ بدر الدين الصيني المدرس في دار العلوم الندوية في لكهنؤ (الهند) وصاحب المقالات المشهورة في الصحف العربية . (وثانيهما) صاحب مجلة ضياء الهلال ، وهو يدرس تفسير المنار في بلده (قبودان) وقد كتب الينا يسألنا عن كلم في الكتاين ، وسنرسل الى كل منهما هذه الطبعة الجديدة ليعتمدا عليها

وقد استأنيت من يريد ترجمته بالفارسية ، لاجل وزارة المعارف الافغانية . ولا أدري ما فعل من أذنت له بالترجمة التركية ، ولا مدير المجلة الاسلامية في لندن (رفيو اسلاميك) وقد أذنت له بترجمته باللغة الانكليزية ونشردها ، بيد انني سأرسل اليهم هذه الطبعة الثانية وأدع لهم الخيار في إيثارها على الاولى أو الاكتفاء بها كنت قبل العلم بخبر هؤلاء المترجمين عازما على تغيير وتبديل في تنقيح مسائل الكتاب وترتيبه وفصوله والزيادة فيه ، ثم خشيت أن يشق عليهم تغيير الترجمة بالتبع للتغيير في الاصل ، أو الاضطرار إلى استئناف العمل ، ولهذا وعدت بما وعدت به في بيان امتيازات هذه الطبعة من فاتحتها (ص ٢١) ولكن رأيتني مضطرا إلى إخلاف هذا الموعد من ناحية الزيادة على الاصل في صلب الكتاب في كثير من المسائل المجلدة والموجزة بتفصيلها وإيضاحها

وأما الزيادات الكبيرة التي وعدت بحملها علاوات ملحقة بالكتاب فظلت ثابتا على وعدي بها ، ولما طال الكتاب بما زدته في هذه الطبعة حتى كاد يربو على ثلث الاصل ، اخترت أن أجعل الملحقات في جزء مستقل ، وقد ختمت الكتاب بدونها ، فهو قائم بنفسه مستغن في اثبات الوحي المحمدي واثبات النبوة به ، والتحدي بما جاء فيه ، وبناء الدعوة الى الاسلام عليه ، وانما تكون تلك الملحقات تعزيزا له ، وهذا بيان لما أشرت اليه ووعدت به منها . مع زيادة محمداً أن تتبعها غيرها

علاوات كتاب الوحي

(١) أنباء الغيب في القرآن ، وعلى لسان النبي عليه الصلاة والسلام ، مما ظهر صدقه في عصره ﷺ ومن بعده ، ولا يزال يظهر منها ما يدل على صدقه ، حتى يأتي أمر الله عز وجل

(٢) سنن الله في الخلق ونظام القضاء والقدر ، وقد أتينافي هذه الطبعة بالاصل فيها

(٣) سنن الله تعالى في نظام الاجتماع ، وقد ألمنا بها بعض الامام

- (٤) المسائل العلمية والفلكية التي كانت مجهولة في عصر التنزيل وعرفت بعده بقرون، وقد نوهنا بها مراراً أوضحها ما في خاتمة الكتاب
- (٥) الامور الصحية التي كانت مجهولة في جملتها أو تفصيلها وكشفها الطب
- (٦) أسرار العبادات وحكم التشريع التي لا يعرف قدرها إلا بالنبوغ في علوم كثيرة منها علم النفس وعلم الحياة وعلم الاخلاق وعلم الطب وعلم الاجتماع
- (٧) خلاصة مجملة من سيرته ﷺ وأخلاقه وآدابه وشمائله، الدالة على نبوته
- (٨) خلاصة من سيرة الخلفاء الراشدين، وأمراء الصحابة وقوادهم الفاتحين، وهدى السلف الصالحين، المجلية لاصلاح الدين وتفضيله على غيره
- (٩) الدلائل الثمانية التي حذفها من خاتمة الطبعة الاولى المؤكدة لكون القرآن من عند الله تعالى مع زيادة عليها
- (١٠) الكلام في هذين من عارض القرآن من المتأخرين الذين ادعوا النبوة والالوهية كالباب والبهاء الايرانيين وميرزا غلام أحمد القادياني الهندي وايراد الشواهد من وحيم الشيطاني الذي يضحك الثكلى
- لولا ان أكثر الناس يفهمون من التفصيل بالاسهاب، مالا يفهمون من الاجمال في الايجاز، لا كتفوا منا في إثبات الوحي المحمدى بما ذكرناه من المطالب الاربع الاولى، إذ الغرض من ذكرها الدلالة على انها مما يعلم علم محمد ﷺ الكسبي، واستعداده العقلي، ويستحيل أن تكون من وحي الهامه النفسي، ولكنهم طالبونا بها، وصرح بعضهم بأننا أغفلناها
- ولولا أن هذا الكتاب وضع في قالب الاختصار لفصلنا فيه هذه المطالب، ونظمناه في سلك ماسميناه المقاصد، ولدنا تلك المقاصد مدا، وأكثرناها عدا، فجعلنا الاول منها ثلاثا، والخامس بعدد جملة عشر،
- وحينئذ يمكن بسط علوم القرآن الدالة على انه من عند الله في عدة أسفار كما صرحنا بذلك في الصفحة ١٢٨ منه

هذا واتي قد بينت في آخر مقدمة الطبعة الاولى (ص ١١) أنني كتبت في أوقات متفرقة ، وزمن هم وعسرة ، وأشرت إلى ما أراه يفترق إلى الإصلاح من عبارته ، ككثرة الاحالة فيه على تفسير المنار لأنه كان في الاصل استطرادا فيه ، وإلى بعض التكرار فيه

وقضى الله أن أعيد طبعه في زمن قصير ، وعسير غير يسير ، وقد وقفني فيه بفضل الحذف كثير من الاحالات غير الضرورية منه . وجعل أكثر ما بقي منها في حواشيه حتى لا تشغل قارئه ، وأما أكثر ما يراه في صلبه من الاحالات ، فهو على ما سبق فيه لا على ما في غيره

وأما ما في الطبعة الاولى من التكرار ، فقد أشرت في مقدمتها إلى أن منه ما هو مقصود لذاته اقتداء بالقرآن ، وهذا الصنف منه قد أبقيته وزدت فيه ، وقد حذفت من خاتمته مقدمات إثبات الوحي المحمدي الست ، وما يتلوها من الدلائل الثمانية على كون هذا القرآن من كلام الله ووحيه ، وخلاصة المقاصد العشر من علومه الاصلاحية ، لأن أكثر ما أورده منها يختصر مما قبله ، وقد استغني في هذه الطبعة عن أكثره

هذا واتي أصدرت الطبعة الاولى من هذا الكتاب في يوم ذكرى مولد النبي ﷺ من هذا العام (١٣٥٢) على المشهور بين الناس^(١) لتذكيرهم فيه بأظهر الدلائل على نبوته ، ودحض أقوى الشبهات على دعوته ، فيكون خير ما يدكرون من نعمة الله تعالى به . وها أنا ذا أصدر الطبعة الثانية منه في يوم عرفة من هذه السنة نفسها تذكيرا بما نزل عليه فيه من قول الله عز وجل (٥ : ٣) الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا) لأن موضوع الكتاب بيان إكمال تعالى لهذا الدين ، وإتمام نعمته على العالمين ، واستمرار حاجة جميع البشر إلى هدايته أبد الآبدين ، والحمد لله رب العالمين

(١) هو الثاني عشر من ربيع الاول ، والاربع عند المحدثين انه التاسع أو العاشر منه

A decorative rectangular border composed of repeating floral motifs, enclosing the title text.

تقار يظ الـكتاب

تقاريف كتاب الوحي المحمدي

قد حبذ الفضلاء هذا الكتاب أحسن التحميد، وقرضوه بالامتاز من التقريض، وشكروا لنا ودعوا، فمن الشكر لله تعالى وللمحسنين من الناس، والتعاون على إذاعة دعوة الاسلام، أن ننشر أهم ما حفظناه مما كتب إلينا، وما نشر في الصحف التي اطلعنا عليها

ونبدأ بكتابين كريمين، للملكي الاسلام الكبيرين، الامامين الجليلين :
إمام العترة الزيدية يحيى بن حميد الدين ملك اليمن اليمون، وإمام أهل السنة والجماعة عبدالعزيز بن عبد الرحمن الفيصل ملك المملكة العربية السعودية، وخادم الحرمين الشريفين، أدام الله توفيقهما، وأعز العرب والاسلام باتفاقهما وتعاونهما، وإننا ننشرهما بحسب تاريخ ورودهما

﴿ كتاب الامام يحيى ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الختم

(أمير المؤمنين ، المتوكل على الله رب العالمين ، الامام يحيى حميد الدين)

إلى السيد العلامة محمد رشيد رضا صاحب المنار حفظه الله

لقد ظفرت العيون بما تشميه ، وحظيت من الاماني بما تبتغيه ، بعد ارسال رائد لحظها ، وتمتعها بالوموق على تلك الرياض الانيقة ، وينايع التحقيق الغزيرة ، اتى أودعتموها ذلكم المجموع ، النفيس المطبوع ، المسمى (بالوحي المحمدي) فانه والحق يقال وحيد في بابه موضوعا وتنسيقا ، واستدللا وسياقا ، يهدي إلى القلوب ، ما يرفع عنها الرين والكروب ، ويتحف المطالع ، بما تستلذه السامع ، ويستطيعه

القاري. والسامع، وتلج له الصدور، وتنبعث من حقائقه أشعة النور، فجزاك الله خيراً على هذه الخدمة الدينية التي نراها من العمل الصالح، والمتجر الراجح، والقصد الناجح، وأنا لتعميم الانتفاع به، نطلب منكم أن ترسلوا إلينا من نسخته المصححة أخيراً مائة نسخة على حسابنا، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

في ٢١ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٢

❦ كتاب جلالة الملك عبد العزيز ❦

(بسم الله الرحمن الرحيم)

من عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل

إلى حضرة الاخ المكرم السيد محمد رشيد رضا حفظه الله تعالى

السلام عليكم ورحمة الله . أما بعد فقد تلقينا كتابكم الكريم ، المؤرخ في ٢٣ من رمضان سنة ١٣٥٢ وأحطنا علماً بما ذكرتم بارك الله فيكم . لقد اطعنا على كتابكم (الوحي المحمدي) فسرنا اهتمامكم باخراجه للناس ، وقيامكم بما فرض الله من الدعوة إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة ، في زمن تكاثرت فيه الشبهات ممن ران الشيطان على قلوبهم فصدهم عن سبيل الله حتى ضلوا وأضلوا . فكان كتابكم من أبلغ القول في اظهار حجة الله القائمة على عباده ، يدعو من كان له قلب إلى دين الحق ، ويبين للجاحد الملحد بطلان حجته . فجزاكم الله عن الاسلام والمسلمين خيراً . وأخذ بيدكم في تأييد الدعوة الاسلامية . ونشر عقائد السلف الصالح . ووقفنا وإياكم لما فيه نصر لدينه . وإعلاء لكلمته . انه على كل شيء قدير . والسلام .

في ٤ من ذي القعدة سنة ١٣٥٢ (الختم)

﴿ كلمة من كتاب لإمام طائفة الاباضية الهمام ﴾

كنا أهدينا نسخة من كتاب الوحي الحمدي إلى هذا الامام الجليل مع كتاب خاص فناءنا كتاب منه (من نزوي - عمان) بعد جمع ماتقدم وما بعده قبل طبعه قال في أوله بعد البسملة

من إمام المسلمين محمد بن عبد الله الخليلي
إلى حضرة العلامة المحقق أخينا السيد محمد رشيد رضا المحترم
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أما بعد فإن رأيتم في إبطائنا في الرد على كتابكم الكريم المرسل معه مؤلفكم فذاك لأعن إهمال وعدم تقدير ، وان لكم ولائناكم من إخواننا علماء الدين الحنيف منزلة كبرى في القلب لا يحلها سواهم ... (ثم قال بعد بيان العذر)
« أما مؤلفكم العظيم فهو في غنى عن التقريض والمدح ، واءجانبنا به لا يحد ، ولا شك أنه الحجة الدامغة والقول المتين ، لمن لا يدين بهذا الدين القويم ، وفقكم الله لخدمة الاسلام والمسلمين ، وبارك الله فيما تنوون وتقصدون ، وسلام الله عليكم »
(الامضاء)

كتاب صاحب الفضيلة الاستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي

شيخ الجامع الازهر بالامس ، ورئيس المحكمة الشرعية من قبل
ورئيس جماعة الدفاع عن الاسلام اليوم

صديقي السيد الجليل الاستاذ محمد رشيد رضا

أستطيع بعد أن فرغت من قراءة كتابكم (الوحي الحمدي) أن أقول
إنكم وفقتم لفتح جديد في الدعوة إلى الدين الاسلامي القويم ، فقد عرضتم خلاصته
من ينابيع الصافية عرضا قل أن يتيسر إلا لفرع من فروع الشجرة النبوية المباركة ،
وقد استطعتم أن توفقوا بين الدين والعلم توفيقا لا يقوي عليه إلا العلماء المؤمنون ،
فجزاكم الله عن الاسلام أحسن ما يجازى به المجاهدون ، ولكم مني تحية الاخاء
والسلام عليكم ورحمة الله
محمد مصطفى المراغي

﴿ تقريظ الاستاذ الفاضل صاحب المصنفات المفيدة ﴾

(الشيخ محمد أحمد العدوي الازهري)

كتاب جديد أخرجه الاستاذ الكبير صاحب المنار ، وآية كبرى من آيات الله في التأليف ، وحسنة من حسنات صاحب المنار (وحسناته كثيرة) تقرأها السفر فتري فيه حججا دامغة ، واحاطة بمقاصد الاسلام ، ودفعاً لشبه يورده أعداء الحق ، واقد يخيل اليك أثناء دراستك للكتاب أن صاحبه لمس أمراض النفوس فوضع لها علاجها ، كما تراه قد أقام الحجة من العقل والنقل على الملحد من رجال العلم ولا سيما الماديين منهم ، وإنه لكتاب يحتاجه جميع الطبقات ، وحاج الذين يهمهم نشر الدين والدعوة اليه أشد ، أفاض في مباحث الوحي ، وأقام الأدل على أن ذلك الوحي لم يكن نابعا من نفس محمد ﷺ كما زعم المسيو درمنغا في كتابه « حياة محمد » وغيره . وإنما هو نازل من السماء

ليس بالمعجب أن نرى لصاحب المنار هذه المعجزة العلمية فإن البحوث الدينية والتحقيقات العلمية قد امتزجت بلحمه ودمه ، حتى أصبحت الكتابة فيها هيئة عليه لينه له ، يأخذ منك العجب منتهاه حين تجلس اليه فيحدثك وتحدثه . وقلمه يسيل بتحرير مسائل في الدين أقل ما يحتاج الكاتب اليه فيها ان ينقطع عن العالم ليجمع شتات فكره رجاء أن يلم بأطراف مسألة منها

وهذه آثاره في تفسير كتاب الله تعالى ناطقة بنبوغه وتفوقه ، وأنه بز علماء التفسير جميعهم في إبراز القرآن الكريم للناس معجزة دائمة ، وهداية عامة شاملة ، وسعادة لهم في دينهم ودينامهم ، تقرأ طائفة من التفسير فتحس في خلال القراءة أن من ورائك سوطا من أسواط الحق يسوقك إلى الفضيلة ويردك عن الرذيلة ، وأن صلتك بكتاب الله تعالى وتعلقك به في هدايته وفقه معانيه هي أغلى شيء في هذه الحياة ، وأعظم رزق ساقه الله إليك ، كما تحس في ذلك التفسير أنك في دائرة من دوائر المعارف الالهية الكبرى وجدير بأستاذ له هذا الاثر أن يطلع على الناس بأمثال الوحي المحمدي مما يغذي أرواحهم ، وينمي معارفهم ، دع ما وراء ذلك كله من قوة في البيان ،

ورواء في الاسلوب ، وتنسيق لطرق الاستدلال ، ودقة في المأخذ، كل ذلك تجدده في مؤلفات صاحب المنار ، وتراه أوضح وأجلى في [كتاب الوحي المحمدي] وما سبقه من كتاب (نداء للجنس ، اللطيف وحقوق المرأة في الاسلام)

وكل ما نتمناه أن يُلهم الناس رشدهم ، ويعرفوا للعاملين قدرهم ، فيكافئوهم على هذه الجهودات بمطالعة كتبهم ، وان ينسأ الله في أجل صاحب المنار حتى يتم تفسيره الذي خدم فيه احد عشر جزءا من أجزاء القرآن الكريم ، وان يمدد بروح منه ويبعد عنه مشاغل الحياة حتى يعيش موفور الصحة هادئ البال

وأن يستجيب فيه دعاء الاستاذ الامام وهو يقول في آخر حياته
 فيارب ان قدرت رُجعى قريبة الى عالم الارواح وانقض خاتم
 فبارك على الاسلام وارزقه مرشدا رشيدا يضيء النهج والليل قائم
 ويخرج وحي الله للناس عاريا من الرأى والتأويل يهدي ويلهم

(كلمة من كتاب ، للاستاذ الكريم صاحب الامضاء)

لئن اجتمع علماءنا الرسميون على أن يأتوا بمثل هذا الكتاب لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا

أطال الله حياتك يا مرشد الحيران . وباخليفة حكيم الاسلام . حتي تصير الامة الاسلامية (رشيدية) اسما ولحا ودما إن شاء الله ، رغم أنف الحاسدين امثال صاحب سجود الشمس تحت العرش . وأعوذ بك ربي أن أكون من الجاهلين .
 يا صاحب الفضيله

قرأت كتابكم « انوحي المحمدي » إلى آخره فاذا به فيض من نور الله ، وقبس من ضيائه ، يجب على كل مسلم متدين أن يقرأه إذ أنه خير كتاب من نوعه أُنْف في هذا الموضوع ، بل يجب على كل مسلم غيور أن يعمل على ذبوعه وانتشاره بين طبقات الامة حتي يعم نفعه . وهذا ما عاهدت الله عليه خدمة للدين وابتغاء وجهه الكريم .
 (احمد احمد القصير)

في كفر المندره

(طائفة مما كتبه اليناعناء ديار الشام الاعلام ، أند الله بهم الاسلام)

— ١ —

للاستاذ العلامة الشيخ محمد بهجة البيطار (١)

إذا أردت أن تعرف قيمة تفسير المنار للقرآن الحكيم ، وأن تتحقق أنه أفضل تفسير للمسلمين في هذا العصر يقوم به أقدرهم عليه ، وأولاهم به ، وأنه لا يسد مسده تفسير آخر ، لأنه يستمد من قوى هذا العصر وحقائقه ، وبدفع ما تجدد من الشبهات والشكوك ، ويقم الأدلة القاطعة ، ويورد الشواهد الحسية والتاريخية على أن الحكومة الإسلامية هي أفضل حكومة في العالم كله .

إذا شافك ذلك وأردت أن تعرفه يقيناً ، فاقراً كتاب (الوحي المحمدي) للسيد الامام علامة العصر الأستاذ السيد محمد رشيد رضا منشئي المنار ومؤلف تفسيره ، فهو نموذج من ذلك التفسير العجيب الذي صدر منه عشرة مجلدات ضخمة إلى الآن ، فسر بها ثلث القرآن الحكيم ، وكتاب (الوحي المحمدي) منها هو تفسير لقوله تعالى (أكلن للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم ؟) في أول يونس من الجزء الحادي عشر (٢)

ولعمر الحق إنه أتى في هذا الكتاب بالمعجب العجيب ، فقد أثبت نبوة محمد ﷺ بالبراهين العقلية والعلمية القاهرة ، وأورد الشواهد التاريخية والحسية الكثيرة ورد جميع ضلالات بني آدم عنها ، لاسيما شبهات فلاسفة الافرنج ، ومطاعن الملحدين وخرافات المشعوذين .

وقد كان بعض فلاسفة الغرب كتوماس ودينيه ودرمنغام وأمثالهم كتبوا

(١) هذا الأستاذ جامع بين العلم الصحيح والعمل به والدعوة اليه قولاً وكتابة وخطابة ومناظرة وبذلاً مما يملك من مال قليل فقد علمنا انه اشترى من كتاب الوحي المحمدي نسخاً كثيرة من دمشق ووزعها على من يظن بهم الفهم والانتفاع ، حتى من ملاحدة الأغنياء ، فنسأل الله أن يخلقه عليه ويجزيه خير الجزاء

(٢) سيصدر الجزء الحادي عشر في المحرم من سنة ١٣٥٣ ان شاء الله تعالى

في السيرة النبوية شيئاً حسناً، وبسطوا لأنهم حقائق منها، لولاهم لطمسها الجهل والتعصب غير أن هؤلاء قد عرضت لهم شبهات وأوهام، فحسبوا الوحي الإلهي النبوي عموماً والمحمدي منه خصوصاً، ضرباً من الاستعداد النفسي . والفيض الذاتي . أي أنه تابع من قلب الرسول ﷺ غير نازل من عند الله .

وقد يسط السيد الامام شبهتهم هذه . وأبرزها بأوسع معانيها . وصورها بأجلى صورها . ثم كر عليها بالنقض والابطال . وبين فسادها واستحالتها من عشرة وجوه لا يحتمل الرد ولا المراء .

ثم عقد فصولاً في إعجاز القرآن بأسلوبه وبلاغته . وقوة تأثيره وهدايته . بما لم يؤثر مثله أي كتاب آخر . ثم أفرد مقاصد القرآن الدينية والمدنية لرفع مستوى الانسانية . فشرح أصول السعادة الخالدة . ومطالب الحياة الراقية . ودل على مقاصد الاسلام العالمة . التي لا يطمح العقل البشري ولا الارتقاء الدني إلى أسمي منها أبداً . ولقد شرح السيد الامام معجزات الرسل عليهم أفضل الصلاة والسلام شرحاً بليغاً يوقف من تدبره على سر اصطفائهم واجتباؤهم ، وكونهم صفوة البشر وأكملهم وأفضلهم وأولاهم بحمل أمانة التشريع ، والقيام بمهمة التبليغ « الله أعلم حيث يجعل رسالته » ثم ان من أمعن النظر فيما كتبه عن المعجزات نفسها ، وما أقامه من ميزان العدل والنصفة بينها ، أدرك ان ليس فيما ظهر على يد المسيح عيسى بن مريم منها ما يعلو به عن مقام النبوة والرسالة أبداً (ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام) ثم أدرك ان القرآن هو الآية الالهية الكبرى ، والمعجزة الدينية العظمى ، بل هو معجزة المعجزات ، وآية الآيات ، ولولاه لانمحي رسم تلك الخوارق من الازهان .

ألا ليت دعاة النصرانية المبشرين الذين يسعون لتنصير مسلمي الارض وهم مئات الملايين ، ويبغون زوال القرآن (وقد تولى الله حفظه) من الوجود ، ليتهم يعلمون ان أمة القرآن التي دانت به وأذعنت لحكمه ، ولم تلتفت إلى شيء غيره ، قد شهدت ببراءة العذراء البتول ، وابنها المسيح الرسول ، من مفتريات أعدائهم

اليهود ، وآمنت عن طريق القرآن وحده بكل ماورد من معجزات الرسل وآياتهم ، وان القرآن لو زال لا قدر الله تعالى من الارض فان أمة القرآن لا تؤمن لأحد بعد (الوحي المحمدي) بنبوة ولا رسالة . ولا تعتقد بنزول وحي من السماء على أحد من الانبياء ، فإيمانهم بالقرآن إيمان بسائر كتب الله ، وتصديقهم بخاتم النبيين تصديق بسائر رسل الله ، وكفرهم بالقرآن كفر بجميع الكتب والرسل ، فأبي الفريقين من المؤمنين والكافرين أحق بالامن إن كنتم تعلمون ؟ (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الامن وهم مهتدون)

وانك لتجد هذه الحقائق كلها وأضماؤها واضحة في كتاب (الوحي المحمدي) واني لمعترف باني عاجز عن وصفه ، وبأنني لم أحط علما بكنهه ، ولكني أختم كلمتي بما قاله أحد خطباء الشرق الاستاذ يوسف اصطفتان الشهير في المؤلف نفسه على إثر محاضرة كان ألقاها السيد الامام بدمشق الشام في عهد الحكومة العربية . قال لافض فوه : إن كان لهذا الرجل (يعني السيد الامام) نظير في رجال الدين في الغرب ، فنحن لانستحق الحياة أو قال الاستقلال في الشرق

ثم ختم الكتاب بدعوة الشعوب المتعدنة إلى ما ينجيهم من غوائل المدنية الفاسدة . ويمتنعهم في ظلال الاسلام والسلام

والكتاب قد ترجم إلى لغات كثيرة شرقية وغربية وتقرر تدريسه في بعض الممالك الاسلامية . أفليس العرب وفيهم أنزل القرآن ، ومنهم أرسل الرسول ﷺ أولى بذلك ؟ بلى ، وان قلبي ليعجز عن الاحاطة بوصف كتاب (الوحي المحمدي) وحسبي أن أوجه نظر كل من يهمله أمر دينه ولا سيما شبابنا المثقف وطلاب المدارس العالية أن يجمعوه عمدتهم في دراستهم ودروس قراءتهم ، فهو يغني عن كل كتاب في موضوعه ، ولا يغني عنه غيره .

- ٢ -

(للامامة الاستاذ الشيخ محمد ظليمان السكيلائي)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مستوجب الحمد ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الداعي الى الخير الهادي الى الرشد ، وآله وصحبه وتابعيه وحزبه . أما بعد فقد من الله تعالى علي بالاطلاع على كتاب الوحي المحمدي الذي أخرجه للناس العلامة الكبير والاستاذ الشهير السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار الاغر فأدهشني مارأيت من بدائع ذلك البناء الشامخ ، والطود الراسخ ، وما حواه من الآيات البينات ، ومعجزات العلم الباهرات ، واني لا أريد أن أتوسع في تقريظ هذا الكتاب ، وان أبالغ في مدحه كما يفعله كثير من العلماء والكتاب ، ولكني أريد أن أقول كلمتي عما حواه من الحقائق التي أنى بها المؤلف حفظه الله على ضوء العلم فأقول :

انه لما أخبرني أخي وصديقي العلامة الاستاذ الشيخ محمد بهجة البيطار أحد علماء دمشق بصدور هذا الكتاب ، وأخذ يصف لي ما شتمل عليه من الحقائق العلمية والاسلوب الجذاب ، داخلني الريب فيما قال ، وعددت ذلك غلوآ في الدعاية أو ضرباً من الخيال ، ولكني ماكدت أتناوله وأتصفح عباراته ، وأندوق طلاوة أسلوبه الحكيم ، حتى انقلب ذلك الريب يقينا ، وأصبح عندي ذلك الخيال حقيقة ملموسة ، واذا بهذا السفر يتدفق حججا استمدها المؤلف [أدام الله ارشاده] من نور القرآن ، واقبسها من مشكاة العرفان ، فكأنه وحي من الوحي ، فقلت (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء)

جاء هذا الكتاب في وقت اشتدت الحاجة إلى مثله ، وتطاوت الاعناق الى وجود مؤلف جامع على شكله ، إذ نشأ اليوم الجهل وكثر الفساد ، وهجمت على المؤمنين جيوش الزيف والاحاد ، فكادت تبحح الفضيلة ، وتقضي على البشرية بسموم الرذيلة ، ومجثت الاعتقاد بوجود الخالق ، وتقذفه من حائق

فجاء الاستاذ المؤاف يدعو الامم أجمع إلى هداية القرآن بالحكمة والموعظة الحسنة، يخاطب كل أمة على قدر عقولها ، وينوع الاساليب الحكيمة بتقريب الحق إلى افهامها، ليمحو ظلمة شكوكها وأوهامها ، وليكون ذلك أوقم في النفوس وأبلغ في تأثير الحجة

أنا اليوم في عصر كثر فيه طلاب العلوم الكونية ، فلا يذعنون إلا لما كان مؤسسا على الحقائق العلمية ، فهاهم اليوم قد وجدوا ضالتهم المنشودة ، وبغيتهم المقصودة ، فهو كتر جان حكيم يخاطب كل واحد منهم بلغته، ويناجي كل فريق على قدر عقله ودرجة استعداده ومعرفته، فما أجدر طلاب العلوم الكونية، وعشاق الحقائق في كل أمة أن يمكفوا على اقنائه ، ودراسته وتدبر آياته ، ليستضيئوا بنور مشكاته ، فينالو السعادتين ، ويفوزوا بالنعمتين

أما علماء الاسلام فانهم اذا ولوا وجوههم شطره، وقرءوه لآخوانهم، ازدادوا إيمانا مع إيمانهم ، وكان لهم منه سلاح جديد يدفعون به هجمات أعداء الاسلام من المبشرين والمللحين ، ويدحضون به دعاويهم الباطلة ، وكان لهم منه أيضا مادة غزيرة يستعينون بها على الدعوة الى الله

وانا أرجو من الاستاذ [أدام الله نفعه] أن يسعى في ترجمة هذا الكتاب القيم الى اللغات الاجنبية ، من شرقية وغربية ، وفي مقدمتها اللغة الانجليزية، لانها أكثر انتشارا في الارض ، وليطالع عليه الامم التي لم تقف على حقيقة الاسلام حتى اليوم كالامتين اليابانية والاميركية ، وليكون عونا للجمعية الدعوة والارشاد الاسلامية في طوكيو عاصمة اليابان ، لتفهم القوم حقيقة الاسلام ، وانه لم يكن ديناً تعبدياً فحسب، بل هو دين اجتماعي ، جاء لسعادة البشر ، جمع بين خيرى الدنيا والآخرة والله يهدي من يشاء إلى الحق وإلى طريق مستقيم

محمد علي ظليان الكيلاني

دمشق

- ٣ -

(للعلامة الاستاذ الشيخ محمد مسلم الغنيمي الميداني)

نور سطع في سماء جزيرة العرب منذ ثلاثة عشر قرناً فأضاء أرجاء الكون
الجدير بأن يكون موضع الإعجاب وتوجه الانظار ، وإن جزيرة العرب في ذلك
الزمن كانت مجدبة من كل علم وفن لا يرى في سماها بارقة نور
أخذ هذا النور يتلألأ في سماء الجزيرة وما تزيده الايام إلا ضياء وامتداداً ،
والمعلوم أن مصدر هذا النور العظيم هو ذاك القرآن الحكيم ، والنبي الكريم ،
العربي الصميم ، محمد بن عبدالله عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم
ولقد شهد عظماء الافرنجة وفلاسفتهم كدروي وايرفينج وسديو واسحاق
طيلر وغوستاف وتولستوي وتومس كارليل وهنري كاستري وغيرهم أن المدينة
الغربية مقتبسة من الحضارة الاسلامية ، ولو أخذنا بنسب أقوالهم لطلال بنا المقام
وخرجنا عن الموضوع

ومن كتب في السيرة النبوية من مفكري الغرب درمنغام ومونتيه وغيرهما
فوصفوا النبي ﷺ بأنه كان محباً للخلاء والعزلة يفكر في طريق النجاة من هذه
التحازي والضلالات التي عم ظلامها البشر ، ولكنهم حسبوا الكتاب الذي أنزل
عليه ﷺ من الوحي النفسي والالهام الذاتي: أي أنه عليه الصلاة والسلام صفت
سريره على رموس الهضاب وبين الشعاب في غار حراء ، فأوحى اليه نفسه كتاباً
أرشد الامم وجميع الشعوب بتعاليمه كما ذكر مونتيه في مقدمة ترجمته للقرآن الكريم
بعد ذكره لأنبياء بني اسرائيل فقال : فتحدث فيه (أي الفكرة الدينية) كما
كانت تحدث فيهم ذلك الالهام النفسي

فهذا أقصى ماوصلت اليه أفكار فلاسفة الغرب في الوحي الالهي ، لذلك
قام علامة الاسلام السيد الامام محمد رشيد رضا صاحب المنار الاغر ، فكشف
الثام عن حقيقة الوحي وماهيته وكيفيته ، وأبطل مزاعمهم وردشبهاتهم بأدلة عقلية

جبراهين حسية مفسراً قوله تعالى (أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم)
 كتاب لم ينسج على منواله، ولم يسبق المؤلف مثله ، فهو كتاب لا يستغنى عنه
 المسلم ولا غير المسلم ، فالمسلم يعلم كيف يقيم الحجّة على صحة دينه ، ونبوة نبيه
 . وكتاب ربه ، وغير المسلمين يرون الفرق واضحة بين الوحي السماوي والالهام
 . النفسي ، فجزى الله السيد المؤلف خيراً ، وأدامه للمسلمين ذخراً آمين
 دمشق محمد مسلم الغنيمي الميداني

— ٤ —

(للطبيب النطاسي ، والعالم المصري ، الدكتور سعد عيد عراقي)

لقد تقهر البشر في هذا العصر في الاخلاق والآداب ، ومحقت الفضيلة ،
 وحلت مكانها الرذيلة ، التي انحطت به الى أقصى درجات البهيمية ، وما ذلك الا
 لان تقدم الحضارة والعلوم الكونية كان مادياً ، وكان البشر آليات ، متجردين عن الروح
 في كل حرركاته وسكناته ، ومتى سلب الشيء روحه كان باهتاً لالذّة فيه ولا طعم ،
 وهذا مادعاهم أن يسرفوا في ألوان الرذائل وأشكالها علمهم يجدون بهامعة جديدة
 تنسبهم آلام هذه الحياة المادية ، وهذه الحضارة الزائفة ، وما كان ذلك الا
 ليزيدهم شقاء وبلاء !

لئن فكر بعض عقلاء أوربا وغيرهم في اللجوء الى الدين ، وبأنه العلاج الوحيد
 لأدواء هذه الحضارة ، وتمنوا لو يبعث في الشرق أو في الغرب نبي جديد يصلح
 بهدايته فسادها ، فقد نادى منادي (الوحي المحمدي) بأن حي على الفلاح ها إن
 محمداً ﷺ خاتم النبيين ، وها إن الاسلام دين البشرية والسلام كفيل إن اتبعتموه
 أن يهديكم صراطاً مستقيماً ، وأبان فضائل الدين الاسلامي ومزاياه على ما جاء في
 الاديان الاخرى ، وما حواه من التشريع الديني والمدني ، وأماط اللثام عن الحجب
 التي بين الافرنج وحقائق الاسلام وعددها : فن عداوة الكنيسة ودعايتها المشوهة
 الباطلة ، الى كذب رجال السياسة وطمعهم في استعباد الشعوب - شعوب الاسلام -
 الى سوء حال هؤلاء في القرون الاخيرة وجهلهم حقيقة دينهم وأمور دنياهم

مع أن الغاية الأساسية لهذا الكتاب دحض مزاعم درمنغام وغيره من الأفرنج الذين يدعون أن الوحي المحمدي وحي نفسي لا إلهي ، ومع أنه أقاض في الموضوع ، وأيد بالبراهين العقلية والادلة القطعية وبمعجزة القرآن المجيد فساد مزعمهم هذا ، وأن الوحي المحمدي أثبت وأكمل وأعم من كل وحي جاء قبله - فقد جاء هذا الكتاب من مقدمته الى خاتمته جامعا شاملا لم يترك شاردة أو واردة تعلي كلمة الله تعالى وتنصر الحق المبين الا وذكرها ، كما وان هذا السفر النفيس يروي غليل من كان للحقيقة من المستطلعين ، فقد عرف النبوة وأبان الفوارق بين المعجزات والكرامات ، وشرح مقاصد القرآن المجيد شرحا دقيقا : من دينية واجتماعية وسياسية ومالية [وأستاذ أن أذكره بالقواعد الصحية وهي كثيرة]

والخلاصة أن هذا الكتاب قد جمع وشمل ما في الاسلام من حكم ، وقد وفي الموضوع حقه ، بأن قدمه للجمعيات الاسلامية في العالم داعيا رجالها الى ترجمته الى لغاتهم لتكون فائدته أعم . وقد دعا في خاتمته شعوب المدينة الى الاسلام ، ودين الانسانية والسلام ، لانقاذ البشر من هذا الشقاء العام

ومن جميل ما قاله لهم في دعوته هذه « قد بينا لكم أيها العلماء الاحرار بطلان ما اخترعته عقول المنكرين لنبوة محمد ﷺ من العليل والآراء لجعل ما جاء به من العلم الإلهي الأعلى ، والتشريع المدني الأسمى ، والحكمة الادبية المثلى ، نابعا من استعداد الشخص ، وما اقتبسه من بيئته ومن أسفاره ، مع تصغيرهم لهذه المعارف جهلا أو تجاهلا ، وعلمتم أن بعض ما قالوه اقراء على التاريخ وان ما يصح منه عقيم لا ينتج ما ادعوه ، وعلمتم انه في جملته مخالف للعلم والفلسفة وطباع البشر ، وسنن الاجتماع ووقائع التاريخ . ونحن نتحداكم الآن بالاثيان بعلم أخرى لما عرضناه على أنظاركم من وحي الله تعالى وكتابه لمحمد ﷺ مع القطعي من تاريخه : علل يقبلها ميزان العقل المسمى بعلم المنطق ، فان لم تستطيعوا — ولن تستطيعوا — أن تأبونا بعلم تقبلها العقول ، وتؤيدها النقول ، فالواجب عليكم أن تؤمنوا بنبوة محمد

ﷺ ورسالته، وبكتابه المنزل عليه من عند الله تعالى لاصلاح البشر، وأن ثنوا
الدعوة إلى هذا الايمان ومعالجة أدواء الاجتماع الحاضرة به «
وما قاله حفظه الله «أما أنتم أيها العلماء المستقلو العقول والافكار فالمرجو منكم
أن تسمعووا وتبصروا، وأن تعملوا فتملوا، فإن كانت دعوة القرآن لم تبلغكم
حقيقتها الكافلة لاصلاح البشر على الوجه الصحيح الذي يحرك إلى النظر لأنكم
لم تبحثوا عنها بالاخلاص مع التجرد من التقاليد المسلسلة عندكم والاهواء، ولأن الاسلام
ليس له زعامة ولا جماعات تبث دعوته، ولا دولة تقيم أحكامه وتنفذ حضارته،
بل صار المسلمون في جملتهم حجة على الاسلام وحجابا دون نوره، فأرجو أن يكون
هذا البحث كافياً في إبلاغ الدعوة اليكم بشرطها المناسب لحال هذا العصر، فإن
ظهر لكم الحق فذلك مانبغي ونرجو لخير الانسانية كلها، وإن عرضت لكم شبهة
فيها فالمرجو من حبيكم للعالم، وحرصكم على استبانة الحق أن تشرحوها لتعرض عليكم
جوابنا عنها، والحقيقة بنت البحث كما تعلمون»

حقا قليلون وقليلون جداً (كذا) العلماء الذين يحذون حذو صاحب الفضيلة
العالم العلامة حجة الاسلام الاستاذ السيد رشيد رضا في إظهار الاسلام في صورته
الحقيقية العلمية العقلية، وقد أظهر في دعوته شعوب المدينة الى الاسلام، كما أثبت
في مقاصد القرآن المجيد، أن الاسلام دين البشرية والسلام، دين العقل والفكر،
دين العلم والحكمة، دين الحجة والبرهان

ان ظهور السفر النفيس (الوحي المحمدي) خدمة جلى أسداها للدين وللشريعة
واللحقيقة وللتاريخ، جديرة بأن تسطر له بأحرف من نور على صفحات الفخار
وليتفضل المؤلف الامام بقبول شكري

الدكتور سعد عيد عرابي
خريج جامعتي باريز وبرلين

دمشق

- ٥ -

(للعلامة الاستاذ الشيخ سعدي يس الدمشقي)

تكرم علامة دمشق الشام الشيخ محمد بهجة البيطار فأهداني كتاب (الوحي المحمدي) كما هو شأنه مع أصحابه ومعارفه في كل كتاب نفيس يصدر ، وذلك خلق طبعه الله عليه

وما ان اطلعت على هذا الكتاب العظيم العديم المثال حتى علمت علم اليقين ان كتاب الوحي المحمدي هو خير كتاب أخرج للناس في هذا العصر ، بل لم يؤلف قبله في باب نظيره ، ولقد ارتفع عن كل مؤلف كما ارتفع مؤلفه عالم الاسلام الامام الهمام السيد الشيخ محمد رشيد رضا عن كل عالم ومؤلف في هذا العصر . ولقد سما به وايم الله لمكان لا تطيف به السباع ولا تنحط عليه العقبان

تألمات شبه درمنقام التي بسطها المؤلف الامام قبل الرد عليها فاذا هي جبال تتصاغر أمامها دوايع الحجج ، وبحار زاخرة تكاد تفرق الحق في الحجج ، وتمتليء منها قلوب المؤمنين رعباً ، وما إن كر عليها ذلك الغضنفر الضرغام ، بسيف الحق الصمصام ، حتى ذات بعد جبروتها ، وصغرت بعد كبريائها ، كما ذل وصغر الثعلب ، بين يدي القسورة الأغلب ، وإذا بها ريش وهباء ، أمام زعزع نكباء (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق)

وكتاب الوحي المحمدي ليس رد مفتريات وإبطال أخطاء فحسب ، بل هو كتاب جمع فأوعى ، فيه إثبات ان القرآن وحي الله الذي أوحى به لرسوله محمد ﷺ النبي العربي الامي الهاشمي ، وانه آية الله الكبرى التي أيد بها دينه ونبيه ، وانه معجزة باقية ما بقي النيران ، وتعاقب الملوان ، وانه أنى بجميع ما يحتاجه البشر لمعادهم ومعاشهم وفيه إثبات نبوة محمد ﷺ بوجه خاص ونبوة جميع الانبياء بوجه عام ، أثبت ذلك بأدلة أنصع وأرفع من أدلة كتب دلائل النبوة ، اثباتا اعتمد على الادلة العلمية العقلية التي يدعن لها التحالف النصف والخصم المعاند . وفيه أصول العقائد الاسلامية بل فيه ملخص الشريعة الاسلامية : أحكامها وحكمها

وانك لتجد ان السيد الامام، أمتع الله بطول حياته المسلمين ونصر به الاسلام،
تجد أنه قد قسم الاصلاح الالهى للبشر في القرآن الى عشرة مقاصد، لا أحسب
أن مخالفا منصفاً يقرؤها متدبراً لها ويبقى عنده أدنى ريب أو أقل شبهة في أن
القرآن أعظم كتاب منزل، على أشرف نبي مرسل . دعم المؤلف الامام هذه المقاصد
بشواهد حية، وآيات ناطقة، وحجج ليست براهين ساطعة ولكنها شמוש طالعة،
ولن سمي كتاب فتح الباري قاموس السنة فكتاب الوحي المحمدي ترجمان القرآن
وليس هذا بكثير على سليل بيت النبوة ومن يمت لرسول الله ﷺ بنسب
النبوة . ولقد خطر لي وأنا أقرأ كتابه كلمة ذلك الاعرابي الذي سأل أبا جعفر
محمد بن علي بن سيدنا الحسين اذ سأله فقال: هل رأيت الله حين عبدته يا أبا جعفر؟
فقال : لم أكن لأعبد من لم أره . قال فكيف رأيته ؟ قال لم تره الابصار بمشاهدة
العيان، ورأته القلوب بمقائق الايمان لا يدرك بالحواس ولا يشبه بالناس . معروف
بالآيات، منعت بالعلامات، لا يجوز في القضايا، ذلك الله الذي لا اله الا هو .
فقال الاعرابي (الله أعلم حيث يجعل رسالته) ألا وان هذا وذاك من ينبوع واحد،
وإن أقول الا ما قاله ذلك الاعرابي

سعدي يس الدمشقي

بيروت

— ٦ —

(للاديب الفاضل الشيخ محمد نعيم البيطار)

ما هذه الاشعة التي انبعثت من غار حراء فأشرقت بنورها الجزيرة العربية
ثم ما لبثت أن ملأت الدنيا بهجة وضياء؟
من ذلك الرجل الذي ظهر للوجود فأنقذ العالم مما كانوا فيه من البؤس والشقاء
وقادهم جميعا إلى طرق السعادة والهناء ؟
ما هذه الدعوة التي لم يمض على ظهورها ربع قرن حتى احتلت قلوب العالم
فكانوا لا يخالفون مبادئها قيد شبر

ترددت هذه الاسئلة في خواطر المطلعين على أحوال الامم والمنتمين عن
تواريخ الشعوب لما شاهدوا من آثار تلك المدنية الباهرة التي مازالت آثارها
موضع الاعجاب رغم مضي مئات السنين على أصحابها

فشرع كل منهم يضعها بقالب موافق لما يريد ، ويعلي على قلبه ما يوحيه اليه
فكره من آرائه التي اكتسبها من البحث والتنقيب ، فكان بينهم الخطيء والمصيب ،
غير أن الخطيء يحتاج الى تنبيه لان خطئه اذا شاع بين العوام ، كان مدعاة لدفن
الحقائق والتمسك بالادهام

لذلك الامر الخطير قام صاحب كتاب الوحي المحمدي السيد الامام ، علامة
الاسلام ، الاستاذ محمد رشيد رضا مذهب النور الاغر . فأبان أغلاطهم التي تطارأ
على كل من لم يكن ضليعاً بالامر الذي يقدم عليه . فكان من أكبر أغلاطهم أن
حسبوا الوحي الاسمي إلهاماً فطرياً من نفس الرسول محمد عليه الصلاة والسلام ،
بمساعدة البيت والذكاء والانفراد ، إلى غير ذلك من الاسباب التي أبدوها بآرائهم
الفاسدة فأغرّت كثيراً من المتعلمين الذين لم يطلعوا على حقائق السيرة النبوية
فذكر السيد الامام مصدر تلك الشبهات ودحضها بالحجة والبرهان ، وأقام
الشواهد الكثيرة على أن الوحي الكافل لاصلاح جميع البشر لا يمكن إلا أن
يكون وحياً إلهياً

وقد أفاض في ذكر إعجاز القرآن في بلاغته وبيانه وتأثير هدايته ومقاصده
العليا من تنظيم شؤون الحياة الاجتماعية ، تنظيمًا يتفق وحاجة بني الانسان ، على
اختلاف الازمان والبلدان

ثم احتج بجميع ما ذكر على أن الدين الذي يكفل ذلك كله هو أحق أن يتبع
فدعا جميع شعوب الارض الى التمسك بهدايته والعمل بتعاليمه الربانية ، ليعرفوا
كيف يستفيدون من حضارتهم التي أصبحت مهددة بخطر الزوال ، فكان كتابه
كتاباً قيماً ، جدير بكل طالب علم أن يطلع عليه ويجعله من مقتنياته النفيسة التي
يرجم اليها وينقل عنها

- ٧ -

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد رشيد ميقاني مفتي طرابلس الشام

أخي العزيز السيد عاصم آل رضا حفظك الله

سلاما واحتراما [وبعد] قرأت [كتاب الوحي الحمدي] الذي أهديتني
فلا تسل يا أخي عما حصل لي من المسرة ، في الحظوى لما هو لعيون المؤمنين قرة ،
ووقفت موقف الحائر ، فيما أقول عن هذا السفر الباهر ، المزري بالدرر والجواهر ،
والسهل المتنع ، الجامع المانع ، في بيان حقيقة دين الاسلام ، لكافة الانام ، فلم يسعني
إلا أن أجهر بكلمة : الله أكبر ، فتح ونصر ، وشعرت كأن مناديا ينادي من علو :
يا أمة محمد ، أمة الاجابة والدعوة ، واطلاب الحقيقة والخلاص والاخلاص في
هذا العالم ، هاكم كتابا اقرءوه ، فعملوا منه بالوجدان والضمير الحي ، حقيقة الدين
الاسلامي بأنه دين الحضارة والعقل ، والترقي والعدل ، والتسامح والفضل ، والهمز
والمجد ، والسيادة لكل فرد ، والكفالة لكل خير في معاشكم ، والسعادة في
معادكم ، وانكم إن علمتم به وعلمتم فزتم بسعادة الدارين ، وان لم تعملوا ، وعلمتم
ظاهراً من الحياة الدنيا فزتم بها وحدها ، وان لم تعملوا ولم تعملوا خسرتم الدنيا
والآخرة كحال بعضكم ، وذلك هو الخسران المبين ، وتعلموا حقيقة الوحي
المحمدي أنه من الله رب العالمين ، نزل به روح القدس جبريل الامين ، على قلب
النبي الامي محمد ختام المرسلين ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

فمن هذا السرور ، ومن هذا الشعور ، تراني يا أخي داعيا الى الله أن يكافي .
مؤلف هذا الكتاب الجليل ، العلامة النبيل ، الفهامة لدين الاسلام ، ابن عمك
الرشيد الامام ، بنجر ما كوفي محسن باحسانه من الخير والانعام آمين ، راجيا
ابلاغ أركي سلامي وقاتق احترامي لحضرة المشار اليه ، أدام الله فضله عليه ،
والسلام عليكم ، ورحمة الله تهدي اليكم

مفتي طرابلس
محمد رشيد ميقاني

١٠ رمضان سنة ١٣٥٢

﴿ طائفة من التقاريف التي رأيناها في المجلات والجرائد ﴾

(تقريظ الاستاذ العلامة الشيخ محمد تقي الدين الهلالي)

(محور مجلة الضياء الهندية في لـكنهـو ، ونشر فيها)

هدية ثمينة وتحفة نفيسة ونمرة علمية يانعة، أنتجها قلم امام هذا العصر وحكيمه الأكبر، مولانا السيد محمد رشيد رضا . لازال بحر بره زاخراً يقذف بالدرر، ووابل علومه يحجي القلوب الميتة، وظله الوارف حماية للاسلام والمسلمين هذه الدرة القيمة فكرة خطرت لحضرة السيد حين اشتغاله بتفسير كتاب الله القرآن، واستخراج نفائس كنوزه وأين منها الياقوت والمرجان، وهي بلا شك من التحديث الرباني، والالهام الرحامي . قدمها حضرته للعالم الانساني، في شهر ربيع الاول الذي كان فيه مولد المنقذ الاكبر للنوع الانساني محمد صلوات الله عليه . فكانت خدمة جليلة وتكريماً لذلك الجنب المقدس . ولعمري أن يمثل هذا العمل المبرور يكون التكريم والتعزيز، وهو الآية المحكمة على المحبة العلمية الايمانية، لا التمسح على الاحجار أو تعليق الخرق المزوقة، وإيقاد الانوار الكهربائية الملونة، والفقراء ذات اليمين وذات الشمال يتضورون جوعاً ويموتون بأسراضهم ولا معالج لهم ولا آس، وراية الاسلام منكوسة، وأحواله معكوسة، وشرع النبي الاكرم منبوذ ظهرياً، وسنته الشريفة متخذة سخرياً، ولاغرو (وما يستوي الاعمى والبصير، ولا الظلمات ولا النور، ولا الظل ولا الحرور، وما يستوي الاحياء ولا الاموات، إن الله يسمع من يشاء، وما أنت بمسمع من في القبور)

افتتح الامام الكتاب بمقدمة بين فيها بحكمة عالية واضحة نيرة على ذلك ارتقاء البشر في الامور المادية في خدمة هذا الغلاف الجسمي وبلوغهم في ذلك الغاية التي انعمت وصارت شراً على الاجساد التي اخترعت لتنعما وتسعدها، وبين انحطاطهم الروحي، وإفلاسهم الادبي وما سبب لهم من الشقاء والعذاب الجسمي الذي منه

يحذرون ويفرون ، وبرهن على أن السعادة البدنية يستحيل الوصول إليها بدون الكمال الروحي، والرقى النفسي ببراهين لا تبقى للشك مجالا، وراش سهام التأنيب للدول الالخذة بأزمة الالام في هذا الزمان ، وحمل عليها تبعة الخزي والشقاوة الذين تجلبهما على العالم بتكاليها على المادة، وتنافسها في التناول وحب الملو والفساد في الارض باهلاك الحرث والنسل في حروبها المتنوعة من سياسية واقتصادية وأدبية وغيرها .

ثم ذكر اعتراف حكماء الغرب بهذا الفساد وتنبههم أن يبعث نبي يحدث انقلابا روحيا ينقذ الانسانية من نصيبها وشرورها ، واطباقيهم على أن أديانهم لا تنجع في علاج هذا الداء ، بل ربما كانت إحدى عوامله . فأراد هذا الامام الحجة أن يريهم أن الذي يطلبون بين أيديهم ، وأن الدواء الناجع على طرف الثمام ، ويرفع عنهم حجب الجهل والتعصب التي حرمتهم من اقتباس أنوار الدين الاصيلي الخالد ، دين الفطرة ، ويضع أيديهم على محاسنه وفضائله ليتفقهوا فيه بأخذهم «الوحي المحمدي» دليلا وهاديا ، ولينذروا قومهم إذا رجعوا اليهم لعلمهم يحذرون .

ولاجرم أن السيد أبده الله جمع ما كتبه الحكماء والاطباء النطاسيون لأمراض النفوس في هذا العصر وفيما قبله وزاد عليه بأوجز عبارة وأوضحها ، وفتح بابا

جديداً للدخول إلى خزانة كنوز القرآن استعصى فتحه على من حاوله قبله من

المصلحين بالنسبة إلى طب أدواء عصرنا هذا ، وأتى في هذا السفر الصغير الحجم بالادلة القاطعة عقلا ونقلا من الكتب المنزلة والسنن النبوية التي يتضاءل أمامها كل معاند بما يشني الغليل ، ويبرىء الغليل في أمهات المسائل التي تشغل أذهان علماء العصر وعامته . فمنها نبوة محمد ﷺ وإثباتها بالحجج التي تجبر مثبتي الوحي ونفاته على الاذعان والبحث الوافي الشافي في الوحي والمعجزات عند النصارى

وعند المسلمين والفلاسفة مما لا تجده في غيره . ومن خواصه أنه أورد فيه جميع

الشبهات القديمة والجديدة التي وجهت للوحي العام والخاص وأجاب عنها بأحسن جواب . ثم خرج إلى المقصود بالذات وهو القرآن مبيّناً أسلوبه ، وحكمة تكرار الآيات فيه ، وما أحدثه هذا الكتاب العظيم من تأثير وانقلاب في العالم ، ثم حصر مقاصده الاصول نذكرها آسفين اجمالاً لضيق المقام (وهنا لخص الاستاذ مقاصد القرآن العشرة وخاتمة الكتاب فجزاه الله عن نفسه ودينه وأخيه المؤلف أفضل الجزاء)

(تقرير مجلة الشبان المسلمين لكتاب الوحي الحمدي)

(لرئيس تحريرها الاستاذ التحرير الدكتور يحيى الدرديري)

الاستاذ العلامة السيد محمد رشيد رضا ليس بنريب على القاري حتى تقدمه اليه بمقدمة تشرح تاريخه وماضيه في الجهاد القلبي للاسلام . وبحسب القاري أنه يعلم أنه منشيء مجلة النار ، وأنه وارث علم الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، ومذيعه على الناس إذاعة لولاها ما كتب له هذا الذكر الخالد العريض وقد أخرج للمكتبة الاسلامية العربية في هذا العام كتاباً قيماً في إثبات الوحي الحمدي بالقرآن ، ودعوة شعوب الدنيا الى الاسلام دين الاخوة الانسانية والسلام وقد تعرض فيه للشبهات التي تحوم حول نبوة سيدنا محمد ﷺ وردّها وبين رأى الكنيسة المسيحية في النبوة وتعرض لبیان المعجزة والكرامة والخوارق وتأثيرها في الافراد والامم ، وبين أن الوحي الحمدي ليس وحياً نفسياً كما يعتقد بعض علماء الفرنجة وبين قيمة القرآن في إثبات معجزات الانبياء وتفرد الاسلام بنوع من الاعجاز ليس في غيره من الاديان الى غير ذلك من المباحث والقضايا الدينية التي قد لا يعثر على حل لها إلا في منتج قلم الاستاذ الشيخ رشيد ويقع الكتاب في مائتي صفحة وهو مطبوع طبعاً جيداً في مطبعة النار فنحث القراء على اقتنائه

(تقرير)

﴿ بقلم الاديب الكبير الكاتب المحرير الاستاذ الشيخ عبد العزيز البشري ﴾
نشر في جريدة البلاغ الغراء

شغلني أشغال عن مطالعة هذا الكتاب أول مظهره . حتى اذا تفرغت
وتهيأت لي الاسباب تجردت في قراءته وتدبره . ولقد تناولته والظن معقود بأنه
من جنس ماخرج من الكتب في بابه ، على انني ماكدت أترسل فيه حتى جعل
يتعاضلني شأنه ، ويتكاثرني خطبه ، وكلما أمعنت فيه زادني إعجابا به ، واجلالا
لموضعه ، حتى خرجت منه ولا يكاد كتاب في بابه يبلغ مداه ، أو ينتهي منتهاه ،
ولقد يتداخلك العجب من أن أطلق أنا مثل هذه الشهادة في كتاب يخرج
السيد رشيد رضا ، وبيننا ما أعلم ويعلم ، وما الله تعالى به أعلم ، فان للدين والعلم
حقا يجب أن تكبح له الشكائم ، وتسلب دونه السخائم . وللحساب الغليظ مقام
آخر إن شاء الله (١)

كتاب الوحي المحمدي يرجع موضوعه أو موضوعاته في الجملة إلى إثبات رسالة
محمد ﷺ . وانها خاتمة رسالات الرسل عليهم الصلاة والسلام . وان شريعته
هي الشريعة الجامعة لكل ما فيه صلاح العالم وحضارته ويسره وأمنه وسعادته في
كل مكان ، وإلى غاية الزمان ، وان شأنه عليه السلام مع شأن من تقدمه من الرسل
الكرام لعل حد قول النبي :

نسقوا لنا نسق الحساب مقداً وأتى فذلك إذ أتيت مؤخراً
ولقد أتكا المؤلف في تدليله أكثر ما أتكا على القرآن الكريم ، وفي إحسان

(١) ذنبي عند الكاتب أنني هضمت حق والده الاستاذ الاكبر الشيخ
سليم البشري شيخ الجامع الازهر رحمه الله في تاريخ الاستاذ الامام ، بلغه هذان
كاشح فصدقه وأحفظه ، وهو منكر من القول وزور ، فالكتاب لم يغط حق والده في
شيء . مما اشتهر به من سعة العلم ، وقوة الفهم ، وحسن الالتقاء وانما بين ما يجب بيان
من وقوفه موقف المعارض لما سعى اليه الاستاذ الامام من الاصلاح ، والشيخ عبد العزيز
يعرف هذا كما نعرفه ، فان استطاع اقناعنا بخطأ في شيء منه رجعنا عنه شاكرين

وابداع أثبت السيد أنه لولا القرآن ما انتهضت حجة قاطعة على نبوة من تقدم من الانبياء .

ولقد جعل المؤلف كلما تحول إلى باب أو انحرف إلى مطلب في أسباب الموضوع يتقرى فرى عدو الاسلام من الداعين الى حربه ، ومن الملحدین عامة ، وشبه الشاكين من أهله، ومن المتطرفين منهم بالتشكيك في بعض قضاياه، فيفريها بالحجة فرياً ، ويضعفها بالدليل الحاسم ضعفاً ! فما يدع لأصحابها متنفساً ، ولا يجيز لمتنزي الاحاد مضطرباً .

ولقد قال الكتاب في محمد ﷺ وفي الوحي . وفي القرآن . وفي أثره في العالم . وفي معجزات الانبياء . وفي حاجة العلم إلى الدين . وفي كثير غير ذلك مما ينسق للعرض ، ويتجلى به وجه الحجة ، فكفى وشفى ، وباع من الاحسان والالجال غاية المدى .

وليس من شأن هذا المقال أن يدل على مواضع الاجادة في أبواب الكتاب، بله كل فصل من كل باب . فذلك مما يخرج عن طوق سابغ المقالات، على ان في الكتاب مقامات صلصل فيها البيان الديني أي مصلصل ولقد يكاد يتحول حسك وأنت تطالعها من البصر إلى السمع، حتى يخيل إليك أنك تسمع صرير القلم . ويحضرك في هذا المعنى قول المتنبي أيضاً :

* كالخط يملأ مسمي من أبصرا *

ولا شك في أن من هذه المقامات الرائعة قول الكتاب في أسلوب القرآن الخاص واعجازه به، وحكمة التكرار فيه . ولقد وقع في هذا الغرض على حكم لم أقع عليها في كتب من تقدمه . على ان المؤلف على عادته . لقد أسرع فكأثر بهذا في الفهرس إذ قال عند الاشارة الى هذا الفصل (وهو مالم يسبق لأحد بيانه)

ومن المقامات البارعة في الكتاب القول في معجزات الانبياء، والفرق بينهما وبين كرامات الاولياء، والحسد بينهما وبين شعوذة المشعوذين ، وآثار رياضة المرتاضين ، فلقد جمع في هذا الباب بين ما أثر في الشرع وما يجري به سنن الكون، في لباقة وحسن تعليل، وجودة تفسير وبراعة تأويل .

ومن هذه المقامات التي تغلب وتروع ما أقام هذا الكتاب من ناصع الحججة على إيفاء الشرع المحمدي على الغاية في تقرير أعلى القواعد وأضبطها للإصلاح الاجتماعي والمالي والسياسي، ويدخل في هذا الباب العلاقات الدولية، ونظم الحروب وغير ذلك مما يكفل صلاح البشر كافة، ويتضمن رقي المجتمع الانساني وبلوغه في أسباب الحضارة تلك المنزلة التي تخيلها أئمة الحكماء ودعاة الإصلاح من قديم الزمان. ولقد عرض الكتاب غير هذا لمزايا الاسلام وحكم أحكامه سواء في العبادات أو في الاسباب الدائرة بين الناس، وبين جهة ارتفاعها على أن تكون من شرع البشر، وإنها أجمع وأكفى، وأكل وأوفى من كل ماسن الخلق من النظم. بل من كل ما تنزل من الشرائع على جميع الرسل السابقين، عليهم صلوات الله أجمعين وكل ذلك أجراه المؤلف على أسلوب منطقي سليم خال من الاسراف ومن الشعر والتخييل.

ومما يزيد من قدر هذا الكتاب أن كثيراً مما جلا واستظهر من القضايا مبتكر لم يسبق. على أنه لم يكن أقل براعة فيما نقل أو اقتبس. فلقد كان حق لبق في إلحاق كل شيء ببابه، وإقرار كل أمر في نصابه، الى حضور الشاهد من كتاب الله تعالى وما صح من حديث رسوله ﷺ، وما أثر عن الثقات من أئمة الاسلام ومن شهادات علماء الافرنج أيضاً. ومهما يكن من شيء فالكتاب في المجلة مما لا يطاول في بابه. بل لا أحسبني مسرفاً اذا زعمت انه يمكن أن يعد بحق من إحدى حجج الاسلام اه

هذا ما وصف به البشري كتاب الوحي، ويسرنا منه ان كتبه وهو ساخط على مؤلفه، يبتغي مرضاة الله دون مراعاته، ولولا ذلك لرأى الناس فوق ما رأوا من آياته. وبليه كلمتان فيما سماه تحفظاً احدهما في مسألة الاجتهاد والثانية في علماء الرسوم أو الرسميات وقد أرجأتهما الى مجلة المنار

(تقريظ)

(الكاتب الكبير الاستاذ عباس محمود العقاد ، ونشر في جريدة الجهاد)

أكثر من قرأت لهم من كتاب المباحث الدينية الاحياء اثنان : هما السيد محمد رشيد رضا صاحب النار والاستاذ محمد فريد وجدي صاحب التوايف والتصانيف الكثيرة المعروفة باسمه

فأما السيد رشيد فهو أوفر نصيباً من الفقه والشريعة والدراسات الموروثة ومزيتة على الكتاب الدينيين في العصر الحاضر أنه خلا من الجمود الذي يصرفهم عن لباب الفقه إلى قشوره ، وسلم من تلك العفونات النفسية التي تعيب أخلاقهم وتشوه مقاصدهم ، فهو أدنى إلى الصواب وأناى عن العوج وسوء النية

وأما الاستاذ وجدي فهو أوفر نصيباً من الحرية والعلم المعصري والاذواق المدنية ، والتماسه للتأويلات في الدين مستمد من شعوره باللياقة أو بما يخالفها كما يشعر الرجل الذي يعيش في بيئة الحضارة من المصريين المثقفين

قرأت النار ومباحث السيد رشيد لأنني كنت أقرأ كل ما كتب الاستاذ الامام محمد عبده وكل ما أوصى بقراءته مما تناوله طاقتي في سني الدراسة وقرأت الاستاذ وجدي لأنني انجذمت إلى هذه الوجهة فأحببت المزيد فيها وكان أول ما وصل إلي من كتبه « الاسلام في عصر العلم » فكانت أدلته عندي كافية للاقتناع في سن النشأة الاولى

ولا أزال كلما احتجت الى بحث مستنير في الفقه والشريعة رجعت الى كتب السيد رشيد ، وكلما احتجت الى تفسير مثقف لمقدمة من العقيدة الدينية رجعت إلى رأي الاستاذ وجدي فيها ، وقد أجد في كليهما ما ينفعني معاً في كلا الأمرين وكتاب « الوحي المحمدي » الذي أظهره صاحب النار في الاشهر الاخيرة هو من أفضل ما كتب في مباحثه الدينية : توخى فيه كما قال « أن يكون أمضى مدينة لقطع السنة الطاعنين في الاسلام من دعاة الاديان الاخرى » وأراد به أن يكون كتاباً « يصلح لدعوة شعوب المدنية الحاضرة الى الاسلام ببيان البراهين

العقلية والتاريخية على كون القرآن وحياً من الله تعالى لا وحياً نفسياً نابهاً من استمداد محمد ﷺ كما يزعم بعض المتأولين لاجرازه منهم ، ويبان ما فيه من الاصول والقواعد الدينية والاجتماعية والسياسية والمالية والدفاعية السلبية التي يتوقف على اتباعها صلاح البشر وعلاج المفاسد المادية وفوضى الاباحة وخطر الحرب العامة التي استهدفت لها جميع الدول والشعوب في هذا العهد

وعندنا ان الاستاذ يستجمع الكثير من أسباب الكفاءة الضرورية بتأليف كتاب في هذا الموضوع للقرض الذي أبانه، فهو يعلم من أسرار الاصول الاسلامية ما لم يتيسر في العصر الحاضر إلا للقليلين بين علماء المسلمين ، وهو مسموع الرأي في العالم الشرقي ، كثير القراء والمريدين في بلاد الاسلام ، وهو أسلم فطرة من جميع من سمعنا بهم من المنصدين لهذه المباحث بين الشيوخ والفقهاء

وقد درست بعض فصول الكتاب وتصفحت بعضها فبدا لي انه ينهج في الاستدلال العقلي منهجاً كفيلاً باقتناع العدد الاكبر من قراء هذه المباحث ولا سيما المسلمين ، ولا أشك في سعة انتشاره وفلاحه في تنفيذ المزاعم والريب التي قد تساور الازهان بين أولئك القراء ، فان لم يبلغ الكتاب كل غرضه المفصل في فاتحته فهو بالغ من ذلك الغرض ما يستحق تأليف كتب شتى لا تأليف كتاب واحد ، وحسب المؤلف أن يظفر بهذا ليظفر بشيء كثير »

(يقول محمد رشيد مؤلف كتاب الوحي)

هذا ما بين عباس أفندي محمود العقاد رأيه في الكتاب من المناحي التي يشترك فيها مع جمهور الكتاب ، وقد زاد عليه نقداً بل نقصاً سوله له ما يسميه هو وأمثاله « النقد التحليلي » أتاه من باب بعيد عن أبواب علم الوحي سماه (المنطق

النفسي) الذي احتكره لأمثاله المقلدين أو المتبعين لكتاب الافرنج فيما يعرفون
وفما لا يعرفون ، وذكر من مسائل هذا المنطق « ضيق ملكة الاحتمال والفرض »
وذكر من فروعه التفرقة بين عالم الغيب وعالم الشهادة ، وانه كان يجب علي بحكم
هذا المنطق أن أضع الحد الفاصل بين علم الانبياء وعلم غيرهم بالغيب ، بما يوصد باب
الاحتمال والفرض بدلا من تركه مفتوحا بمصراعيه ، وقد نشرت كلامه هذا في
المنار ، وبينت خطأه فيه من ناحيته يمينه وشماله وان سببه أنه لم يقرأ ما كتبت
في هذا الباب

(كلمة للاستاذ محمد لطفي جمعة المحامي)

الكاتب الخطيب المصنف الشير

نشرت في جريدة البلاغ في ٢٣ من جمادى الاولى سنة ١٣٥٢ الموافق ١٣ من سبتمبر
سنة ١٩٣٣

الوحي المحمدي كتاب من تأليف العالم العلامة السيد محمد رشيد رضا منشيء
المنار الاغر وغاية المؤلف ثبوت النبوة بالقرآن ، ودعوة شعوب المدينة إلى الاسلام
دين الاخوة الانسانية والسلام .

وقد صدرت الطبعة الاولى منه في يوم المولد النبوي الشريف سنة ١٣٥٢
الموافق يوليو (تموز) سنة ١٩٣٣ م وهو في مئتي صفحة من القطع الكبير .

وفي الحق أنه كتاب جليل يلفت الانظار بما أورده الاستاذ مؤلفه من
الدلة العقلية والحجج النقلية بوضوح وجلاء على طريقة حديثة لم تسبق للمؤلفين
في المسائل الدينية الا للاستاذ العلامة محمد فريد وجدى مما دلنا على تطور مبارك
في أسلوب السيد رشيد الذي كان يجارى المؤلفين القدماء كنفله قول أحد علماء
النصارى للمؤلف :

« أنت تعجب بمحمد وتعتقد أنه نبي مرسل وأنا أعجب به واعتقد انه رجل
عظيم فتعديري له أعظم من تقديرك »

وقد حاول الاستاذ الفاضل اثبات الوحي بالمعجزات بأدلة منطقية فجاء موقفاً في كثير من بحوثه وتكلم في درس علماء الافرنج للسيرة المحمدية وشهادتهم بصدقه ونفى شبهة منكري عالم الغيب على الوحي وأظهر أن نبوة محمد ورسالته قائمتان على قواعد العلم والعقل في ثبوتها وموضوعها لأن البشر في عهد النبي قد بدءوا يدخلون في سن الرشد والاستقلال النوعي الذي لا يخضع عقل صاحبه فيه لاتباع من تصدر عنهم أمور عجيبة مخالفة للنظام المألوف في سنن الكون، بل لا يكل ارتقاؤهم واستعدادهم بذلك بل هو من موانعه، فجعل حجة نبوة خاتم الانبياء عين موضوع نبوته وهو كتابه المعجز للبشر بهدايته وعلمومه واعجازه اللفظي والمعنوي، ليربي البشر على الترقى في هذا الاستقلال الى ما هم مستعدون له من الكمال

ثم خلس الاستاذ الى الكلام على القرآن فتكلم عن اصلاح اركان الدين التي افسدها الغير وهي الايمان بالله وعقيدة البعث والجزاء والعمل الصالح. ثم جعل لبحوث القرآن عشرة مقاصد كلها منطبقة على المنطق والعقل وحسن التليل وسلامة التدليل مما يجعل الكتاب مقبولا لدى الشبان النورين والميالين لحرية الفكر

ويقول الاستاذ إن الكتاب يشمل دعوة شعوب المدينة الى الاسلام ولم يقل لنا أية مدينة يريد ففهمنا انه يقصد الى أوروبا وأمريكا. وليسمح لي أن أقول إنه جاء متأخراً جداً وكان يجب عليه أن يؤلف هذا الكتاب من عشرات السنين وأن ينقله الى لغات أوروبا، وأن يطبعه بالملايين ويوزعه مجاناً. لانه لا ينتظر ان أهل لندن ونيويورك وبرلين يشترون الكتاب من مطبعة المنار. ونحن نعلم أن هذا العمل يتطلب مالا كثيراً ووقتاً أكثر فينبغي للسيد رشيد أن يدعو الى هذا لأن يكتبني بالتأليف العربي وحده، يدعو الى نقل الكتاب الى اللغات وترجمته وإلا فان مجرد الكتابة على الغلاف أنه دعوة شعوب المدينة الى الاسلام لا تكفي

(تقريب الاستاذ الفاضل الشيخ محمود أبو رية)

﴿ نشره بالمقطم ﴾

كنت أحسب يوم ان قرأت في الصحف نبأ كتاب « الوحي المحمدي » انه رسالة صغيرة وضعها الاستاذ الكبير السيد محمد رشيد رضا ليمحص فيها أمر الوحي وحقيقته بعد ما كثرت فيه اقوال بعض علماء الوحي وأنكروا امكانه بما يعرف المسلمون كما يفعل في مسائل كثيرة مما يثور حولها الجدل فيضع فيها رسائل خاصة تطلع من قلمه منيرة كفلق الصبح فتكون الحكمة وفصل الخطاب

كنت أحسب الامر كذلك حتى اتيسر لي الاطلاع على هذا الكتاب فاذا بي أجد الامر اكبر مما حسبت وأعظم مما توهمت واذا انا بازاء كتاب متعدد النواحي متسع الارضاء لا يقف عند الكلام على الوحي وإنما يمتد فيحيط بكل ما أوحى به الي النبي ﷺ

ونحن لانحاول هنا ان نظهر للقارئ الكريم كل ما بين دفتي هذا الكتاب من بحوث لان ذلك يحتاج الى مقالات طويلة وانما نشير إلي بعضها وحسبنا ذلك تكلم الاستاذ الكبير عن الوحي وفند بأدلة قوية مسددة ما يزعمه الذين يقولون ان الوحي المحمدي انما كان وحيا نفسيا ولم يكن وحيا الهيا

وعقد فصلا رائعا عن آية الله الكبرى (القرآن الكريم) وعن أسلوبه واعجازه جاء ولا ريب آية في البلاغة والتحقيق العلمي وقد كشف فيه عن معنى دقيق في حكمة التكرار في الكتاب العزيز فبان أنه لم يأت عبثا وانما هو أسلوب عجيب من أساليب القرآن المعجبة المعجزة في تربية الشعوب بحيث لو خلا كتاب الله منه لما بلغ في نفوس العرب ما بلغ من غرس تعاليمه القومية وحكمه العالية وأغراضه النبيلة في نفوسهم واجتثاث ما في هذه النفوس من عقائد باطلة وعادات فاسدة

وقفى على ذلك ببحث قيم عن الثورة والانقلاب الذى أحدثه القرآن الكريم في العالم وكيف فعل في نفوس العرب مشركين ومؤمنين وأنشأ بعد ذلك يتحدث عن مقاصد القرآن الكريم فجعلها عشرة مقاصد وجعل تحت كل مقصد مسائل كثيرة وقد شاء له حبه للتحميص أن يمسك بطرفي التحقيق في كلامه عن هذه المقاصد فلم يقف عند اثباتها بالادلة العقلية بل ظاهرها بالبراهين العقلية

وختم هذه المقاصد بملخصة وافية في مسألة الوحي وجعل خاتمة الكتاب في دعوة شعوب المدينة الى الاسلام لانقاذ البشر واصلاح فسادهم هذا بعض ما جاء في كتاب (الوحي المحمدى) ولا غرو فان مؤلفه هو الاستاذ الكبير السيد محمد رشيد رضا الذى قال فيه بحق زعيم الاسلام الكبير ومجاهده العظيم شيخ البيان الامير شكيب ارسلان في معلمته الاسلامية الكبرى (حاضر العالم الاسلامى)

« قد انتهت اليه الرياضة في الجمع بين المعقول والمنقول والفنيا المصححة والتطبيق بين الشرع والاوزاع المحدثه مع الرسوخ العظيم في اللغة . . . الى أن قل : وهو الرجل الذى اذا دعا كل مسلم باطالة حياته لكان بذلك جديراً »
واذا كان لنا من كلمة عامة في هذا الكتاب نختم بها هذه الكلمة الصغيرة فانا نقول انه كتاب لا يستغنى عنه مسلم ويجب على كل من يريد من أهل الاديان الاخرى معرفة أمور الاسلام على حقيقتها ان يقرأه ويتدبره

محمود أبو رية

تقريظ الاستاذ عبد السميع البطل المدرس بمدرسة رقي المعارف الثانوية
استهدف الاسلام منذ فجر التاريخ ، لكثير من الشبهات التي كان يصوبها
نحوه خصومه من الملاحدة ، وأعداؤه من السياسيين ، وكان العلماء في كل عصر
يتصدون للرد على هذه الشبهات ويجدعون أنوفها ، فيظل واضح الطريق ، نير
الدليل ، ثم يسير الزمن بالناس ، وتتلقح أفكارهم بعلوم ومعارف جديدة ، فتجدد
لهم شبهات ، وتعصف بهم أعاصير ، فاذا بالعلماء المستقلين يكرون على المهاجمين ،
يجدلونهم بشبهة أفلامهم ، وقواطع حججهم ، فما هو إلا أن نرى الباطل
منكسرا ، والحق منتصرا

وقد تجددت في العصر الحاضر شبهات على الاسلام كثيرة ، وهو جم من
أعدائه في إحكام وقوة ، ولم يدعوا منفذاً يأتي على بنيانه من القواعد الاسلكية ،
ولا سلاحاً يجهز عليه إلا صوبوه ، ولولا حصانة الاسلام الطبيعية ، ومنعته الذاتية ،
لحرق مضرجا بدمائه ، ولا أصبح أثراً بعدعين

ذلك أن علماء الاسلام وهم ورثة النبوة ، والقوامون على حراسة الدين ،
قد شغلتهن المناصب الدنيوية فأعطوها كل أنفسهن ، ومكنوا لها من قلوبهن ،
وانصرفوا عن النظر في القرآن وعلومه ، مخلصين إلى أرض التقليد ، عاكفين
عليه ، فلم يسايروا الزمن ، ولم يتمشوا مع الرقي الفكري ، وأصبحوا يعيشون في
عالم وحدهم ، لا يدرون ماذا يقال عن الاسلام ، ولا بم يهاجم وكيف يهاجم ،
ولئن سألتهم ليقولن « إن الاسلام بخير ، وله رب يحميه » وهو جواب العجزة
ومن لا حيلة لهم

ولكن الله لا يذر الاسلام بغير سيف يحميه ، ولم تخل الارض من قائم لله بحجة ،
فهذا معقل الدين وسنده عالم الاسلام السيد محمد رشيد رضا قد أخرج لنا في
هذا العام كتابه ﴿ الوحي المحمدي ﴾ يثبت فيه النبوة بالقرآن ، ويدعو شعوب

المدنية إلى الاسلام - دين الاخوة الانسانية والسلام - فكان خير كتاب أخرج للناس في بابه

افتتحه المؤلف الكبير بمقدمة فياضة في بيان موضوع الكتاب، وحاجة البشر إلى الاسلام، وبيان الحجب التي تحول بين الاسلام والافرنج. ثم أفاض في الموضوع بما أفاء الله عليه من علم غزير، وعقل منير

والسيد رشيد دائرة معارف إسلامية واسعة، وهو حين يكتب في الاسلام، لا يدع قولاً لقائل، ولا يترك استدراكاً لمستدرك، وأشهد لقد كنت أقرأ مقالات (الوحي) وهي لا تزال تنشر تباعاً في (المنار) فيأخذ مني الاعجاب بها كل مأخذ، ويسبق لساني بالدعاء لصاحبها بطول العمر والسلامة كفاء خدمته للاسلام بل أشهد ويشهد معي جميع الذين اطلعوا على كتاب (الوحي المحمدي) أنه لم يكتب مثله كاتب في الاسلام، وأنه خير كتاب في الدعوة إلى الاسلام وبيان مزاياه، لا يستغنى عنه مسلم، ولا يسد غيره مسده في هذا العصر، ولا أستثني رسالة التوحيد للاستاذ الامام، فانها على طرافتها، وقوة حجتها، وبلاغة عبارتها، قد يقال فيها، إنها رأي لصاحبها وصل إليه بعد دراسة للاسلام عميقة، بل قيل «إن رسالة التوحيد فلسفة لا دين» ذلك أن الآيات التي استشهد بها المؤلف رحمه الله كانت قليلة جداً، اكتفاء بالاحالة على الحجج العقلية، ووقائع التاريخ الصادق، أما (الوحي المحمدي) فانه ثبت كل شيء بالقرآن، ويضع يد القارئ على موضعه من السور، في سيل آتى، ونور محمدي، وجملة ما يقال في الكتاب، إنه أحسن ما ألف في العقيدة الإسلامية في هذا العصر، وأنفع كتاب في الدعوة إلى الاسلام وصد غارات المبشرين، وأقرب إلى عقول المتعلمين المدنيين، وإني لأرجو أن يترجم إلى اللغات الحية، وحينئذ أرتقب أن تقوم ثورة فكرية في العالم الغربي تتكشف عن فوز الاسلام ورجحان كفته. جزى الله المؤلف خير الجزاء

(تقرير)

بقلم فضيلة الاستاذ الشيخ عبد الحميد السائح النابلسي *

منذ مدة وأنا أفكر في كتاب يصلح أن يكون هادياً وبشيراً للامم غير
الاسلامية بأسلوب مألوف لديهم وعلى نمط يكون في متناول جمهورهم حتى ينادى
في الاوساط الاوروبية والاميركية بالدعوة الى دين الاسلام بالحجة والبرهان
وامتلاء النفس قناعة وطمأنينة ، ومع هذا يتيسر لثقتنا الثنف ونابتنا الزاهية ،
ان نتصفح وتطالع ، ويزيل ما يتردها من شبهات ، ويزيح ما يتورها من اعتراضات
فلم اعثر على ذلك الكتاب الى ان احدثت الى كتاب (الوحي الحمدي) للامثلة
المحقق السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار ، ذي الاراء الاسلامية الناضجة والابحاث
الدينية الموفقة ، فوجدت فيه الضالة ونحقت فيه الرغبة .

اني قانع كل القناعة ان القرآن كفيل بحاجة مطالعه قين بان يملأ نفس قارنه
ايماناً وحكمة وعلماً وادباً وسياسة وخبرة ولكن هذا يتوقف على أن يكون القاري
خبيراً باللغة العربية ملماً بعلومها متضاماً من بلاغتها وفصاحتها ولا ريب ان هذا
غير متيسر لكثير من ابناء العربية وعلماء المسلمين فكيف بغير العرب وغير
المسلمين ؟ خصوصاً وان المسلمين اعرضوا عن الاستفادة من هذا الكتاب المقدس
الاستفادة اللاتمة به واصبحوا لا يمتنون الا بمظاهر ختمه فقط ومر اسم الشكسية
من اجل هذا كانت حاجة المسلمين الى كتاب يبشر بدينهم على الوجه الذي
بيننا ماسة وشديدة

وليس من شك في ان هذا العمل يتطلب تفكيراً عميقاً وخبرة واسعة ووقتاً

(*) من جريدة الجامعة الاسلامية - ١٥ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٢ ١٥ أكتوبر

غير قصير، حتي يخرج الى الملأ مستكمل النواقص وافياً بالحاجة، وان الاستاذ السيد محمد رشيد هو اجدر من يقوم بهذا العمل واحق من يتحمل هذا العبء، وان مبادرته الى اخراج هذا المؤلف مسارعة الى اداء فرض محتم عليه، وقيامه بواجب لامناص منه، لكفاءته النادرة، وشهرته في العالم الاسلامي شهرة فائقة، والاعتماد على آرائه، والاستفادة من نتائج قريحته والوثوق من خبرته وسعة اطلاعه.

بدأ المؤلف كتابه في البحث بموضوع الوحي والاستفاضه فيه ومناقشة القائلين باثباته من اهل الاديان السماوية، وبحث آراء تفاته من الماديين واقاض في نفيها واقامة الحجة على ابطالها. ثم قفى على ما ذكر بمقاصد القرآن، في ترقية نوع الانسان، شارحاً اركان الدين وانواع الاصلاح التي يحتاج اليها الانسان في حياته، وتحلل ذلك بحث مسئله المعجزات وخوارق العادات التي هي مدار اشتباه الكثير من المتقنين والمتعلمين وقد صور الدين بصورته الحقيقية فاطلع القارىء على كثير من قواعد الدين الاصلاحية الاجتماعية والمالية والسياسية مستنداً في ذلك كله على آي القرآن ونصوص الاسلام. ثم ختم المؤلف كتابه في بحث تحرير الرقاب ومنعه وازاح ما يخفى علي كثير من المتعلمين من الشبهات في هذا الموضوع وغيره وبالجملة فان الكتاب بالنسبة لابعثاته الاجتماعية والمالية والسياسية لا ريب انه واف بالمقصود من هذه النواحي علي شكل يسر كل مسلم، ويحفز كل غيور علي دينه أن يقبل علي مطالعته وتصفحه.

وليس من شبهة في أن المقصود الاول من هذا الكتاب جملة في تناول العلماء غير الاسلاميين وخصوصاً غير العرب كما ذكر المؤلف نفسه (النتيجة المقصودة بالذات دعوة شعوب المدينة : أوروبية وامريكية واليابان بلسان علماءها الى الاسلام لاصلاح فساد البشر المادى وتمتيعه بالسلام والاخاء الانساني في العالم) ولا يتيسر هذا الا اذا ترجم لغات الاجنبية من قبل متضلعين بتلك اللغات عارفين بأسرارها فينبغي والحالة هذه علي الهيئات الاسلامية ان تقوم بهذا الواجب ونرجو ان يسارع مكتب المؤتمر الاسلامي العام بالقدس وغيره من الهيئات الاسلامية الى هذا فانه عمل منتج ويرجى ان يكون له اثر خطير في العالم وان هذا

العصر عصر طفت فيه المادية واعتز المبشرون فيه بتشكيك لانهم وامواهم، فعلى الأقل يجب على علماء المسلمين وحياتهم ان يقوموا بنشر مبادئهم الدينية الحققة واذا اعتها في الملأ لتكون سلاح يوجه الى كل من أراد هذا الدين بسوء وقصد تشويه تعاليمه ومبادئه وان هذا الكتاب رغما عما يؤخذ عليه يفيد مطالعته فائدة جلية جداً، ويمود على قارئيه بنتائج لا يتيسر الوقوف عليها من غيره، ويعطي صورة عظيمة القدر لتعاليم الاسلام خالية من تلك الاغشية التي وضعها عليها بعض العلماء، ويوصل الى معرفة حقائق اسلامية بشكل ينشلج له الصدر، وعلى وجه تطمئن له النفس وانى ادعو بني قومي واخواني الى المسارعة لمطالعة واقتنائه والاستفادة من ابحاثه ومحتوياته وان ما يؤخذ على الأستاذ المؤلف قد شعر هو به فيما قال: على اننى لم اكتب هذا البحث أول وهلة لهذا الغرض (وضع مصنف في اثبات الوحي المحمدي) وانما بدأت منه بفصل استطرادي لتفسير آية: «أكان للناس عجباً ان اوحينا الى رجل منهم» الخ. ثم قال. ولو اننى قصدت هذا منذ بدأت بالكتابة لوضعت له ترتيباً آخر يفنني عن بعض ما فيه من الاستطراد والتكرار الخ. فاكثر ما يؤخذ عليه يرجع الى استطراد في البحث يكاد ان يكون مملاً وخصوصاً في فصل اقامة الحجة على مثبت الوحي ونفاته (١)

وقد ابدى معذرتة في قوله. ولكنني كتبتة في اوقات متفرقة وحالات بؤس وعسرة لا اراجع عند موضوع منها ما قبله الخ. وبيان المأخذ وذكر المعذرة لا يعنى التقليل من اهمية هذا الكتاب وشخصية مؤلفه بل على العكس يجعلنا نرجوه ان يوالى تصنيفاته في تلك المواضيع باذلا الجهد في مجانبة ما لاحظته على نفسه جزاء الله عن الامة الاسلامية خير الجزاء وضائفه الاجر على مجهوداته التي لا تنكر والله ولي التوفيق

عبد الحميد السامح
نابلس.

(١) من الغريب أننى عنيت بالاستطراد بحث الخوارق كما قال هذا الأستاذ الذكي حتى اننى استشرت بعض كبار العلماء أولي الرأي في اختصاره في الطبعة الثانية فلم يوافقني أحد بل قال الأستاذ العلامة الشيخ المراغي انه من أهم المباحث فلا ينبغي حذف كلمة منه

(تقريظ أمير البيان، شكيب أرسلان)

ان المسلمين على بينة من أمرهم لا يحتاجون إلى دعاية ولا إلى التماس الادلة حتى يعتقدوا بوجود واجب الوجود الذي لا يمكن العقل البشري أن يتصور هذا الكون بدون ، وكذلك لا يفتقرون إلى الادلة على صحة نبوة محمد ﷺ بعد أن تلقوا خلفاً عن سلف النور الذي أنزل عليه والذي مازال ينيرهم من العهد المصطفوي إلى الآن . فكتاب الوحي المحمدي للاستاذ العلامة حجة الاسلام في هذا العصر السيد محمد رشيد رضا لم يكتب في الحقيقة للمسلمين لانه كتاب يقيم الادلة على صحة أمر يحيا المسلمون ويعتون عليه ، ويرون جميع براهينه من قبيل البديهيات التي لا تحتاج عندهم إلى برهان كما لا يحتاج النهار إلى دليل . وإنما وضع الاستاذ هذا الكتاب للاوربيين الذين يريدون أن يعلموا ما عند الاسلام من الادلة على صحة الوحي المحمدي ، والذين منهم من إذا أنار لهم الدليل لم يكابروا فيه تعصبا وعدوانا وصدوا عن رؤيته . وقد كتبه أيضا لكل من نشأ نشأة أوربية أى خالية من التربية الاسلامية التي يكون الناشئ قد ارتضع فيها مبادئ الاسلام مع لبن أمه فيقال انها رسخت فيه من الصغر ، ولما كان جميع من يقرءون العلوم العصرية اليوم ويتعلمون بحسب برامج الحكومات الاسلامية الحاضرة هم في الحقيقة أشبه بناشئة الاوربيين ولو كانوا مسلمين نسباً كان هذا الكتاب موجهاً أيضا اليهم ، لانهم في حكم الاوربيين من جهة فقد التربية الاسلامية أو على ما يقرب من ذلك

فلهذا كنا ندعو لقراءة هذا المؤلف ليس الاوربيين فحسب بل ناشئة المسلمين أيضا ولا سيما الناشئة التي أثبتت الحكومات الاسلامية إلا أن تطبعها بالطابع الاوربي لاننا في هذا العصر مغلوبون وأوربة هي الغالبة ، والغلوب مولع بتقليد الغالب حتى في الخطأ كما قال ابن خلدون ، فالاستاذ الحجة يسرد ثمرتاين الاسباب التي تحمل المسلم على أن لا يرتاب بصحة الوحي النازل على محمد عليه السلام يقول :

ان محمداً كان أمياً لم يقرأ سفراً ولم يكتب سطراً ، وهذا القرآن العظيم بفصاحته وبلاغته وإشارته إلى جميع مناحي الاجتماع بأرشق إشارة وأوجز عبارة ، ولم يكن

من عند الله لا يعقل أن يقوم به رجل أي لم يقرأ ولم يكتب ولم يحصل علماً من قبل، بل قضى طفولته في البادية عند بني سعد بن بكر يرعى الغنم مع إخوته في الرضاع، ثم انه نشأ يتيماً وكان مع يتيمة المثل الأعلى في حسن التربية واستقامة الاخلاق حتى لقب بالأمين، ولم يكن أحد يماري في استقامته وكانوا لنزاهته يختارونه ليقوم بما يختلفون فيه فيما بينهم، فيستحيل أن يكون رجلاً موصوفاً بالصدق والامانة إلى هذا الحد من أول نشأته إلى أن يبلغ سن الاربعين ثم يتحول دفعة واحدة فيصير كاذباً مقترياً، ويضع من عنده أشياء يدعو الناس إليها ويقول انه سمع صوتاً ولو لم يسمع صوتاً، وشاهد ملكاً ولو لم يشاهد ملكاً. ان هذا من الامور المستحيلة عرفاً ثم انه لم يكن طالباً شيئاً من وراء مقام به من الدعوة لتقول انه كذب على الناس لينال حظاً من حظوظ هذه الدنيا، فكل أحد يعلم انه لم يكن ينشد ملكاً ولا مالا ولا ثروة ولا جاهاً. فلا شيء يقوم بدعاية غير صحيحة ويضع أشياء من عند نفسه ويتحمل عايتها الهزؤ والسخرية ثم البغضاء والشتان ثم الاضطهاد والانتقام ويتعرض لخطر القتل وهو لا يريد رياسة ولا نفاسة ولا نعمة دنيوية من جميع هذه النعم، بل كل ما يريد ان يترك قومه عبادة هذه الاصنام التي ما أنزل الله بها من سلطان والرجوع إلى عبادة الواحد الأحد مبدع هذا الكون لا إله الا هو

قد كان محمد عليه السلام مؤثراً العزلة لا يخالط أبناء عصره في مجامعهم، ولا يشاركهم في عباداتهم الوثنية، ونشأ من صغره لا يعبد إلا الله تعالى، وكان من مناهياه انه لا يقول الشعر ولا يخاطب في الاندية ولا يتصدى لشيء من مظاهر الرياسة ولا الشهرة، فكيف يمكن أن يتقلب دفعة واحدة فيخالط الناس ويدعوهم إلى التوحيد وإلى مكارم الاخلاق، ويقوم فيهم بشيراً ونذيراً، ويتجشم من العذاب ما يتجشم، ويتعرض لآلام أسر من العلقم لولم يكن هناك باعث فوق المادة حافز له على الخروج من عزلته التي بلغ الاربعين وهو عاكف عليها ويقول السيد رشيد انه من المقرر عند علماء النفس وعلماء الاجتماع ان من

بلغ سن الخامسة والثلاثين ولم ينبغ في علم أو عمل عالمي عظيم لا يمكنه بعد ذلك أن يقوم بشيء منها أنفاً (بضمّتين) أي جديداً لم يسبق إليه فضلاً عن الجمع بينهما . والحال أن محمداً ظهر بهذا الامر العظيم وبهذا البيان الالهي الذي لم يعهد العرب مثله وذلك بعد الاربعين فلم يكن قبل هذا التاريخ استعداد له بشيء ولا وجد ما يدل عليه من قول ولا فعل ولا علم ولا عمل

قلت وقد يقول بعض الناس ان محمداً كان يظن في نفسه انه يوحى اليه فهو لم يتعمد الكذب تعمداً ، وإنما بلغ به التأمل انه كان يسمع تلك الاصوات ، ويرى تلك الخيالات فيظن ما سمعه وحيا ، وما رآه ملكا . والجواب على ذلك ان هذا الوحي كان قولاً ثقيلاً خارقاً للعادة وكان يؤخذ به أخذاً شديداً حتى كان يخاف على نفسه وطالما خاف أن يكون به جنون . وهذا من جملة الادلة على صدقه وكونه لم يتعمد النبوة تعمداً ولا استشرف لها بشيء من الاشياء وانه قد فاجأه الوحي مفاجأة لم يتقدمه عنده سوى الرؤيا الصادقة وانه جاء وحيا فيه من العلوم العالية كما يقول السيد رشيد والاعمال العظيمة ما كان قلبا للاحوال والالوضاع الدينية والمدنية والاجتماعية بل انقلابا لا يماثله انقلاب معروف في التاريخ

ثم ان هذا الكلام الذي نفث في روع محمد ليس من نسق كلامه الذي يعرفه الناس له فقد تكلم محمد عليه السلام قبل البعثة وتكلم بعد البعثة ولا شك انه كان من أفصح البشر وأبلغهم وقد نطق بمجوامع من الكلام يحار لها العقول ولكنه لا يزال بين كلامه الخاص وبين القرآن الموحى اليه بون بعيد فلا كلامه الخاص ولا كلام أحد من الانبياء يسامت درجة القرآن في كثير ولا قليل . وكل من تأمل في القرآن العظيم وكان بصيرا بالبلاغة وقابله بكلام البشر يدرك هذا الفرق الكبير .

لا جرم أن القرآن يعلو في بلاغته وفصاحته وأسلوبه وشدة تأثيره علوا كبيرا عن جميع كلام العالمين وكيف يكون ذلك إن لم يكن القرآن وحيا إلهيا ؟ فقول بعض الناس ان محمداً عليه السلام كانت تعروه نوبة عصبية فيظن نفسه يوحى اليه ليس مما يعلل هذا العلو الذي يعلوه القرآن الذي أوحى اليه على الكلام الذي كان يقوله

ثم اننا لا نفهم لماذا يآبون أن يعتقدوا بكون تلك الحالة التي كانت تعرفو محمداً عند نزول الوحي عليه هي من شدة وطأة الوحي وكونه قولاً ثقيلاً ؟ ولماذا يآبون إلا أن يسموا هذه الحالة التي كانت تعرفوه نوبة عصبية ناشئة عن مرض من أمراض الجسم ولولم يقم على وجود هذا المرض دليل ؟ فأبي استحالة في كون باريء الوجود يوحى إلى أحد عباده الذين اصطفى قولاً يحدث نزوله عليه نوبة عصبية يضطرب لها ويتفصد جسده عرقاً كما كان يعتري محمداً عليه السلام . وأيضا فالنوبة العصبية الناشئة عن علة بدنية تقتضي أن يكون صاحبها مصاباً بداء الصرع أو بمرض عصبي آخر تحدث منه هذه النوبات ، والحال ان النبي عليه السلام كان سليم الجسم ولم يكن مريضاً ، ولم يقل أحد من أهل عصره : لامن أعدائه ولا من أصحابه انه كان يصيبه شيء من أعراض الصرع أو من أعراض مرض آخر مزمن ، والذين ذهبوا إلى ذلك لم يستندوا على أدنى دليل ، وانما هي افتراضات مبنية على غير أساس ، وتخرصات بغير الواقع ، وب مجرد التخيل كما هو شأن كثير من الاوربيين ، أو هي فرار من التسليم ان تلك الحالة التي كانت تعرفو محمداً عند نزول الوحي عليه هي حالة خاصة بنزول الوحي لم تكن لتحدث لولا ذلك . ولكن محاولة هذا الفرار لاتغني هؤلاء الفارين من الحقيقة شيئاً إذ قد ثبت ان النبي ﷺ كان مزاجه عقلاً وبدناً بغاية الاعتدال حتى ان المستشرق الافرنسي ماسينيون نفسه برغم صبغته الكاثوليكية الشديدة يعترف بأن مزاج محمد كان موزوناً لاشائبة فيه . إذا فافتراض النوبة العصبية بغير تأثير الوحي لم يبق له مجال إلا التعت

وقد أشار السيد رشيد إلى هذا الموضوع فقال : إن أعداء الرسول من الافرنج وتلاميذهم تأولوا هذه الحالة التي كانت تحدث له بأنه كان يعرض له نوبات عصبية ، وتشنجات هستيرية ، وما أبعد الفرق بين حالته تلك وحالة أولي الامراض العصبية في المزاج ، فقد كان مزاجه ﷺ معتدلاً ، ولعله إلى الدموي العضلي أقرب : فذو

النوبة العصبية يعرض له في اثرها من الضعف والاعياء البدني والعقلي ما يرثي له العدو الثامت ، وأما صاحب تلك الحالة الروحانية العليا فكان يتلو عقب فصمها وتسريها عنه آيات أوسورة كاملة من القرآن الذي بينا في هذا البحث بعض وجوه إعجازه اللفظي والمعنوي الخ

قد اهتمنا بهذه النقطة دون سواها من هذا المعترك لانه لا يكاد يوجد أحد اليوم في أوربة من العلماء المحققين إلا وهو معترف بأن محمدا لم يعتمد ادعاء النبوة تعمدا لينال بها رياسة أو مجدا أو مالا أو حظا من حظوظ الدنيا ، وانه انما أراد إصلاح عقائد بني عصره من تقاليم عن عبادة الوثن الى عبادة الحق ، فهذا أمر قد اتفقوا عليه تقريبا ولكنه لا يزال يصعب عليهم التسليم انه كان نبيا يوحى اليه ، ولما كانوا لا يقدرّون أن ينكروا الحالة التي كانت تصيبه قبل ان ينطق بالقرآن وانها حالة لم يكن يتعمدها ولم يكن يمكنه لو اراد أن يتعمدها ويتظاهر بها لجأ بعضهم لتعليل هذه الحالة إلى قضية النوبة العصبية وذهب آخرون انه من قبيل الوله بانه تعالى الذي يخرج الانسان عن الطور المعتاد . وعلى كل حال قد اجتاز الاوربيون المرحلة الاولى من مراحل الاعتقاد بصحة دعوة محمد فقد لبثوا طوال القرون الوسطى يزعمون بتأثير كلام رهبانهم ان محمدا كان كاذبا فرجعوا الآن عن هذا القول إلى القول بأنه كان صادقا معتقدا مايقوله حقا وان هذا القرآن كان ينزل عليه وكان يعتقد هو انه من عند الله وكان يرى الملك مائلا أمامه ولكن هذا كان نتيجة المرض بقول بعضهم أو التخيل بقول الآخرين ، فادعاء الكذب على محمد قد سقط اليوم في أكثر بلاد النصرانية ، وقد اجتيزت المرحلة الاولى فبقيت المرحلة الثانية وهي تصديق كون محمد عليه السلام انما كانت تحدث له هذه الحالة من نفسه بدون أن يوحى اليه ، فان النوبة العصبية التي يزعمونها ليس من شأنها أن تأتي بهذا الاعجاز كله وأن تجعل هذا الفرق البعيد في كلام انسان واحد

غير المعتادة لسبب وحي كان يأتيه من قبل الله تعالى لا بمجرد التخيل ولا من قبل مرض . وليس بعجيب أن يتأول هذا التأول أهل عصر مادي كهذا العصر يصعب عليهم الاعتقاد بالغيب وتعليل الأمور بغير ما يقع تحت الحس . ولكنهم لو تأملوا لوجدوا أنفسهم عاجزين عجزاً تاماً بازاء الاسرار الكونية لا يحلون منها مشكلاً إلا وصلوا الى سد واقف في وجههم لا يقدرّون ان يجتازوه الا بعد التسلم ان هناك قوة خارقة للعادة وان القول بوجوده اقرب الى العقل والى العلم من هذه التمحلات الواهية التي يحاولون بها تعليل الحوادث كلها بالاسباب المادية وبلغتهم الامر في اكثر الاحيان الى تلمس الافتراضات المبنية على غير اساس

ان كتاب الوحي المحمدي الذي جاء به الاستاذ السيد رشيد رضا في هذه الايام قد أتى عصره على قدر ، لانه زمن صار يجب فيه التعليل حتى في الامور التي هي معدودة الى اليوم من البديهيّات . ومادنا نقول الاوربيين صاعداً ونازلاً ولا مناص لنا من هذا الاقتداء ، كان لا بد لعلماء المسلمين من إعداد الاسلحة العقلية اللازمة لمكافحة الشبهات التي هي من أصل أوربي ، فنكتب الاستاذ واف بهذا الغرض لا يخطر في البال معنى من المعاني التي يقتنع بها القارئ بعلمنا يا الاسلام الا وقد أشار اليه نعم قد فاته هذا الكتاب موضوع جليل ربما كان أدل على إعجاز القرآن وعلى صحة الوحي به وكونه من عند الله حقاً من سائر الموضوعات . وهذا هو ما في القرآن من الآيات المطابقة للقواعد العلمية التي انتهى اليها تحقيق الاوربيين في هذا العصر من جهة التحولات الكونية . فمن المعلوم أن محمداً عليه السلام فضلاً عن أنه كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، قد نشأ في مكة حيث لم تكن علوم ولا معارف ولا جامعات ولا مدارس وكذلك لم يكن في المدينة . وإن قلنا انه كانت علوم ومعارف ومدارس تقرأ فيها العلوم الكونية وذلك في غير جزيرة العرب

كالشام أو كالاسكندرية أو كأثينة أو كرومية مثلاً فإن محمداً كان بعيداً عن ذلك المحيط العلمي كله لا صلة له به . ثم إن العلوم الكونية التي كانت في ذلك العصر لم تكن فيها هذه النظريات الحديثة كالرأي السديمي مثلاً الذي يقتضي أن تكون الاجرام السماوية كلها في الاصل دخاناً ثم تتجمد كتلة واحدة ثم ينفصل بعضها عن بعض أجراماً متفرقة . وأنتك لتجد هذا في القرآن صريحاً (أولم ير الذين كفروا أن السموات والارض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي) فلو لم يكن القرآن وحياً ما كان يمكن محمداً أن ينطق بحقيقة علمية لم تتكرر فعلاً إلا في هذا العصر . وكذلك كون مدأ الحياة في الماء قيل إنه قال به بعض فلاسفة اليونان ولكنه لم يكن قاعدة علمية كما هي اليوم . وكذلك كون الزوجية منبثقة في الممالك الثلاث الكونية الحيوان والنبات والجماد لم يكن ذلك معروفاً في عصر محمد عليه السلام وإنما كانوا يعرفونه في المملكة الحيوانية وشي من المملكة النباتية المشابهة للحيوانية ، والحال أن القرآن جعل هذا المبدأ عاماً (ومن كل شيء خلقنا زوجين) وغير ذلك من الآيات التي جاء فيها مثل (من كل زوج بهيج) و (من كل زوج كريم) . وكذلك حركة الاجرام الفلكية ، فقد كان الفلكيون في القديم يعتقدون بوجود سيارات وثوابت ولم يتغير هذا الاعتقاد إلا بحسب علم الهيئة الجديد . والحال ان في القرآن ما يدل على أنه ليس من جرم غير متحرك (وكل في فلك يسبحون) وغير ذلك مما أحصاه المرحوم الغازي أحمد مختار باشا نحو من تسعين آية فيما أتذكر ، وفسره تفسيراً علمياً أثبت مافيه من المطابقة للنظريات العلمية الحديثة . وكان مختار باشا من أفذاذ الدهر في علم الهيئة والرياضيات والطبيعات فلا يقدر أحد أن ينكر ضلأته في هذه العلوم . ولقد أشرت على الاستاذ الحجة السيد رشيد بأن يلحق بكتابه هذا ليكون مستوفياً جميع شروط

الافادة خلاصة كتاب مختار باشا الغازي المسمى « سرائر القرآن » لان الذي يؤثر في عقول الاوربيين وعقول النشء الجديد في الشرق من مطابقة القرآن للنظريات العلمية الحديثة هو أعظم مما تؤثره البراهين العقلية والادبية والاجتماعية شكيب أرسلان

[المنار] كتب أمير البيان هذا التقرير بعد قراءته لكتاب الوحي المحمدي بيضة أشهر وكان قد نسي على ما يظهر أن الموضوع الذي قال هنا انه قد فاتنا — لم يفتنا، فاننا قد أشرنا اليه في مواضع كان آخرها ما يراه القارىء في آخر صفحة من خاتمة الكتاب، وفيها ذكر هذه المسائل التي مثل بها لما في القرآن من المسائل العلمية التي في القرآن وزيادة عليها، وقد وعدنا في هذه الخاتمة كما وعدنا في تصدير هذه الطبعة بأننا سنعقد لها فصولا في ملحقات الكتاب التي ستكون في الجزء الثاني منه مع أمثال لها من سنن السكون الاجتماعية والاخبار الغيبية والوصايا الصحية وفات الامير حفظه الله تعالى ما كنا اقترحناه عليه عندما كتب الينا انه سيكتب تقريرا للكتاب بأن يجعله استدراكا على كلام له في كتاب (حاضر العالم الاسلامي) النفيس مضمونه انه لم يوجد في هذا العصر كتاب يصلح للدعوة الافرنج إلى الاسلام

وأما ما ذكره في أول التقرير من استغناء المسلمين الصادقين عن هذا الكتاب أو كونه غير موجه اليهم فغرضه خاص بصحة عقيدتهم في أصل الاسلام، ولكن السواد الأعظم منهم عرضة للتشكيك بالشبهات العلمية العصرية أو دعاة التنصير لأنهم أسرى التقليد، وأشرنا الى حاجتهم الى براهينه على إعجاز القرآن والنبوة في مقدمة التصدير

وقد وصل هذا التقرير بعد طبع ما اخترناه من التقارير فجعلناه مسك الختام.

مقدمة الطبعة الاولى

بسم الله الرحمن الرحيم

شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ، وَمَا
اِخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ
وَمَنْ يَكْفُرْ بآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ * فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ
أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ، وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ؟ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا ، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا
عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (سورة آل عمران ٣ : ١٨ - ٢٠)

ارتقاء البشر المادى، وهبوطهم الأدبى، وحاجتهم إلى الدين
إن من العلوم اليقيني الثابت بالحواش أن علوم الكون المادية ثبت في هذا
العصر وثوبا يشبه الطفور، وتؤتي من الثمار البانعة بتسخير قوى الطبيعة للانسان
ما صارت به الدنيا كلها كأنها مدينة واحدة ، وكان أقطارها بيوت لهذه المدينة،
وكان شعوبها عشائر وفصائل لأمة واحدة في هذه البيوت (الأقطار) يمكنهم
أن يعيشوا فيها إخوانا متعاونين ، سعداء متحابين ، لو اهتدوا بالدين
وإن من العلوم اليقيني أيضا أن البشر يرجعون القهقرى في الآداب والفضائل
على نسبة عكسية مطردة لارتقائهم في العلوم المادية واستمتاعهم بشراتها ، فهم
يزدادون إسرافا في الرذائل ، وجرأة على اقتراف الجرائم، وافتنانا في الشهوات

البيمية ، ونقض ميثاق الزوجية ، وقطيعة وشائج الأرحام ، وعقوق الوالدين ، ونبد هداية الأديان ، حتى كادوا يفضلون الاباحة المطلقة على كل ما يقيد الشهوات من دين وأدب وعرف وعقل ، بل رجع بعضهم إلى عيشة العري في أرقى ممالك أوربة علما وحضارة ، كما يعيش بعض بقايا الهمج السذج في غابات أفريقية وبعض جزائر البحار النائية عن العمران

وإن من المعلوم اليقيني أيضا أن الدول الكبرى لشعوب هذه الحضارة أشد جناية عليهم وعلى الانسانية من جنايتهم على أنفسهم - باغرائها أضغان التنافس بينهم ، وباستعمالها جميع ثمرات العلوم ومنافع الفنون في الاستعداد للحرب العامة التي تدمر في أشهر أو أيام معدودة ، صروح العمران التي شيدتها العصور الكثيرة ، وتقتل الملايين فيها من غير المحاربين كالنساء والأطفال والشيوخ ، وبصرفها معظم ثروات شعوبها في هذه السبيل وفي سبيل ظلمها للشعوب الضعيفة التي ابتليت بسلطانها ، وسلبها ثروتهم وحریتهم في دينهم ودنياهم . فالعالم البشري كله في شقاء من سياسة هذه الدول الباغية الخبيثة الطوية . وكل ما عقد من المؤتمرات لدرء أخطارها لم يزد ناراها إلا استعارا . ولو حسنت نياتها وأنفقت هذه الملايين التي تسلبها من مكاسب شعوبها وغيرهم في سبيل الإصلاح الانساني العام ، لبلغ البشر بها أعلى درجات الثراء والرخاء .

كل ما ذكر معلوم باليقين ، فهو حق واقع ، ماله من دافع وإن من المعلوم من استقراء تاريخ هذه الحضارة المادية أن هذه الشرور كانت لازمة لها ، ونمت بنمائها ، فكان هذا برهاننا على أن العلوم والفنون البشرية المحض غير كافية لجعل البشر سعداء في حياتهم الدنيا ، فضلا عن سعادتهم في الحياة الآخرة ، وإنما تتم السعادة ثان لهم بهداية الدين ، فالإنسان مدني بالطبع ، ومتدين بالطبع ، أو بالفطرة كما يقول الاسلام
من أجل ذلك فكر بعض عقلاء أوربة وغيرهم في اللجوء إلى هداية الدين ،

وأنة هو العلاج لأدواء هذه الحضارة المادية والترياق لسمومها ، وتمنوا لو يبعث في الغرب أوفي الشرق نبي جديد بدين جديد يصلح الله بهدايته فسادها ، ويقوم بها منادها ، لأن الأديان المعروفة لهم لا تصالح لهذا العصر وقد فسد حال جميع أهلها^(١) وكان من يسمون دينهم دين المحبة ، مصداقا لقول الله تعالى (٥ : ١٤) فَأَعْرَبْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ

يبد أن هؤلاء المفكرين لا يعرفون حقيقة دين القرآن ، وهو الدين الالهي العام ، والمانع لهم من معرفته ثلاثة حجب تحول دون النظر الصحيح فيه ، وعلم فهمهم للقرآن كما يجب أن يفهم . فأما الحجب دونه فهذا بيانها بالابحاز :

الحجب بين الافرنج وحقيقة الاسلام

(الحجاب الأول) الكنيسة أو الكنائس التي عاداته منذ بلغت دعوته ، وطلقت تصوره بصور مشوهة باطلة ، بدعاية عامة فيها من اقتراء الكذب وأقوال الزور والبهتان ، عالم يعهد مثله في أهل ملة من البشر في زمن من الأزمان ، وألفت في ذلك من الكتب والرسائل ، والأغاني والأناشيد والقصائد ، ما يعرف بطلانه كل مؤرخ مطلع على الحقائق ، ثم إنها جعلت تشويهه ووجوب معاداته ركنا من أركان التربية والتعليم في جميع مدارسها ، والمدارس التي يتولى خربجوها تعليم الناس فيها ، فما من أحد يتعلم فيها من أتباعها إلا وهو يعتقد أن جميع المسلمين أعداء للمسيح والمسيحيين كافة ، فيجب عليه عداوتهم ما استطاع . والحق الواقع أن الاسلام هو صديق المسيحية المتم لهدايتها ، وان محمدا ﷺ هو الفارق ليط روح الحق الذي بشر به المسيح عليه السلام^(٢)

- (١) اول من نقل لنا هذا الرأي جريدة السياسة منذ سنين ثم تكرر نقله
(٢) راجع آخر الفصل ١٥ من انجيل يوحنا وأوائل (١٦ : ١٢ - ١٤)

(الحجاب الثاني) رجال السياسة الأوربية، فانهم ورثوا عداوة الاسلام من الكنيسة، وتلقوا مفترياتها في الطعن عليه بالقبول، وضاعف هذه العداوة له والضرارة بحربه، طمعهم في استعباد شعوبه واستعمار ممالكهم

وإذا كان رجال الدين قد ملأوا الدنيا كذبا واقتراء على الاسلام - ومن أسس الدين الصدق وقول الحق والحب والرحمة والعدل والايثار - فأني شيء، يكثر فعله على رجال السياسة وأساس بنائها الكذب، وأقوى أركانها الجور والظلم والعدوان، والقسوة والآثمة والخداع، وهو ما نراه بأعيننا ونسمع أخباره بآذاننا كل يوم في المستعمرات الأوربية ؟ بل نحن نعلم أن سبب اقتراء رجال الدين على الاسلام هو السياسة لا الدين نفسه، وأن قاعدتهم المشهورة «الغاية تبرر الوسيلة» سياسية لا إنجيلية، فما كان لدين أن يبيح الجرائم والذائل باتخاذها وسيلة لمنفعة أهله وإن دينية.

(الحجاب الثالث) سوء حال المسلمين في هذه القرون الأخيرة، فقد فسدت

حكوماتهم وشعوبهم، واستحوذ عليهم الجهل بحقيقة دينهم ومصالح دينهم، حتى صاروا حجة لأعدائهم فيها على أنه لا خير فيهم ولا في دينهم، وأمكن هؤلاء الأعداء أن يفتنوا بهذه الحجة الداحضة أكثر من يتخرج في مدارسهم السياسية الاحادية، والدينية التنصيرية، من أبناء ملتهم أو جلدتهم ومن غيرهم، حتى نابتة المسلمين أنفسهم أيضاً. وهم يختارون من هذه النابتة الأفراد التي تتولى أعمال الحكومة والتعليم في مدارسها في كل قطر خاضع لنفوذ دولهم الفعلي، بأي اسم من أسمائه، من فتح وامتلاك وحماية واحتلال وانتداب، أو لنفوذهم السياسي والتعليمي كما فعلوا في بلاد الترك وإيران، لتساعدهم على هدم كل شيء إسلامي فيها من اعتقاد وأدب وتشريع

وقد كان السيد جمال الدين الأفغاني حكيم الاسلام وموقف الشرق يرى أن هذا الحجاب أكتف الحجب الحائلة بين شعوب أوربة الحرة والاسلام،

وقل لي الثقة عنه أنه قال: إذا أردنا أن ندعو أحرار أوروبا إلى ديننا فيجب علينا أن نقتنعهم أولاً أننا لسنا مسلمين، فانهم ينظرون إلينا من خلال القرآن هكذا - ورفع كفيه وفرج بين أصابعها - فيرون وراءه أقواما فشا فيهم الجهل والتخاذل والتواكل... فيقولون لو كان هذا الكتاب حقاً مصلحاً لما كان أتباعه كما نرى لا ن شكر أن بعض أحرار الأفرنج قد عرفوا من تاريخ الإسلام ما لم يعرفه أكثر المسلمين، فأنصفوه فيما كتبوا عنه من تواريخ خاصة، ومن مباحث عامة في العلم والحضارة والدين، وأن منهم من اهتدى به عن بصيرة وبينة، ولكن ما كتبه هؤلاء كلهم لم يكن مبنياً لحقيقته كلها، ولم يطالع عليه إلا القليل من شعوبهم، وكان جل تأثيره في أنفس من اطعوا عليه أن بعض الناس أخطئوا في بيان تاريخ المسلمين فانتقد عليهم آخرون، فهو لم يثبت الحجب الثلاثة المضروبة بينهم وبين حقيقة الإسلام وأما عدم فهمهم للقرآن كما يجب - وأعني به الفهم الذي تعرف به حقيقة إعجازه وتشريعه وإصلاحه، وكونه هو دين الله الأخير الكامل الذي لا يحتاج البشر معه إلى كتاب آخر ولا إلى نبي آخر - فله أربعة أسباب خاصة، وراء تلك الحجب العامة، وهي: -

الأسباب العائقة عن فهم الأجانب للقرآن

جهل بلاغة القرآن

(أولها) جهل بلاغة اللغة العربية التي بلغ القرآن فيها ذروة الإعجاز في أسلوبه ونظمه وتأثيره في أنفس المؤمنين والكافرين به جميعاً، فأحدث بذلك ما أحدث من الثورة الفكرية والاجتماعية في العرب، والانقلاب العام في البشر، كما شرخناه في هذا الكتاب. وقد كان من إكبار الناس لهذه البلاغة أن جعلها أكثر علماء المسلمين موضوع تحدي البشر بالقرآن دون غيرها من وجوه إعجازه، وجعلوا

عجز العرب الخالص عن معارضته بها ، ثم عجز المولدين الذين جمعوا بين ملكة العربية العملية وملكة فلسفتها من فنون النحو والبيان ، هو الحجة الكبرى علي نبوة محمد ﷺ وقد فقد العرب الملكتين منذ قرون كثيرة إلا أفراداً متفرقين منهم — فما القول في غيرهم ؟ فعلماء المسلمين في هذه القرون يحتجون بعجز أولئك ولا يدعون أنهم يدركون سر هذا الاعجاز أو يذوقون طعمه ، بل قال بعض علماء النظر المتقدمين منهم إن الاعجاز واقع غير معقول السبب ، فما هو إلا أن الله تعالى صرف الناس عن معارضته بقدرته . والصواب أن منهم من حاول المعارضة فعجزوا ، إذ ظنوا أن إعجازه بفواصل الآيات التي تشبه السجع فقلدوها فافتضحوا ، ومن متأخري هؤلاء من ادعى النبوة كسيح الهند القادياني الدجال ، ومن ادعى الألوهية (كالبهاء) وقد أخفى أتباع هذا كتابه الملقب بالأقدس لئلا يفتضحوا به بين الناس ، وأضعف منه وأسخف بيان أستاذه الباب ،

قصور ترجمات القرآن وضعفها

(ثانيها) أن ترجمات القرآن التي يعتمد عليها علماء الافرنج في فهم القرآن كلها قاصرة عن أداء معانيه التي تؤديها عباراته العليا وأسلوبه المعجز للبشر ، وهي إنما تؤدي بعض ما يفهمه المترجم له منهم إن كان يريد بيان ما يفهمه ، وإنه لمن الثابت عندنا أن بعضهم تعمّدوا تحريف كله عن مواضعه ، على أنه قلما يكون فهمهم تاما صحيحا ، ويكثر هذا فيمن لم يكن به مؤمنا ، بل يجتمع لكل منهم القصوران كلاهما : قصور فهمه وقصور لغته . وقد اعترف لي ولغيري بهذا مستر (محمد) مارماديوك بكتل الذي ترجمه بالانكليزية وجاء مصر منذ ثلاث سنوات فعرض على بعض علماء العربية ، المتقنين لغة الانكليزية ما رأى أنه عجز عن أداء معناه منه ، وصحح بمساعدتهم ماذا كرم فيه^(١)

(١) ولا يزال تصحيح ترجمته ناقصا وبإفني انه سيصححها مرة أخرى

واعترف بذلك قبله الدكتور ماردر ديس المستشرق الفرنسي الذي كلفته وزارته الخارجية والمتعارف الفرنسية لدولته ترجمة ٦٢ سورة من السور الطول والمئين والمفصل التي لا تكرر فيها ففعل ، فقد قال في مقدمة ترجمته التي صدرت سنة ١٩٢٦ ما معناه بالعربية :

« أما أسلوب القرآن فانه أسلوب الخالق جل وعلا ، فان الاسلوب الذي ينطوي على كنه الكائن الذي صدر عنه هذا الاسلوب لا يكون إلا إلهيا . والحق الواقع أن أكثر الكتاب ارتيابا وشكا قد خضعوا لسلطان تأثيره (في الأصل : لتأثير سحره - يعني تأثيره الذي يشبه السحر في كونه لا يعرف له سبب عادي) وأن سلطانه على الثلاثمائة الملايين من المسلمين المنتشرين على سطح المعمور لبالغ الحد الذي جعل أجنب « المبشرين » يعترفون بالاجماع بعدم إمكان إثبات حادثة واحدة محققة ارتد فيها أحد المسلمين عن دينه إلى الآن ^(١) »

« ذلك أن هذا الأسلوب الذي طرق في أول عهده آذان البدو ^(٢) كان نثرا جديدا طريفا ، يفيض جزاؤه في اتساق نسق ، متجانسا مسجعا ، لفعله أثر عميق في نفس كل سامع يفقه العربية . لذلك كان من الجهد الضائع غير المنثم أن يحاول الانسان أداء تأثير هذا النثر البديع « الذي لم يسمع بمثله » بلغة أخرى ، وخاصة اللغة الفرنسية الضيقة (التي لاسعة فيها للتعبير عن الشعور) المرة ^(٣) (التي لا تتنازل عن حقوقها) والقاسية . وزد على ذلك أن اللغة الفرنسية ومثلها جميع اللغات العصرية ليست لغة دينية ، وما استعملت قط للتعبير عن الألوهية » اهـ

-
- (١) ما يسمع من تنصر بعض المسلمين ما هو إلا كراه لبعض العوام الجاهلين أو استمالة لبعض الفقراء منهم بالمال ، أو تربية لبعض الأطفال
 (٢) يعني العرب الذين كانت تغلب عليهم البداوة حتى في خواصرهم ككثرة وثرث
 (٣) مؤث المرث كتعب : الصبور على المحصام ، الذي لا يتنازل عن حقه

تم تكلم عن عنايته هو مدة تسع سنوات متواليات بمحاولة ثقل شيء من القرآن إلى اللغة الفرنسية على شرط المحافظة على بلاغة الأصل، وتساءل هل أمكنه التغلب على هذه الصعوبة أم لا؟ يعني أنه يشك في ذلك

أسلوب القرآن المخالف لجميع أساليب الكلام

(ثالثها) أن أسلوب القرآن الغريب المخالف لجميع أساليب الكلام العربي وغيره، وطريقته في مزج العقائد والمواعظ والحكم والأحكام والآداب بعضها ببعض في الآيات المتفرقة في السور — وهو ما يبيننا سببه وحكمته في هذا الكتاب — قد كان حائلا دون جمع كبار علماء المسلمين من المفسرين وغيرهم لكل نوع من أنواع علومه ومقاصده في باب خاص به، كما فعلوا في آيات الأحكام العملية من العبادات والمعاملات، ودون القواعد والأصول الاجتماعية والسياسية والمالية التي يرى القارئ نموذجها في هذا الكتاب، اذ لم يكونوا يشعرون بالحاجة إليها كما نشعر في هذا العصر وقد عني بعض الأفرنج (١) بوضع كتاب باللغة الفرنسية جمع فيه آيات القرآن بحسب معانيها، ووضع كلاً منها في باب أو أبواب خاصة بقدر فهمه، ولكنه أخطأ في كثير من هذه المعاني وقصّر في بعض مما علمه، وما جهله منها عظيم، ذلك بأن أخذ القواعد والأصول العامة (٢)، من هذه الآيات يتوقف على العلم بسيرة النبي ﷺ وسنته في بيان القرآن وتنفيذه لشرعه، وآثار خلفائه وعلماء أصحابه من بعده، كما يعلم من يراجع في ذلك الكتاب الآيات الدالة على ما بيناه في كتابنا هذا من مقاصد القرآن بالاختصار، وما فصلناه منها في تفسير المنار

(١) هو المستشرق العلامة المسيو جول لا بوم

(٢) أي لا يكتفي في فهمها العلم بمتن اللغة العربية وقواعدها وبلاغتها وفهمها

الاسلام ليس له دولة ولا جماعات

(رابعها) أن الاسلام ليس له دولة تقيم القرآن وسنة الرسول ﷺ بالحكم وتنوّل، نشره بالعلم ، ولا جماعات دينية تنوّل بحمايتها الدعوة إليه بالحجة، وليس لأهله مجمع ديني علمي يرجع إليه في بيان معاني القرآن وهداياته في سياسة البشر ومصالحهم العامة، التي تتجدد لهم بتجدد الحوادث ومخترعات العلوم والفنون ، وفيما يتعارض بين العلوم ونصوص الدين ، فيرجع إليها علماء الافرنج في استبانة ما خفي عليهم من نصوصها

وأعجب من هذا وأغرب أن المسلمين أنفسهم قد تركوا من بعد خير القرون الأولى أخذ دينهم من القرآن المنزل ومن بيان الرسول ﷺ له كما أمره الله تعالى فيه بقوله (١٦ : ٤٤) وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) وما زالوا يهجرون الاهتداء بها حتى استغنوا عنها استغناء تاماً بأخذ عقائدهم عن كتب المتكلمين، وأخذ أحكام عباداتهم ومعاملاتهم عن كتب علماء المذاهب غير المجتهدين ، وهذه الكتب لا تقوم بها حجة الله تعالى على البشر، ولا سيما أهل هذا العصر الذي ارتقت فيه جميع العلوم العقلية والتشريعية، حتى صار المسلمون منا، يأخذون عنهم العلم كما كان أجدادهم يأخذون. عنا ، بل فيها من آراء المتكلمين والفقهاء ، وروايات الكذابين والضعفاء ، ما قد يعد حجة على الاسلام وأهله ، كما أن سوء حال المسلمين في فشو الجهل في شعوبهم، والفساد والانحلال في حكوماتهم ، قد اتخذ حجة على دينهم ، فصاروا فتنة للذين كفروا به (١)

(١) أي صاروا منفريين للكافرين عن الاسلام وصادين لهم عنه لئلا يكونوا مثلهم ، واقرأ قوله تعالى (٦٠ ، ٥ ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا)

وإذا كان هذا حال المسلمين في فهم القرآن وهدايتة، فكيف يكون حال الشعوب التي نشأت على أديان أخرى ألفتها، ولها رؤساء يربونهم عليها ويصدونهم عن غيرها ؟ ودول حربية قد عادت الاسلام منذ بضع قرون، بما لو وجهوه إلى الجبال لاندكت وزالت من الوجود، ولكنه دين الله الحي القيوم، فهو باق ما دام البشر في الأرض لا يزول أو يزولوا أجمعون

هذه أظهر الأسباب لحفاء حقيقة الاسلام الكاملة على علماء الحضارة العصرية من الأجانب ومن المسلمين أيضا وتمنيهم لو يبعث نبي جديد بهداية إلهية عامة كافية لاصلاحهم

ولما كان الاسلام هودين الانسانية العام الدائم الجامع لكل ما يحتاج إليه جميع الشعوب من الهداية الدينية والدنيوية، وجب على العقلاء الأحرار والعلماء المستقلين الذين يتألمون من المفاسد المادية التي تفاقم شرها في هذا العهد، أن يعنوا بهتك تلك الحجب التي تحجبهم عن النظر فيه، وإزالة الموانع التي تعوقهم عن فهم حقيقته، وأن يدعوا جميع الشعوب إلى أخوته، وتكميل الحضارة الانسانية بهدايته

نتيجة هذه المقدمات

﴿بيان هذا الكتاب لحقيقة الاسلام، بما تقوم به الحجة على جميع الأنام﴾

أما بعد فاني أقدم لهم هذا الكتاب الذي صنفته في إثبات (الوحي المحمدي) وكون القرآن كلام الله عز وجل، وكونه مشتملا على جميع ما يحتاج إليه البشر من الاصلاح الديني والاجتماعي والسياسي والمالي والحربي. وقد أطلت في بيان هذه المقاصد الأساسية بعض الاطالة لأنها ماثار جميع الفتن والمفاسد التي يشكو منها عقلاء هذا العصر، وأما توفية هذا الموضوع حقه فلا يكون إلا في سفر كبير أو أسفار يجمع فيها مقاصد القرآن كلها مع بيان حاجة البشر إليها في أمور معاشهم ومعادهم، وهو ما أبينه في تفسير المنار باجمال قواعد كل سورة وأصولها في آخر تفسيرها، بعد بيانها بالتفصيل في شرح آياتها

على أنني لم أكتب هذا البحث أول وهلة لهذا الغرض ، وإنما بدأت منه بفضل استطراذي لتفسير آية (أَكُنْ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ) الخ من أول سورة يونس (١٠ : ٢) بينت به الدلائل القطعية على أن لقرآن وحي من الله تعالى كان محمد ﷺ يعجز كغيره عن مثله بعلمه ولفته وتأثيره ، وأنه ليس وحيًا نفسيًا نابعًا من نفسه كما يزعم بعض الباحثين من الافرنج وغيرهم ، وأنه أعم وأكمل وأثبت من كل وحي كان قبله ، وأن حجته قائمة على المؤمنين بالوحي التشريعي وعلى غيرهم

ثم بدا لي في أثناء كتابته أن أجرده في كتاب خاص أدعو به شعوب الحضارة المادية من الافرنج واليابان إلى الاسلام ، بتوجيهه أولاً إلى علمائهم الأحرار ، حتى إذا ما اهتموا به تولوا دعوة شعوبهم ودولهم إليه بلغاتهم ، ولهذا زدت فيه على ما كتبت في التفسير ، ووضعت له الخاتمة التي صرحت فيها بالدعوة وجعلتها هي المقصودة بالذات منه

ولو أنني قصدت هذا منذ بدأت بالكتابة لوضعت له ترتيباً آخر يفيني عن بعض ما فيه من الاستطراد والتكرار بتحقيق كل مسألة في موضعها ، على أن بعض التكرار متعمد فيها . ولكنتني كتبت في أوقات متفرقة ، وحالات بؤس وعسرة ، لا أراجع عند موضوع منه ما قبله ، ولا أعتمد إلا على ما أتذكره من القرآن نفسه ، على صعوبة استحضار المعاني المتفرقة في سوره ، وإلا بعض الأحاديث في مواضعها من كتبها لتخريجها والثقة بصحتها ، وإني أحيل القارىء له في كل إجمال على مراجعة تفسير المنار في تفصيله ، وفي كل إشكال على مراجعة محرره

محمد رشيد رضا

منشئ مجلة المنار

وحررت هذه المقدمة في ليلة ذكرى المولد المحمدي من شهر ربيع الأول سنة ١٣٥٢ (وهي على الأرجح عند المحدثين التاسعة من هذا الشهر- ونشر الكتاب في اليوم ١٢ منه وهو يوم المولد المشهور)

فاتحة الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ،
 وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ
 وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا
 (١٦٣) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ
 عَلَيْكَ، وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا (١٦٤) رُسُلًا مُبَشِّرِينَ
 وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ، وَكَانَ
 اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٦٥) لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ
 بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (١٦٦) إِنَّ الَّذِينَ
 كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا (١٦٧)
 إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ
 طَرِيقًا (١٦٨) إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ
 عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٦٩) يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمُ الرُّسُولُ بِالْحَقِّ
 مِنْ رَبِّكُمْ فَأَمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ، وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ مَافِي السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧٠) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا
 تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ، إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى

إِنَّ مَرِيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرِيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ،
فَمَا مِنْوْا بِاللَّهِ وَرُسُلَهُ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً ، انْتَهُوا خَيْرَ الْكَمِ ، إِنَّمَا
اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ، لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا
فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (١٧١) لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ
يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ، وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ
وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ؛ وَأَمَّا الَّذِينَ
اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ، وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ
دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٧٣) يَاءَ يَهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ
مِّنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا (١٧٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ
وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ
صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (١٧٥)

ذِكْرُ (الوحي المحمدي) في آيات متفرقة من السور المكية التي كانت تنلى
على منكري وحي النبوة من العرب الذين كانوا أقوى البشر استعدادا لهداية هذا
الوحي إذا عقلوه وآمنوا به ، لانه لم يكن عندهم من التقاليد الدينية المسيطرة على
القلوب والارادات ، ولا من أمشاج الفلسفة البشرية الشاغلة للعقول والافكار ،
ولا من الاستبداد السياسي والاستعباد الروحاني السالين لاستقلال الافراد
والجماعات ، ما يصرفهم عن فقهه وتدبره والاهتداء به ، أو يأفكهم عن الدعوة
اليه وحمايته ، والجهاد بالاموال والانس في سبيل إقامته

دعوة الرحي المحمدي في هذه الآيات

ثم ذكر في هذه الآيات من هذه السورة المدنية (النساء) بما لم يذكر بمثلا في تفصيله ، وعموم الخطاب وخصوصه ، فخطب في أولها محمداً رسول الله وخاتم النبيين ﷺ ثم وجه الخطاب في بعضها إلى الناس كافة ، وفي بعض آخر إلى أهل الكتاب خاصة ، فبدأ خطاب الناس كافة بأنه قد جاءهم (الرسول) الكامل الذي بشر به الانبياء والرسل ، والنبي الأعظم الذي كانت تنتظره الاقوام والامم ، ولذلك ذكر معرقاً بأداة التعريف (١) وأنه جاءهم بالحق من ربهم ، وهو الحق المحض الذي جهله المشركون ، واختلف فيه الكتابيون ، فضلوا في هداية أنبيائهم ورسلمهم ، وكفر بعضهم بعضاً ، ولعن بعضهم بعضاً ، وكتب الفريقين واحدة ، وقد بين لهم ذلك في الآيات التي قبل هذه الآيات مباشرة ، وأهمها الخلاف في رسولهم النبي الروحاني المصلح ، المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ، ثم أعاد ذكره ونهاهم عن الغلو فيه في هذه الآيات . وهي مشتملة على المسائل العشر الآتية :

(الأولى) ان الله تعالى أوحى إلى محمد ﷺ كما أوحى إلى نوح أول رسول أرسله إلى الامم وقص عليه خبره في السور المكية وإلى النبيين من بعده ، فوحى اليه كوحى اليهم ، أي مثله في جنسه وموضوعه والغرض منه ، فهو ليس بدعا من الرسل ولا

(١) كان اليهود ينتظرون ثلاثة من الانبياء المصلحين : المسيح وإيلياء والنبي المطلق الذي بشر به موسى ومن بعده . ومن ادلة ذلك ملجاء في القصل الأول من انجيل يوحنا وملخصه أنه لما ظهر يوحنا المعمدان (هو يحيى بن زكريا عليهما السلام) وصار يعمد الناس في نهر الاردن ارسلوا اليه وفدا ليعرفوا اي الثلاثة هو فسألوه : أنت المسيح ؟ قال لا ، قالوا : أنت إيليا ؟ قال لا ، قالوا : أنت النبي ؟ قال لا . « ٢٥ » فسألوه وقالوا له فما بالك تعمد الناس إذا كنت لست بالمسيح ولا إيليا ولا النبي ؟ الخ فذكروا النبي معرقاً ، ولو قالوا له أنت نبي بالشكر لما قال لا .

أولهم، ولكنه أتم الرسل المكمل لهذاهم، وخص بالذكر منهم أشهر أنباء بني إسرائيل المعروفين عند أهل الكتاب المجاورين له في الحجاز وما حوله ، وقد كانت دعوته ﷺ بأقت اليهود والنصارى جميعا فيها. والمراد بالأسباط الأنبياء من سلالة أبناء يعقوب ، عم ثم خصص

(الأنة) أنله تعالى رسلا آخرين منهم من قص عليه خبرهم في السور المكية إجمالاً كقوله في سورة الانعام بعد قصة إبراهيم مع أبيه وقومه (٨٥:٦) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كَلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ - إلى قوله في الآية ٩١ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ) وتفصيلاً في سور الأعراف وهود ويوسف وطه والطواسين «الشعراء والنمل والقصص» وما دونهن . ومنهم من لم يقص عليه خبرهم من أنبياء سائر الأمم لعدم العبرة لقومه ولخيراتهم بقصصهم ، ولا ظهور إقامة الحجة بها عليهم، وربما كان ذكر بعض بافتنة لبعضهم: يدعون أنها أسماء مخترة ، وقد جاء في بعض السور أنه تعالى أرسل في كل أمة رسولا . وترى هذا في موضع آخر من هذا الكتاب بشواهد ، وهو حجة على أهل الكتاب الذين يحصرون فضل الله على البشر بالنبوة فيهم .

(الأنة) أن وظيفة جميع الرسل تعليم الناس ما به يصلح حالهم ، ويستعدون لما لهم ، بطريق التبشير لمن آمن وأصلح عملاً بحسن الثواب ، وإنذار من كفر وأفسد عملاً بالعقاب ، وحكمة ذلك أن لا يكون للناس على الله حجة بماجهلهم بمايجب عليهم من أصول الإيمان، وما تصاح به الأنفس وتتركى من صالح الأعمال، فتستعد لسعادة الدنيا بقدرها، وسعادة الآخرة من بعدها. وقد فصلنا في هذا الكتاب وجه الحاجة إلى هدايتهم، وعجز البشر عن الاستقلال بمعرفتها بقولهم

(الأبة) شهادة الله تعالى وشهادة ملائكته بصحة هذا الوحي له ﷺ ، وأورد.

هذه الشهادة مفتوحة بقوله (لكن الله يشهد) وهو استدراك على إنكار معلوم من قرينة حال الكفار به عليه السلام من المشركين وأهل الكتاب. ومما حكاه من قبل عن المشركين من الانكار والمطالبة بالآية أو الآيات، كما تراه في سورة الأنعام ويونس وغيرهما، وما حكاه قريبا في هذه السورة (النساء) عن اليهود بقوله (١٠٣: ٤) يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ، فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً (الح) فهو تعالى يقول له إن أولئك المشركين ينكرون وحي الله اليك والى غيرك، وإن هؤلاء الجاحدين يكتمون الشهادة بنبوتك وبشارة أنبيائهم بها (لكن الله يشهد بما أنزل اليك) (الح) فأما شهادته تعالى فقد بينها بيانا مستأنفا لوقوعها جوابا لسؤال مقدر، وهو قوله (أنزله بعلمه) أي أنزل هذا القرآن الذي أوحاه اليك متلبسا بعلمه الخاص الذي لا تعلمه أنت ولا قومك، من تشريع وحكم وآداب وعبر وأخبار غيب سابقة وحاضرة وآتية، بأسلوب معجز للبشر. وهو ما يفصله هذا الكتاب بالشواهد من السور العديدة—وأما شهادة الملائكة له فما أخبر به تعالى من نزول الروح الأمين جبريل عليه السلام عليه بهذا القرآن، وما أيده به يوم الفرقان يوم التقى الجمعان في غزوة بدر، وكذا غزوات الأحزاب وحنين، وفي أحوال أخرى

هذه الشهادة من الله، بهذا القرآن الذي لا يمكن أن يكون إلا من الله، حق لا ريب فيه، وهي أظهر من شهادة يوحنا للمسيح (عليها السلام) إذ روى يوحنا أنه قال (٥ : ٣١) إن كنت أشهد لنفسي فليست شهادتي حقا ٣٢ الذي يشهد لي هو آخر وأنا أعلم أن شهادته التي يشهد بها لي هي حق ٣٣ أنتم أرسلتم إلى يوحنا فشهد للحق) وكذلك هي أظهر وأقوى من شهادة المسيح لنفسه فيما رواه يوحنا أيضا إذ دعا اليهود الى اتباع النور الذي جاء به (٨ : ١٣) فقال له

تفرّسيون : انت تشهد لنفسك شهادتك ليست حقاً (١٤) فأجاب يسوع وقال لهم : وإن كنت اشهد لنفسي فشهادتي حق (وقد صدق عليه السلام في ان شهادته لنفسه حق ، ولكن لا تقوم بها الحجة على الخصم ، وأما شهادة الله تعالى لنيه في القرآن فهي حجة على كل أحد يعجز عن الاتيان بمثله ، فهي إذن حجة على كل أحد . (الخامسة) الاخبار في الآيات ١٦٧ - ١٦٩ بحال الكفار الذين يتعدى ضررهم الى غيرهم من الناس ، بصدمة الناس عن سبيل الله وهي الاسلام ، وبظلمهم لانفسهم وللناس ، وكون جزائهم بحسب سنة الله في أنفُس البشر ونظام الاجتماع ، أن يظاولوا سائرين على طريق الباطل والشر الموصلة إلى عذاب جهنم ، إذ لا يغفر الله تعالى لهم إلا بتركية أنفسهم بالايان والعمل الصالح الذي يهدي اليه الوحي ، وقد صاروا بضلالهم في أشد البعد عنه خلافا لما يقوله الكفار من نيل المغفرة بمجاه الشفعاء الشخصي مع بقاء الأ نفس على فسادها ، وظلمات ظلمها وجهلها ، وهو ماسرى الى أهل الكتاب من المشركين ، إلا أن بعض النصارى خصوه بالمسيح ، وبعضهم جعلوه عاما لجميع القديسين

(السادسة) مخاطبة جميع الناس (في الآية ١٧٠) بأن هذا الرسول محمد ﷺ قد جاءهم بالحق من ربهم حقاً محضاً غير مشوب بالآراء والاهواء البشرية ، ولا بالتقاليد الكهنوتية (١) التي زادها رؤساء الاديان على ما جاءهم به الرسل الاولون فلم يعد أحد يعرف ما هو من الله تعالى وما هو منهم ، فان يؤمنوا بما جاءهم به هذا الرسول يكن خيراً لهم ، وإن يكفروا فالله غني عنهم

(١) الكهنوتية نسبة الى الكهنوت ، وهي كلمة دخيلة من اصطلاح النصارى واليهود والوثنيين معناها وظيفة الكاهن وهو الذى يتولى بعض التقاليد الدينية المختلفة عند كل منهم

(السابعة) نداؤه أهل الكتاب في الآية ١٧١ بالتهي عن الغلوفي الدين، وعن قول غير الحق على الله تعالى ، وبيانه لهم حقيقة المسيح الذي غلا اليهود منهم في الكفر به وتكذيبه ، والظن في صيانة أمه الطاهرة - وغلا النصرارى فيه فجعلوه ربا وإلهاء ، وأنه قد جاءهم بالحق فيه ، وهو انه بشر روحاني خلق بكلمة الله التكوينية وهي (إِنَّمَا قَوْلُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) وبنفخ روح القدس في أمه الطاهرة ، وبتأييد هذا الروح له في سائر أحوال نبوته ، وان روحه عليه السلام قدسية من الله تعالى لاحظ للشيطان فيها ، والنصارى يقررون ان الارواح قسمان : طاهرة قدسية ، ونجسة شيطانية ، والتمييز بينهما مزية تحدث بها زعيمهم بولص في رسالته الاولى الى أهل كورنثيوس

(الثامنة) أمره تعالى أهل الكتاب بعد ما ذكر من حقيقة أمر المسيح أن يؤمنوا بما جاء به خاتم النبيين من الايمان الصحيح بالله وتوحيده والايان برسله ، ونهيمهم عن التثليث الوثني الهندي ، وعن اتخاذ الولد لله عز وجل ، وعله بأنه المالك لكل ما في السموات والارض ، أي كل العالم ، ولو كان له ولد لكان ولده مثله لاملكه ، ولكان محتاجا كاحتياج الانسان الى ولده ، سبحانه هو الغني عن كل ما سواه ، كما هو مبين في الآيات الكثيرة الواردة في هذا المعنى (١)

(التاسعة) إنبأهم في الآية ١٧٢ بأن المسيح نفسه لن يستنكف أي لن يأبى أفقة واستكبارا عن أن يكون عبداً لله ، ولا الملائكة المقربون - وهم أفضل الملائكة وأعلام منزلة عنده تعالى - أن يكونوا عبيداً له ، فانه ما تم في الوجود إلا رب واحد كل من عداه عبيد له ، فالؤمنون الذين يؤمنون بربوبيته ويعملون الصالحات تعبداً له يوفيههم أجورهم ، ويزيدهم عليها ثوابا ونعيا ، فضلا منه وإحسانا ، والذين يستنكفون ويستكبرون عنها يعذبهم عذاباً أليماً ، ولا يجدون لهم من دونه أي غيره ولياً يتولى أمورهم

(١) راجع سورة يونس «١٠: ٦٨» وآخر سورة مريم وغيرها

ويعفر لهم ، ولا نصيراً ينصرهم بشفاعه ولا فدية ولا غيرها ، فلا يعرفهم ما يدعيه الرؤساء الذين استعبدوهم من أن خلاصهم وسعادتهم ، يكونان من غير أنفسهم (العاشره) نداؤه للناس كافة في الآيتين ١٧٤ و ١٧٥ مبشراً لهم بأنه قد جاءهم البرهان العلمي العقلي من ربهم ، وأنزل عليهم النور الساطع ، وهو القرآن المبين لجميع الحقائق ، فلا ينبغي لأحد منهم أن يصفى بعدها الى تقليد الرؤساء والكهنة الذين استعبدوهم لرياستهم وأهوائهم ، وأثبت لهم أن الايمان به ، والاعتصام بمجمله المتين ، والدخول في نوره المبين ، هو الذي يخرجهم من شقاء الدنيا ويدخلهم في رحمة خاصة ، وفضل عظيم ، يمتازون بهما على غيرهم من البشر ، ويهديهم بارشاده وفيض نوره صراطاً مستقيماً من العلم والعمل ، والحق والعدل والفضل ، يكونون به سعداء الدنيا والآخرة

هذا مضمون الوحي الالهي المنزل على محمد رسول الله وخاتم النبيين المبين في هذه الآيات ، ظهر نوره فاهتدت به العرب ، وحملته إلى شعوب العجم ، بالتبليغ له بالعلم والعمل ، فاهتدى به السواد الاعظم ممن بلغتهم دعوته من الملمين الكتائين ، والمجوس والوثنيين ، والهمج المعطلين ، لأنه دين البشر أجمعين . وقاومته الدول الدينية من نصرانية ومجوسية ووثنية ، فنصره الله عليهم كما وعدهم ، حتى أظهره على الدين كله ، ولا يزال ينصره وينشره بعد ترك دوله لدعوته ، وإعراضهم عن هدايته ، وما نزل بهم من عقوبته لهم كما أوعدهم ، ولو ثبتوا على إقامته لعم نوره العالم ، ولا استراح البشر من هذه العداوات الجنسية والوطنية والسياسية ، ولولقي غيره من الاديان ، مثل ما لقي من البغي والعدوان ، لأصبح في خبر كان .

ثم ان حاجة الامم قد اشتدت في عصرنا هذا الى هدايته ، حتى أشدها إيماناً في عداوته ، ولجاجة في نكاته ، وجهلاً بحقيقته ، فأخرجت هذا الكتاب من هداية القرآن ، لتجديد دعوته بما يناسب ضرورة هذا الزمان ، ولو اتني حين شرعت

في كتابة مباحثه في المرة الاولى، أردت أن يكون كتابا مستقلا في تجديد الدعوة إلى الاسلام، لافتتحته بهذه الآيات، وإن سبق لي تفسيرها المفصل في آخر سورة النساء، ثم لنشرت بعض ما طويت من وجود إعجازه، ولفصلت ما أجملت من مقاصد إصلاحه، ولبسط ما قبضت من دلائله. ولا جئبت فيه الاحالة في بسط ما طوي وتفصيل ما أجمل، على أجزاء تفسير المنار المطول، التي اختصرت جل المقاصد وشواهدا منها، لأنها مما يشغل القارئ للكتاب وربما كان أكثرهم لا يقتنون تلك الأجزاء، ولذلك انتقد هذه الاحالة وبعض الاختصار فيه بعض من قرأه قولاً وكتابة بحق، وكنت أسبقهم إلى ذلك

رواج الكتاب، وترجمته بوضع لغات

لقد راج هذا الكتاب أضعاف ما رجونا، ونال من ثناء رجال العلوم الدينية، ورجال المعارف المدنية المصرية فوق ما قدرنا، حتى قال كاتب مدي شهر انه لم ير كتابا عربيا نشر في هذا العصر وكان له من حسن القبول عند جميع أصناف القراء حتى الذين لا يعنون بأمر الدين مثل ما كان لهذا الكتاب الوحي، وقد صدق قوله فانه لم يمر على بدء نشره ثلاثة أشهر إلا وقد كادت تنفذ نسخته، حتى قلنا من يبعه لتجار الكتب بالجملة، لئلا تنفذ قبل التمكن من إعادة طبعه. منتحاً، مبسوطاً مفصلاً،

وقد استأذنت بعض المستنيرين ومحبي الإصلاح الاسلامي من الشعوب الاسلامية بترجمته باللغات الغربية والشرقية المختلفة، فأذنت لامام جامع وكنج ومحرر مجلة الاسلام (ريفيو اسلاميك) في لندن وداعية الاسلام فيها بترجمته باللغة الانكليزية ونشره في اوردية واميركة مترجماً، وأذنت أيضاً بترجمته باللغات الاوردية والتركية والفارسية والصينية، وسأذكر ما يكون من أمر هذه الترجمات في المقال الذي أجعله تصديراً لهذه الطبعة

ولقد كنت على ما أسمع وما أقرأ من تقرظه وإطرائه، أحرص على العلم بما يراه أولو العلم والرأي من انتقاده، وسألت كثيراً عن هذا ولم أسألم عن ذلك، وبعد هذا كله شرعت في اعداده لهذه الطبعة الثانية له

(مزية هذه الطبعة على الاولى)

كان أول ما زدت له هذه الطبعة ما تراه بعد هذه الفاتحة ، فصل خاص في تعريف الوحي والنبوة والرسالة ، وعصمة الانبياء عند المسلمين ووجه الحاجة إلى الرسالة وهداية الوحي، جعلته في أوله، وهو مكانه اللائق به، وأردت أن أكتب فصولا أخرى في بسط المسائل المطوية أو المجلدة المختصرة في أثناءه ، كأبناء الغيب في القرآن ، وبعض ما فيه من سنن الاجتماع والعمران ، ومن المسائل العلمية التي كانت مجهولة للبشر أو للعرب في ذلك الزمان، ومن مسائل صحة الأبدان، وأن أجعل كل فصل منها في موضعه اللائق به من الكتاب ، وأعززها بفصل آخر في شهادات علماء الافرنج الاحرار للاسلام ، ولنبي عليه الصلاة والسلام

ثم بدا لي أن الزيادات الكثيرة في أثناءه تفسد على الذين يترجمونه عملهم، وقد علمت قبل البدء بهذه الطبعة أن الترجمة الاوردية قد تمت أو كادت، فعزمت على أن أجعل هذه الزيادات علاوات ملحقة بالكتاب . وأما الفصل الاول فقد كنت أرسلته الى بعض المشتغين بالترجمة ، ولكنني تفحنته بعد ذلك وزدت فيه ، وإعادة ترجمته وحده أمر سهل، وزيادة هذه الفاتحة قبله أسهل .

وبدا لي أيضا في أكثر ما أزيد من إيضاح وتفصيل لبعض المسائل، أو تفسير لبعض الغريب والمبهم أن أجعلها كالأحالات التي في أثناءه أو التي تتجدد كلها حواشي له لا في صلبه ، ليسهل إلحاقها بترجمتها قبل طبعها ، وأن أرسل نسخة من هذه الفاتحة والفصل الاول الذي يليها الى كل من أذنت له بترجمته قبل اتمام طبع الاصل العربي كله ، لكي يتسنى لمن أمموا الترجمة أن يطبعوها بعيد طبع أصلها وما عسى أن يعرض لي في أثناء هذه الطبعة مما لم أذكره في هذه الفاتحة

فسأينته في مقدمة التصدير إن شاء الله تعالى ما

الفصل الأول

في تحقيق معنى الوحي والنبوة والرسالة وحاجة البشر إليها وأصولها
وعدم إغناء العقل والعلم الكسبي عنها *

تعريف الوحي لغةً وشرعاً

قال في الأساس : أوحى إليه وأوحى إليه بمعنى ، ووحيت إليه وأوحيت إذا
كلته بما تخفيه عن غيره . وأوحى الله إلى أنبيائه (١٦ : ٦٨) وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ
وقال الراغب أصل الوحي الإشارة السريعة ، ولتضمن السرعة قيل « أمر
وحي » وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض ، وقد يكون بصوت
مجرد عن التركيب ، وبإشارة ببعض الجوارح وبالكتابة . وقد حمل على ذلك
قوله تعالى عن زكريا (١٩ : ١١) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى
إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا الخ أي أشار إليهم ولم ينسكلم .
والوحي بتشديد الياء السريع ، ومن وحي الائمة بالجوارح قول الشاعر :

نظرت إليها نظرة فتحيرت دقائق ففكري في بديع صفاتها

فأوحى إليها الطرف أنني أحبها فأثر ذلك الوحي في وجناتها

فالقول الجامع في معنى الوحي أنه الاعلام الخفي السريع الخاص بمن يوجه
إليه بحيث يخفى على غيره . ومنه الالهام الغريزي كالوحي إلى النحل ، والهام
الخواطر بما يلقى الله في روع الانسان السليم الفطرة الطاهر الروح كالوحي إلى
أم موسى ، ومنه ضده وهو وسوسة الشيطان قال تعالى (٦ : ١٢١) وَإِنَّ
الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وقال (٦ : ١١٢) وَكَذَلِكَ

(* هذا الفصل من زيادات الطبعة الثانية في أولها

جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا

وحي الله تعالى إلى أنبيائه قد روعي فيه المعنيان الأصليان لهذه المادة وهما الحفاء والسرعة . فهذا معنى المصدر ، ويطلق على متعلقه وهو ما وقع به الوحي أي اسم المفعول ، وهو ما أنزله تعالى على أنبيائه وعرفهم به من أنباء الغيب والشرائع والحكم ، ومنهم من أعطاه كتاباً أي تشريعاً يكتب ومنهم من لم يعطه . والله تعالى يوحى إلى ملائكته ما يأمرهم بفعله كقوله (١٢:٨) إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا) ويوحى إلى ملك الوحي ما يوحىه الملك إلى الرسول كقوله (١٠: ٥٣) قَالُوا حَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ) أي أوحى إلى عبده جبريل عليه السلام ما أوحى جبريل إلى محمد ﷺ وقال شيخنا الأستاذ الامام في رسالة التوحيد بعد تعريف الوحي لغة « وقد عرفوه شرعاً انه إعلام الله تعالى لنبي من أنبيائه بحكم شرعي ونحوه . أما نحن فنعرفه على شرطنا بأنه عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة ، والأول بصوت يتمثل لسمعه أو بغير صوت . ويفرق بينه وبين الإلهام بأن الإلهام وجدان تستيقظه النفس وتنساق إلى ما يطلب من غير شعور منها من أين أتى . وهو أشبه وجدان الجوع والعطش والحزن والسرور» هذا التعريف يشمل أنواع الوحي الثلاثة الواردة في قول الله عز وجل (٤٢: ٥١) وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا ، أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ، أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بَأْذَنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ قَالُوهُ هِيَ الْإِلَهَاءُ الْمَعْنَى فِي الْقَلْبِ ، وَقَدْ يَبْعُرُهُ بِالنَّفْسِ فِي الرُّوحِ - وَهُوَ بِالضَّمِّ الْقَلْبُ وَالْخَلْدُ وَالْخَاطِرُ - وَالْكَلَامُ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ هُوَ أَنْ يَسْمَعَ كَلَامَ

الله من حيث لا يراه كما سمع موسى عليه السلام النداء من وراء الشجرة ، وأما الثالث فهو ما يلقيه ملك الوحي المرسل من الله إلى رسول الله فيراه متمثلاً بصورة رجل أو غير متمثل ويسمعه منه أو يعيه بقلبه

وتعبيره يشمل (قبل التفرقة بينه وبين الإلهام) ما يسميه بعضهم بالوحي النفسي وهو الإلهام الفاض من استعداد النفس العالية ، وقد أثبتته بعض علماء الأفرنج لنبينا ﷺ كغيره ، فقالوا إن محمداً يستحيل أن يكون كاذباً فيادعا إليه من الدين القويم والشرع العادل والأدب السامي ، وصوره من لا يؤمنون بعالم الغيب منهم أو باتصال عالم الشهادة به ، بأن معلوماته وأفكاره وآماله ولدت له إلهاماً فاض من عقله الباطن أو نفسه الخفية الروحانية العالية ، على تخيلته السامية ، وانعكس اعتقاده على بصره فرأى الملك ماثل له ، وعلى سمعه فوعى ما حدث به .

فصار الخلاف بيننا وبين هؤلاء في كون الوحي الشرعي من خارج نفس النبي نازلاً عليها من السماء كما نعتقد ، لا من داخلها فائضاً منها كما يظنون ، وفي وجود ملك روحاني مستقل نزل من عند الله عليه ﷺ كما قال عز وجل (٢٦ : ١٩٢) وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ١٩٣ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ١٩٤ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ١٩٥ بِإِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (وفي تخيل الملك بزعمهم ، وسنشرح هذا الزعم ونبسط شبهاته ونبطلها ، وثبت أن هذا القرآن وحي من الله تعالى نزل من فوق السموات العلى ، لا يمكن أن يكون فائضاً في هذه الأرض من نفس محمد ﷺ وهو موضوع كتابنا هذا

واعلم أيها القارئ أن تقسيم كلام الله تعالى إلى نفسي قديم قائم بذاته سبحانه ليس بحرف ولا صوت ولا ترتيب ولا لغة ، وكلام لفظي هو المنزل على الأنبياء عليهم السلام ، ومنه الكتب الأربعة ، وخلافهم في كونه مخلوقاً أو

غير مخلوق كله فلسفة وآراء نظرية مبتدعة، لم يرد به كتاب ولا سنة، وهو تعرض للبحث التحليلي لذات الله تعالى وصفاته، ومثار اللوسواس الشيطاني فيه فاجتنبه، واستعذ بالله منه، وحسبك أن تؤمن بأن الكلام صفة كمال، تتعلق بكل ما يتعلق به العلم، إلا أن تعلق العلم عبارة عن انكشاف المعلومات للعالم، وتعلق الكلام عبارة عن كشف العالم ما شاء من علمه لمن شاء، وأن الله تعالى متصف بكمال العلم والتعليم، وكمال الكلام والتكليم، وإن هذا وغيره مما وصف به نفسه في كتابه، لا ينافي كمال تنزيهه تعالى عما لا يليق به من نقائص عباده، ولا يقتضي مماثلته لهم فيما وهبهم من كمال، فإن الاشتراك في الاسماء لا يقتضي الاشتراك في المسميات، وأسماء الاجناس المقولة بالتشكيك في الامكنات تختلف من وجوه كثيرة منها النقص والكمال، فكيف بها اذا كانت مشتركة بين الخالق والمخلوقات؟ فذاته تعالى أكمل من ذواتهم، ووجوده أعلى من وجودهم، وصفاته أسمى من صفاتهم، وهو أعلم ورسوله أعلم منهم بصفاته وأفعاله، فعليك أن تؤمن بما صح عنهما من اثبات ونفي، من غير زيادة ولا نقص، بلا تعطيل ولا تمثيل ولا تأويل، وليس عليك ولا لك أن تحكم رأيك وعقلك في كنه ذاته ولا صفاته، ولا في كيفية مناداته وتكليمه لرسله، ولا في كنه ماهو قائم به، وما يصدر عنه، على هذا كان أصحاب الرسول وعلماء التابعين، وأئمة الحديث والفقه، قبل ظهور بدعة المتكلمين

(النبي : معناه لغة وشرعا والفرق بين الرسول وغيره)

النبيء في اللغة العربية وصف من النبأ وهو الخبر المفيد لما له شأن مهم، ويصح فيه معنى الفاعل والمفعول لانه منبيء عن الله ومنبأ منه، والنبي بالتشديد أكثر استعمالا، ابدلت الهمزة ياء، أو هو من النبوة وهي الرفعة والشرف. ويطلق عند أهل الكتاب على الملمهم الذي يخبر بتيء من أمور الغيب المستقبل، وقيل إن معنى أصل مادته في العبرانية القديمة المتكلم بصوت جهوري مطلقا أو في الأمور التشريعية، وهو عندنا من أوحى الله اليه وحيا، فإن أمره بتبليغه كان رسولا،

فكل رسول نبي ، وما كل نبي رسول ، فقله تعالى (٣٣ : ٤٠) ما كان محمد أباً أحديهم من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين) يدل على انقطاع النبوة والرسالة معا بعد محمد ﷺ ، فكل من ادعى أو يدعي انوحي الشرعي من الله تعالى بعده فهو كذاب مضل ، وقد ادعى النبوة كثيرون فظهر كذبهم ولم يأت أحد ادعى النبوة بعد محمد ﷺ ، بنبي من الاصلاح الديني الذي يحتاج إليه البشر ، بل رأينا كتبهم وأقوالهم طافحة بمدح أنفسهم والعلو في أطرائها ودعاؤها الباطلة ، التي يراد بها إخضاع العوام لهم واستعبادهم إياهم ، كالذي نعهد في الدجالين من مدعى الولاية ومعرفة الغيب والتصرف الروحاني في نفع الناس وضرهم . ويدحض هذا وأمثاله ما بينه الله في كتابه الحق من وظائف الرسل كافة ، وخاتم النبيين خاصة ، كما تراه في موضعه من هذا الكتاب ، وكذا ما علم بالتواتر من شامته وأخلاقه ﷺ من التواضع وكراهة الدعوى والاطراء والنهي عنه

ويرى قارىء هذا الكتاب فيه أن ما جاء به ﷺ من كتاب الله وما بينه به من سنته كاف شامل لكل ما يحتاج إليه البشر من هداية الدين لا يحتاجون إلى غيره .

حاجة البشر إلى الرسالة ، وأصول أديان الرسل الأساسية

وجه حاجة البشر إلى هداية الانبياء عليهم السلام في الجملة أن موضوع رسالتهم المقصود بالذات أو بالقصد الأول ثلاثة أمور لا تستقل معارفهم المكتسبة بجواسمهم وعقولهم بها ، ولا يذعنون فيها إلا لأمر ربهم وخالقهم

(أحدها الايمان بالغيب) ورأسه توحيد الله وصفاته وآياته الدالة على كماله وتنزهه عن النقص ، وما يجب من عبادته وشكره وذكره الذي هو أعلى ما تنزكى به النفس وتطهر من أدران مساوئها ، وتصل إلى الكمال المستعدة له بفطرتها ، ويليه الايمان بملائكته وما يناط بهم من الوحي ، والنظام في الخلق والأمر ، ويجب الوقوف في ذلك عند ما ورد به النص

ومما أخبر به الأنبياء من أمر عالم الغيب (الجن والشياطين) وأن ما يجدها من

في أنفسهم من خواطر السوء وتقوية دواعي الشر والباطل فهو من وسواس الشياطين. وحكمة إعلامهم بذلك إرشادهم إلى محاسبة أنفسهم على خواطرها، والتمييز بين حقها وباطلها، وخيرها وشرها، فهو أكبر معين لهم على تربيتها وتركيتها، وقد وضحناء بالدلائل في تفسيرنا، وضر بنا له المثل بعوالم الجنة المادية التي تسمى بالميكروبات، وكون تأثيرها في الأجسام، كتأثير الشياطين في الأرواح. وقد مر على البشر الألوف الكثيرة من السنين وهم يجهلون ما لها من التأثير العظيم في صحتهم وأمراضهم، وطعامهم وشرابهم، حتى كشفوها في هذا العصر، ولو حاسب الناس أنفسهم على خواطرهم السوءى اتقاء لوسوسة الشياطين كما يتقون ميكروبات الامراض لحفظ أبدانهم، لكان تأثير هذه القوى في حفظ النفس من الشر والفساد، أعظم من تأثير تلك الوقاية في حفظ الاجساد من الامراض.

وقد كشف بعض الماديين في القرن الثامن عشر أن للبشر أرواحا مستقلة كما أخبرهم الانبياء، ووجدوا وسيلة لادراك بعض الجنة غير المادية، وهو ما يعتقدون أنه من أرواح الموتى. والراجح عندنا أن أكثرها من أرواح شياطينهم، ولا يتسع هذا الفصل لبيان الحق في هذه المسألة التي لا تزال موضع الخلاف بين الناس، وإنما المراد هنا تعريف موضوع الرسالة بالاجمال

(ثانيها) ما يجب اعتقاده من البعث بعد الموت والحساب والجزاء على الايمان والاعمال، وهو أكبر البواعث — بعد الايمان بالله ومعرفة — على اتباع ما شرعه من اتباع الحق، واقامة العدل، وأعمال البر والخير، والصدود عن أضدادها (ثالثها) وضع حدود وأصول للاعمال التشريعية المشار إليها لاجمال للآراء والاهواء فيها، لتكون جامعة للكافة، مانعة من التفرقة، متبعة في السر والعلانية وجملته القول ان تهذيب البشر بالدين مبني على الايمان بالغيب، والوقوف فيه عند خبر الانبياء عليهم السلام، ولا يمكن تهذيبهم بالعلوم المادية الكسبية وحدها، وهو ما نكرر بيانه في هذا الكتاب

عصمة الانبياء

إذا كان ارسال الانبياء الى البشر لاجل هدايتهم الى تزكية أنفسهم بما تصلح به أحوالهم في دنياهم، ويستعدون به لحياة أعلى من هذه الحياة الدنيافي نشأة أخرى، فلا يتم هذا الغرض ولا تتحقق هذه الحكمة الا اذا كان هؤلاء الانبياء أهلاً لأن يقتدى بهم في أعمالهم وسيرتهم، والتزام الشرائع والآداب التي يبلغونها عن ربهم، ومن ثم قال علماؤنا بوجوب عصمة الانبياء من المعاصي والذنابل، وبالغ بعضهم فيها حتى قالوا بعصمتهم من الذنوب الصغائر كالكبائر قبل النبوة وبعدها، وخص بعضهم العصمة من الصغائر بما كان باعته الخسة والدناءة

وأهل الكتاب لا يقولون بهذه العصمة، وكتبهم المقدسة ترمي بعض كبار الانبياء بكبائر الفواحش المنافية لحسن الاسوة، بل المجرئة على الشرور والمفاسد، والنصارى منهم يجعلون معاصي الانبياء دليلاً على عقيدتهم وهي ان المسيح هو المعصوم وحده لانه رب وإله، ولانه هو المخلص للناس من العقاب على الخطيئة. اللازمة للآزمة لكل ذرية آدم بالوراثته، وانه لا شفيع ولا مخلص لهم غيره لان الخطيئة لا يخلص الخطئين وهو منهم، وهذه العقيدة وثنية مخالفة لدين الانبياء وكتبهم وللعقل، ومطابقة للاديان الوثنية الهندية وغيرها

يبد أن كتب العهدين القديم والجديد المقدسة عندهم المحرفة في اعتقادنا لا تشهد لهم برمي جميع أنبيائنا بالذنوب فضلاً عن المعاصي التي هي أشد من الذنوب، فان يوحنا المعمدان (هو يحيى بن زكريا عليها السلام) لم يوصم بخطيئة قط، بل شهدت له أناجيلهم بما يدل على انه كان أعظم من المسيح في عصمته، ففي انجيل لوقا (١٦: ٦٥) انه يكون عظيماً أمام الرب وخيراً ومسكراً لا يشرب، ومن بطن أمه يمتليء بروح القدس) وفيه « ٦٦ كانت يد الرب معه » وقال المسيح فيه « متى ١١: ١١ الحق أقول لكم انه -

لم يقيم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان « ثم قال فيه « ١٨
 جاء يوحنا لا يأكل ولا يشرب فيقولون فيه شيطان ١٩ وجاء ابن الانسان يأكل
 ويشرب فيقولون : هو ذا انسان أكل وشرب خمر محب العشارين والخطاة » بل
 شهدت الاناجيل ان المسيح عليه السلام أهان أمه واخوته ولم يسمح لهم بلقائه ، وقد
 استأذنوا عليه ليكلموه وعلل ذلك بانهم مخالفون لمشية أبيه كما تراه في آخر
 الفصل الثاني عشر من انجيل متى وآخر الثالث من مرقس بالمعنى . وعبرة لوقا
 (٨ : ٢٠) فأخبروه قائلين : أمك واخوتك واقفون خارجا يريدون أن يروك ٢١
 فأجاب وقال لهم أمي واخوتي هم الذين يسمعون كلمة الله ويعملون بها) نعم
 إن اخوته لم يكونوا يؤمنون به كما هو مصرح به في موضع آخر : ولكن هل كانت
 أمه كذلك ؟ وهل يجازيها هذا الجزاء . والله تعالى بوصي بالاحسان بالوالدين
 حتى المشركين ، ويفضل أم السيد المسيح على نساء العالمين . وإهانة الأم ذنب في
 جميع الشرائع والآداب ، كما ان المبالغة في شرب الخمر ذنب حتى في الشرائع
 التي لم تحرّمها مطلقا ، وجاء في هذه الاناجيل ان الشيطان استولى عليه أربعين
 يوما يجربه ويدعوه الى عبادته ، كما تراه في أول الفصل الرابع من انجيل متى .
 وكذا في غيره من الاناجيل . ونحن نبرئه من كل ذلك

وشهدت الاناجيل ايضا بأن يوحنا كان يعمد الناس للتوبة ومغفرة الخطايا وانه
 عمّد المسيح نفسه ، وبأن أباه زكريا وأمّه اليصابات (وكانا كلاهما بارين أمام الله
 سالكين في جميع وصايا الرب وأحكامه بلا لوم لوقا ١ : ٦) وهذه شهادة بالعصمة التامة
 وهنالك أنبياء آخرون شهدت لهم نبوات العهد القديم بالبر ولم ينسب الى أحد
 منهم أدنى خطيئة ، وأدم عندما ارتكب الخطيئة لم يكن نبيا مرسلا الى أحد ولا كان معه
 قوم يسيئون الاقتداء به ، وكان قد نهي النبي عن الاكل من الشجرة ، وانما كانت
 مثلا لاستعداد جنس البشر للمعصية كما اطاعة ، نسيانا أو عمداً ، ولكون المعصية تعالج

بالتوبة فيغفرها الله تعالى، وقد كان ابنه قابيل وهابيل مثلاً لكل من الاستعدادين،
 وشهد الكتاب عندهم لهابيل بأنه كان باراً لم يرتكب خطيئة، وهولم يكن نبياً
 جاء القرآن وهو المهيمن على جميع الكتب الالهية بما لحصناه من الحق في مسألة
 آدم؛ وشهد بل قص علينا خيرهم من أنبياء الله ورسله انهم كانوا من الصالحين الذين
 يقتدى بهم في البر والتقوى، كقوله في سورتهم (٧٣: ٢١) وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا،
 وأوحينا اليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين) وقال
 فيهم بعد ذكر أشهرهم (٩٠: ٦) أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده)
 وأما قوله لحاتمهم ومكمل هدايتهم ١: ٤٨١ انا فتحنا لك فتحاً مبيناً ٢ ليغفر لك
 الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) الخ وقوله (٤٧: ١٩) واستغفر لذنبك والمؤمنين
 والمؤمنات) فالذنوب فيه، جاء بأصل معناه اللغوي المنقول من ذنب الدابة وهو كل
 عمل له عاقبة منافية للمصلحة أو لما هو أولى وأنفع، ويدخل فيه الاجتهاد في
 الرأي المباح شرعاً كإذن النبي ﷺ لمن استأذنه من المنافقين في التخلف
 عن غزوة تبوك وعاتبه الله عليه بقوله (٩: ٤٣) عفا الله عنك لم أذنب لهم حتى يتبين
 لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين) * وإنما العصمة للانبياء من معصية الله بمخالفة
 وحيه اليهم، اذ لو عصوه لكان أتباعهم مأمورين من الله بالمعصية لانه أمرهم باتباعهم،
 وقال في نبينا ﷺ (٣٣: ٢١) لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو
 الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً)

العقل والعلم البشري لا يغنيان عن هداية الرسل

(فان قيل) ان الايمان بالغيب ووجود الرب غريزي في الفطرة البشرية كما
 حققتم، أو إلهام من إلهاماتها يلقي في روع أفرادها عند نمو إدراكهم، وان بعض

(*) تراجع المسألة في تفسير هذه الآية من جزء التفسير العاشر ص (٤٦٤)

الحكماء المفكرين قد ارتقوا في معارفهم العقلية الى حيث أقاموا البراهين على وجود واجب الوجود وعلمه وحكمته ، ووجوب تعظيمه وشكره وعبادته ، وقد قرر بعضهم بقاء النفس بعد الموت وخلودها في نعم مقيم أو عذاب أليم ، ووضعوا للناس أصول الفضائل والتشريع والآداب التي تصلح بها الانسانية وروابط الاجتماع (قلت) نعم لكل ذلك أصل ثابتته التاريخ الماضي ، ويشهده العصر الحاضر ، ولكن بين هداية الانبياء وحكمة الحكماء وعلومهم فروقا في مصدر كل منهما ، وفي الثقة بصحته ، وفي الاذعان لحقيقته ، وفي تأثيره في أنفس جميع طبقات المخاطبين

فحكمة الحكماء وعلومهم آراء بشرية ناقصة وظنون ، لا تبلغ من عالم الغيب الا أنه موجود مجهول ، وهي عرضة للتخطئة والخلاف ، ولا يفهمها الا فئة مخصوصة من الناس ، وما كل من يفهمها يقبلها ، ولا كل من يقبلها ويعتقد صحتها يرجحها على هواه وشهوته ، اذ لاسطان لها على وجدان العالم بها ، فلا يكون لها تأثير الايمان واسلام الاذعان والتعبد ، لان النوع البشري يأبى طبعه وغريزته أن يدين ويخضع خضوع التعبد لمن هو مثله في بشريته ، وان فاقه في علمه وحكمته ، وانما يدين لمن يعتقد أن له سلطانا غيبيا عليه بما يملكه من القدرة على النفع والضرر بذاته ، دون الاسباب الطبيعية المبذولة لجميع الناس بحسب سنن الكون ونظامه واضرب لهذا مثلا انه كان للفيلسوف الرئيس ابن سينا خادم متعلم معجب بعلومه وفلسفته ، وكان يعجب منه كيف يدين بملة محمد ﷺ ويتبعه وهو في رأيه أعلم منه وأرقى ، وكان يكشفه بذلك ، فيعرض عنه أو يوبخه ، فاتفق أن كانا في مدينة أصفهان في ليلة شديدة البرد كثيرة الثلج ، فأيقظ الرئيس خادمه في وقت السحر وطلب منه ماء ليتوضأ به ، فاعتذر بشدة البرد وبقاء الليل ، ثم أيقظه الرئيس في وقت أذان الصبح وطلب منه الماء فاعتذر بشدة البرد . حتى اذا قال المؤذن : أشهد أن محمداً رسول الله — قال الرئيس لخادمه اسمع ، ماذا

يقول المؤذن ؟ قال انه يقول : أشهد أن محمداً رسول الله . قال الرئيس : الآن قد آن لي أن أبين لك ضلالتك القديم ، انك خادني لا عمل لك غير خدمتي ، وإنك أشد الناس اعجاباً بي واجلالاً وتعظيماً لي ، حتى إنك تفضلني على رسول الله ﷺ وتشكر علي أن أومن به وأتبعه ، وإنك على هذا كله تخالف أمري في أهون خدمة أطلبها منك في داخل الدار معتذراً بشدة البرد — وإن هذا المؤذن الفارسي يخرج من بيته قبل الفجر ويصعد هذه المنارة وهي أشد مكان في البلد برداً ، حتى اذا لاح له الفجر أشاد في أذانه بذكر محمد العربي بعد مرور أربعة قرون ونيف على بعثته إيماناً وإذعاناً ، وتعبداً واحتساباً . فتأمل هذا وتدبره في نفسك يظهر لك الفرق بين سلطان النبوة على الناس وسلطان العلم والفلسفة فن أعظم مزايا هداية الوحي الدينية على العامية الكسبية هو أن جميع طبقات المؤمنين بها يدعون لها بالوازع النفسي التعبدية ، فبذلك تكون عامة ثابتة لا مجال للخلاف و التفرق فيها ما دام الفهم لها صحيحاً ، والايان بها راسخاً ، ولذلك نرى الشعوب التي ساء فهمها للدين ، وتزلزل ايمانها به أو زال ، لا ينفعها من دونه علوم العلماء ، ولا حكمة الحكماء ، وقد ارتقت العلوم والحكمة في هذا العصر ، وعم انتشارها بما لم يعرف مثله في عصر آخر ، وهم لا يدعون في أنفسهم لارادة ملك أو أمير ، ولا لرأي عالم تحرير ، ولا فيلسوف شهير ، ولا مشرع خير ، بل صاروا الى فوضى في الاخلاق والآداب والاجتماع ، واستباحة الاموال والاعراض وكذا الدماء ، لم يعهد لها في البشر نظير ، صارت بها الامم والدول عرضة لفتنة في الارض وفساد كبير

أكثر البشر يؤمنون بوجود الله وعلمه وحكمته ، والمثقفون بالتعليم العصري يؤمنون بوحدايته ، ولم يبق للشرك به تعالى بقية الا في جهلة المتبعين لتقاليد الاديان المنسوبة الى الانبياء عليهم الصلاة والسلام ، وما هي من اديانهم في شيء ، بل هي هادمة لأساسها الاعظم ، وهو التوحيد المطلق ، فكان فشو الشرك بعبادة الاولياء والقديسين وما ترتب عليه واقترن به من الخرافات وفساد الاخلاق ، من

الكبر الشبهات على صحة هذه الاديان والمنفرات عن اتباعها ، وصار أكثر البشر إما مؤمنين بالانبياء دائنين بالخرافات ، وإما كافرين بهم منكرين أن الدين وحي من الله تعالى ، وتعين ارجاع الفريقين الى هداية الدين الصحيح وما هو الدين الاسلام ، إن الدين الذي ينتمي اليه أكثر شعوب الحضارة في هذا العصر هو النصرانية ، وإنما سبب بقائه فيهم ان دولهم قد جعلته من نظام حياتهم الاجتماعية ، فهو لم يبق له سلطان روحي الا في قلوب العوام الخرافيين ، وقد جاءتنا الانباء قبل طبع هذا الفصل بأن زعماء الشعب الالماني وهو أرقى شعوب الارض علماً وفناً وحضارة قد ثار على هذا الدين ثورة جديدة يريدونها هدم أساسه من كتب العهد القديم ، وتنقيح تعاليم العهد الجديد ، وجعل ما يقون منه وطنياً ألمانياً خاصاً بالجنس الآري الهندي الفارسي الاصل ، والتبرؤ من كل ما هو سامي منه ، وما أنبياءهم ورسولهم ومسيحهم ومعبودهم الا من الساميين ، بل يريدون تقديس شهداء الحرب وعطاء أسلافهم الألمانين ، وان هذه الاوثنية كوثنية اليابانيين . تذكي سعي العداوة بينهم وبين سائر الاوربيين

فلا سبيل الى انقاذ البشر في هذا العصر الا اثبات الوحي المحمدي الموحد لا نسايتهم المزيكي لانفسهم ، المكمل لفطرتهم ، الذي فيه السعادة الدنيوية والاخرية لهم في جملتهم ، وقد بينا في هذا الكتاب ان محمداً رسول الله وخاتم النبيين ، هو النبي المرسل الى كافة الناس رحمة للعالمين ، وانه هو الذي أكمل الله به الدين ، وأزال العصبية الجنسية والوطنية ، لتوحيد الاخوة الانسانية ، فاتباعه هو الترياق المحرب لهذه السموم الروحية الاجتماعية القاتلة ، راجين أن يفتح الله تعالى به أبواب الهدى لكل من يعقله ويتدبره من مستقلي الفكر ، وطالبي معرفة الحق ، واصلاح الخلق ، المعنيين بقول الله عز وجل (٦ : ١٥) قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ١٦ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ، وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

الفصل الثاني

في اقامة الحجة على مثبتى الوحي المطلق

(في إثبات نبوة محمد ﷺ)

ان من اطلع على الكتب المقدسة عند أهل الكتاب من اليهود والنصارى المعبر عنها بكتب العهدين العتيق والجديد ، وعلى القرآن وكتب السنة والسيرة المحمدية ، من أحرار الفكر ومستقلي العقل - علم علما عقليا وجدانيا انه لا يستطيع أحد أن يؤمن إيمانا علميا بأن تلك كتب وحي من الله ، وان الذين كتبوها أنبياء معصومون فيما كتبوه ، ثم لا يؤمن بأن القرآن وحي من الله ، وان محمداً نبي معصوم فيما بلغه عن الله تعالى ، كما لا يستطيع فقيه أن ينكر فقه أبي حنيفة والشافعي ، ولا نحوي أن يجهل نحو سيبويه وابن جني ، ولا شاعر أن ينفي شاعرية الرضي والبحري ، وقل مثل ذلك في الطبيب والفيلسوف والرياضي والفلكي - كل منهم مع أئمة علمه ، وفي كل انسان صحيح الحواس في المدركات الحسية . فالبصير لا يستطيع أن يكابر حسه فيفضل نور القمر والكوكب على ضوء الشمس ، أو نور السمراج على نور النهار ، والله در البوصيري حيث قال :

الله أكبر ان دين محمد - و كتابه أقوى وأقوم قيلا

لا تذكر والكتب السواف عنده طلع الصباح فاطنى القنديلا

وقد صرح بهذا المعنى علماء الافرنج الذين نشؤا في النصرانية ، وأحاطوا

بها علما وخبراً ، ثم عرفوا الاسلام معرفة صحيحة ولو غير تامة ،

كتب الاستاذ أدوار مونتيه المستشرق مدرس اللغات الشرقية في مدرسة

جنيف الجامعة في مقدمة ترجمته الفرنسية للقرآن ما ترجمته بالعربية :

« كان محمد نبيا صادقا كما كان أنبياء بني اسرائيل في القديم، كان مثلهم يؤتى رؤيا وبوحى إليه ، وكانت العقيدة الدينية وفكرة وجود الالهية متمكنتين فيه كما كانتا متمكنتين في أولئك الانبياء أسلافه فتحدث فيه كما كانت تحدث فيهم ذلك الالهام النفسي، وهذا التضاعف في الشخصية، اللذين يحدثان في العقل البشري المرائي والتجليات والوحي والاحوال الروحية التي من بابها» اهـ

فهذا العالم الاوربي المستقل الفكر يقول ان كل ما كان به أنبياء بني اسرائيل أنبياء كان ثابتا لمحمد . ونحن نقول ان جميع خصائص النبوة التي كانت فيه هي أكل شكلا وموضوعا وأصح رواية وأبعد عن الشبهات كما سنوضحه، وأما ما فسر به هذه الخصائص فهو التعليل الذي يعلل به الماديون الوحي المطلق، وسنتكلم عليه في الفصل الثالث

ولخص هذا العالم خبر نزول الوحي على محمد ﷺ من كتب اسلامية مدعنا لصحة روايتها. وفصلها بعده العالم المستشرق الفرنسي اميل درمنغام^(١) في كتابه (حياة محمد) مدعنا لصحة الرواية ولموضوعها، شارحا لتأثير نبوته في اصلاح البشر، متمنيا الاتفاق بين المسلمين والنصارى ، آسفا للشقاق بينهم واننا ننقل هنا تعريف الوحي والنبوة والآيات (العجائب) عن أحد علماء الافرنج الجامعين بين العلوم العصرية والدينية والتواريخ، وهو الدكتور جورج بوست الشهير مؤلف كتاب (قاموس الكتاب المقدس) بالعربية ليني عليها الباحث المستقل العقل حكمه في نبوة أنبياء بني اسرائيل ووحيمهم ، ونبوة محمد رسول الله وخاتم النبيين ، والوحي الذي أنزل عليه

(١) يكتب هذا الاسم في مجلة السياسة (درمنجم) بالجيم المصرية حيث ينشر فيها كتابه (حياة محمد) مترجما بالعربية، وإنما اخترنا كتابته بالعين لكتاب جاء نامن المؤلف بالعربية كتب فيه امضاءه (أميل درمنغام) ونشرناه في الجزء الاول من مجلد المنار الثلاثين

تعريف الوحي والنبوة والانبيا عند النصارى

جاء في تفسير كلمة « وحي » من قاموس الكتاب المقدس المطبوع في المطبعة الاميركانية في بيروت سنة ١٨٩٤ ما نصه مع حذف أكثر رموز الشواهد :

« تستعمل هذه اللفظة للدلالة على نبوة خاصة بمدينة أو شعب وجاء في (حز ١٢ : ١) « هذا الوحي هو الرئيس » أي انه آية للشعب . وعلى العموم يراد بالوحي الالهام : وعلى ذلك يقال « ان كل الكتاب هو موحى به من الله » والوحي بهذا المعنى هو حلول روح الله في روح الكتاب الملمين وذلك على أنواع (١) إفادتهم بحقائق روحية أو حوادث مستقبلة لم يكن يمكنهم التوصل إليها الا به (٢) ارشادهم الى تأليف حوادث معروفة أو حقائق مقررة والتفوه بها شفاهاً أو تدوينها كتابة بحيث يعصمون من الخطأ . فيقال « تكلم أناس الله القديسون حسوقين من الروح القدس » وهنا لا يفقد المتكلم أو الكاتب شيئاً من شخصيته وإنما يؤثر فيه الروح الالهي بحيث يستعمل ما عنده من القوى والصفات وفق ارشاده تعالى . ولهذا نرى في كل مؤلف من الكتاب الكرام ما امتاز به من المواهب الطبيعية ونمط التأليف وما شابه ذلك وفي شرح هذا التعليم دقة . وقد اختلف العلماء فيما أوردوه من شرحه ، غير أن جميع المسيحيين يتفقون على أن الله قد أوحى لأولئك الكتاب ليدونوا ارادته ويفيدوا الانسان ما يجب عليه من الايمان والعمل لكي ينال الخلاص الابدي » اهـ

وجاء في تفسير « نبي . أنبياء . نبوة » منه ما نصه :

« النبوة لفظ قديم معنى الاخبار عن الله وعن الامور الدينية ولا سيما عما سيحدث فيما بعد . وسمي هارون نبيا لانه كان الخبير والمتكلم عن مريم نظراً لنصاحته . أما انبياء العهد القديم فكانوا ينادون بأشريعة الموسوية ، وينبئون بمجيء المسيح . ولما قلت رغبة المكنة وقل اهتمامهم بالتعليم والعلم في أيام صموئيل أقام

مدرسة في الرامة وأطلق على تلامذتها اسم بني الانبياء فاشتهر من ثم صموئيل باحياء الشريعة وقرن اسمه باسم موسى وهارون في مواضع كثيرة من الكتاب، وتأسست أيضا مدارس أخرى للانبياء في بيت ايل وأريحا والجالجال وأما كني أخرى . وكان رئيس المدرسة النبوية يدعى أبا أوسيدا ، وكان يعلم في هذه المدارس تفسير التوراة والموسيقى والشعر ، ولذلك كان الانبياء شعراء وأغلبهم كانوا يرغمون ويلعبون على آلات الطرب . وكانت الغاية من هذه المدارس أن يرشح الطلبة فيها لتعليم الشعب . أما معيشة الانبياء وبني الانبياء فكانت ساذجة للغاية . وكثير منهم كانوا متنسكين أو طوافين يضافون عند الانقياء

« ويظهر ان كثيرين من الذين تعلموا في تلك المدارس لم يعطوا قوة على الانبياء بما سيأتي ، انما اختص بهذه الخصوصية أناس منهم كان الله يقيمهم وقتنا دون آخر حسب مشيئته ، ويعدهم بتربية فوق العادة لواجباتهم الخطيرة . على أن بعض الانبياء المهملين كان يختصهم الله بوحيه ولم يتعلموا من قبل ولا دخلوا تلك المدارس كهاموس مثلا فانه كان راعيا وجاني جميز (١)

« اما النبوة فكانت على انواع مختلفة كالأحلام والرؤى والتبليغ . وأحيانا كثيرة كان الانبياء يرون الامور المستقبلية بدون تمييز أزمنتها فكانت تقترن في رؤاهم الحوادث القريبة العهد مع البعيدة كاقتران نجاة اليهود من الاشوريين بخلاص العالم بواسطة المسيح ، وكانتصار اسكندر ذي القرنين باتيان المسيح ، وكاقتران انسكاب الروح القدس يوم الخميس بيوم الحشر . ومن هذا القبيل اقتران خراب اورشليم بمحادثات يوم الدينونة . « وقد أرسل الله الانبياء المهملين ليعلنوا مشيئته وليصلحوا الشؤون الدينية وعلى الاخص ليخبروا بالمسيح الآتي لتخليص العالم : وكانوا القوة العظيمة الفعالة في تعليم الشعب وتنبيههم وارشادهم الى سبيل الحق . وكان لهم دخل عظيم في الامور السياسية اه بنصه

« ١ » اي كان له حرفتان هما رعي المواشي وقطاف ثمر الجبل لأصحابه

بعض ما يرد على نبوتهم من تعريفها

أما تفسيره الالهام بحلول روح الله في روح الملم فهو تحكم للنصارى لا يعرفه ولا يعترف به أنبياء بني اسرائيل ولا علماءهم . ولا يمكنهم إثباته ولا دفع ما يرد عليه من وقوع التعارض والتناقض والخلف فيما كتبه أولئك الملمون وما خالفوا فيه الواقع ، وقد أشار الى ذلك بقوله : ان في شرح ذلك التعليم دقة ، وان العلماء اختلفوا في شرحه » الخ ، ومن حل فيه روح الله صار لها إذ المسيح لم يكن إلا عند النصارى الالهذا الحلول ، فكيف يقع في مثل ما ذكر ويتخلف وحيه أو يخالف الواقع ؟ وأما كلامه في النبوة والانبياء فيؤخذ منه ما يأتي :

« ١ » ان أكثر أنبياء بني اسرائيل كانوا يتخرجون في مدارس خاصة بهم يتعلمون فيها تفسير شريعتهم التوراة والموسيقى والشعر ، وأنهم كانوا شعراء ومغنين وعزافين على آلات الطرب ، وبارعين في كل ما يؤثر في الانفس ويحرك الشعور والوجدان ، ويشير رواكد الخيال ، فلا غرو أن يكون عزرا ونحميا من أعظم أنبيائهم ساقين من سقاة الخمر لملك بابل ﴿ ارتحششتا ﴾ ومغنين له ، وأن يكونا قد استعانا بتأثير غنائهما في نفسه على سماحه لها بالعودة بقومهما الى وطنهما واقامة دينهما فيه فالنبوة على هذا كانت صناعة تعلم موادها في المدارس ، ويستعان على الاقتناع بها بالتخييلات الشعرية ، والالهامات الكلامية ، والمؤثرات الغنائية والموسيقية . والمعلومات المكتسبة . فأين هي من نبوة محمد الامي الذي لم يتعلم شيئاً ولم يقل شعراً ، وقد جاء مفرداً ، بأعظم مما جاءوا به كلهم اجمعون مجتمعاً ؟

« ٢ » ان كثيراً من هؤلاء الانبياء وأولادهم كانوا متسكين أو طوافين على الناس يعيشون ضيوفا عند الاتقياء المحيين لرجال الدين ، كما هو المهود من دراويش المتصوفة أهل الطرق في المسلمين ، ومن المعلوم أن هؤلاء المحيين يقبلون من رجال التنسك كل ما يقولون ، ويسلمون لهم كل ما يدعون ، ويذيعون عنهم كل ما يقبلون

منهم ، ومن غير هؤلاء الكثيرين من الانبياء من نقلت عنهم كتبهم المقدسة بعض كبار المعاصي ، وان من أخبار الصوفية والنسك والسياح عند المسلمين من فضل سيرتهم سيرة هؤلاء الانبياء في كتبهم ، فكيف يصح أن يرتفع أحد منهم إلى درجة محمد ﷺ في نشأته الفطرية ومعيشته من كسبه ، وكونه لم يكن عالة على الناس في شيء قبل النبوة ولا بعدها ؟

(٣) أشهر أنواع نبوتهم الاحلام والرؤى المنامية والتخيلات المهمة ، وكلها تقع لغيرهم ، وقد كانت الرؤيا الصادقة مبدأ نبوة محمد ﷺ قبل وحي التشريع الذي كان له صور أعلى منها سبئياً بعد (١) والرؤى صور حسية في الخيال تذهب الآراء والافكار في تعبيرها مذاهب شتى ، فلما يعرف تأويل الصادق منها غير الانبياء كرويا ملك مصر التي عبرها يوسف عليه السلام ، ورؤياه هو في صغره

(٤) ان نبوة الاخبار عن الامور المستقبلية - وهي التي يستدلون بها على كونهم مخبرين عن الله تعالى - كانت أحيانا كثيرة بدون تمييز أزمنتها ولا حوادثها ، فكان بعضها يختلط ببعض فلا يكاد يظهر المراد منها إلا بعد حملها على شيء واضح بعد وقوعه ، كما يبعد في كل عصر من أخبار العرافين والمنجمين ، بله الروحانيين المكشفين ، ومنها ما ظهر خلافه كما أشار إليه ولم يشرحه ولكن التاريخ شرحه . وكان أعظم نبوات هؤلاء الانبياء إخبارهم عن المسيح (مسيا) وملك اسرائيل ولا يزال اليهود ينتظرونها (٢) ثم إخبار المسيح نفسه عن خراب العالم ومجيء الممكوت لاجل دينونة العالم وانه لا ينقضي الجيل الذي خاطبه حتى يكون ذلك كله . وقد مر أجيال كثيرة ولم يكن من ذلك شيء .

﴿ ١ ﴾ قد بينتها في الفصل الأول الذي زدته في هذه الطبعة الثانية ايضا

﴿ ٢ ﴾ اي ينتظرون صدق هذه النبوة

امتياز نبوة محمد على نبوة من قبله

في موضوعها ، والموازنة بينه وبين موسى وعيسى (ع . م)
 أنى تضاهى. تلك الأخبار (النبوات) وهي كما علمت- أنباء القرآن الكثيرة
 بالمغيبات كالذي بيناه في خلاصة تفسير سورة براءة (التوبة) مما وقع من المنافقين، وما
 هو في سورة الفتح وقد وقع في عهد النبي (ص). وفي غيرهما كقوله تعالى في أول
 سورة الروم (٣٠) (عُلبتِ الرُّومُ في أدنى الأرضِ وهم من بعد غلبهم
 سيَعْلَبونَ في بضْعِ سنين) الآية . وقوله (٢٤ : ٥٥ وعد الله الذين
 آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض) الآية ؟
 وأين هي من إنباء النبي ﷺ أصحابه بأنهم سيفتحون بعده بلاد الشام وبلاد
 الفرس ومصر ، ويستولون على ملك كسرى وقصر ، حتى أنه سمي كسرى
 عصره باسمه كما رواه البخاري عن عدي بن حاتم الخ ؟ (١)

هذا ما يقال بالاجمال في أحد موضوعي النبوة وهو الاخبار عما سيكون في
 مستقبل الزمان، فما جاء به محمد ﷺ منها في وحي القرآن وغيره أظهر وأوضح
 وأبعد عن احتمال التأويل ، وأعصى على إنكار المرتابين ، ويزيد عليه ما جاء به
 من أنباء الغيب الماضية، وسأرد ما يتأوله الجاحدون للنبوة في بيان بطلان شبهتهم
 وأما الموضوع الثاني للنبوة وهو الأهم الأعظم أي عقائد الدين وعباداته وآدابه
 وأحكامه فالنظر فيه من وجهين (أحدهما) ما ذكره من كونه لا يمكن أن يصل إليه
 عقل من جاء به وفكره ولا علمه ومعارفه الكسبية، فيتعين أن يكون وحي من الله

(وثانيهما) أن يكون مافيه من هداية الناس وصلاح أمورهم في دينهم ودنياهم أعلى في نفسه من معارف البشر في عصره، فيتعين أن يكون وحياً

فأما الاول الخاص بشخص الرسول فان العاقل المستقل المفكر إذا عرف تاريخ محمد ﷺ وتاريخ أنبياء بني اسرائيل عليهم السلام فانه يرى أن محمداً ﷺ قد نشأ أمياً لم يتعلم القراءة ولا الكتابة، وان قومه الذين نشأ فيهم كانوا أميين وثنيين جاهلين بعقائد الملل وتواريخ الامم وعلوم التشريع والفلسفة، حتى إن مكة عاصمة بلادهم، وقاعدة دينهم، ومثوى كبرائهم ورؤسائهم، ومثابة الشعوب والقبائل للحج والتجارة فيها، والمفاخرة بالفصاحة والبلاغة في أسواقها التابعة لها، لم يكن يوجد فيها مدرسة ولا كتاب مدون قط، فما جاء به من الدين التام الكامل، والشرع العام العادل، لا يمكن أن يكون مكتسباً ولا أن يكون مستنبطاً بعقله وفكره كما يبناه من قبل، وسندفع ما يرد من الشبهة عليه بعد (في الفصل الثالث)

ويرى تبحر هذا أن موسى (ع.م) أعظم أولئك الانبياء في علمه وعمله، وفي شريعته وهدايته، قد نشأ في أعظم بيوت الملك لا عظم شعب في الارض وأرقاء تشريعاً وعلماء وحكمة وفناً وصناعة، وهو بيت فرعون مصر، ورأى قومه في حكم هذا الملك القوي القاهرة مستعبدين مستذلين: تَذَبَّحُوا بَنَاؤُهُمْ وَتُسْتَحْيَا نِسَاؤُهُمْ، تمهيداً لا بادتهم ومحوهم من الارض، ثم انه مكث بضع سنين عند حميه في مدين وكان نبياً - او كاهناً كما يقولون - فن ثم يرى منكرو الوحي ان ما جاء به موسى من الشريعة الخاصة بشعبه ليس بكثير على رجل كبير العقل عظيم الهمة، ناشيء في بيت الملك والتشريع والحكمة الخ ثم ظهر في أوائل هذا القرن الميلادي ان شريعة التوراة موافقة في أكثر أحكامها لشريعة حورابي العربي ملك الكلدان الذي كان قبل موسى معاصراً لابراهيم ﷺ، وقد قال الذين عثروا على هذه الشريعة من علماء الالمان في حفائر العراق

انه قد تبين أن شريعة موسى مستمدة منها لا وحي من الله تعالى (١) وأقل ما يقوله مستقل الفكر في ذلك انه إن لم تكن التوراة مستمدة منها فلا تعد أحق منها بأن تكون وحيامن الله تعالى، ولم ينقل أن حورابي ادعى ان شريعته وحي من الله تعالى ثم يرى الناظر أن سائر أنبياء العهد القديم كانوا تابعين للتوراة متعبدين بها، وانهم كانوا يتدارسون تفسيرها في مدارس خاصة بهم وبأبنائهم مع علوم أخرى، فلا يصح أن يذكر أحدهم مع محمد ذكر موازنة ومفاضلة، ويرى أيضا أن يوحنا المعمدان الذي شهد المسيح بتفضيله عليهم كلهم لم يأت بشرع ولا نبأ غيبي . بل يرى ان عيسى عليه السلام وهو أعظمهم قدراً، وأعلام ذكراً، وأجلهم أنراً، لم يأت بشريعة جديدة بل كان تابعا لشريعة التوراة مع نسخ قليل من أحكامها، وإصلاح روحي أدبي لجهود اليهود المادي على ظواهر ألفاظها، فأمكن للجاحدي الوحي أن يقولوا انه لا يكثر علي رجل مثله زكي الفطرة، ذكي العقل، ناشيء في حجر الشريعة اليهودية، والمدنية الرومانية، والحكمة اليونانية، غلب عليه الزهد والروحانية، أن يأتي بتلك الوصايا الأدبية (٢) ونحن المسلمين لا نقول هذا ولا ذلك وإنما يقوله الماديون والمحدون والعقليون، وألوف مهمهم ينسبون إلى المذاهب النصرانية وأما الوجه الثاني وهو عقائد الدين وعباداته وآدابه وأحكامه فلا يرتاب العقل المستقل المفكر غير المقلد لذين من الأديان أن عقائد الاسلام من توحيد الله وتنزيهه عن كل نقص، ووصفه بصفات الكمال، والاستدلال عليها بالدلائل

(١) قد شرحنا هذه المسألة في المجلد السادس من المنار وذ كرنا خلاصتها في تفسير الآية ٣٠ من سورة براءة (التوبة) وهى التاسعة فراجع في المنار سنة ١٣٢١ هـ او الصفحة ٣٤٨ من الجزء العاشر من التفسير

(٢) على ان منهم من يعزو أجلها إلى كوشيشيوس المشرع الصيني والى غيره من الحكماء الذين كانوا قبل المسيح عليه السلام

العقالية والعلمية الكونية ،ومن بيان هداية رسله ،ومن عباداته وآدابه المزية للنفس المرقية للعقل ، ومن تشريعه العادل ، وحقه الشورتي المرقى للاجتماع البشري - كل ذلك أرقى مما في التوراة والانجيل وسائر كتب العهد القديم والجديد ، بل هو الاصلاح الذي بلغ به دين الله أعلى الكمال ، ويشهد بهذا علماء الافرنج وقد شرحناه من وجهة نظرنا ووجهة نظرهم في مواضع من المنار والتفسير (١)

ومن نظر في قصة آدم ونوح و ابراهيم ولوط واسحاق ويعقوب ويوسف من سفر التكوين ، وسيرة موسى وداود وسليمان وغيرهم من الانبياء في سائر أسفار العهد القديم ، ثم قرأ هذه القصص في القرآن يرى الفرق العظيم في الاهتداء بسيرة هؤلاء الانبياء العظام ، ففي أسفار العهد القديم يرى وصف الله تعالى بما لا يليق به من الجهل والندم على خلق البشر والانتقام منهم ، ووصف الانبياء أيضا بما لا يليق بهم من المعاصي مما هو قدوة سوءى ، من حيث يمجّد في قصص القرآن من حكمة الله تعالى ورحمته وعدله وفضله وسننه في خلقه ، ومن وصف أنبيائه ورسله بالكمال ، وأحسن الاعمال ، ما هو قدوة صالحة وأسوة حسنة تزيد قارئها إيمانا وهدى ، فأخبار الانبياء في كتب العهدين تشبه بستانا فيه كثير من الشجر والعشب والشوك ، والثمار والازهار والحشرات ، وأخبارهم في القرآن تشبه العطر المستخرج من تلك الازهار والعسل المشتار من جني تلك الثمار ، ويرى فيه رياضا اخرى جمعت جمال الكون كله

وندع هنا ذكر ما كتبه علماء الافرنج الاحرار في نقد هذه الكتب والطعن فيها ، ومن أخصرها وأغربها كتاب (أضرار تعليم التوراة والانجيل) ل احد علماء الانكليز (٢) وما فيها من مخالفة العلم والعقل والتاريخ ، والقرآن خال من مثل ذلك

(١) آخرها (ص ٣٥٩ ج ١٠ تفسير) وسنفرده ملحقا من علاوات هذه الطبعة

(٢) هو تشارلس وطس وطبع في مطبعة (وطس وشركائه في لندن) وترجم

بالعربية وطبع بمطبعة الموسوعات في مصر سنة ١٣١٩ ١٩٠١ م

صد الكنيسة عن الاسلام وبغية عوجا

ان رجال الكنيسة لم يجدوا ما يصدون به أتباعها عن الاسلام بعد أن رأوه قد قضى على الوثنية والمجوسية، وكاد يقضي على النصرانية في الشرق، ثم امتد نوره إلى الغرب، إلا تأليف الكتب ونظم الاشعار والاغاني في ذم الاسلام ونبه وكتابه بالافك والبهتان، وغش الكلام، الذي يدل على أن هؤلاء المتدينين أكذب البشر، وأشدهم عداوة للحق والفضيلة في سبيل رياستهم التي يتبرأ منها المسيح عليه صلوات الله وسلامه

وقد كان أتباعهم يصدقون ما يقولون ويكتبون، وبتهيجون بما ينظمون. ويشدون، حتى إذا ما اطلع بعضهم على كتب الاسلام ورأوا المسلمين وعاشروهم فضحوهم أقبح الفضائح، كما ترى في كتاب (الاسلام خواطر وسوانح) للكونت دي كاستري، وكما ترى في الكتاب الفرنسي الذي ظهر في هذا العهد باسم (حياة محمد) للمسيو درمنغام وهذان الكاتبان افرنسيان من طائفة الكاثوليك اللاتين، وقد صرحا كغيرهما بأن كنيستهم هي البادئة بالظلم والعدوان، والافك والبهتان، واعترفا بأدب المسلمين في الدفاع^{*}

(*) قال موسيو درمنغام في كتابه (حياة محمد) ما ترجمته العربية بقلم الدكتور محمد بك حسين هيكل : لما نشبت الحرب بين الاسلام والمسيحية اتسعت هوة الخلاف وسوء الفهم بطبيعة الحال وازدادت حدة، ويجب أن يعترف الانسان بأن الغربيين كانوا السابقين إلى أكبر الخلاف. فمن المجادلين البيزنطيين الذين أوقروا الاسلام احتقاراً من غير أن يكلفوا انفسهم - فيما خلا جان داماسين - مؤنة دراسته، ولم يحارب الكتاب والنظامون (يعني الشعراء) مسامي الاندلس إلا بأسخف المثالب، فقد زعموا محمداً لص نياق (اي ابل) وزعموه متهاكاً على اللهو، وزعموه ساحراً، وزعموه رئيس عصاة من قطاع الطرق، بل زعموه قسا رومانياً مغيظاً ان لم ينتخب لكرسي البابوية... وحسبه بعضهم إلهاً زائفاً « يقرب له عبادته الضحايا البشرية » وان =

ولما ظهرت طائفة البروتستان وغلب مذهبها في شعوب الانجلوسكسون
والجرمان، وكان الفضل في دعوتهم الاصلاحية لما انعكس على أوروبا من نور الاسلام،
لم يتعفف قسوسهم ودعاتهم (المبشرون) عن اقتراء الكذب، ولا تجملوا فيه بشيء
من الزاهة والادب. والذي نراه في هذا العصر من مطاعنهم واقترائهم وسوء
أدبهم أشد مما نراه من غيرهم، ولكن الذين أنصفوا الاسلام من أحرار علمائهم أصرح
قولاً، ولعلمهم أكثر من اللاتين عدداً، وكذلك الذين اهتموا به، وسبب ذلك
أن الحرية والاستقلال في تربيتهم أقوى، وسيكونون هم الذين ينشرون الاسلام
في أوروبا والولايات المتحدة الاميركانية ثم في سائر العالم كما جزم العلامة برناردشو
الانكليزي في كتابه الحياة الزوجية (واشتهر عنه هذا ونقله: صحف الافطار الاسلامية)

= جبير دنوجن نفسه وهو رجل جيد كزأن محمداً مات في نوبة سكر بين (كذا)
وان جسده وجد ملقى على كوم من الروث وقد أكلت منه الخنازير، وذلك ليفسر
السبب الذي من اجله حرم الخمر وحرم لحم ذلك الحيوان ... وذهبت الاغنيات الى
حد أن جعلت محمداً صنماً من ذهب، وجعلت المساجد الاسلامية برابي (معابد أصنام)
ملاى بالتماثيل والصور. وقد تحدث واضع أغنية انطاكية حديث من رأى صنم
«ماهوم» مصنوعاً من ذهب ومن فضة خالصين وقد جلس فوق فيل على مقعد من
القسيفساء، وأما أغنية رولان التي تصور فرسان شارلمان يحطمون الاوثان الاسلامية
فترغم أن مسلمي الاندلس يعبدون ثالوثاً مكوناً من ترفاجان وماهوم (هو ماهوم
ويعنون به محمداً) وابولون. وتحسب «قصة محمد» ان الاسلام يبيح للمرأة تعدد
الازواج. وقد ظلت حياة الاحقاد والخرافات قوية منشئة بالحياة، فمنذ رودلف
دلوهيم إلى وقتنا الحاضر قام نيكولا دكينز وفيفس ومراتشي وهوتنجر وبيليانلار
وبريد وغيرهم فوصفوا محمداً بأنه دجال والاسلام بأنه مجموعة من الهرطقات (الكفر)
كلها، وأنه من عمل الشيطان، والمسلمين بأنهم وحوش، والقرآن بأنه نسيج من
السخافات اه المراد منه على كثرتة، وإبهام في ترجمته، وهو قليل من إسرانهم
وتراجع ترجمة كتاب (الاسلام: خواطر وسوانح) العربية لأحمد فتحي زغلول

الآيات والعجائب أي الخوارق

واثبات النبوة عندنا وعندهم *

بقي الكلام في مسألة العجائب التي بنيت على أساسها الكنائس النصرانية على اختلاف مذاهبها ، وفيما يدعونه من تجرد محمد ﷺ من لباسها ، وهي قد أصبحت في هذا العصر حجة على دينهم لا له . وصادة لاهلها والعقلاء عنه لا مقنعة به ، ولولا حكاية القرآن لآيات الله انني أيد بها موسى وعيسى عليهما السلام لكان إقبال انحرار الافرنج عليه أكثر ، واهتداؤهم به أعم وأسرع ، لان أساسه قد بني على العقل والعلم وموافقة الفطرة البشرية ، وتزكية أنفس الافراد ، وترقية مصالح الاجتماع ، وأما آيته التي احتج بها على كونه من عند الله تعالى فهي القرآن ، وأمية محمد عليه الصلاة والسلام ، فانما هي آية علمية تدرك بالعقل والحس والوجدان كفاك بالعلم في الامي معجزة في الجاهلية والتأديب في اليم

وأما تلك العجائب الكونية فهي مثار شبهات وتأويلات كثيرة في روايتها وفي صحتها ، وفي دلالتها . وأمثال هذه الامور تقع من أناس كثيرين في كل زمان والمنقول منها عن صوفية الهنود والمسلمين ، أكثر من المنقول عن العهدين العتيق والجديد وعن مناقب القديسين ، وهي من منفرات العلماء عن الدين في هذا العصر ، وسندين ما جاء به الاسلام فيها من القول الفصل

العجائب وما للمسيح منها

جاء في تعريف العجائب وأنواعها من قاموس الكتاب المقدس مانصه :
« عجيبة : حادثة تحدث بقوة إلهية خارقة مجرى العادة الطبيعية لاثبات إرسالية من جرت على يده أو فيه . والعجيبة الحقيقية هي فوق الطبيعة لا ضدها تحدث بتوقيف نوااميس الطبيعة لا بما كستها ، وهي إظهار نظام أعلى من الطبيعة يخضع له النظام »
(*) سيأتي تفصيل آخر في تحقيق مسألة الخوارق وأنواعها والفرق بين آيات الانبياء والرسل منها وغيرها كالكرامات والخصائص الروحية

الطبيعي ، ولنا في فعل الارادة مثال يظهر لنا حقيقة أمر العجائب إذ بها نرفع اليد ، وبذلك نوقف ناموس الثقل^(١) ويتسلط الله على قوى الطبيعة ويرشدها ويمد مدارها ويحصدها لأنها عوامل لمشيئته . ويناط فعل العجائب بالله وحده أو بمن سمح له بذلك « وإذا آمنا بالله القادر على كل شيء لم يعسر علينا التسليم بإمكان العجائب ، وكانت العجيبة الاولى خليفة الكون من العدم بإرادته تعالى . أما المسيح فاقنومه عجيبة أدبية عظيمة ، وعجائبه لم تكن إلا إظهار هذا الاقنوم وأعماله ، وإذا آمنا بالمسيح ابن الله العديم الخطية لم يعسر علينا تصديق عجائبه . أما الشيطان فعجائبه كذابة « ولا بد من العجائب لتعزيز الديانة فكثيرا ما يستشهد المسيحي بعجائبه لاثبات لاهوته وكونه المسيح ، وكان يفعلها لمجيد الله والمنفعة نفوس الناس وأبدانهم ، وكان يفعلها ظاهرا أمام جماهير أصحابه وأعدائه ولم يذكرها أعداؤه غير أنهم نسبوها لبعاز بول^(٢) وسواء امتحنوها بالشهادة من الخارج وبمناسبتها إلى إرساليته الالهية ظهرت لكل من كان خاليا من الغرض صحيحة . فاذا لم نسلم بصحتها التزمنا أن نقول بأن مقررها كذابون ، الامر الذي لا يسوغ ظنه بالمسيح والرسول^(٣) »

« ١ » اي سنة جاذبية الثقل التي تقتضي سقوط الاجسام إلى مركز الارض
 « ٢ » أي إلى الشيطان ، والا ناجيل تثبت العجائب للشيطان كما صرح به آتقاء بل.
 يبالغون في عجائبه وتصرفه في العالم ومن أسماؤه عندهم : إله هذا الدهر . قال في قاموس الكتاب المقدس (قلنا في شخصيته نفس البراهين التي لنا في شخصية الروح القدس والملائكة) (راجع ص ٦٥٠ جزء أول) وتعجب من اهل هذا الذين
 « ٣ » هذا استدلال غير منطقي ، فلا تقوم به الحجة على المنكر ، ولا يحتاج اليه المعترف بالمقلد ، وحاصله : إما أن نسلم صحة هذه العجائب وإما أن نقول إن روايتها كاذبون ، لكن كذب روايتها لا يسوغ أن يظن بالمسيح والرسول تثبت أنها صحيحة . والمنكر يسوغ كذب الناقلين لها ، وله أن يسلم الشرطية المنفصلة ويمنع الاستثناء ويعد مصادرة ، إذ جعل كلا من ثبوت كونه مسيحا من الله وكونهم رسلا متوقفا على صدقها ، وصدقها متوقفا على ثبوت ذلك . وهذا دور محال

« وبقيت قوة العجائب في عصر الرسل ولما امتدت الديانة المسيحية زال الاضطراب اليها^(١) ولا يلزمنا الآن سوى العجائب الادبية الحاصلة من هذه الديانة مع الشواهد الداخلية على صحتها غير انه يمكن لله تعالى أن يمجدها في أي وقت شاء » اهـ
ثم وضع المؤلف جدولاً أحصى فيه عجائب العهد القديم من خراب سدوم وعمورة على قوم لوط الى « خلاص يونان (يونس) بواسطة حوت » فبلغت ٦٧ عجيبة ، وبقى عليه بجدول العجائب المقرنة بحياة المسيح من الحبل به « بفعل الروح القدس » إلى (الضعود إلى السماء) فبلغت ٣٧ . وعزز الجدولين بآلث في (العجائب التي جرت في عصر الرسل) أي الذين ثوا دعوة المسيح من تلاميذه وغيرهم من (انسكاب الروح القدس يوم الخمسين) إلى (شفاء أبي بوليسوس^(٢) وغيره) فكانت عشرين . وقد صرح بأن يوحنا المعمدان لم يرد في الكتاب انه صنع عجائب

بحث في عجائب المسيح عليه السلام

أقول : ان ٢٧ من عجائب المسيح المذكورة : شفاء مرضى ومجانين لا يستهم الشياطين ، وثلاث منها إقامة موتى عقب موتهم ، وما بقي فسألة الحبل به وتحويله الماء إلى خمر وسحب الشبكة في بحر الجليل ، وإشباع خمسة آلاف مرة وأربعة آلاف مرة أخرى ، وضرب التينة العقيمة بما أيسها ، وقيامه المسيح وصيد السمك والصعود . وإننا نلخص رواية الانجيل لأهمها وهو إحياء الموتى ، ونذكر ما يقوله فيها منكرو العجائب

(الميت الاول) شاب من مدينة نابين كان محمولا في جنازة وأمه تبكي ، فاستوقف النعش وقال له : أيها الشاب لك اقول قم . فجلس وابتدأ يتكلم ،

(١) هذا مذهب البروتستانت ويلزمهم ان عجائب الشيطان بقيت بدون معارض وأما الكاثوليك فيدعون وجودها في كل عصر

(٢) هو رئيس جزيرة كان مريضاً فراه بولص وصاله له فشفي (اعمال ٢٨)

فدفعه إلى أمه ، فأخذ الجميع خوف ، ومجدوا الله قائلين : قد قام فينا نبي عظيم
وافتقد الله شعبه (لوقا ١١: ٧ - ١٦)

(الثاني) صبية ماتت فقال له ابوها وكان رئيسا : ابنتي الآن ماتت ، لكن
تعال فضع يدك عليها فتحيا . فجاء بيت الرئيس ووجد الزميرين والجمع يضعجون ،
فقال لهم « تنحوا فإن الصبية لم تمت ، لكنها نائمة » فضحكوا عليه ، فلما أخرج
الجمع دخل وأمسك بيدها فقامت الصبية (مت ١٨: ٩ - ٢٤)

فذكرو العجائب يقولون إن كلا من الشاب والشابة لم يكونا قد ماتا بالفعل
وان كثيرا من الناس في كل زمان قد قاموا من نعوشهم بل من قبورهم بعد أن ظن
الناس انهم ماتوا . ولذلك تمنع الحكومات المدنية دفن الميت إلا بعد أن يكتب
أحد الاطباء شهادة بثبوت موته ثبوتا علميا فنيا - وللمؤمنين بالآيات أن يجزموا
أيضا بأن الصبية لم تكن ميتة أخذاً بظاهر قوله عليه السلام: لم تمت ولكنها نائمة.
يعني انها أغمي عليها فظنوا انها ماتت وهي لم تمت

وأما الثالث فهو ليعازر حبيه وأخو مرثا ومريم حبيتيه : مرض في قريتهم
(بيت عنيا) فأرسلتا الى المسيح قائلتين : هو ذا الذي نحبه مريض . فبكث
يومين وحضر فوجد انه مات منذ اربعة ايام ، فلاقته مرثا وقالت : ياسيد لو
كنت هنا لم يمت أخي ، ثم دعت أختها مريم فلما رآته خرت عند رجليه قائلة كما
قالت مرثا ، وكانوا قد ذهبوا إلى عند القبر للبكاء ، فلما رآها تبكي واليهود الذين جاءوا
معهما سيكون (انزعج بالروح واضطرب) وقال أين وضعتموه ؟ فدلوه عليه ، فبكى
وانزعج في نفسه وجاء إلى القبر ، وكان مغارة وقد وضع عليه حجر ، فأمر برفع الحجر
فرفعوه (ورفع يسوع عينيه إلى فوق وقال : أيها الآب أشكرك لأنك سمعت لي ،
وأنا علمت أنك في كل حين تسمع لي ، ولكن لاجل هذا الجمع الواقف قلت ليؤمنوا

انك أرسلتني) ولما قال هذا صرخ بصوت عظيم « ليعازر، هلم خارجاً » فخرج الميت ويداؤه ورجلاه مربوطتان بأقطة ، ووجهه ملفوف بمنديل ، فقال لهم يسوع حلوه ودعوه يذهب اه ملخصاً من الفصل ١١ من انجيل يوحنا

أتدري أيها القاريء ما يقول منكرو العجائب والآيات في هذه القصة على تقدير صحة الرواية ؟ اتى سمعت طبيباً سورياً بروتستنتياً يقول : إنها كانت بتواطؤ بينه وبين حبيبته وحبيبه لاقتناع اليهود بنبوته - وحاشاه عليه السلام ، وإيما نقل هذا لنبيين أن النصارى لا يستطيعون إقامة البرهان في هذا العصر على نبوة المسيح فضلاً عن ألوهيته بهذه الروايات التي تدل على النبوة وتنفي الألوهية كما فهم الذين شاهدوها ، لانه ليس لها اسانيد متصلة إلى كاتبها ، ولا دليل على عصمتهم من الخطأ في روايتها ، دع قول المنكرين باحتمال الاحتيال والتليس أو المصادفة فيها ، او عدم إياها على تقدير ثبوتها من فلتات الطبيعة ^(١)

وإذا كان أعظمها وهو إحياء الميت يحتمل ما ذكرنا من التأويل فما القول في شفاء المرضى وإخراج الشياطين الذي يكثر وقوع مثله في كل زمان ، والاطباء كلهم يقولون ان ما يدعيه العوام من دخول الشياطين في اجساد الناس ما هو إلا امراض عصبية تشفى بالمعالجة او بالوهم والاعتقاد ، ودونها مسألة الحجر والسلك ويس التينة (٢)

(١) وقد قل مثلها عن بعض صوفية المسلمين والهندوس فان كذبوا النقول القديمة فمنها ما رواه من شاهده من أهل عصرنا كما ترى في الحاشية التالية لهذه وهي « ٢ » خلاصة عجيبة التينة انه جاع وهو خارج من بيت عنيا الى اورشليم مع تلاميذه فرأى شجرة تين مورقة ، فجاها لعله يجد فيها شيئاً يأكله فلم يجد فيها شيئاً « لانه لم يكن وقت التين » فلعنّها قائلاً « لا يأكل أحد منك ثمراً بعد إلى الابد » ولما رجعوا من اورشليم رأوا التينة قد يبست فقال له بطرس: يا سيدي انظر التينة التي لعنّاها قد يبست اطلع « مرقس ١١: ١١-١٤ » فأجابهم بما خلاصته ان هذا آية =

= الايمان وان كل مؤمن يقول لاي شيء «كن» وهو يؤمن انه يكون فانه يكون ولو كان أمرا للجبل أن يزول من مكانه

وفي هذه العجيبة نظر من ثلاث جهات (الاولى) ان منكر الآيات يقول انه يجوز أن تكون التينة دبست بسبب مادي في أثناء وجود المسيح وتلاميذه في أورشليم (الثانية) ان الروحانيين من فلاسفة الهندوس وغيرهم يقولون ان كل من كان روحانيا قوي الارادة يكون له مثل هذا التأثير فهو من خواص النفس ، وهذا بمعنى قول المسيح لهم في تأثير الايمان ، وهو ينافي أن يكون بتأييد من الله خارق للعادات الكسبية الدالة على أن من جرت على يده على الحق

(الثالثة) ان الناس يقولون مثل هذا في كل زمان ، ومن ذلك ما نقلته جريدة المقطم في عددها الذي صدر بتاريخ ٤ من رمضان من عامنا هذا الموافق ٢١ من ديسمبر سنة ١٩٣٣ مترجماعن كتاب لطبيب اسمه الكسندر كان في بلدية لندن له منصب معروف في مستشفى الامراض النفسية أنه ألف كتابا في الشهر الماضي اسمه (العالم غير المنظور) تكلم فيه عن التنويم المغناطيسي والسحر الاسود وغيرهما من (علوم الغيب) ذكر فيه رحلته إلى الهند والتبت وما رأى فيها من المناظر المدهشة (ومنها شجرة تين تدبل بأمر رجل وجنة فقدت الحياة مدة سبع سنوات تعاد اليها الحياة)

ثم نقل عن هذا الكتاب في تفصيل عجيبتي امارة التينة واحياء الانسان الميت نبأ قاض انكليزي اسمه مكردى أنذره بأنه سيقتل قبل مرور سبع سنين برصاص بندقية تطلق عليه بأمره وكان الامر كذلك . وأن المؤلف سمع هذا الخبر من « اللاما » أي كاهن التبت الا كبير ثم قال المقطم ما نصه بعد العنوان :

﴿ إمارة الصوفي الهندي للتينة كالمسيح ﴾

ويتكلم الطبيب في كتابه عن صديقه ﴿ البروفسور ... ﴾ ويقول عنه انه يزور سريره كل ليلة وعمره مائة سنة ولكن منظره منظر رجل ابن أربعين . وقد صعبه مرة الى شجرة تين نخاطبها صاحبها من بعد قائلا : لقد أحسنت وقاومت عواصف الحياة وسليت نفسي وشفيتيها . وقد آن وقت رحيلك عن عالم الغرور والعدم هذا =

= فهو في الآن ولا تعودى الى الحياة مرة أخرى . قال الطبيب : فذبلت التينة حالا وسمح لي بفحصها أنا وغيري لتأكد موتها
وقص حكاية الرجل الذي أعيدت حياته إليه فقال :

❦ إحياء اللاما كاهن التبت للميت ❦

« كان اللاما الكبير على عرشه فدخل عليه جوق من الرهبان يحملون المشاعل فجلسوا في حلقة واسعة وهم يتمتمون أغنية . فصلى اللاما وفي تلك الدقيقة دخل ثمانية يحملون تابوتا من حجر فأنزلوه ورفعوا غطاءه . فرأينا شخصا منظره منظر ميت . فسمح لي بفحصه فلم أشعر بنبضه ولا بخفقان قلبه وكان بارداً كالبحر وعيناه عينا رجل اقضى عليه يوم كامل وهو ميت ووضعت مرآة على فيه وأنه فلم يظهر عليها أثر تنفسه . ثم لفظ اللاما كلمات فرأينا الميت يفتح عينيه، ثم جلس في تابوته فساعدته راهبان على الوقوف والمشي، فدنا من اللاما وانحنى وعاد إلى نعشه وهو لا يزحزح بصره عن (أعظم الحكماء) . ثم لم تمض دقائق قليلة حتى عاد ولا حياة فيه . فلم أدرك أن ميتا حقيقة أم في غيبوبة . فقرأ اللاما أفكارى فقال لي ان الرجل كان ميتا مدة سبع سنوات أخرى . وإن عمره مئات من السنين وقد يحيا إلى الابد إذا صح أن نعد هذا حياة »

(يقول محمد رشيد) وفي هذا الكتاب عجائب أخرى ذكر بعضها في المقطع وأن المجلس البلدي عزله من وظيفته عقابا له عليه . وأنا قد سمعت في صغري حكاية مشهورة عند أهل بلدنا عن رجل معتقد اسمه الشيخ محمد العصافيري أنه نظر إلى شجرة تين وقال مسكينة مسكينة تموت، فلم تلبث أن عراها الذبول حتى بدست وجملة القول أن حكايات العجائب كثيرة في كل زمان وسيأتي تحقيق القول فيها

آية نبوة محمد العقلية العلمية وسائر آياته الكونية

هذا وان مارواه المحدثون بالاسانيد المتصلة تارة وبالمرسلة^(١) أخرى من الآيات الكونية التي أكرم الله تعالى بها رسوله محمد ﷺ هي أكثر من كل ما رواه الانجيليون وأبعد عن التأويل، ولم يجعلها برهاناً على صحة الدين ولا أمر بتلقيها للناس ذلك بأن الله تعالى جعل نبوة محمد ورسالته قائمة على قواعد العلم والعقل في ثبوتها وفي موضوعها، لان البشر قد بدءوا يدخلون بها في سن الرشد والاستقلال النوعي الذي لا يخضع عقل صاحبه فيه لاتباع من تصدر عنهم أمور عجيبة مخالفة للنظام المألوف في سنن الكون، بل لا يكمل ارتقاؤهم واستعدادهم العقلي مع هذا الخضوع، بل هو من موانعه، فجعل حجة نبوة خاتم النبيين عين موضوع نبوته، وهو كتابه المعجز للبشر بهدايته وبعلمه، وباعجازه اللفظي والمعنوي، وبأنباء الغيب الماضية والحاضرة والآية فيه^(٢) ليربي البشر على الترقى في هذا الاستقلال، إلى ما هم مستعدون له من الكمال

هذا الفصل بين النبوات الخاصة الماضية، والنبوة العامة الباقية، قد عبر عنه النبي ﷺ بقوله « مامن الانبياء من نبي إلا وقد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة » متفق عليه من حديث أبي هريرة (رض)

وقص الله تعالى علينا في كتابه ان المشركين اقترحوا الآيات الكونية (العجائب) على رسوله، فاحتج عليهم بالقرآن في جملته، وبما فيه من أخبار الرسل

« ١ » الرواية المرسلة للحديث هي التي لم يذكر فيها اسم الصحابي الذي رفعه الى النبي (ص)

« ٢ » قد بينا ذلك في تفسير آية التحدي من سورة البقرة من بضعة وجوه وسنزيد بياناً في هذا الكتاب وإنما موضوعنا هنا بيان الفرق بين نبوة نبينا ونبوة من قبله

والكتب السابقة التي لم يكن يعلمها هو ولا قومه ، وبهدياته وعلومه وباعجازه وعدم استطاعة أحد ولا جماعة ولا العالم كله على الاتيان بمثله (١٧ : ٨٨ قل لئن اجتمعت الانسُ والجنُّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) (وسيأتي تفصيله)

وأما ما أكرمه الله تعالى به من الآيات الكونية فلم يكن لاقامة الحجة على نبوته ورسالته ، بل كان من رحمة الله تعالى وعنايته به وبأصحابه في الشدائد ، كنصرهم على المعتدين عليهم من الكفار الذين يفوقونهم عدداً وعدداً واستعداداً بالسلاح والطعام ، وناهيك بغزوة بدر والنصر فيها ، ثم بغزوة الاحزاب إذ تآلب المشركون واليهود على المسلمين وأحاطوا بمدينتهم فردهم الله بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال .

من تلك الآيات شفاء المرضى ، وإبصار الاعمى ، وإشباع العدد الكثير من الطعام القليل في غزوة الاحزاب وفي غزوة تبوك كما وقع للمسيح عليه السلام . ومنها تسخير الله السحاب لاسقاء المسلمين وتثبيت أقدامهم التي كانت تسيخ في الرمل ببدر ، ولم يصب المشركين من غيها شيء . ومثل ذلك في غزوة تبوك إذ نفذ ماء الجيش في الصحراء والحر شديد حتى كانوا يذبحون البعير ويخرجون الفرث من كرشه ليعتصروه ويبلوا به ألسنتهم ، على قلة الرواحل معهم ، وكان يقل من يجمد من عصارته ما يشربه شرباً ، فقال أبو بكر يا رسول الله ان الله عودك في الدعاء خيراً فادع لنا ، فرفع يديه فدعا فلم يرجعها حتى كانت السماء قد سكبت لهم ما ملأوا ما معهم من الرأيا ولم تتجاوز عسكرهم (١)

١ « رواه ابن جرير وابن خزيمة وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي في كتابيهما « دلائل النبوة » والضياء في الاحاديث المختارة والروايا جمع راوية وهو البعير الذي يحمل عليه الماء وكذا غيره من الدواب

تأثير العجائب في الأفراد والأمم

لقد كانت آيات المرسلين حجة على الجاحدين المعاندين، استحقوا بمجودها عذاب الله في الدنيا والآخرة، ولم يؤمن بها من شاهدها إلا المستعدون للإيمان بها: ان فرعون وقومه لم يؤمنوا بآيات موسى، وإن أكثر بني اسرائيل لم يعقلوها (١) وقد اتخذوا العجل وعبدوه بعد رؤيتها ورؤية غيرها في بركة سياء. وقال اليهود في المسيح: لولأنه رئيس الشياطين لما أخرج الشيطان من الانسان. وقالوا ان ابليس أو بعزبول (٢) يفعل أكبر من فعله، وما كان أكثرهم مؤمنين. وقال المنافقون وقد رأوا بأعينهم سحابة واحدة في ابان القيظ قد مطرت عسكر المؤمنين وحده عند دعاء النبي ﷺ: اننا مطرنا بتأثير النوء لا بدعائه.

وقد كان أكثر من آمن بتلك الآيات انما خضعت أعناقهم واستخذت أنفسهم لما لا يعقلون له سبباً، وقد انطوت الفطرة على أن كل ما لا يعرف له سبب فالآتي به مظهر للخالق سبحانه إن لم يكن هو الخالق نفسه، وكان أضعاف أضعافهم يخضع مثل هذا الخضوع نفسه للسحرة والمشعوذين والدجالين ولايزالون كذلك وقد نقلوا عن المسيح عليه السلام انه سيأتي بعده مسحاء كذبة وأنبياء كذبة ويعطون آيات عظيمة وعجائب حتى يضلوا لو أمكن المختارين أيضاً (متى ٢٤: ٢٤) وقد ذكر في قاموس الكتاب المقدس عددا كثيرا منهم وأسماء بعضهم. وأقول: ان منهم القادياني الذي ظهر من مسلمي الهند، وتذكر صحف الأخبار ظهور هندي آخر يريد إظهار عجائبه في امريكا في هذا العام ونقلوا عن المسيح أنه قال: «الحق أقول لكم ليس كل نبي مقبولا في وطنه» وجعل القاعدة لمعرفة النبي الصادق

(١) قال تعالى (١٠: ٨٣) فما آمن لموسى الاذرية من قومه على خوف من فرعون وملائهم أن يفتنهم) الذرية صغار النسل والمتبادران تنكيرها هنا للتقليل (٢) بعزبول من اسماء الشيطان عندهم

تأثير هدايته في الناس لا الآيات والمعجائب فقال « من ثمارهم تعرفونهم » ولم يظهر بعده - ولا قبله - نبي كانت ثماره الطيبة في هداية البشر كثمار محمد ﷺ ولا أحد يصدق عليه قوله في انجيل يوحنا (١٦ : ١٢) ان لي أموراً كثيرة أيضاً ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن وأما متى جاء ذاك (أي البارقليط) روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق (الخ وما جاء بعده نبي أرشد الناس إلى جميع الحق في الدين من توحيد وتشريع وحكمة وتأديب غير محمد رسول الله وخاتم النبيين ومن استقرأ تواريخ الأمم علم أن أهل الملل الوثنية أكثر اعتماداً على المعجائب من أهل الأديان السماوية ، ورأى الجميع ينقلون منها عن معتقديهم من الأولياء والقديسين ، أكثر مما نقلوا عن الأنبياء المرسلين ، وإن أكثر المصدقين بها من الخرافيين .

ثبوت نبوة محمد بنفسها وإثباتها لغيرها

وجملة القول أن نبوة محمد ﷺ قد ثبتت بنفسها ، أي بالبرهان العلمي والعقلي الذي لا ريب فيه لا بالآيات والمعجائب السكونية ، وأن هذا البرهان قائم ماثلاً للعقول والحواس في كل زمان ، وأنه لا يمكن إثبات آيات النبيين السابقين إلا بثبوت نبوته ﷺ وهذا القرآن الذي جاء به ، فالحجة الوحيدة عليها في هذا الطور العلمي الاستدلالي من أطوار النوع البشري هو شهادته لها . فإن الكتب التي نقلتها لا يمكن إثبات عزوها إلى من عزيت إليهم ، إذ لا يوجد نسخ منها منقولة عنهم باللغات التي كتبوها بها لا تواتر ولا آحاداً ، ولا يمكن إثبات عصمتهم من الخطأ فيما كتبوه على اختلافه ، وتناقضه ، وتعارضه ، ولا إثبات صحة التراجم التي نقلت بها ، كما قلنا آنفاً وبيناه بالتفصيل مراراً

إن الكتاب الإلهي الوحيد الذي نقل بنصه الحرفي تواتراً عن جاء به بطريقتي الحفظ والكتابة معا هو القرآن ، وإن النبي الوحيد الذي نقل تاريخه بالروايات المتصلة الأسانيد حفظاً وكتابة هو محمد ﷺ فالدين الوحيد الذي يمكن أن يعقله العلماء

المستقلون في الفهم والرأي وبينوا عليه حكمهم هو الاسلام. وأما خلاصة ما يمكن الاعتراف به من الأديان السابقة لثبوت فضايها الاجمالية بالتواتر المعنوي، فهو انه وجد في جميع أمم الحضارة القديمة دعاة إلى عبادة الله تعالى وحده، وإلى العمل الصالح، وإلى ترك الشرور والرزائل منهم أنبياء مبالغون عن الله تعالى بمبشرين ومنذرين، كما أنه وجد فيهم حكماء يثيرون ارشادهم على الاحتجاج بما ينفع الناس ويضرهم بحكم العقل والتجربة - ووجد في جميع ما نقل عن الفريقين أمور مخالفة للعقل ولما ينفع الناس، وأمر خاصة بأقوامهم وبزمانهم، وخرافات ينكرها العقل وينتضها العلم وإذا كان الاسلام ونبيه هو الدين الوحيد الذي عرفت حقيقته وتاريخه بالتفصيل فاننا نذكر هنا شبهة علماء الافرنج اناديين ومقلداتهم عليه ، بعدمقدمة في شهادتهم الاجمالية له ، تمهيداً لدحض الشبهة ، ونهوض الحجة ، فنقول :

﴿ درس علماء الافرنج للسيرة المحمدية وشهادتهم بصدقه (ص) ﴾

درس علماء الافرنج تاريخ العرب قبل الاسلام وبعده على طريقتهم في النقد والتحليل، ودرسوا السيرة النبوية المحمدية وفلوا فلياً ونقشوها بالمناقيش، وقرؤا القرآن بلفظه وقرؤا ما ترجمه به أقوامهم ، وكانوا على علم محيط بكتب العهدين القديم والجديد ، وتاريخ الأديان ولا سيما الديانتين اليهودية والنصرانية ، وبما كتبه المتعصبون للكنيسة من الاقتراء على الاسلام والنبي والقرآن مما أضرنا إلى بعضه آنفاً ، فخرجوا من هذه الدروس كلها بالنتيجة الآتية :

- ﴿ ان محمداً كان سليم الفطرة ، كامل العقل ، كريم الاخلاق ، صادق ﴾
- ﴿ الحديث ، عفيف النفس ، قنوعاً بالقليل من الرزق ، غير طموح بالمال ، ولا ﴾
- ﴿ جنوح إلى الملك ، ولم يُعْنِ بما كان يُعْنى به قومه من الفخر ، والمباراة في تحيير ﴾

- ﴿ الخطب وقرض الشعر ، وكان يمت ما كانوا عليه من الشرك وخرافات ﴾
- ﴿ الوثنية ، ويحتقر ما يتنافسون فيه من الشهوات البهيمية ، كالخمر والميسر ﴾
- ﴿ وأكل أموال الناس بالباطل ، وبهذا كله وبما ثبت من سيرته وقيمه بعد ﴾
- ﴿ النبوة جزموا بأنه كان صادقا فيما ادعاه بعد استكمال الأربعين من سنه من ﴾
- ﴿ رؤية ملك الوحي ، واقرائه إياه هذا القرآن ، وإنبائه بأنه رسول من الله ﴾
- ﴿ لهداية قومه فسائر الناس ﴾

وزادهم ثقة بصدقه أن كان أول الناس إيمانا به واهتداء بنبوته أعلمهم بدخيلة أمره ، وأولهم زوجه خديجة المشهورة بالعقل والنبل والفضيلة ، ومولاه زيد بن حارثة الذي اختار أن يكون عبداله على أن يلحق بوالده وأهل بيته ويكون معهم حرا ، ثم أن كان الذين آمنوا به من أعظم العرب حرية واستقلالاً في الرأي ولا سيما أبي بكر وعمر ^(١)

فأما المؤمنون بالله وملائكته وبأن للبشر أرواحا خالدة من هؤلاء الافرنج فقد آمنوا بنبوته محمد ﷺ على علم وبرهان ، وهم يزيدون عاما بعد عام ، بقدر ما يتاح لهم من العلم بالاسلام ،

وأما الماديون فلم يكن لهم بد من تفسير لهذه الحادثة أو الظاهرة التي لا ريب في صحتها وثبوتها ، وتصويرها بالصورة العلمية التي يقبلها العقل ، الذي لا يؤمن صاحبه بما وراء المادة أو الطبيعة من عالم الغيب

قدحوا زناد الفكر ، واستوردوا به نظريات الفلاسفة ، فلاح لهم منه سقط أبصروا في ضوئه الضئيل الصورة الخيالية التي أجعلها الاستاذ مونتيه في عبارته اني نقلناها عنه آتفاً ، وفصلها أميل درمنغام وغيره بما نشره هنا (في الفصل الثالث من هذا الكتاب)

الفصل الثالث

﴿ في شبهة منكري عالم الغيب على الوحي الالهي ﴾

(وتصويرهم لنبوته محمد ﷺ بما يسمونه الوحي النفسي)

خلاصة رأي هؤلاء الماديين ان الوحي إلهام يفيض من نفس النبي الموحى اليه لا من الخارج ، ذلك ان منازع نفسه العالية ، وسريته الطاهرة ، وقوة إيمانه بالله وبوجوب عبادته وترك ما سواها من عبادة وثنية ، وتقاليد ورائية رديئة ، يكون لها في جملتها من التأثير ما يتجلى في ذهنه ويحدث في عقله الباطن الرؤى والاحوال الروحية ، فيتصور ما يعتقد وجوبه إرشاداً إلهياً نازلاً عليه من السماء بدون وساطة ، أو يتمثل له رجل يلقنه ذلك يعتقدانه ملك من عالم الغيب ، وقد يسمعه يقول ذلك ، وانما يرى ويسمع ما يعتقدونه في اللحظة ، كما يرى ويسمع مثل ذلك في المنام الذي هو مظهر من مظاهر الوحي عند جميع الانبياء ، فكل ما يخبره النبي من كلام ألقى في روعه ، أو عن ملك ألقاه على سمعه ، فهو خبر صادق عنده يقول هؤلاء الماديون : نحن لانشك في صدق محمد في خبره عما رأى وسمع ، وانما نقول ان منبع ذلك من نفسه ، وليس فيه شيء جاء من عالم الغيب الذي يقال إنه وراء عالم المادة والطبيعة الذي يعرفه جميع الناس ، فان هذا (الغيب) شيء لم يثبت عندنا وجوده ، كما انه لم يثبت عندنا ما ينفيه ويلحقه بالحال ، وانما نفسر الظواهر غير المعتادة بما عرفنا وثبت عندنا دون ما لم يثبت

ويضربون مثلاً لهذا الوحي قصة جان دارك الفتاة الفرنسية التي قررت الكنيسة الكاثوليكية قداستها بعد موتها بزمان ، وهذا التصوير الذي يصورون به ظاهرة الوحي قد سرت شبهته إلى كثير من المسلمين المرتابين الذين يقلدون

هؤلاء الماديين في نظرياتهم المادية أو يقتنعون بها .
واتي أفتح الكلام في ابطال هذه الصورة الخيالية بالكلام على (جان دارك)
فقد ألقى إلي سؤال عنها نشرته مع الجواب عنه في صفحة ٧٨٨ من المجلد السادس
من المنار (سنة ١٣٢١) وهذا نصه :

﴿ شبهة على الوحي ﴾

حضرة الاستاذ الرشيد

عرضت لي شبهات في وقوع الوحي (وهو أساس الدين) فعمدت إلى رسالة
التوحيد للشيخ محمد عبده - حيث وقع اختياري عليها - وقرأت في بابي (حاجة
البشر الى الوحي) و (إمكان الوحي) فوجدت الكلام وجيها معقولا ، غير
ان الحاجة الى الشيء لا تستلزم وقوعه ، وكذا امكانه وعدم استحالة عقلا
لا يقتضي حصوله . ثم ما ذكر بعد من ان حالة النبي وسلوكه بين قومه وقيامه
بجلائل الاعمال وبوقوع الخير للناس على يديه وهو دليل نبوته وتأييد بعثته ، فليس
شيئا ، فانه قد يكون (كون) النبي حميد السيرة في عشيرته ، صادقا في دعوته ،
— أعني معتقدا في نفسه - سببا في نهوض أمته ، ولا يكون كل ذلك مدعاة
الى الاعتقاد به والتسليم له

وقد حدث بفرنسا في القرن الخامس عشر الميلادي إذ كانت مقهورة للانكايز
ان بنتا تدعى (جان دارك) من أجمل النساء سيرة وأسلمهن نية ، اعتقدت وهي
في بيت أهلها بعيدة عن التكليف السياسية، أنها مرسله من عند الله لتقاذو ظنهما
ودفع العدو عنه ، وصارت تسمع صوت الوحي ، فأخلصت في الدعوة للقتال ،
وتوصلت بصدق إرادتها الى رئاسة جيش صغير وغلبت به العدو فعلا ، ثم مات
غيب نصرتها ميتة الابطال من الرجال ، إذ خذلها قومها ، ووقعت في يد عدوها ،
فألقوها في النار حية . فذهبت تاركة في صحائف التاريخ اسما يعبق نشره وتضوع

زياه . وهي الآن موضع اجلال القوم واعظامهم، فلقد تيسرت لهم النهضة بعدها وجروا في العلم والرقى بعيدا .

فهل نجزم لذلك ان تلك البنت نبيه مرسله ؟؟ ربما تذهبون الى ان عملها لا يذكر مقارنا بما أتت به الرسل وما وصل للناس من الخير بسببهم ، فأقول هل هناك من ميزان نزن به الاعمال النافعة لنعلم ان كانت وصلت الى الدرجة التي يجب معها أن نصدق دعوة صاحبها ، وهل لو ساعدت الصدف (كذا) رجلا على ان يكون أكبر الناس فعلا، وأبقاهم أثرا، واعتقد برسالة نفسه لوهم قام (عنده) يفضي بنا ذلك الى التيقن من رسالته ؟

أظن ان هذا كله مضافا لغيره يدعو الى الترجيح ولا يستلزم اليقين أبدا . على انني أنتظر ان تجدوا في قلبي هذا خطأ تقنعوني به أو تزيدوني ايضا كما ينكشف به الحجاب ، وتبالون به الثواب . هذا واني أعلم من فئة مسلة ما أعلمه من نفسي، ولكنهم يتحفظون في الكتمان، ويسألون الكتب خشية سؤال الانسان، ولكنني لا أجد في السؤال عارا ، وكل عقل يخطئ، ويصيب ، ويزل ويستقيم (أحد قرائكم)

﴿ جواب المنار ﴾

لقد سرنا من السائل انه على تمكن الشبهة من نفسه لم يدعن لها تمام الازعان، فيسترسل في تعدي حدود الدين الى فضاء الاهواء والشبهات التي تفسد الارواح والاجسام ، بل أطاع شعور الدين الفطري ، ولجأ الى البحث في الكتب ، ثم السؤال ممن يظن فيهم العلم بما يكشف الشبهة ، وقيم الحجة ، وان كثيرا من الناس لينصرفون عن طاب الحق عند أول قرعة من الشبه تلوح في فضاء أذهانهم، لأنهم شبوا على حب التمتع والانغماس في اللذة ، وبيرون الدين صادآ لهم عن الاهتمام والاسترسال فيها، فهم يحارلون امانة شعوره الفطري ، كما أمت النشوء في الجهل برهانه الكسبي

أرى السائل نظر من رسالة التوحيد في المقدمات ووعاها ولكنه لم يدقق النظر في المقاصد والنتائج ، لذلك نراه مسلما المقدمات دون النتيجة مع الازوم بينهما ، فإذا هو عاد الى مبحث (حاجة البشر الى الرسالة) وتدبره وهو مؤمن بالله ، وانه أقام الكون على أساس الحكمة البالغة والنظام الكامل ، فاني أرجو له أن يقتنع . ثم اتى آتست منه انه لم يقرأ مبحث (وقوع الوحي والرسالة) أو لعله قرأه ولم يتدبره ، فانه لم يذكر البرهان على نفس الرسالة ويبنى الشبهة عليه ، وانما بناها على جزء من أجزاء المقدمات ، وهي القول في بعض صفات الرسل عليهم السلام . واتى أكشف له شبهته أولا فآين أنها لم تصب موضعها ، ثم أعود الى رأيي في الموضوع

ان (جان دارك) التي اشتبه عليه أمرها بوحى الانبياء لم تقم بدعوة الى دين او مذهب تدعي ان فيه سعادة البشر في الحياة وبعد الموت كما هو شأن جميع المرسلين ، ولم تأت بآية كونية ولا علمية لا يعهد مثلها من كسب البشر تتحدى بها الناس ليؤمنوا بها . وانما كانت فتاة ذات وجدان شريف هاجه شعور الدين ، وحركته مزعجات السياسة ، فتحرك ، ففر ، فصادف مساعدة من الحكومة ، واستعداداً من الامة للخروج من الذل الذي كانت فيه ، وكان التحمس الذي حركته سببا للحملة الصادقة على العدو وخذلانه . وما أسهل تهيج حماسة أهل فرنسا بمثل هذه المؤثرات وبما هو أضعف منها ، فان نابليون الاول كان يسوقهم الى الموت مختارين بكلمة شعرية يقولها ككلمته المشهورة عند الاهرام

وأذكر السائل الفطن بانه لم يوافق الصواب في ابعاد الفتاة عن السياسة ومذاهبها فقد جاء في ترجمتها من دائرة المعارف العربية (للبستاني) مانصه :
 « كانت متعودة الشغل خارج البيت كرمي المواشى وركوب الخيل الى العين

ومنها الى البيت ، وكان الناس في جوار دومري (اي بلدها) متمسكين بالخرافات ويميلون الى حزب أورليان في الانقسامات التي مزقت مملكة فرنسا ، وكانت جان تشترك في الهياج السياسي والحماسة الدينية ، وكانت كثيرة التخييل والورع ، تحب ان تتأمل في قصص العذراء وعلى الأكر في نبوة كانت شائعة في ذلك الوقت ، وهي ان إحدى العذارى ستخلص فرنسا من اعدائها . ولما كان عمرها ١٣ سنة كانت تعتقد بالظهورات الفاتكة الطبيعية وتتكلم عن أصوات كانت تسمعها ورؤى كانت تراها ، ثم بعد ذلك يضع سنين خيل لها انها قد دعيت لتخلص بلادها وتتوج ملكها . ثم أوقع البرغنيور تعديا على القرية التي ولدت فيها ، فقوى ذلك اعتقادها بصحة ما خيل لها «

ثم ذكر بعد ذلك توسلها الى الحكام وتعيينها قائدة لجيش ملكها ، وهجومها بعشرة آلاف جندي ضباطهم ملكيون على عسكر الانكليز الذين كانوا يحاصرون أورليان ، وانها دفعتهم عنها حتى رفعوا الحصار في مدة أسبوع ، وذلك سنة ١٤٢٩ ثم ذكر انها بعد ذلك زالت أخيلتها الحماسية ، ولذلك هوجمت في السنة التالية سنة ١٤٣٠ فانكسرت وجرحت وأسرت

فمن ملخص القصة يعلم ان ما كان منها انما هو تهيج عصبي سببه التألم من تلك الحالة السياسية التي كان يتألم منها من نشأت بينهم ، مع معونة التحمس الديني والاعتقاد بالخرافات الدينية التي كانت ذائعة في زمنها . وهذا شيء عادي معروف السبب ، وهو من قبيل الذين يقومون باسم المهدي المنتظر كمحمد احمد السوداني ، والباب الايراني (وكذا البهاء والقادياني) بل الشبهة في قصتها ابعد من الشبهة في قصة هذين الرجلين ، وإن كانت أسباب النهضة متفاربة ، فان هذين كانا كأمثالهما يدعوان الى شيء (ملفق) يزعمان انه اصلاح للبشر في الجملة

أين هذه النوبة العصبية القصيرة الزمن ، المعروفة السبب ، التي لادعوة فيها

الى علم ولا اصلاح اجتماعي، الا المدافعة عن الوطن عند الضيق التي هي مشتركة بين الانسان والحيوان الاعجم ، التي لا حجة تدعها ، ولا معجزة تؤيدها ، التي اشتعلت بنفخة ، وطمئت بنفخة ؟ أين هي من دعوة الانبياء التي بين الاستاذ الامم أنها حاجة طبيعية من حاجات الاجتماع البشري ، طلبها هذا النوع بلسان استعداده فوهبها له المدبر الحكيم (الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) فسار الانسان بذلك الى كماله ، فلم يكن أدنى من سائر المخلوقات الحية النامية بل أرقى وأعلى ؟ وأين دليلها من أدلة النبوة ؟ وأين أثرها من أثر النبوة ؟

ان الامم التي ارتقت بما أرشدها اليه تعليم الوحي انما ارتقت بطبيعة ذلك التعليم وتأثيره ، وان فرنسة لم ترتق بارشاد (جان دارك) وتعليمها ، وانما مثالها مثل قائد انتصر في واقعة فاصلة بشجاعته ، وبأسباب أخرى ليست من صنعه ، واستولت أمته بسبب ذلك على بلاد رقتها بعلوم علمائها ، وحكمة حكمائها ، وصنع صناعها ، ولم يكن القائد يعرف من ذلك شيئاً ولم يرشد اليه ، فلا يقال ان ذلك القائد هو الذي أصلح تلك البلاد ، وعمرها ومدنها ، وإن عد سبباً بعيداً فهو شبيه بالسبب الطبيعي ، كهبوب ربح تهيج البحر فيغرق الاسطول وتنتصر الامة

أين حال تلك الفتاة التي كانت كبارقة خفت (اي ظهرت وأومضت) ثم خفيت ، وصيحة علت ولم تلبث ان خفت ، من حال شمس النبوة المحمدية التي أشرقت فأنارت الارضاء ، ولا يزال نورها ولن يزال متألق السناء : أي يتيم قضي سن الصبا وسن الشباب هادئاً ساكناً لا يعرف عنه علم ولا تخيل ، ولا وهم ديني ، ولا شعر ولا خطابة ، ثم صاح على رأس الاربعين بالعالم كله صيحة : انكم على ضلال مبين * فاتبعون أهدكم الصراط المستقيم . فأصلح وهو الامي أديان البشر عقائدها وآدابها وشرائعها ، وقلب نظام الارض فدخلت بتعليمه في طور جديد ؟

لا جرم ان الفرق بين الحالين عظيم ، اذا أنعم النظر فيه العاقل الحكيم .
 ولا سعة في جواب سؤال كهذا لتقرير الدليل على النبوة بالتفصيل ، وانما أحيل السائل
 على التأمل في بقية بحث النبوة في رسالة التوحيد ، ومراجعة ما كتبناه أيضاً من
 الامالي الدينية في المنار ، ولا سيما الدرس الذي عنوانه (الآيات اليينات ، على صدق
 النبوات) وان كان يصدق على رسالة التوحيد المثل « كل الصيد في جوف
 الفراء » (١) فان بقي عنده شبهة فالاولى ان يتفضل بزيارتنا لأجل المذاكرة الشفاهية
 في الموضوع ، فان المشافهة أقوى بيانا ، وأنصح برهاننا ، ونحن نعاوده على أن نكتبكم
 أمره ، وإن أبي فليكتب الينا ما يظهر له من الشبهة على ما في الرسالة والامالي من
 الاستدلال على وقوع النبوة بالفعل ، وعند ذلك نسبب في الجواب بما نرجو
 ان يكون مقنعا ، على ان المشافهة أولى كما هو معقول ، وكما ثبت لنا بالتجربة مع كثير
 من المشتهين والمرتابين اه جوابنا في المنار (٢)

هذا وان ما بينه الاستاذ الامام في إثبات وقوع الوحي لا يستطيع أحد فهمه
 حق الفهم وهو يؤمن بوجود الله العليم الحكيم الفاعل المختار إلا أن يقبله ويدعن
 له ، فانه بين أن الوحي والرسالة بالمعنى الذي قرره لازم عقلي لعلمه تعالى وحكمته
 وكونه هو (الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) ولا يفهمه حق الفهم إلا من
 أوتي نصيباً من علم الاجتماع وحكمة الوجود وسننه وأصول العقائد ، ونصيباً آخر
 من بلاغة اللغة العربية . وإن نبوة محمد ﷺ ورسالته يمكن اثباتها بما دون هذه
 الفلسفة والبلاغة ، وهو ما قهر عقول علماء الافرنج على تصديق دعوته ، وحمل الماديين
 على تصويرها بما ينسبطه فيما يأتي ونقفي عليه باثبات بطلانه

(١) الفراء بفتح الفاء مقصور اسم لمار الوحش ، وهو خير ما يصاد لسكبه
 وكثرة لحمه وجودته : وأصل المثل ان ثلاثة رجال خرجوا للصيد فاصطاد احدهم
 أرنباً والآخر طيياً ، واصطاد الثالث حمار وحش فقال لها وقد اعجبا بما اصابا
 « كل الصيد في جوف الفراء » أي كل ما يصاد يصغر دونه كأنه يغيب في جوفه
 (٢) الظاهر أن ذلك السائل قد اقتنع بجوابنا إذ لم يكتب لنا بعده شيئاً
 . كذلك الاستاذ الامام رضي به وأعجبه

تفصيل الشبهة ودحضها بالحجة

قد فصل (أميل درمنغام) الشبهة التي أجهلها موتيه بما لم يرمثه لغيره من كتاب الافرنج ، حتى اغتر بكلامه كثير من المسلمين ، وإنه لحسنُ الثناء ، ولكنه يُسرّ حسواً في ارتقاء ، فان كان حكيمنا السيد جمال الدين قال لبعض مجادلي النصرانية : إنكم فصلتم قيصاً من رقايع العهد القديم وألبستموها للمسيح عليه السلام فنحن نقول لهم انكم فصلتم قيصاً آخرما استنبطتم من تاريخ الاسلام لا من نصوصه ، وحاوَلتم خلعاها على محمد ﷺ واتي أشرح هذه الشبهة بأوضح ما كتبه درمنغام وما بلغني عن كل أحد منهم ، ثم أكر عليها بالنقض والدحض ، وأبدأ بمقدماتها وهي عشرة :
(المقدمة الأولى لشبهة الوحي النفسى الآخذ عن بحيرا الراهب)

قالوا ان محمداً قد لقي بحيرا الراهب في مدينة بصرى بالشام ، وقالوا انه كان نسطورياً من أتباع أريوس في التوحيد ، وينكر ألوهية المسيح وعقيدة التثليث ، وان محمداً لا بد أن يكون علم منه عقيدته ، وقالوا في بحيرا أيضاً انه كان عالماً فلياً منجماً ، وحاسباً ساحراً ، وانه كان يعتقد أن الله ظهر له وأنباء بأن سيكون هادياً لآل اسماعيل إلى الدين المسيحي . بل سمعنا من بعض الرهبان انه كان معلماً لمحمد ومصاحباً له بعد رسالته ، وأن محمداً ما حرّم الخمر إلا لأنه قتل أستاذه بحيرا وهو سكران ، وأسرفوا في هذا الاقتراء والبهتان ، وكل ما عرفه المسلمون من رواية السيرة النبوية أن النبي ﷺ لما خرج مع عمه أبي طالب إلى الشام وهو ابن تسع سنين وقيل ١٢ سنة رآه هذا الراهب مع قريش ورأى سحابة تظله من الشمس ، وذكّر لعمه أنه سيكون له شأن ، وحذره عليه من اليهود - وفي المسألة روايات أخرى بمعناها ضعيفة الاسانيد ، إلا رواية للترمذي ليس فيها اسم بحيرا ، وفيها غلط في المتن : وليس في شيء من تلك الروايات انه ﷺ سمع من بحيرا شيئاً من عقيدته أو ديت

(المقدمة الثانية الاخذ عن ورقة بن نوفل)

قالوا ان ورقة بن نوفل كان من متنصرة العرب العلماء بالنصرانية وأحد أقارب خديجة - يوهون القارىء انه صلى الله عليه وسلم أخذ عنه شيئاً من علم أهل الكتاب - والذي صح من خبر ورقة هذا هو ما رواه الشيخان في الصحيحين وغيرهما من أن خديجة أخذته صلى الله عليه وسلم عقب إخباره إياها بما رآه في حراء إلى ورقة هذا وأخبرته خبره، وكان شيخاً قد عمي، ولم يلبث بعد ذلك أن توفي، ولم ينقل أن النبي صلى الله عليه وسلم رآه قبل ذلك (وسأذكر نص الحديث في آخر هذا المبحث) وقد استقصى المحدثون والمؤرخون كل ما عرف عن ورقة هذا مما صح سنده ومما لم يصح له سند، كدأبهم في كل ماله علاقة بالنبي صلى الله عليه وسلم والاسلام، فلم يذكر أحد منهم أنه عرف عنه دعوة إلى النصرانية أو كتابة فيها . وإنما ورد في بعضها أنه قال حين علم من خديجة خبر محمد : انه هو النبي المنتظر الذي بشر به المسيح عيسى بن مريم، وفي بعضها أنه عاش حتى رأى بلالاً يعذبه المشركون ليرجع عن الاسلام، ولكن هذه الرواية شاذة مخالفة لحديث عائشة الصحيح انه كان عند بدء الوحي أعمى ولم ينشب أي لم يلبث أن مات ، وقد كان تعذيب بلال بعد إظهار دعوة النبوة ودخول الناس فيها ، وكان هذا بعد بدء الوحي بثلاث سنين - وأميل درمنغام قد غلط فيما نقله من خبر فترة الوحي لاختلاط الروايات عليه فيها، وعدم اطلاعه على مادون في كتب الحديث منها . وإنما كان هم المحدثين في خبر ورقة أن يعلموا أكان صحابياً أم لا ، فان الصحابي هو من لقي النبي صلى الله عليه وسلم بعد البعثة مؤمناً به ، ولو بلغهم عنه أي شيء من علمه بالتوراة أو الانجيل غير ما ذكروه لنقلوه

(المقدمة الثالثة انتشار اليهودية والنصرانية في بلاد العرب)

ذكروا ما كان من انتشار اليهودية والنصرانية في بلاد العرب قبل الاسلام، ومن تنصر بعض فصحاء العرب وشعرائهم كقس بن ساعدة اليماني وأمية

ابن ابي الصلت ، واشادة هؤلاء بما كانوا يسمعون من علماء أهل الكتاب عن قرب ظهور النبي الذي بشر به موسى وعيسى وغيرهما من الانبياء . وقد نشرنا بعض بشاراتهم من التوراة والانجيل وكتب النبوات بنصوصها المعتمدة عندهم في تفسير (٧ : ١٥٧) الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل) من سورة الاعراف ، ولكن لم يثبت انه ﷺ سمع منها شيئا فأما قس فقد مات قبل البعثة . وروي ان النبي ﷺ رآه قبل البعثة بزمن طويل يخاطب الناس في سوق عكاظ على جبل له اوراق ، بكلام له موق ، قال فيه : ان لله دينا خيرا من دينكم الذي أنتم عليه ، ونيا قد أظلم زمانه ، وأدرككم أوانه ، فطوبى لمن أدركه قاتبه ، وويل لمن خالفه . والروايات في هذا ضيقة . وتعمدها قديدل على ان لها أصلا ، ولوحظ من كلامه شيء بسند صحيح لينوده قطعاً وأما أمية بن ابي الصلت الثقيفي فهو شاعر مشهور . قال ابو عبيدة انفق العرب على ان أمية أشعر ثقيف ، وقال الزبير بن بكار حدثني عمي قال : كان أمية في الجاهلية نظر الكتب وقرأها ولبس المسوح تعبد ، وكان يذكر ابراهيم واسماعيل والحفيضة ، وحرّم الحمر وتجنب الاوثان وطمع في النبوة لأنه قرأ في الكتب ان نبيا يبعث بالحجاز فرجا ان يكون هو ، فلما بعث النبي ﷺ حسده فلم يسلم . وهو الذي رثى قتلى بدر (المشركين) بالقصيدة التي أولها

ماذا يبدر والعنة قتل من مرازية ججاجح

وفي المرأة عن ابن هشام انه كان آمن بالنبي ﷺ فقدم الحجاز ليأخذ ماله من الطائف ويهاجر فلم بغزوة بدر وقتل صناديد قريش فيها فجذع أنف ناقته وشق ثوبه وبكى لان فيهم ابني خاله وعاد الى الطائف ومات فيها . وصح ان النبي ﷺ استنشد الشريد بن عمرو من شعره فأنشده فقال « كاد ان يسلم » والمعروف انه كان حنيفاً على ملة ابراهيم ولم يتنصر ، ولم يلق النبي ﷺ قبل النبوة ولا بعدها . ومن شعره كل دين يوم القيامة عند الله الا دين الحنيفة زور

(المقدمة الرابعة حديث اسلام سلمان الفارسي)

كان سلمان الفارسي (ر ض) فارسيا مجوسيا فتتصر على يد بعض الرهبان وصحب غير واحد من عبادهم وسمع منهم أو من آخرهم بقرب ظهور النبي الذي بشر به عيسى والانبيا من العرب، فقصد بلاد العرب وبيع لبعض يهود يثرب ظلما وعدوانا، ولم ير النبي ﷺ الا بعد الهجرة فأسلم وكاتب سيده (اي اشترى نفسه منه) وفي قصته روايات متعارضة وهذا هو المراد منها للدرمنغام وغيره

(المقدمة الخامسة رحلة الشتاء والصيف لتجار قريش)

ذكروا ما كان من رحلة تجار قريش في الشتاء الى اليمن وفي الصيف الى الشام واجتماعهم بالنصارى في كل منها كلما مروا بدير أو صومعة للرهبان، وكان هؤلاء النصارى يتحدثون بقرب ظهور نبي من العرب

(المقدمة السادسة ما قيل من وجود يهود ونصارى بمكة)

زعم درمنغام انه كان بمكة نفسها اناس من اليهود والنصارى ولكنهم كانوا عبيداً وخداماً لأن رؤساء قريش لم يكونوا يسمحون لهم أن يسكنوا في مكة حرمهم المقدس الخاص بوثنيتهم وأصنامهم . بل كان هؤلاء يسكنون في أطراف مكة «في المنازل البعيدة عن الكعبة المتاخمة للصحراء» وكانوا يتحدثون بقصص عن دينهم لاتصل إلى مسامع رؤساء قريش وعظماهم، أو ما كانوا يحفلون بها لسماع أمثالها في رحلاتهم الكثيرة . ولكنه ذكر ان أبا سفيان عتب على أمية بن أبي الصلت كثرة تكريره لما يذكره الرهبان من هذا الأمر

فهذه مقدمات يذكرها كتاب الافرنج لتعليل ماظهر به محمد ﷺ من دعوى النبوة، يعنون انه سمع ما سمع من أخبارها فتعلقت نفسه به، على طريقهم في الاستنباط وما يسمونه النقد التحليلي، ويقرنون به مقدمات أخرى في وصف حالته النفسية والعقلية وحالة قومه وما استفاده منها من تأثير وعبرة، فنلخصها مضمومة إلى ما قبلها، مع الامام بهتدها

(المقدمة السابعة ما زعمه من سبب نشوء محمد (ص) أمياً

وما استفاد من رحلاته التجارية)

قال درمنغام في كفالة ابي طالب لمحمد بعد وفاة جده : انه لم يكن غنياً فلم يتح له تعليم الصبي الذي بقي أمياً طول حياته (يوم القاريء ان أولاد المنوسرين بمكة كانوا يتعلمون كأن هنالك مدارس يعلم فيها النشء بالاجور كمدارس بلاد الحضارة وهذا باطل لا أصل له) — ثم قال

« ولكنه كان يستصحبه وإياه في للتجارة فيسير والقوافل خلال الصحراء يقطع هذه الابعاد المتناثية، وتحقق عيناه الجلياتان بمدين ووادي القرى وديار ثمود، وتستمع أذناه المرهفتان إلى حديث العرب والبادية عن هذه المنازل وحديثها وماضي نبتها . ويقال انه في إحدى هذه الرحلات إلى الشام التقى بالراهب بحيرا في جوار مدينة بصرى، وان الراهب رأى فيه علامات النبوة على ما تدله عليه أنباء كتبه . وفي الشام عرف محمد أخبار الروم ونصرانياتهم وكتابتهم ومناوأة الفرس من عباد النار لهم، وانتظار الوقعة بهم »

كل ما ذكره درمنغام هنا فهو من مخترعات خياله ، ومبتدعات رأيه ، ألبسه حلة من طراز البيان الافرنسي ، لإمسالة بحيرا الراهب فأصلها ما ذكرنا ، وكأنه لم يحفل باثباتها ، لما يعلمه من مقتريات رجال الكنيسة فيها

فمحمد ﷺ لم يذهب مع عمه إلى التجارة في الشام إلا وهو طفل كما تقدم، وقد أعاده إلى مكة قبل إتمام رحلته . ثم سافر إليها في تجارة خديجة وهو شاب مرة واحدة، ولم يتجاوز سوق مدينة بصرى في المرتين . والقوافل التي تذهب إلى الشام لم تكن تمر بمدين وهي في أرض سيناء . ولم تكن هذه القوافل تضيع شيئا من وقته بالبحث مع العرب أو الأعراب في طريقها عن أنبائها والتاريخ القديم لبلادها، ولم يعرف عن تجارتها أنهم كانوا يعنون بقاء أخبار النصارى ومباحثهم في دينهم

وكتبهم ، فمن أين جاء لدرمنغام أن محمداً هو الذي كان يشغل في تلك التجارة بالبحث عن الامم والتواريخ والكتب والاديان . ويعنى بلقاء رؤسائها والبحث معهم ؛ كما يفعل رواد العلم والتاريخ وجواسيس السياسة من الافرنج في هذا العصر انما اخترع هذا لأنه لا يستطيع تعليل مجاء في القرآن من قصص الرسل إلا به ، وكذلك الانبياء بغلب الروم للفرس كما سيأتي . وسترى ما فندبه تعليله ، وتحليله وتركيبه ، على تقدير صحة ما زعمه كله

(المقدمة الثامنة تصوير مجامع قريش بمكة وشأن محمد فيها)

ثم ذكر درمنغام أن العرب ولا سيما أهل مكة كانوا يصرفون معظم أوقاتهم بعد ما يكون من تجارة أو حرب في الاستمتاع بالذات من السكر والتسري وغير ذلك ، وإن التاريخ يشهد بأن محمداً كان يراهم ولم يكن يشاركهم في ذلك ، لا لفقره وضيق ذات يده ، بل لما صور به قوله « لكن نفس محمد كانت شغوفاً بأن ترى وأن تسمع وأن تعرف ، وكأن حرمانه من التعليم الذي كان يعلمه أنداده جعله أشد للمعرفة شوقاً وبها تعلقاً ، كما أن النفس العظيمة التي تجلت من بعد آثارها ، وما زال يغمر العالم سلطانها ، كانت في توقها إلى الكمال ترغب عن هذا اللهو الذي يطمح إليه أهل مكة . إلى نور الحياة المتجلي من كل مظاهر الحياة لمن هداه الحق إليها لاستكناه ما تدل هذه المظاهر عليه ، وما يحدث الموهوبين به » لعله يريد الملمهين هذا الخبر من مخترعات خيال درمنغام فمحمد لم يكن شغوفاً بأن يرى ما يفعله فساق قومه من فسق وفجور ، ولا أن يسمع ذلك ، ولا كان يتحرى أن يعرفه ، وقد ثبت عنه أنه لم يضر سمرهم ولهوهم إلا مرتين ألقى الله عليه النوم في كل منهما حتى طلعت الشمس فلم ير ولم يسمع شيئاً ، وقد بطل بهذا ما علل به الخبر على ما فيه من المدح المتضمن لدسيسنين (إحداهما) أن أنداده من قريش كانوا متعلمين وكان هو محروماً مما لقنهم آباؤهم من العلم ، وكان حرمانه هذا يزيد شغفاً بالبحث والاستطلاع

(والثانية) أن نفسه كانت بسبب هذا تزداد طموحا إلى نور الحياة المتجلي في جميع مظاهرها لاستكناه ما تدل عليه هذه المظاهر، فهذه مدحة غرضه منها تعليل ما انبثق في نفسه ﷺ بعد ذلك من الوحي ، وسترى بطلان تعليله

(المقدمة التاسعة موت أبناء محمد وما أثاره في نفسه)

ثم ذكر درمنغام مسألة أبناء النبي ﷺ القاسم والطيب والظاهر وهو يشك في وجودهم، ويقول إن تمكنيته بأبي القاسم لا تدل على وجود ولد له بهذا الاسم، وإنه إن صح أنهم ولدوا فقد ماتوا في المهد. هذا زعم وهوم، والحق أنه ولد له غلام سماه القاسم وكني به وأنه مات طفلا، وقيل عاش إلى أن ركب الدابة، وأن الطيب والظاهر لقبان للقاسم. ولكن درمنغام قد كبر مسألة موت هؤلاء الاولاد الذين يشك في وجودهم تكثيرا، وبني عليها حكما، وأثار وهما، قال بعد أن زعم أن محمداً بنى زيد بن حارثة لأنه لم يطق على الحرمان من البنين صبراً :

« فمن حق المؤرخ أن يجعل لهذا الحادث بل الحوادث الثلاثة التي أصابت محمداً في بنيه ماهي جديرة بأن تتركه في حياته وفي تفكيره من أثر، والامر كذلك بنوع خاص ان كان محمد أمياً، فلم تكن المضاربات الجدلية (كذا) لتصرفه عن التأثير بعبر الحوادث ودروسها، وحوادث أليلة كوفاة أبنائه جديرة بأن تستوقف تفكيره، وأن تصرفه كل واحدة منها الى ما كانت خديجة تقترب به إلى أصنام الكعبة، وتنحز لهبل واللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى، تريد أن تفتدي نفسها من ألم الشكل، فلا تنقذ القربان ولا تجدي النحور »

قال « الامر كان كذلك، لا ريب أن كانت عبادة الاصنام قد بدأت تنزعزع في النفوس تحت ضغط النصرانية الآتية من الشام منحدره اليها من الروم، ومن اليمن متخطية إليها من خليج العرب (البحر الاحمر) من بلاد الحبشة »

غرض درمنعام من تكبير المصيبة بموت الابناء المشكوك في ولادتهم عنده، هو أن يجعلها مسوغة لما اختلقه من توسل خديجة إلى الاصنام بالقرابين لينقذوها من مصيبة الشكل، ثم يستنبط من ذلك زعزعة إيمانها وإيمان بعلمها بعبادتها التي كان سببها تأثير النصرانية في مكة وغيرها من بلاد العرب، ثم ليجعل ذلك من الاسباب التحليلية لتعليل الوحي لمحمد ﷺ

والحق أنه ما بنى زيدا إلا لأنه آثر أن يكون عبداً له على أن يكون حراً مع والده وعمه عند ما جاء مكة لافتدائه بالمال فقال لها « ادعوه فخيروه فان اختاركم فهو لكم بغير فداء » ثم دعاه فساله عن أبيه وعمه فمر فعهما، فقال له « فأنا من قد علمت وقد رأيت صحبتي لك فاخترني أو اخترهما ، فقال زيد ما أنا بالذي أختار عليك أحداً . أنت مني بمكان الاب والعم . فقال ويحك يا زيد أختار العبودية على الحرية وعلى أهلك وعمك وأهل بيتك ؟ قال قد رأيت من هذا الرجل شيئاً ، أنا بالذي أختار عليه أحداً . فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك أخرجه إلى الحجر فقال « اشهدوا ان زيدا ابني يرثي وأرثه » فلما رأى ذلك أبوه وعمه طابت أنفسهما . فدعي زيد : ابن محمد ، حتى جاء الله بالاسلام رواه ابن سعد ونحوه في سيرة ابن اسحاق هذا وان محمداً لم يكن جزوعاً عند موت ولده ولا غيره ، بل كان أصبر الصابرين ، وان خديجة لم تيأس بموت القاسم من الله أن يمن عايبها بولد آخر ، ولم تنحر للاصنام شيئاً — وان اللات كانت صخرة في الطائف تعبد بها ثقيف ولم تكن من أصنام قريش ، والعزى كانت شجرة بطن نخلة تعبد بها قريش وكنانة وغطفان ، ومناة كانت صنماً في قديد لبني هلال وهذيل وخزاعة . وقد كان ما ذكره من ضعف الوثنية في ذلك العهد — وزعم ان سببه انتشار النصرانية — جديراً بأن يمنع خديجة وهي من أعقل العرب وأسلمهم فطرة وأقربهم الى الخنيفية لمة ابراهيم أن نهاجر إلى هذه الاصنام لتنحر لها وتتقرب إليها لترزقها غلاماً ،

فان لم يمنعها عقلها وفطرتها فأجدر ببعليها المصطفى أن يمنعهما من ذلك وهو عدو الوثنية والاصنام من طفولته كما يعترف درمنغام — ولكن اتباع الهوى ينسي صاحبه ما لم يكن لينساه لولاه

(المقدمة العاشرة ضعف الوثنية في العرب وتعبد محمد في الغار)
(وسببهما بزعم درمنغام)

زعم درمنغام ان ما ذكره من تغلغل النصرانية في بلاد العرب أوجد فيها حالة نفسية أدت إلى زيادة إيمانهم فيما كانوا يسمونه في الجاهلية التحنث أو التحنف ، وزعمه هذا له أصل ولكنه زاده فيه وكبره وفرع عليه قوله :

« وكان محمد يجد في التحنث طائفة انتمسه أن كان له بالوحدة شغف ، وأن كان يجد فيها الوسيلة إلى ما برح شوقه يشتهد اليه من نشدان المعرفة واستلهام ما في الكون من أسبابها ، فكان ينقطع كل رمضان طول الشهر في غار حراء بمجمل أبي قيس مكتفياً بالقليل من الزاد يحمل اليه ليمضي أياماً طويلة بالغار في التأمل والعبادة بعيداً عن ضجة الناس وضوضاء الحياة »

وأقول : ان روايات المحدثين تفيد أنه حجب اليه الخلاء والوحدة والحنث في غار حراء في العام الذي جاء فيه الوحي ، وكان هو يحمل الزاد وما كان أحديهم له ، وما ذكره ابن اسحاق من تعبد فيه في شهر رمضان كل سنة إنما كان في زمن فترة الوحي كما سيأتي ولم يكن في أعوام ولا شهور قبله ، وأما قوله انه كان يتوسل بذلك الى ما اشتد في شوقه اليه من المعرفة وابتغاء الالهام ما في الكون من أسبابها ، فهو مما يخطر في بال الباحث في حياة رجل صدر عنه عقب هذه الخلوة ما صدر من علم ومعرفة واصلاح ، وارشاد الى النظر والتفكير في آيات السموات والأرض ، ولكن لم يرو عنه عليه السلام أنه كان يقصد ذلك ويبتغيه ، ولا روي عن أصحابه وأتباعه ، الذين كانوا يعرفون سيرته الطاهرة وآمنوا به كأبي بكر وعثمان ، وعمر بن الخطاب ، ولا عن ربيبه وصفيه وابن عمه علي ، ولا حبه ومولاه زيد بن ثابت (رضي الله عنهم) والتحقيق في ذلك كله ما تراه في المباحث الآتية

نتيجة

تلك المقدمات العشر

هنا وصل درمنغام إلى آخر المقدمات التي تتصل بالنتيجة المطلوبة له ، فأرعى
لخياله العنان ، ونزع من جواده الالجام ، ونخسه بالمهماز ، فعدا به سبعا ، وجمع
به جمعا ، وأورّت حوافره له قدحا ، فاثارت له نقعا ، وأذن لشاعريته الفرنسية
في بريق لمعها ، وظلمة نقعها ، أن تصف محمداً عند ذلك الغار ، بما تحدثه في نفسه
مشاهد نجوم الليل وما تسفعه به شمس النهار ، وما تخيل إليه أنه كان يراه في قنة الجبل
من صحاري وقفار ، وخيام وآبار ، وما ثم خيام وآبار ، ورعاة تمش على غنمها حيث
لأشجار ، حتى ذكر البحار على بعد البحار ، وسيد كرم موج البحر أيضاً ، ونسي أن يصف
الفلك المواخرفيه ، وما يعرض لها في حالة الرهو والريح الطيبة ، وحالة العواصف
والامواج المصطخبة ، فكل منهما ذكر في القرآن ، ولم يكن رآه محمد من جبل حراء .
قد أتقن هذا الفرنسي التخيل الشعري ، ولكنه لم يوافق به الوصف الموضوعي ،
ثم قال مصوراً لما يلتقيه محمد ﷺ من مشاهداته المزعومة

• وهذه النجوم في ليالي صيف الصحراء كثيرة شديدة البريق حتى ليحسب
الانسان أنه يسمع بصيص ضوئها وكأنه نغم نار موقدة
«حقاً ! ان في السماء لشارات للمدركين . وفي العالم غيب بل العالم غيب كله .
لكن ! ألا يكفي أن يفتح الانسان عينه ليرى ، وأن يرهف أذنه ليسمع ؟ ليرى
حقا ، وليسمع الكلام الخالد ؟ لكن للناس عيوننا لا ترى وآذاننا لا تسمع . أما هو
فيحسب (!!) أنه يسمع ويرى . وهل تحتاج لكي تسمع ما وراء السماء من أصوات
إلا إلى قلب خالص ونفس مخلصه وفؤاد ملي . إيماناً ؟

« ومحمد في ريب من حكمة الناس فهو لا يريد أن يعرف إلا الحق الخالص ، الذي لا يأتيه من بين يديه ولا من خلفه باطل ، وهو لا يستطيع العيش إلا بالحق ، والحق ليس فيما يرى حوله ، خيالة القرشيين ليست حقا ، وربما المراءين ونهب البدو وهو الخلاء وكل ما إلى ذلك لاشيء من الحق فيه ، والاصنام المحيطة بالكعبة ليست حقا ، وهبّل الاله الطويل الذن الكثير العطور والملابس ليس إلها حقا »
 « إذن فأين الحق وما هو ؟ »

« وظل محمد يتردد على حراء في رمضان من كل عام سنوات متوالية ، وهناك كان يزداد به التأمل ابتغاء الحقيقة حتى لكان ينسى نفسه ، وينسى طعامه ، وينسى كل ما في الحياة ، لأن هذا الذي يرى في الحياة ليس حقا . وهناك كان يلقب في صحف ذهنه كل ماوعى (!) فيزداد عما يزاول الناس من ألوان الظن رغبة وازوراراً ، وهو لم يكن يطمع في أن يمجّد في قصص الأخبار وفي كتب الرهبان الحق الذي ينشد ، بل في هذا الكون المحيط به في السماء ونجومها وقمرها وشمسها ، وفي الصحراء ساعات لهيها المحرق تحت ضوء الشمس الباهرة اللائلا . وساعات صفوها البديع ، إذ تكسوها أشعة القمر أو أضواء النجوم بلباسها الرطب الندي ، وفي البحر وموجه (!) وفي كل ماوراء ذلك مما يتصل بالوجود وتشمله وحدة الوجود — في هذا الكون كان يلتمس الحقيقة العليا وابتغاء إدراكها ، كان يسمو بنفسه ساعات خلوته ليتصل بهذا الكون وليخترق شفاف الحجب إلى مكنون سره

(قال درمنغام) : فلما كانت سنة ٦١٠ أو نحوها كانت الحال النفسية التي يعانها محمد على أشدها ، فقد أبهظت عاتقه العقيدة بأن أمراً جوهرياً ينقصه وينقص قومه ، وأن الناس نسوا هذا الامر الجوهري وتشبث كل بصنم قومه وقبيلته ، وخشي الناس الجن والاشباح والبوارح ، وأهلوا الحقيقة العليا ، ولعلم

لم ينكروها ، ولكنهم نسوها نسيانا هو موت الروح . وقد خلصت نفس محمد من كل هذه الآراء التافهة ، ومن كل القوى التي تخضع لقوة غيرها ، ومن كل كائن ليس مظهراً للكائن الواحد

ولقد عرف ان المسيحيين في الشام ومكة لهم دين أوحى به (!) وان أقواما غيرهم نزلت عليهم كلمة الله ، وأنهم عرفوا الحق ووعدوه أن جاءهم علم من أنبياء أوحى اليهم به ، وكما ضل الناس بعثت السماء اليهم نبيا يهديهم إلى الصراط المستقيم ويذكرهم بالحقيقة الخالدة . وهذا الدين الذي جاء به الانبياء في كل الازمان دين واحد ، وكلما أفسده الناس جاءهم رسول من السماء يقوم عوجهم . وقد كان الشعب العربي يومئذ في أشد تيهاء الضلال . أفما آن لرحمة الله أن تظهر فيهم مرة أخرى وأن يهديهم الى الحق ؟ »

« وتزايدت رغبة محمد عن الاجتماع بالناس ، ووجد في وحدة غار حراء مسرة تزداد كل يوم عمقا ، وجعل يقضي الاسابيع ومعه قليل من الزاد ، وروحه تزداد بالصوم والسير والادمان على قلبه فكرته صقلا وحدة . ونسي النهار والليل ، والحلم واليقظة ، وجعل يقضي الساعات الطوال جاثيا في الغار ، أو مستلقيا في الشمس ، أو سائرا بخطوات واسعة في طرق الصحراء الحجرية ، وكأنه يسمع الاصوات تخرج من خلال أحجارها تناديه مؤمنة برسالته (!)

« وقضى ستة أشهر في هذه الحال حتى خشي على نفسه عاقبة أمره ، فأسرى بمخاوفه إلى خديجة فطمأنته وجعلت تحذره بأنه الامين ، وان الجن لا يمكن أن تقترب منه . وفيما هو يوما نائم بالغار جاءه ملك فقال له اقرأ ، قال « ما أنا بقارى . » وكان هذا أول الوحي وأول النبوة

« وهنا تبدأ حياة حدة روحية قوية غاية القوة ، حياة تأخذ بالابصار والالباب ،

ولكنها حياة تضحية خالصة لوجه الله والحق والانسانية » اهـ

أقول : ان كل ما هنا من خبر أو جله غير صحيح ، ولو صحت لكان ما استنبطه منها مما يخطر بالبال ، ولكن الوحي الحمدي فوق كل استنباط وكل احتمال ، فمن أين علم هذا الا فرنسي أن محمداً نسي الليل والنهار ، والحلم واليقظة ، وأنه كان يقضي الساعات الطوال جاثياً في الغار أو مستلقياً في الشمس الخ ، وأنه قضى ستة أشهر في هذه الحال ؟ قد افترى في الاخبار ^(١) ليستنبط منها انه صار صلوات الله عليه مغلوباً على عقله ، غائباً عن حسه غارقاً في بحر لجي من خياله ، أتمر له انبثاق ذلك الوحي العالي من نفسه ، وتجليه بصره وسمعه ، واتي ابدأ الرد عليه وعلى أمثاله بنقل أصح الروايات في خبر تحته في الغار الليالي ذوات العدد - من شهر رمضان في تلك السنة لا فيما قبلها - لتفنيد أخيلته وشعرياته وإبطال نتيجة مقدماته ، وللإستغناء بها عما نقله من الخلط في صفة الوحي من الفصل الذي بعد هذا من كتابه. ذلك ما رواه الشيخان البخاري ومسلم في صحيحيهما . وهذا نص رواية البخاري رضي الله عنه في كتابه الجامع الصحيح :

﴿١﴾ أي افترى في اثنائها ما ليس له اصل من روايات السيرة ، ولم يفترها كلها ، كما انه لم يعرف الصحيح من الضعيف فيها ، وفسرها بما وافق رأيه في سبب ذلك الوحي العظيم الذي يعترف بعظمته وحكمته

باب

كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ

(افتتح الحافظ البخاري هذا الباب بل الكتاب كله بروايته لحديث « انما الاعمال بالنيات » ثم قال : —)

حدثنا عبد الله بن يوسف قال أخبرنا مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله كيف يأتيك الوحي (١) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس (٢) وهو أشده علي فيفصم (٣) عني وقد وعيت عنه ما قال ، وأحيانا يتمثل لي الملك

(١) للوحي معنى عام يطلق على عدة صور من الاعلام الخفي الخاص الموافق لوضع اللغة منها الرؤيا الصادقة والنفث في الروح والالهام وإلقاء الملك ، وله معنى خاص هو احد الاقسام الثلاثة للتكليم الالهي الوارد في قوله تعالى (وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي باذنه ما يشاء . إنه علي حكيم) وهذا الحديث فيه وصف القسم الأول وذ كر الثالث ، وأما الثاني وهو الكلام الالهي من وراء حجاب بدون وساطة فقد ثبت للنبي (ص) في ليلة الاسراء والمعراج ولموسى عليه الصلاة والسلام . وغير هذه الثلاثة من الوحي العام لا يعد من كلام الله تعالى التشريعي ، والرؤيا الصادقة والالهام مما وقع ويقع لغير الانبياء (٢) المراد من التشبيه أنه صوت كصلصلة الحديد المتصلة المتدركة التي تسمع من الجلالجل ونحوها ليس بكلام مؤلف من الحروف والأقرب أن سببه وجود الملائكة وإن لم ير أحدا منهم في حال سماعه . وكانت هذه الحالة أشد الحالتين عليه لأنها كما قال الحكميم ابن خلدون انسلاخ من البشرية الجسدية واتصال بالملكية الروحانية والحالة الاخرى عكسها لأنها انتقال الملك من الروحانية المحضة الى البشرية الجسدية . (٣) يفصم وزان يضرب ينفك وينجلي

رجلا (١) فيكلمني فأعي ما يقول » قالت عائشة رضي الله عنها ، ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وان جبينه ليتفصد عرقا (٢) حدثنا يحيى بن بكير قال حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن عروة ابن الزبير عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت : أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم (٣) فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حجب اليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه (٤) - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى

(١) أي يظهر بصفة رجل ومثاله ، وذلك أن الملك روح عاقل مريد له قوة التصرف في المادة فهو يأخذ من مادة الكون الصورة التي يريد ها . وان علم الكيمياء في هذا العصر يقرب إلى التصور هذا التصرف بما ثبت فيه من تحول كل مادة من الكثافة إلى اللطافة وما بينهما بقوة الحرارة وأقواها حرارة الكهرباء ، والملك يتصرف في الكهرباء كما يشاء ، وقد شرحنا هذا المعنى في تفسير قوله تعالى (١٤٣:٧) ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه) — راجع ص ١٦٢ — ١٦٧ ج ٩ تفسير

(٢) كان من هذه الشدة عليه ما قاله العلامة ابن القيم في زاد المعاد : حتى ان راحلته لتبرك به الى الارض اذا كان راكبها ولقد جاء مرة كذلك وفخذه على فخذه زيد بن ثابت فتقلت عليه حتى كادت ترضها اه

(٣) أكثر الرؤى أضغاث أحلام لها أسباب تثيرها في خيال النائم والرؤيا الصالحة نوع من انكشاف الحقائق للنفس المستعدة لادراكها بما يكون وقت النوم من صفائها بعد اشتغالها بمدركات الحواس وما تثيرها من الخواطر والافكار ، ورؤيا الانبياء قبل وحي التشريع تمهيد وتأسيس للنفس تقوي استعدادها لتلقى الكلام الالهي

(٤) أصل التحنث اتقاء الحنث أي الذنب أو مقلوب التحنف وهو اتباع الخيفية ملة ابراهيم . وهو رواية ابن هشام . وقوله وهو التعبد ، جملة تفسيرية لراوي الحديث وهو ابن شهاب الزهري فهو مدرج في الحديث والليالي ظرف متعلق بـ يتحنث

جاءه الحق (١) وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال: اقرأ، قال ما أنا بقاريء (٢)
 قل فأخذني فغطني (٣) حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال اقرأ، فقلت ما أنا
 بقاريء، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال اقرأ فقلت
 ما أنا بقاريء، فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال (اقرأ باسم ربك
 الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم) (٤)
 فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده فدخل على خديجة
 بنت خويلد رضي الله عنها فقال «زملوني زملوني» فزملوه حتى ذهب عنه

(١) وفي رواية فجئته الحق أي بغته والمراد به الوحي الصريح الذي هو من كلام
 الله تعالى، وهذه الرواية الثابتة في الصحيحين صريحة في أن هذا كان في اليقظة،
 وفي سيرة ابن هشام أن جبريل جاءه في المنام، وهي من مراسيل عمر بن عبيد وهو
 ثقة وله صحة ولكن رواية الصحيحين المسندة هي المعتمدة، وجمع بعضهم بين
 الروایتين بأنه رآه أولاً في المنام فاستقرأه ثم رآه في اليقظة، ولو وقع هذا في المنام لزال
 خوفه ورغبه ﴿ص﴾ بعد اليقظة ولم يذهب إلى خديجة يرجف فؤاده

(٢) الظاهر أن الأمر بالقراءة أمر تكوين لا تكليف - أي كن قارئاً، ولذلك
 قال له في الثالثة ﴿اقرأ باسم ربك﴾ أي كن قارئاً باسمه ومن قبله وبقدره أيك على
 القراءة، لا بحولك وقوتك، فهو يعلم أنك أمي لا يتعلق كسبك واستطاعتك بالقراءة،
 أما وقد شاء ربك - الذي خلق، خلق الإنسان من علق، وهو الحيوان المنوي
 أو أول ما تتحول إليه نطفة الزوجين بعد العلق، فجعله بشراً سوياً يسمع ويبصر
 ويعقل - شاء أن يجعلك قارئاً لما يوحى إليك لتقرأه على الناس فأنت تكون قارئاً
 ﴿٣﴾ فسروا اللفظ بالضم الشديد الضاغط فقالوا أي ضمني وعصرني، وفي رواية
 الطبري للحديث ففتني بالمشقة الفوقية وعليها ابن هشام وهي بمعنى غطني واصل
 معناها الغمس في الماء وضيق النفس وحكمة هذا اللفظ تقوية روحانية النبي (ص)
 حتى يقوى على الاتصال بالملك والفهم منه

(٤) اختصره هنا وزاده في التفسير (الذي علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم)

الروع، قال لخديجة وأخبرها الخبر « لقد خشيت على نفسي » (١) فقالت خديجة : كلا والله ما يخزيك الله أبداً (٢) إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق .

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة وكان امرأ تنهر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب

(١) اختلف العلماء في خوفه (ص) على نفسه فقيل خشي الجنون ولئن يكون مارآه من الجن، وقد أنكره وردده القاضي أبو بكر بن العربي وواقفه الحافظ ابن حجر ولكن الحافظ قال انه روي من عدة طرق (أقول) وهو الظاهر مما أجابته به خديجة . واستشكل بان الوحي يكون مقترنا بعلم قطعي بأنه من الله وان الملئق له من الملائكة ، وأجيب بأن هذا العلم الضروري يحصل باستعراف الملك له واعلامه إياه بذلك عند تلقيه الامر بالتبليغ، وانما كان ظهور الملك له هذه المرة لاجل الاليناس والاعداد لتلقي وحي الاحكام ، والامر فيه بالقراءة للتكوين لا للتكليف ، والا كان من تكليف مالا يطاق . وقيل انه خاف على نفسه الموت أو الهلاك وهو قريب ، وثم اقوال اخرى متكلفة . وهو على كل حال يدل على أنه (ص) لم يفهم من هذه الرؤية أنه صار نبيا، ولا أن الذي رآه هو ملك الوحي جبريل عليه السلام، ويؤيد ذلك مسألة ورقة (٢) الخزي اسم معناه الذل والهوان وأخزاه أذله وأهانته . والكل (يفتح العين) المتعب ومن هو عالة على غيره، وحمله إعطاؤه راحلة يركبها او حمل ابقاله، وتكسب بفتح التاء ، وضما لغة ورواية ، والمعدوم المفقود (قيل) ولا يظهر معناه هنا الا بتكلف وقال الخطابي الصواب المعدم وهو الفقير الفاقد لما يكفيه اه ولكن الرواية المعدوم، وهو وصف لمحدوف، وتكسب الثلاثي من الكسب يتعدى بنفسه إلى مفعولين ، حذف أولها والمعني وتجعل المحتاج العاجز عن الكسب كاسبا للشيء المعدوم الذي يفقده ببذله له أو بمساعدته على كسبه ، والاعانة على نوائب الحق كلمة جامعة لكل اعمال البر والتجدة والمروءة فيما عدا الباطل . وما رغب خديجة في الزواج به (ص) الا هذه الفضائل التي أحاطت بها خيرا بمعاشرته الزوجية ، ولذلك عد بعض علماء الافرنج إيمانها به اصح شهادة له

من الانجيل بالبرانية ما شاء الله أن يكتب (١) وكان شيخا كبيرا قد عمي ، فقالت له خديجة يا ابن عم اسمع من ابن أخيك ، فقال له ورقة يا ابن أخي ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ بخبر ما رأى ، فقال له ورقة : هذا الناموس (٢) الذي نزل الله على موسى ، ليتني فيها جذعا ، ليتني أكون حيا اذ يخرجك قومك ، فقال رسول الله ﷺ أوخرجني هم ؟ قال نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي ، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرا . ثم لم ينسب (٤)

(١) وفي رواية البخاري في كتاب التفسير من صحيحه : يكتب من الانجيل بالعربية ، وفي معناها رواية مسلم فكان يكتب الكتاب العربي . ولا تنافي بين الروايات اذ كان يعرف اللغتين . ورقة ابن عم خديجة ، وأما قولها له اسمع من ابن أخيك فهو من باب التوقير لسنه واستعطاف الرحم ، وكذا قوله للنبي (ص) يا ابن أخي

(٢) الناموس في اللغة صاحب السر والمراد به امين الوحي جبريل وقوله نزل على موسى ولم يقل وعيسى لان الشبه بين الوحي الى موسى ومحمد عليهما السلام اتم لأن كلا منهما اوتي شريعة تامة مستقلة في عبادتها ومعاملاتها وسياستها وقوتها العسكرية ، وعيسى عليه السلام كان تابعا لشريعة التوراة وناسخا لبعض الاحكام التي يقتضيها الاصلاح ، ومبشرا بالنبي الذي يأتي من بعده بالشرع الكامل العام الدائم وهو محمد رسول الله وخاتم النبيين ، وفي بعض الروايات الضعيفة ان ورقة قال « ناموس عيسى » وفي رواية أخرى حسنة الاسناد في دلائل النبوة لابي نعيم ان خديجة جاءت ورقة وحدها أولا فذكرت له الخبر فقال لها : لئن كنت صدقتني انه ليأتيه ناموس عيسى الذي لا يعلمه بنو اسرائيل ابتاهم اه والناموس واحد على كل حال . ولكن رواية الصحيحين « فاطلقت به » تدل على التعقيب اي انها ذهبت به عقب تحدثها بما رأى وعليها المعول

(٣) قوله : ليتني كنت جذعا : الجذع بفتحين خلاف المسن من البهائم واشتهرت استعارته للشباب من الناس . والاخراج النبي من الوطن

(٤) لم ينسب بفتح الشين المعجمة أي لم يلبث بعد هذا أن توفي ولم ينل ما يتمناه من إدراك زمن تبليغ الرسالة لينصر النبي (ص) ولكن في سيرة ابن اسحاق وتبعه غيره ان ورقة كان يمر ليلا وهو يعذب ، ومقتضاه انه أدرك زمن البعثة واضطهاد المشركين للمؤمنين . والمعتمد ما في الصحيح من أنه توفي عقب هذا الحديث بقليل

ورقة أن توفي وقتر الوحى (١)

قال ابن شهاب وأخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن أن جابر بن عبد الله الأنصاري قال وهو يحدث عن قِرة الوحى فقال في حديثه «بينما أنا ماش إذ سمعت صوتا من السماء فرفعت بصرى فإذا الملك الذي جاء في بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرعبت منه فرجعت فقلت زملوني فأُنزل الله تعالى (يا أيها المدثر) قم فَأَنْذِرْ) إلى قوله (والرُّجْزَ فَأَهْجُرْ) فخي الوحى وتتابع (٢) ٥١

(١) فتر الوحى انقطع مؤقتا ليعود - وكانت فترة الوحى ثلاث سنين - وهي ما بين بدئه بأمر جبريل له بالقراءة وبين نزول أول سورة المدثر التي أمر فيها بالإنذار للناس (٢) أي اتصلت مدة التبليغ كلها وهي عشرون سنة ولكنه كان نجوما متفرقة حسب الحاجة، فتارة تنزل السورة دفعة واحدة، وتارة تنزل الآيات المتفرقة، وقد يكون بين ذلك فترات قصيرة، كالذي ورد في سبب نزول سورة الضحى. وقد اختلف الأمر في هذا على در من غام فظن أنها هي التي نزلت بعد فترة الوحى، والمروى أنه نزل قبلها بضع سور: وكان سبب نزولها كما في الصحيحين من حديث جندب ابن سفيان أن النبي (ص) اشتكى (أي وجع) فلم يقد ليلتين أو ثلاثا (أي إلى تهجده وتلاوته) فقالت امرأة بأحمد أني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قريك منذ ليلتين أو ثلاث. فأُنزل الله عز وجل (الضحى) والليل إذا سجى * ما ودعك ربك وما قلى) اه تقرأ ودعك بالتشديد والتخفيف ومعناها واحد وهو الترك، والقلى بالكسر والقصر البغض، أي ما تركك ربك وما أبغضك - وهذه المرأة هي أم جميل امرأة أبي لهب و بنت أبي سفيان كما رواه الحاكم عن زيد بن أرقم، وكان هذا بعد نزول سورة (تبت يدا أبي لهب) وروى ابن جرير من طريقين مرسلين أن جبريل أبطأ على النبي (ص) فخرج جزعا شديدا فقالت خديجة: فاني أرى ربك قد قلاك مما يرى من جزعك، فنزلت - ومعارضة رواية الصحيحين بهاته الرواية الرسالة تسقط اعتبارها وإن جمع الحافظ ابن حجر بينهما بأن خديجة قالت ما قالت توجعا، وحالة الخطب قالت شامة

وأقول : أخرج البخاري حديث جابر في تفسير سورة المدثر من طرق في بعضها أن أولها هو أول ما أنزل مطلقا وفي البعض الآخر أنها من حديث النبي ﷺ عن فترة الوحي كالتى هنا ، وقد عبر ﷺ عن رعبه من رؤية الملك بقوله « فحُثِّت منه رعبا » وفي رواية أخرى « فحُثِّت منه حتى هويت الى الارض » أي فرغت وخفت وهو بضم الجيم وكسر الهمزة بالبناء للمفعول

هذا هو المعتمد عند المحدثين في أول منازل من القرآن والمشهور انه نزل بعد أول المدثر سورة المزمل تامة وبعدها بقية سورة المدثر . وقال مجاهد أول ما نزل سورة (ن والقلم) وهو غلط ، وروي عن علي كرم الله وجهه ان أول ما نزل سورة الفاتحة واعتمده شيخنا في توجيه كونها فاتحة الكتاب ، ويمكن أن يراد انها اول سورة تامة نزلت بعد بدء الوحي بالتمهيد التكويني ، ثم بالامر بالتبليغ الاجمالي ، وتلاها فرض الصلاة ونزول سورة المزمل أو نزلتا في وقت واحد

(بسط ما يصورون به الوحي النفسي)

لمحمد صلى الله عليه وسلم

هأنذا قد بسطت جميع المقدمات التي استنبطوها من تاريخ محمد ﷺ وحالته النفسية والعقلية ، وحالة قومه ووطنه ، وما تصوروا أنه استفادهم من أسفاره ، وما كان من تأثير خلواته وتحنثه وتفكره فيها ، وقفيت عليها بأصح مارواه المحدثون في الصحاح من صفة الوحي وكيف كان بدؤه وقترته ، ثم كيف أمر نبيه ﷺ بتبليغه ودعوة الناس إلى الحق ، وكيف حيي وتتابع وأين الآن كيف يستنبطون من ذلك أن هذا الوحي قد نبع من نفس محمد وأفكاره ، بتأثير ذلك كله في وجدانه وعقله ، بما لم أر ولم أسمع مثله في تقريبه إلى العقل ، ثم أقفي عليه بما ينقضه من أساسه بأدلة العقل والنقل والتاريخ ، والصحيح من وصف حالته ﷺ فأقول :

يقولون (أولاً) إن عقل محمد الهبولاني - أو ما يسمونه في عصرنا بالعقل الباطن - قد أدرك بنوره الذاتي بطلان ما كان عليه قومه من عبادة الاصنام ، كما أدرك ذلك أفراد آخرون من الاقوام ، ونقول : آمنا وصدقنا

(ثانياً) إن فطرته الزكية قد احتقرت ما كانوا يتنافسون فيه من جمع الاموال بالربا والقمار ، ونقول : آمنا وصدقنا

(ثالثاً) إن فقره وفقر عمه (أبي طالب) الذي كنفه صغيراً قد حال دون انغماسه فيما كانوا يسرفون فيه من الاستمتاع بالشهوات : من السكر والتسري وعزف القيان ، ونقول : الصحيح أنه ترك ذلك احتقاراً له لا عجزاً عنه

(رابعاً) أنه طال تفكره في إغناذهم من ذلك الشرك القبيح ، وتطهيرهم من تلك الفواحش والمنكرات . ونقول : لا مانع من ذلك

(خامسا) انه استفاد من أسفاره ومن نقيه فيها وفي مكة نفسها من النصارى كثيرا من المعلومات عن النبيين والمرسلين الذين بعثهم الله في بني اسرائيل وغيرهم فأخرجهم من الظلمات إلى النور . ونقول: إن هذا لم يصح عندنا ولا يضرنا

(سادسا) ان تلك المعلومات لم تكن كلها مقبولة في عقله لما عرض للنصرانية من الوثنية بألوهية المسيح وأمه وغير ذلك وبما حدث فيها من البدع . ونقول: هذا مبني على ما قبله فهو معقول غير منقول

(سابعا) انه كان قد سمع ان الله سيبعث نبيا مثل أولئك الانبياء من العرب في الحجاز قد بشر به عيسى المسيح وغيره من الانبياء، وان هذا علق بنفسه فتعلق رجاؤه بأن يكون هو ذلك النبي الذي آن أوانه ونقول: إن هذا استنباط لم يقبله وسيأتي ما فيه (ثامنا) وهو نتيجة ما تقدم: انه توسل الى ذلك بالانقطاع الى عبادة الله تعالى والتوجه اليه في خلوته بغار حراء فقوي هنالك ايمانه ، وسما وجدانه ، فاتسع محيط تفكره وتضاعف نور بصيرته ، فاهتدى عقله الكبير الى الآيات البينات في ملكوت السموات والارض على وحدانية مبدع الوجود ، وسر النظام الساري في كل موجود ، بما صار به اهلا لهداية الناس وإخراجهم من الظلمات الى النور ، وما زال يفكر ويتأمل ، وينفعل ويتململ ، ويتقلب بين الآلام والآمال ، حتى أيقن أنه هو النبي المنتظر ، الذي يبعثه الله لهداية البشر ، فتجلى له هذا الاعتقاد في الرؤى المنامية ، ثم قوي حتى صار يتمثل له الملك ياقنه الوحي في القطة

وأما المعلومات التي جاءته في هذا الوحي فهي مستمدة الاصل من تلك النبايع التي ذكرناها ، ومما هداه اليه عقله وتفكره في التمييز بين ما يصح منها وما لا يصح ، ولكنها كانت تتجلى له نازلة من السماء ، وانها خطاب الخالق عز وجل بوساطة الناموس الاكبر ملك الوحي خبيريل الذي كان ينزل على موسى بن عمران ، وعيسى بن مريم وغيرهما من النبيين عليهم السلام

وقال أحد ملاحدة المصريين ان سولون الحكيم اليوناني وضع قانونا وشريعة تقومه فليس بدعا في العقل أن يضع محمد شريعة أيضا ، وسأين فساد هذا الرأي أيضا

تفنيد تصويرهم للوحي النفسي وإبطاله من وجوه

(الوجه الاول) ان أكثر المقدمات التي أخذوا منها هذه النتيجة هي آراء متخيلة ، أو دعاوى باطلة ، لا قضايا تاريخية ثابتة ، كما بيناه عند ذكرها ، وإذا بطلت المقدمات بطل لزوم النتيجة لها

مثال ذلك زعمهم ان محمدا ﷺ سمع من نصارى الشام خبر غلب الفرس وظهورهم على الروم - ليوهموا الناس ان ما جاء في أول سورة الروم من الانباء بالمسألة وبأن الروم سيغلبون الفرس بعد ذلك هو مستمد مما سمعه ﷺ من نصارى الشام . وهذا مردود بدلائل التاريخ والعقل : فأما التاريخ فانه يحدثنا بأن ظهور الفرس على الروم كان في سنة ٦١٠م وذلك بعد رحلة محمد الاخيرة الى الشام بأربع عشرة سنة وقبل بدء الوحي بسنة . ثم ان التاريخ أنبأنا ان دولة الروم كانت مختلة معتلة في ذلك العهد بحيث لم يكن أحد يرجو أن تعود لها الكثرة والغلب على الفرس ، حتى ان أهل مكة أنفسهم هزءوا بالخبر وراهن أبو بكر احدثهم على ذلك وأجازه النبي ﷺ فرج الرهان (١)

وأما العقل فانه يحكم بأن مثل محمد في سمو إدراكه المتفق عليه لا يمكن أن يحزم بأن الغلب سيعود للروم على الفرس في مدة بضع سنين - لا من قبل الرأي ولا من الوحي النفسي المستمد من الاخبار غير الموثوق بها . وقد صح أن انتصار

(١) في القصة روايات من طرق فيها خلاف فيما قدروا فيه البضع وهو في الاصل من ٣-٩ فقل خمس وقيل ست ولام النبي «ص» أبا بكر على تحديده وقد أبهمه الله تعالى وفي بعضها انهم أخطؤا الاجل الاول فأمر النبي «ص» بأن يمدّوهم في الاجل ويزايدوهم في الرهن ففعلوا ورضي المشركون . وكان الذي تولى قمارهم أبي بن خلف ، فأظهر الله الروم على الفرس عند انتهائه ، على رأس السبع من قمارهم الاول

الروم وقع سنة ٦٢٢ م وكان وحي التبليغ للنبي ﷺ سنة ٦١٤ فاذا فرضنا أن سورة الروم نزلت في هذه السنة يكون النصر قد حصل بعد ثمان سنين ، وان كان في السنة الثانية تكون المدة سبع سنين ، وهو المعتمد في التفسير . والبضع يطلق على ما بين الثلاث والتسع .

والحكمة في التعبير عن هذا النبأ بقوله تعالى (٣٠: ٢) غُلِبَتِ الرُّومُ (٣) في آدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيَّغلبون في بضْعِ سنين) ولم يقل بعد سبع سنين أو ثمان مثلاً - هي إفادة أن الغلب يكون في الحرب الممتدة في هذه المدة . وأبناء الوحي والعبر لا تكون بأسلوب التاريخ الذي يحدد الوقائع بالسنين ، وليس في وعود القرآن الكثيرة للمسلمين بالنصر وغيره من أبناء الغيب ذكر السنين . ولا الشهور فهذه الآية فريدة في بابها

ومثال آخر ما زعموه من مروره ﷺ في رحلته إلى الشام بأرض مدين وحديثه مع أهلها ، الذي أرادوا به أن يجعلوه أصلاً لما جاء في القرآن من أخبارها والخبر باطل كما أشرنا إليه عند نقلنا إياه في المقدمات ، ولوصح لما كان من المعقول أن يعتمد محمد على ما سمعه في الطريق من أناس مجهولين لا يوثق بمعرفتهم ولا بصدقهم فيجعله أصلاً للوحي الذي جاءه في قصة موسى وفي قصة شعيب عليهما السلام

(الوجه الثاني) لو كان النبي ﷺ تلقى عن علماء النصارى في الشام شيئاً أو عاشرهم لنقل ذلك أتباعه الذين لم يتركوا شيئاً علم عنه أو قيل فيه ولولم يثبت إلا ودونوه ووكلاوا أمر صحته أو عدها إلى إسناده ، وما علم من سيرة رواته

(الوجه الثالث) لو وقع ما ذكر لا تخذه أعداؤه من كبار المشركين شبهة يحتجون بها على أن ما يدعيه من الوحي قد تعلمه في الشام من النصارى ، فانهم كانوا يوردون عليه ما هو أضعف وأسخف من هذه الشبهة ، وهو أنه كان في مكة نبن (حداد) رومي يصنع السيوف وغيرها فكان النبي ﷺ يقف عنده أحياناً

يشاهد صنعته فاتهموه بأنه يتعلم منه، فرد الله عليهم بقوله (١٦ : ١٠٣) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ)

(الوجه الرابع) نصوص القرآن صريحة في أنه ﷺ لم يكن يعرف شيئاً من أخبار الرسل وقصصهم قبل الوحي ، وهم متفقون معنا على أنه ﷺ لم يكن يكذب على أحد فضلاً عن الكذب على الله عز وجل ، كما اعترف بذلك أعدى أعدائه أبو جهل ، كما أنهم متفقون معنا على قوة إيمانه بالله عز وجل وبقينه بكل ما أوحاه إليه

ومن الشواهد على ذلك قوله تعالى عقب قصة موسى في مدين وما بعدها من سورة القصص (٢٨ : ٤٤) وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ٤٤ وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ، وَمَا كُنْتَ ثَارِيًّا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ، وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ) وقوله بعد قصة نوح من سورة هود (١١ : ٤٩) تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا ، فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ) ونحوه في اواخر سورة يوسف بعد قصته (١٢ : ١٠٢)

ومن الشواهد التي لم يكن يعرفها أحد من أهل الكتاب قوله تعالى بعد قصة زكريا وولادة مريم وكفالاتها ، فيتوهم أنه مأخوذ عنهم (٣ : ٤٤) ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ، وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَفَلَا مَعَهُمْ آيَاتُهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ؟ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ)

الاقلام جمع قلم تطلق على الازلام والاقداح انني كانوا يلقونها لضرب

القرعة لازالة الخلاف فيما يتنازعون فيه ، وعلى أقلام الكتابة ، وتكون القرعة بأوراق تخطبها كما هو المهود في عصرنا ، والمعنى انهم اختصموا وتنازعوا في كفالة مريم وتريتها عناية بأمرها فأصابته القرعة زكريا عليه وعليها السلام، كما قال تعالى في أول قصتهما (٣ : ٣٧)

(الوجه الخامس) انه لم يرد في الأخبار الصحيحة والمرفوعة (١) أن محمداً ﷺ كان يرجو أن يكون هو النبي المنتظر الذي كان يتحدث عنه بعض علماء اليهود والنصارى قبل بعثته ، ولو روي عنه شيء من ذلك لدونه المحدثون لأنهم ما تركوا شيئاً بلغهم عنه إلا ودونوه، كما رووا مثله عن أمية بن أبي الصلت . بل صرح القرآن المجيد بأنه لم يرج هذا ولا يؤمله . قال تعالى (٢٨ : ٨٦) وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ أَي لَكِنْ أَلْقَى إِلَيْكَ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ بِكَ وَبِالنَّاسِ كُلِّهِمْ ، لَا كَسْبَ لَكَ فِيهِ بِعَلْمٍ وَلَا عَمَلٍ ، فـهـذا تأكيد وتكميل للشاهد الأول من الوجه الرابع

(الوجه السادس) ان حديث بدء الوحي الذي أثبته الشيخان في الصحيحين وغيرهما من المحدثين صريح في أنه ﷺ خاف على نفسه لما رأى الملك أول مرة . ولم تجد زوجه خديجة بنت خويلد العاقلة المفكرة وسيلة يطمئن بها على نفسه وتطمئن هي عليه إلا استفتاء أعلم العرب بهذا الشأن وهو ابن عمها ورقة بن نوفل الذي كان تنصر وقرأ كتب اليهود والنصارى

(الوجه السابع) لو كانت النبوة أمراً كان يرجوه محمد ويتوقعه ، وكان قد تم استعداد له باختلافه وتعبده في الغار ، وما صوروا به حاله فيه من الفكر المضطرب ، والوجدان الملهب ، والقلب المتقلب ، حتى إذا كمل استعدادده ، تجلى له رجاؤه واعتقاده ، بما تم به مراده ، لظهر عقب ذلك كل ما كانت تنطوي عليه

« ١ » الحديث المرفوع في اصطلاح المحدثين ما صرح الصحابي بأنه من قول النبي « ص »

نفسه الوثابة، وفكرته الوقادة، في سورة أو سور من أبلغ سور القرآن، في بيان أصول الإيمان، وتوحيد الديان، واجتثاث شجر الشرك وعبادة الأوثان، وتشريع الأجر والرهبان، واتخاذ الولد للرحمن، وإنذاره من الكفر والطغيان، ما سيلقون في الدنيا من الخزي والنكال، وفي الآخرة من عذاب النار، كسور الفصل ولا سيما (ق والقرآن المجيد) والذاريات والطور والنجم والقمر، ثم الحاقة والنبأ. أو في سورة أو أكثر من السور الوسطى التي تقرعهم بالحجج، وتأخذهم بالعبر، وتضرب لهم المثل، بسنن الله في الرسل، كسور الأنبياء والحج والمؤمنون

ولكنه ظل ثلاث سنين لم يتل فيها على الناس سورة، ولم يدعهم إلى شيء، ولا تحدث إلى أهل بيته ولا أصدقائه بمسألة من مسائل الإصلاح الديني الذي توجهت إليه بزعمهم نفسه، ولا من ذم خرافات الشرك الذي ضاق به ذرعه، إذ لو تحدث بذلك لنقلوه عنه، وناهيك بألصق الناس به: خديجة وعلي وزيد بن حارثة في بيته، وأبي بكر الصديق الذي عاشه طول عمره - فهذا السكوت وحده في فترة الوحي برهان قاطع على بطلان ما صوروا به استعدادة للوحي الذاتي الذي زعموه، واستمداده لعلومه من التلقي الذي اختلقوه، والاختبار الذي توهموه

(الوجه الثامن) ان ما نقل من ترتيب نزول الوحي بعد هذه الفترة الطويلة جاء موافقا لما كان يتجدد من الوقائع والحوادث الطارئة، دون ما زعموا من الامور السابقة، فقد نزل ما بعد صدر سورة المدثر ردا على قول الوليد بن المغيرة المخزومي الذي قاله في القرآن - فقد أراد أبو جهل أن يقول فيه قولاً يبلغ قومه أنه منكرك له وأنه كلره له، بعد أن علم أنه تحرى استماعه من محمد ﷺ وأعجب به. قال له الوليد وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر لا برجزه ولا بقصيده مني، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئا من هذا، والله إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمنير أعلا، مشرق أسفله^(١) وأنه ليعلو وما يعلو،

«١» وفي رواية: وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق.

وإنه ليحطم ما تحته . قال أبو جهل لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه ، فقال
دعني حتى أفكر ، فلما فكر قال : هذا سحر يؤثر بأثره عن غيره، فنزلت الآيات
(٧٤ : ١١ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا) الى الآية ٣٠ رواه الحاكم عن
ابن عباس باسناد صحيح على شرط البخاري

وقد نزلت سورة اقرأ فسورة ن والقلم فسورة المزمل قبل سورة المدثر ،
ونزل بعدها أكثر من ثلاثين سورة من قصار المفصل وأوساطه ليس فيها شيء
مما زعموا أنه تلقاه أو شاهده في الاسفار ، ولا مما وصفوا من أفكاره في الغار،
فليراجع ترتيب نزول السور في كتاب الاتقان من شاء .

(الوجه التاسع) ان هذه المعلومات المحمدية التي تصورها هؤلاء المحللون لمسألة

الوحي قليلة المواد ، ضيقة النطاق عن أن تكون مصدراً لوحي القرآن
وان القرآن لأعلى وأوسع وأكمل من كل ما كان يعرفه مثل بحيرا ونسطور
وكل نصارى الشام ونصارى الارض ويهودها، دع الأعراب الذين كان يمر بهم
النبي ﷺ بالطريق إلى الشام

وان القرآن نزل مصداقاً لكاتب أهل الكتاب من حيث كونها في الاصل
من وحي الله إلى موسى وعيسى وداود وسليمان وغيرهم — ونزل أيضاً مهمناً
عليها، أي رقيباً وحاكماً كما نصت عليه الآية (٤٨) من سورة المائدة (السادسة) ومما
حكم به على أهلها من اليهود والنصارى أنهم أوتوا نصيباً من الكتاب (٥١: ٤٤ و ٥١)
أي لا كله ، ونسوا حظاً آخر منه (١٤: ١٣ و ١٤) وأنهم حرفوا كله عن مواضعه
(٢ : ٧٥ و ٥ : ٤٥ و ٦ : ١٤ و ٤٤) وبين كثيراً من المسائل الكبرى مما
خالفوا واختلفوا فيه من العقائد والاحكام والاخبار

ومثل هذه الأحكام العليا عليهم لا يمكن أن تكون مستمدة من أفراد من الرهبان
أو غير الرهبان ، أفاضوها على محمد في رحلته التجارية إلى الشام، سواء أكان عند

بعضهم بقية من التوحيد الموسوي والعيسوي الذي كان يقول به آريوس وأتباعه. أم لا ؟ وسواء أكان لدى بعضهم بقية من الانجيل التي حكمت الكنيسة الرسمية بعدم قانونيتها (أبو كريف) كأنجيل طفولة المسيح وأنجيل برنابا أم لا ؟ فمحمد لم يعتقد في الشام ولا في حكة مجمعا مسيحيا كجامع الكنيسة للترجيح بين الانجيل والمذاهب المسيحية ويحكم بصحة بعضها دون بعض

ان وقوع مثل هذا منه في تلك الرحلة مما يعلم واضعوا هذه الاخبار ببداهة العقل مع عدم النقل انه محال عادة، وعلى فرض وقوعه يقال كيف يمكن أن يحكم بين تلك الانجيل وتلك المذاهب برأيه في تلك الجلسة التجارية للنظر فيها ويأمن على حكمه الخطأ ؟ وقد صح عنه أنه قال لأصحابه في شأن أهل الكتاب « لا تصدقوهم ولا تكذبوهم » (١) يعني فيما سكت عنه القرآن لئلا يكون ما كذبوهم فيه مما حفظوا، أو يكون ما صدقوهم به مما نسوا حقيقته أو حرفوا أو بدلوا

(العاشر) إن في القرآن ما هو مخالف للعهدين العتيق والجديد وهو مما لا يعلم إلى الآن أن أحداً من اليهود والنصارى قال به ، كمخالفة سفر الخروج فيمن تبنت موسى فيه أنها ابنة فرعون وفي القرآن أنها امرأته — وفيما فيه من عزو صنع العجل الذي عبده بنو إسرائيل إلى هارون عليه السلام بعزوه إياه إلى السامري، وإثباته لانكار هارون عليهم فيه، وغير ذلك

بل ماجاء به محمد أكبر وأعظم من كل ما في الكتب الالهية ما صح منها وما لم يصح كما سنبينه.

(١) رواء البخاري بهذا اللفظ ، وأحمد والبخاري من حديث جابر بلفظ « لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فانهم لن يهدوكم وقد ضلوا، وانكم إما أن تكذبوا بحق أو تصدقوا بباطل ، والله لو كان موسى بين أظهركم ما حل له إلا اتباعي » وسببه أن عمر كتب شيئا من التوراة عن اليهود فعلم النبي (ص) فغضب وقاله

رويدكم أيها المفتاتون (١) الذين يقولون ما لا يعلمون، إن وحي القرآن أعلى مما تزعمون، وأكبر مما تتصورون وتصورون، وإن محمداً أقل علماً كسبياً مما تدعون، وأكمل استعداداً لتلقي كلام الله عن الروح القدس مما تستكبرون وإذا كان وحي القرآن أعلى وأكمل من جميع ما حفظ عن أنبياء الله ورسله، لأنه الخاتم لهم المكمل لشرائعهم الخاصة الموقوتة، فأجدر به أن يكون أكمل مما وضعه سولون الفيلسوف اليوناني الذي شبه محمداً به أحد ملاحدة عصرنا في مصرنا، مع بعد الشبه بين أمة ينشأ بين الاميين: وفيلسوف نشأ في أمة حكمة وتشريع ودولة وسياسة، ودخل في كل أمور الامة والدولة كسولون هذا (٢)

(١) يقال افتات فلان اذا سبق بفعل شيء واستبد به ولم يؤمر فيه من هو احق منه بالأمر فيه لأنه اعلم به واجدر بتحقيقه، ويقال فلان لا يفتات عليه اي لا يتدخل احد في اموره بدون أمره واذنه

(٢) سولون أحد فلاسفة اليونان السبعة في القرن السابع قبل المسيح ووالدته من أنسباء بستراتوس آخر ملوك أثينا، وكان من رجال المال ورجال الحرب وتولى في بلاده بقبض الأعمال الادارية والعسكرية وقيادة الجيش. وقد انتخب في سنة ٥٩٤ ق. م (ارخونا) أي رئيساً على الامة باجماع احزابها كلهم وقلدوه سلطة مطلقة لتغيير ما شاء من نظم البلاد وقانونها الذي وضعه (زراكوت) من قبله فوضع لهم نظاماً جديداً قررت الحكومة والامة اتخاذه دستوراً متبعاً مدة عشر سنين. فسولون كان في قانونه منقحاً ومجدداً لقانون أعظم أمة من أمم الحكمة والحضارة نشأ فيها فكان متعلماً وفيلسوفاً وحاكماً وقائداً ورئيساً، أفيقاس عليه محمد (ص) الامي الذي لم يقرأ سطوراً ولم ير كتاباً، ولا تولى عملاً ادارياً ولا سياسياً، ثم إن ما جاء به لم يكن قانوناً موضعياً منقحاً لقوانين أخرى قبله، بل كان اصلاحاً لجميع البشر في عقائدهم وآدابهم واحكامهم وسياستهم وحروبهم اغلغ؟ تأمل ايها القاري. الى شبهات ملاحدة المسلمين على دينهم ونبيهم !

القول الحق

﴿ في استعداد محمد (ص) للنبوة والوحي ﴾

التحقيق في صفة حال محمد ﷺ من أول نشأته ، وإعداد الله تعالى إياه للنبوة ورسالته ، هو أنه خلقه كامل الفطرة ، ليعنه بدين الفطرة ، وأنه خلقه كامل العقل الاستقلالي الهولائي . ليعنه بدين العقل المستقل والنظر العلمي ، وأنه كمله بعالي الأخلاق ، ليعنه متما لمكارم الاخلاق ، وأنه بغض اليه الوثنية وخرافات أهلها ورذائلهم من صغر سنه ، وحبب اليه العزلة حتى لا تأنس نفسه بشي مما يتنافسون فيه من الشهوات والذات البدنية ، أو منكرات القوة الوحشية ، كسفك الدماء والبغي على الناس ، أو المطامع الدنيئة كأكل أموال الناس بالباطل - ليعنه مصلحا لما فسد من أنفس الناس ، ومن كآلمهم بالناسي به ، وجعله المثل البشري الأعلى ، لتنفيذ ما يوحى به من الشرع الأعلى ،

فكان من عفته أن سلخ من سني شبابه و فراغه خمساً وعشرين سنة مع زوجته خديجة كانت في عشر منها كهلة نصفاً أم أولاد ، وفي ١٥ منها عجوزا يائسة من النسل ، فتوفيت في الخامسة والستين وهي أحب الناس اليه ، وظل يذكرها ويفضلها على جميع من تزوج بهن من بعدها ، حتى عائشة بنت الصديق عني جمالها وحدثاتها وذكاؤها وكل استعدادها للتبليغ عنه ، ومكانة والدها العليا في أصحابه ، وظل طول عمره يكره سفك الدماء ولو بالحق ، فكان على شجاعته الكاملة ، يقود أصحابه لقتال أعداء الله وأعدائه المعتدين عليه وعاليهم ، لأجل صدمهم عن دينهم ، ولكنه لم يقتل بيده إلا رجلا واحدا منهم (هو أبي بن خلف) كان موطناً نفسه على قتله ﷺ فهجم عليه وهو مدجج بالحديد من مغفر ودرع ، فلم يجد ﷺ بدا من قتله فطعنه في رقوته من خلل الدرع والمغفر فقتله ، وظل طول عمره

ثابتاً على أخلاقه من الزهد والجود والايثار، فكان بعد ما أفاء الله عليه من غنائم المشركين واليهود يؤثر القشف وشطف العيش على نعمته ، مع إباحة شرعه لأكل الطيبات ونهيه عن تركها تدنياً ، وكان يرفع ثوبه ويخفف نعله ، مع إباحة دينه للزينة وأمره بها عند كل مسجد، وكان يساعد أهل بيته على خدمة الدار أكمل الله تعالى استعداد الفطري الوهبي «لألكسبي» للبعثة بكامل دين النبيين والمرسلين ، والتشريع الكافي الكافل لإصلاح جميع البشر الى يوم الدين ، وجعله حجة على جميع العالمين، بأن أنشأ كأكثر قومه أمياً، وصرفه في أميته عن اكتساب أي شيء من علوم البشر من قومه العرب الأميين ومن أهل الكتاب، حتى انه لم يجعل له أدنى عناية بما يتأخر به قومه من فصاحة اللسان ، وبلاغة البيان، من شعر وخطابة ، ومفاخرة ومنافرة (١) إذ كانوا يؤمنون أسواق موسم الحج وأشهرها عكاظ^٢ من جميع النواحي لإظهار بلاغتهم وبراعتهم، فكان ذلك أعظم الاسباب لارتقاء لغتهم، واتساع معارفهم، وكثرة الحكمة في شعرهم، فكان من الغريب أن يزهد محمد ﷺ في مشاركتهم فيه بنفسه ، وفي روايته لما عساه يسمعه منه ، وقد سمع بعد النبوة زهاء مائة قافية من شعر أمية فقال «ان كاد ليسلم» وقال «آمن

(١) المنافرة المحاكمة والمفاخرة في الاحساب والانساب

«٢» كان للعرب في عهد الجاهلية أسواق ومجامع في الحجازية يحدونها في موسم الحج للبيع والشراء، ولإظهار مناقبهم ومجد آبائهم وقبائلهم، أولها عكاظ بالضم «بوزن غراب» وهي من عمل الطائف على طريق اليمن . وقال ابو عبيد هي صحراء مستوية لا علم (بفتحين) بها ولا جبل، وهي بين نجد والطائف وكان يقام فيها السوق نحواً من نصف شهر في ذي القعدة ، ثم يأتون سوق ذي بحنة (بكسر الميم وتشديد النون) وهي دون عكاظ إلى مكة ، فيقيمون فيها إلى آخر ذي القعدة ، ثم يأتون سوق ذي المجاز وهي أقرب الى مكة فيقيمون فيها الى يوم التروية (وهو الذي قبل عرفة الذي هو تاسع ذي الحجة) ومنها يهبطون إلى منى فعرقات

شعره وكفر قلبه» وقال «ان من البيان لسحرا، وان من الشعر حكمة» رواه أحمد وأبو داود من حديث ابن عباس، وأما قوله «ان من البيان لسحرا» فقد رواه مالك وأحمد والبخاري وأبو داود والترمذي من حديث ابن عمر

قلنا إن الله تعالى جعل استعداد محمد ﷺ للنبوة والرسالة فطرياً وإلهامياً لم يكن فيه شيء من كسبه بعلم ولا عمل لسانی ولا نفسي، وأنه لم يرو عنه أنه كان يرجوها كما روي عن أمية بن أبي الصلت، بل أخبر الله عنه أنه لم يكن يرجوها، ولكن روي عن خديجة (رض) أنها لما سمعت من غلامها ميسرة أخبار أمانته وفضائله وكراماته، وما قاله بحيرا الراهب فيه، تعلق أملها بأن يكون هو النبي الذي يتحدثون عنه، ولكن هذه الروايات لا يصل شيء منها إلى درجة المسند الصحيح كحديث بدء الوحي الذي أوردناه آنفاً، فان قيل إنه يقويها حلفها بالله ان الله تعالى لا يخزيه أبداً، قلنا إنها علت ذلك بما ذكرته من فضائله، ورأت أنها في حاجة إلى استفتاء ابن عمها ورقة في شأنه

وأما اختلاؤه ﷺ وتعبده في الغار عام الوحي فلا شك في أنه كان عملاً كسبياً مقوياً لذلك الاستعداد الوهبي، ولذلك الاستعداد السلبي، من العزلة وعدم مشاركة المشركين في شيء من عباداتهم ولا عاداتهم، ولكنه لم يكن يقصد به الاستعداد للنبوة، لأنه لو كان لأجلها لاعتقد حين رأى الملك أو عقب رؤيته حصول مأموله وتحقق رجائه، ولم يخف منه على نفسه، وإنما كان الباعث لهذا الاختلاء والتحنن اشتداد الوحشة من سوء حال الناس والحرب منها إلى الانس بالله تعالى، والرجاء في هدايته إلى المخرج منها، كما بسطه شيخنا الاستاذ الامام في تفسير قوله تعالى من سورة الضحى ٩٣ (وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى) وما يفسره من قوله عز وجل في سورة الشورى (٥١: ٤٢) وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا، مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ، وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا، وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى

صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٥٢ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ،
 أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ) وألّم به في رسالة التوحيد الإمام مختصر مفيد، فقال:
 « من السنن المعروفة أن يتنما فقيرا أميا مثله تنطبع نفسه بما تراه من أول
 نشأته إلى زمن كهولته ، ويتأثر عقله بما يسمعه ممن يخاطبه لا سيما ان كان من
 ذوي قرابته ، وأهل عصبته ، ولا كتاب يرشده ، ولا أستاذ ينهيه ، ولا عضد
 إذا عزم يؤيده ، فلو جرى الأمر فيه على جاري السنن لنشأ على عقائدهم، وأخذ
 بمذاهبهم ، إلى أن يبلغ مبلغ الرجال ، ويكون للفكر والنظر مجال ، فيرجع إلى
 مخالفتهم، إذا قام له الدليل على خلاف ضلالاتهم ، كما فعل القليل ممن كانوا على عهد^(١)
 ولكن الأمر لم يجر على سنته، بل بغضت اليه الوثنية من مبدأ عمره، فعاجلته
 طهارة العقيدة ، كما بادره حسن الخليفة ، وما جاء في الكتاب من قوله (ووجدك
 ضالا فهدى) لا يفهم منه أنه كان على وثنية قبل الاهتداء الى التوحيد ، أو على
 غير السبيل القويم ، قبل الخلق العظيم ، حاش لله، إن ذلك هو الافك الميين، وإنما
 هي الحيرة تلم بقلوب أهل الاخلاص ، فيما يرجون للناس من الخلاص ، وطلب
 السبيل، الى ما هدوا إليه من انقاذ المالكين، وارشاد الضالين، وقد هدى الله نبيه
 الى ما كانت تلمسه بصيرته باصطفائه لرسالته، واختياره من بين خلقه لتقرير شريعته، اه
 (أقول) وجملة القول ان استعداد محمد ﷺ للنبوة والرسالة عبارة عن جعل
 الله تعالى روحه الكريمه كمرآة صقيلة حيل بينها وبين كل ما في العالم من التقاليد
 الدينية ، والأعمال الوراثية والعادات المنكرة ، الى أن تجلى فيها الوحي الالهي
 بأكمل معانيه ، وأبلغ مبانيه ، لتجديد دين الله المطلق الذي كان يرسل به رسله
 الى أقوامهم خاصة بما يناسب حالهم واستعدادهم ، وأراد إكمال الدين به فجعله خاتم
 النبيين، وجمع رسالته عامة دائمة ، لا يحتاجون بعدها الى وحي آخر

الامثال النورانية

لفطرة محمد (ص) وروحه ووحيه ، وكتاب الله تعالى ودينه

لقد كان محمد ﷺ في فطرته السليمة، وروحه الشريفة ، وما نزل عليها من المعارف العالية ، وما أشرق فيها من نور الله عز وجل الذي تلوته عليك آفان من آخر سورة الشورى هو مضرب المثل في قوله تعالى من سورة النور (٢٤ : ٣٥)
 اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ، الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ، الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ ، زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ، يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ، نُورٌ عَلَى نُورٍ ، يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)
 فصباح الروح المحمدية، في زجاجة فطرته الزكية ، المتألثة كاللكواكب الدرية ، يوقد من شجرة مباركة قدوسية ، زيتونة لاشرقية ولا غربية ، لا يهودية ولا نصرانية ، بل هي إلهية علوية ، أشبه بما عرف الناس في عصرنا بالكهربائية ، يكاد زيت كمالها الفطري يضيء بذاته ولو لم تمسه نار، فمسه نور الله بما أوحاه اليه فاشتعل بما عم العالم من الانوار ، ولا غرو ، فقد جعل الله محمدا نورا ، وجعل كتابه الذي أنزل إليه نورا ، وجعل دينه نورا

قال تعالى (٥: ١٥) قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ (١) وَكِتَابٌ مُبِينٌ وقال (٤: ١٧٣) وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا) وقال (٣: ١٢٢) أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ) وقال (٦٤: ٨) فَأَمِنُوا بِاللَّهِ

(١) النور هنا هو محمد رسول الله (ص) بدليل عطف الكتاب عليه

وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا) وقال في خطاب المؤمنين بالله ورسوله السابقين
 لمحمد صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب (٢٨ : ٥٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
 اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ
 لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ، وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) وقال فيمن
 استجاب لهذه الدعوة (١٥٧: ٧) فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ
 وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

وما كان يدعو به ﷺ بعد نبوته استمداداً للنور من ربه « اللهم اجعل في
 قلبي نوراً، وفي لساني نوراً، وفي بصري نوراً، وفي سمعي نوراً، وعن يميني
 نوراً، وعن يساري نوراً، ومن فوقني نوراً، ومن تحتي نوراً، ومن أمامي نوراً،
 ومن خلفي نوراً، واجعل لي في نفسي نوراً، وأعظم لي نوراً » رواه الامام
 احمد والبخاري ومسلم والنسائي عن ابن عباس

فيا موسيو درمنغام ! انك قد أبصرت قبساً من هذا النور الوهاج، فلا
 تحسبن ان محمداً اقتبس من اعراب مدين ويهود يثرب ونصارى الشام، أو
 استوراه من تفكره في أمور الكون والناس، فالامر أعظم من ذلك، فنور
 الكهرباء أعظم من أن يكون مقتبساً من نار حطب البادية العربية، وقناديل الكنائس
 اليهودية والنصرانية، أو من نور ما بقي عندهم من كتب أنبيائهم الاصلية، انما هو
 فائض من نور الله الاعظم، على رسوله وخاتم أنبيائه محمد ﷺ، هو كما قال البوصيري
 اللهُ أَكْبَرُ ان دين محمد وكتابه أقوى وأقوم قِلا
 لا تذكروا الكتب السوائف عنده طلع الصبح فأطفيء القنديلا
 وكما قال في أول همزته

كيف ترقى رُقَيْكَ الْآنِيَاءَ يَا سَمَاءَ مَا طاولتها سماء

لَمْ يُساووك في علاك وقد حا ل سَنَى منك دونهم وسناء
 إنما مثلوا صفاتك لنا س كما مثل النجوم الماء
 أنت مصباح كل فضل فما تصد إلا عن ضوءك الأضواء
 أفرأيت من أنزل الله عليه تلك الآيات ، التي أشرقت بنورها الأرض
 والسموات ، وألهمه هذا الدعاء الفياض بنور الله ، أيعقل أن يستمد النور ممن
 كانوا يعيشون في ظلمة الوثنية الهالكة ، وفي ظلمات التقاليد الكهنوتية الحالكة ،
 الذين ضرب لهم الله المثل بعد مثل النور الذي اقتبسناه من سورة النور بقوله :
 (٢٤ : ٣٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَاهُمْ كَسْرَابٍ بِقَيْعَةٍ يَحْسَبُهُ
 الظُّمَثَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَقَّاهُ
 حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤٠) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ
 يَغْشَاهُ مَوْجٌ ، مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ ، مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ، ظُلُمَاتٌ
 بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ، إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكْذِبْ رَأَاهَا ، وَمَنْ لَمْ
 يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ)

فارجع أيها الناظر المنصف الى وجدانك ، وتأمل هذه الامثال الالهية ،
 وما يراه في سائر هذا الكتاب ، لعل الله يتم نور انصافك ، فتكتب كتابا آخر تثبت
 به الوحي الالهي المعصوم ، لمحمد خاتم النبيين ، ببلاغتك الفرنسية ، وتدعو قومك
 الى الاهتداء بكتابه القويم ، ومعالجة مفاصل الحادهم وخياناتهم لأنفسهم وظلمهم
 لغيرهم باتباع صراطه المستقيم

هذا ما نراه كافيًا لتفنيد مزاعم مصوري الوحي النفسي من ناحية شخص محمد واستعداده
 ويتلوه ماهو أقوى دليلا ، وأقوم قيدا ، وهو موضوع الوحي الذي هو آية
 نبوته الخالدة ، وحجته الناهضة ، ومصدر جميع تلك الانوار الفائضة ، وهو :

آية الله الكبرى

القرآن العظيم

﴿القرآن الكريم، القرآن الحكيم، القرآن المجيد، الكتاب العزيز﴾
الذي (لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ
تَنْزِيلٍ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ)

هو كتاب لا كالكتب ، هو آية لا كالأيات ، هو معجزة لا كالمعجزات ،
هو نور لا كالأنوار ، هو سر لا كالأسرار ، هو كلام لا كالكلام ، هو كلام
الله الحي القيوم ، الذي ليس لروح القدس جبريل الأمين عليه السلام منه إلا نقله بلفظه
العربي من سماء الأفق الأعلى إلى هذه الأرض ، ول الحمد رسول الله وخاتم النبيين
صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله منه إلا تبليغه للناس بلفظه الذي تلقاه عن الروح
الأمين ، ثم بيانه لهم بالقول والعمل ليهتدوا به ، فهو معجز للخلق بلفظه ونظمه
وأسلوبه وهدايته وتأثيره وعلومه ، لم يكن في استطاعة محمد ﷺ أن يأتي بسورة من
سوره بكسبه ولا مواهبه ، من علومه ومعارفه ، وفصاحته وبلاغته ، وهو ﷺ لم
يكن عالماً ولا بليغاً ممتازاً إلا به ، بل فيه آيات صريحة ناطقة بأنه لم يكن يعلم شيئاً
من علومه تقدم بعضها ، وبأنه كان يعجز كغيره عن الاتيان بمثله ، وهو ما أمره
الله تعالى أن يقوله للناس في تحديه إياهم واستدلاله به على نبوته ، وهو قوله تعالى
(١٠ : ١٤) وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا
اِنَّتِ بَقْرَانٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ ، قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدَّلَهُ مِنْ
تِلْقَائِ نَفْسِي ، إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي

عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ ، فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)
أي لو شاء الله ألا أتلوه عليكم ما تلوته ، ولما أعلمكم هو به ، فإني إنما تلوته عليكم بمشيئته وأمره ، فقد أفت فيكم عمرا طويلا لم أتل عليكم شيئا ، أفلا تعقلون ان من عاش أربعين سنة لم يصدر عنه علم ولا عرفان ، ولا بلاغة لسان ، لا يمكن أن يصدر عنه بعد الاكتمال ، ما لم يكن له أدنى نصيب منه في سن الشباب ؟

وقد بينت في الكلام على آية التحدي بالقرآن من تفسير سورة البقرة (٢) :
(٣٢) أهم وجوه الاعجاز اللفظي والمعنوي بالاجمال والايجاز ، وهي بضعة أنواع (١)
ثم تكلمت على التحدي ببلاغته ونظمه في آتي بونس (١٠ : ٣٧ و ٣٨)
ومنه دالتهما على عجز النبي ﷺ عن الاتيان بسورة من مثله كغيره ، ومنه وجه التحدي بعشر سور مثله مقتريات ، ووجه الاعجاز في السور القصيرة . وسأعود الى هذا في آخر الكتاب

وأوجه الكلام هنا إلى هداية القرآن بأسلوبه وتأثيره وعلومه المصالحة للبشر بما يحتمله المقام من البسط والتفصيل ، وهو القدر الذي يعلم منه أن هذه العلوم أهدي من كل ما حفظه التاريخ عن جميع الانبياء والحكماء ، وواضعي الشرائع والقوانين ، وساسة الشعوب والأمم ، وان اعجازه من هذه الناحية أقوى البراهين على كونه وحيا من الله تعالى تقوم به الحجة على جميع البشر
فمن كان يؤمن بأن للعالم ربا عليا حكما رحما مريدا فاعلا مختارا فلا مندوحة

(١) هي (١) أسلوبه ونظمه (٢) بلاغته (٣) ما فيه من علم الغيب الماضي والحاضر والآتي (٤) سلامته من الاختلاف بأنواعه (٥) ما فيه من العلوم الدينية والتشريع (٦) عجز الزمان عن نقض شيء منه بما تجدد فيه من العلوم (٧) اشتماله على مسائل كثيرة لم تكن معروفة في عصر نزوله للبشر . ويتلو هذه الأنواع وجوه دالته على نبوة محمد (ص) وتفسير الآية في الجزء الأول من تفسير المنار (ص ١٩١ - ٢٢٨)

له ولا مناص من الايمان بأن هذا القرآن وحي من لدنه عز وجل أنزله على خاتم
أنبيائه المرسلين رحمة بهم ليهدوا به إلى تكميل فطرتهم ، و تزكية أنفسهم ، و اصلاح
مجتمعهم من المفسد التي كانت عامة لجميع أممهم ، فيكون اتباع محمد فرضاً إلهياً
لازماً عاماً كما قال تعالى (٧ : ١٥٨) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ
إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
يُخَيِّئُ وَيُمِيتُ ، فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيُّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَأْمُرُ
بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)

ومن كان لا يؤمن بوجود هذا الرب العليم الحكيم فهذا القرآن حجة ناهضة
على وجوده الحق ، بكونه ليس من المعبود في الخلق ، وبما شتمل عليه من الآيات البينات
في الأنفس والآفاق ، فمن لم يهتد إلى فهمها فلا مندوحة له عن الجزم بأن محمداً أكمل
وأفضل وأعلم وأحكم من كل من عرف في هذا العالم من الحكماء الهادين المهديين ،
ويكون الواجب بمقتضى العقل أن يعترف له هؤلاء بأنه أفضل البشر على الإطلاق ،
وأولاهم بالاتباع ، ولا غرو فقد اعترف له بهذا كثير من علماء الشرق والغرب ،
سنورد بعض شهاداتهم بعد ،

بل رأينا بعض المنصفين من الواقفين على السيرة المحمدية الذين يفهمون
القرآن في الجملة يتقدرون أنه ما وجد وإن يوجد مثله في المستقبل : منهم الاستاذ وليم
موير الانكليزي المشهور^(١) ومنهم ذلك الفيلسوف الطيب السوري الكاثوليكي
النشأة ، المادي الكهولة ، الذي رأى في مجلة المنار بعض المناقب المحمدية فكتب
الينا كتابا نشر ناد في الجزء الأول من مجلة المنار الحادي عشر سنة ١٣٢٦ هذا نصه :

(١) قال السير ويليام موير في كتابه حياة محمد بعد أن ذكر طائفة من صفاته
« ص » : وبالاختصار فانه مهما ندرس حياة النبي محمد (ص) نجد لها على الدوام
عبارة عن كتلة فضائل مجسمة مع نقاء سريرة وخلق عظيم ، وستبقى تلك الفضائل
عديمة النظير على الإطلاق في جميع الأزمان في الماضي وفي الحاضر وفي المستقبل

(مكتوب الدكتور شميل المادى في تفضيل محمد على جميع البشر)

« الى غزالي عصره السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار
« انت تنظر الى محمد كنبى وتجعله عظيما وانا أنظر اليه كرجل وأجعله
أعظم ، ونحن وان كنا في الاعتقاد **﴿ الدين أو المبدأ الدينى ﴾** على طرفي تقيض
فالجماهير بيننا العقل الواسع والأخلاص في القول وذلك أوثق بيننا لعرى المودة
(الامضاء)

الحق أولى أن يقال

دع من محمد في سدى قرآنه	ماقد نجاه للحملة الغايات
اني وان أك قد كفرت بدينه	هل ا كفرن بمحكم الآيات
او ما حوت في ناصع الالفاظ من	حكم روادع للهوى وعظات
وشرائع لو أنهم عقلوا بها	ما قيدوا العمران بالعادات
نعم المدير والحكيم وانه	رب النصيحة مصطفى الكلمات
رجل الحجار جل السياسة والدها	بطل حليف النصر في الغارات
ببلاغة القرآن قد غاب النهى	وبسيفه أنحى على الهامات
من دونه الأبطال في كل الورى	من سابق أو حاضر أو آت

والمؤمنون بهذه الحقيقة من أحرار مفكري الشعوب كلها كثيرون ، كما قلنا
ولسكن الجاحدين لوجود رب مدبر العالمين قائلون ، وان محمداً **ﷺ** لحجة عليهم
فيما شهدوا له به وعزوه إلى استعداده وكسبه ، وأسندوه هو إلى وحي ربه ، مع ما علم بالضرورة
من صدقه الفطري المطبوع ، ولكن شبلي شميل كان يزعم أنه نسج قرآنه من سدى
الحكمة ولحمة الدين ليقبله جمهور الناس ، وقد بطل هذا الزعم بما أسطناه في هذا الكتاب ،
وأثبتنا به نبوته **ﷺ** وهو يتضمن الحجة على وجود الرب تعالى بل هو مجموعة
حجج عقلية وطبيعية ، على الألوهية وعلى النبوة

وسترى أيها القارئ بسط هذه الحجة في خاتمة هذا الكتاب ، وأمهّد السبيل
لها بفصلين في إعجاز القرآن للخلق ، من وجهين هما أوجه وأقوى مما ألف فيه
علماؤنا المصنفات الممتعة وأحراها باقتناع أهل هذا العصر المستقلي الفكر ، فأقول

الفصل الرابع

(في إيجاز القرآن بأسلوبه و بلاغته ، وتأثيره ، ثورته)

أسلوب القرآن في تركيبه المزجي

لو أن عقائد الاسلام المترلة في القرآن من الايمان بالله وصفاته وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وما فيه من الحساب والجزاء، ودار الثواب ودار العقاب، جمعت مرتبة في ثلاث سور أو أربع أو خمس مثلاً ككتب العقائد المدونة ولو أن عباداته من الطهارة والصلاة والزكاة والصيام والحج والدعاء والاذكار وضع كل منها في بضع سور أيضاً مبنية مفصلة ككتب الفقه المصنفة ولو أن آدابه وحكمه وفضائله الواجبة والمندوبة، وما يقابلها من الرذائل والاعمال المحرمة والمكروهة، أفردت هي وما تقتضيه من الترغيب والترهيب من المواعظ والنذر والامثال، الباعثة لشعوري الخوف والرجاء، فصلت في عشر سور أو أكثر ككتب الاخلاق والآداب المؤلفة ولو أن قواعد التشريعية، وأحكامه الشخصية والسياسية والحربية والمالية والمدنية، وحدوده وعقوباته التأديبية، رتبت في عدة سور خاصة بها كأسفار القوانين الوضعية ثم لو أن قصص النبيين والمرسلين وما فيها من العبر والمواعظ والسنن الالهية سردت في سورها مرتبة كدواوين التاريخ

= لو أن كل ماذكر وما لم يذكر من مقاصد القرآن التي أراد الله بها إصلاح شؤون البشر جمع كل نوع منها وحده كترتيب أسفار التوراة التاريخي التي لا يعلم أحد مرتبها، أو كتب العلم والفقه والقوانين، لفقد القرآن بذلك أعظم مزايا هدايته المقصودة بالقصد الاول من التشريع وحكمة التنزيل، وهو الاتعبد به واستفادة كل حافظ للكثير أو القليل من سورته - حتى القصيرة منها - كثيراً من مسائل الايمان والفضائل

والاحكام والحكم المنبثة في جميع السور ، لان السورة الواحدة لا تحوي في هذا الترتيب المفروض إلا مقصداً واحداً من تلك المقاصد، وقد يكون أحكام العلق او الحىض، فمن لم يحفظ الا سورة طويلة في موضوع واحد يتعبد بها وحدها، فلا شك انه يعلمها وأما سورة المنزلة بهذا الاسلوب الغريب ، والنظم العجيب ، فقد يكون في الآية الواحدة الطويلة والسورة الواحدة القصيرة ، عدة ألوان من الهداية ، وان كانت في موضوع واحد قترى في سورتي الفيل وقريش ذكر مسألتين تاريخيتين قد جعلتا حجة على مشركي قريش فيما يجب عليهم من توحيد الله وعبادته ، بما من عليهم من عنايته بحفظ البيت الحرام وأمنه وهو مناط عزهم وفخرهم وشرفهم، ومعقل حياتهم، ومجى تجارتهم ورزقهم

قلت إن القرآن لو أنزل بأساليب الكتب المألوفة المعهودة وترتيبها لفقد أعظم مزايا هدايته المقصودة بالقصد الاول . وأقول أيضاً إنه لو أنزل هكذا لفقد بهذا الترتيب أخص مراتب إعجازه المقصود بالدرجة الثانية . كلاً ان كل واحدة من المزيّتين مقصودة لذاتها، فالأولى أن يعبر عن المزية الاولى بالموضوع وعن الثانية بالشكل ، كاصطلاح المحاكم، فيقال لو كان القرآن مرتباً مبوباً كما ذكر لكان خالياً من اعظم مزاياه على غيره من الكتب شكلاً وموضوعاً

يُعلم هذا وذلك مما نبينه من فوائد نظمه وأسلوبه الذي أنزله به رب العالمين ، العليم الحكيم الرحيم ، وهو مزج تلك المقاصد كلها بعضها ببعض وتفريقها في السور الكثيرة، الطويلة منها والقصيرة، بالمناسبات المختلفة، وتكرارها بالعبارات البليغة، المؤثرة في القلوب ، الحركة للشعور ، النافية للسآمة والملل من المواظبة على ترتيلها بنغمت نظمه الخاص به ، وفواصله المتعددة القابلة لأنواع من التقني والنغم الذي يحرك في القلب وجدان الخشوع وخشية الاجلال للرب المعبود ، والعرفان بقدسه وكلامه ، والملاحظة لجماله وجلاله؛ والتعرض لتجلي أسمائه وصفاته، والتفكر في آيات مصنوعاته، والرجاء في رضوانه ورحمته ، والخوف من غضبه وعقوبته، والاعتبار بسننه في خلقه،

والقابلية لأنواع أخرى من الالتقاء الخطابي في الترغيب والترهيب ، والتعجب والتعجيب ، والتكريه والتحبيب ، والزجر والتأنيب ، واستنهام الانكار والتقير ، والتهمك والتوبيخ ، بما لا نظير له في كلام البشر من خطابة ولا شعر ، ولا رجز ولا سجع ، فهذا الاسلوب الرفيع في النظم البديع ، وبلاغة التعبير الرفيع ، كان القرآن كما ورد في معنى وصفه أنه لا تبلى جدته ، ولا تحلقة كثرة التريد (*) .
وحكمة ذلك وغايته تعلم مما وقع بالفعل ، وهاك بيانه بالاجمال :

﴿*﴾ المعنى المراد من الحديث هنا ان القرآن لا تنقضي عجائبه الدالة على انه من الله تعالى ، ولا يمل ويسأم من كثرة التلاوة ، ولا يخلق بطول الزمان ، وهو من خلق الثوب اذا بلي ، وأخلقه أبلاه ، وأصح ما ورد في هذا ما رواه ابن ابي شيبة في مسنده ومحمد ابن نصر وابن الأنباري في كتاب المصاحف والحاكم في المستدرک وصححه والبيهقي من حديث ابن مسعود مرفوعاً ولفظه « ان هذا القرآن مادة الله فاقبلوا من مادته ما استطعتم . ان هذا القرآن حبل الله والنور المبين ، والشفاء النافع ، عصمة لمن تمسك به ، ونجاة لمن اتبعه ، لا يزبغ فيستعيب ، ولا يعوج فيقوم ، ولا يخلق عن كثرة الرد ، فاتلوه فان الله تعالى يجرمكم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات ، اما اني لا اقول ﴿الم﴾ حرف ، ولكن الف ولا م وميم »

قوله لا يزبغ فيستعيب معناه لا يميل عن الحق فيطلب منه العتي اي الرجوع اليه قال الحاكم هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه بصالح بن عمر . اي ولم يخرجاه البخاري ومسلم بسبب ما قيل في صالح بن عمر في سنده ، وليس كذلك فان صالحاً قد خرّج له مسلم وانما تركاه بسبب شيخه ابراهيم بن مسلم الهجري (يفتحتين) الذي ضعفه الجمهور وما ضعفوه بطعن في صدقه او حفظه وانما وجدوا انه رفع عدة احاديث الى النبي (ص) هي موقوفة على عبد الله بن مسعود ، وكذا على عمر (رض) ولكن صرح سفيان بن عيينة بانه جاء ابراهيم هذا فاعطاه كتبه فصصح له المرفوع والموقوف بقوله هذا عن النبي « ص » وهذا عن عبد الله بن مسعود وهذا عن عمر ، والظاهر ان هذا الحديث مما رفعه سفيان ولذلك خرجه ابن ابي شيبة ومن ذكرنا مرفوعاً . وروي نحوه من حديث علي كرم الله وجهه واعتمده القاضي الباقلاني في كتابه اعجاز القرآن

الثورة والاقبال الذي أحدثه القرآن

في الامة العربية فسائر الامم

القرآن كتاب أنزله الله تعالى على قلب رجل أمي نشأ على الفطرة البشرية سليم العقل، صقيل النفس، طاهر الاخلاق، لم تملكه تقاليد دينية، ولا أهواء دنيوية، لاجل إحداث ثورة و انقلاب كبير في العرب فسائر الامم، يكتسح من العالم الانساني ما دنس فطرته من رجس الشرك والوثنية، الذي هبط بهذا الانسان من أفته الأعلى في عالم الارض، إلى عبادة مثله وما هو دونه من هذه المخلوقات، وما أفسد عقله وذهب باستقلال فكره من البدع الكنسية، والتقاليد المذهبية، التي أحاطت توحيد الانبياء الاولين شركا، وحققهم باطلا، وهدايتهم غواية - وما أفسد بأسه، وأذل نفسه، وسلبه إرادته، من استبداد الملوك الظالمين، والرؤساء القاهرين ثورة تحرر العقل البشري والارادة الانسانية من رق المتحليين لأنفسهم صفة الربوبية، او النيابة عن الرب الخالق تعالى في التحكم والهيمنة والسيطرة على قلوب اناس وعقولهم، والتصرف في إراداتهم وأبدانهم وأموالهم، فيكون بهذا العتق كل امرئ اهتدى به حراً كريماً في نفسه، عبداً خالصاً لربه وإلهه، بوجه قوام العقلية والبدنية إلى تكميل نفسه وجنسه

مثل هذه الثورة الانسانية لا يمكن أن تحدث إلا على قاعدة القرآن في قوله تعالى (١٣ : ١١) إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرَ أَمْرَهُمْ

وكيف يكون تغيير الاقوام لما بأنفسهم من العقائد والاخلاق والصفات الثابتة، التي طبعتها عليها العبادات الموروثة والعادات الراسخة ؟

هل يكفي في ذلك قيام مصلح فيهم يضع لهم كتابا تعليميا جافا ككتب الفنون يقول فيه : انكم أيها الناس ضالون فاسدون، ومضلون مفسدون، فاعملوا بهذا الكتاب

تهتدوا وتصلحوا ، أو قانونا مدنيا يقول في مقدمته نفذوا هذا القانون تحفظ حقوقكم ، وتعزأمتكم وتقوّدولتكم ؟ أنى وقد عهد من الناس الفاسدين المفسدين ، سوء التصرف بكتب أنبيائهم المرسلين ، وإهمال قوانين حكائهم المصلحين ، كما فعل أهل الملل الاولون ، والمسلحون المتأخرون ؟

كلا ، إنما توضع القوانين للحكومات المنظمة ذات السلطان والقوة التي تكفل تنفيذها ، وأنى لمحمد ﷺ فعل هذا في الأمة العربية العاتية عن كل سيطرة ونظام ، وقد بعث بالحجة والبرهان ، فريداً وحيداً لا عصبة له من قومه ولا سلطان ؟ على أنه جاء بأعدل الأصول التي تبني عليها أمته قوانينها ، عند تكوين دولتها في الأحوال الملائمة لها ، جاء لإصلاح الاخلاق والطباع ، بالحجة القيمة وطرق الاقتناع ، والخضوع لوازع الاعتقاد النفسي ، دون وازع الحكم القهري ، ليغير الناس ما بأنفسهم بالاختيار ، لا بالقوة والاجبار ، فيغير الله ما بهم بمقتضى سنته في نظام الاجتماع . وقد نطق القرآن بأن الرسول إنما هو مبلغ ومذكر ، غير جبار على الناس ولا مسيطر ، كلا ان هذه الثورة ما كان يمكن أن تحدث إلا بما حدثت به ، وهو تأثير هذا القرآن في أنفس الأمة العربية التي كانت أشد الأثم البدوية والمدنية استعداداً فطرياً لظهور الاسلام فيها ، كما بيناه في كتابنا (خلاصة السيرة المحمدية) وسنلم به قريباً

ذلك بأن من طباع البشر في معرفة الحق والباطل والخير والشر ، والعمل بمقتضى المعرفة وان خالف مقتضى الاهواء والشهوات ، والتقاليد والعادات ، ان مجرد البيان والاعلام والامر والنهي لا يكفي في الحل على التزام الحق ونصره على الباطل ، ولا في أداء الواجب من عمل الخير وترك الشر إذا عارض المقتضي العلمي لهما ما أشرنا اليه آنفاً من الموانع النفسية والعملية ، إلا في بعض الافراد من الناس ، دون الجماعات والاقوام . بل مضت سنة الله في تثبيت الحق والخير في النفس ، وصدور آثارهما عنها بالعمل ، أنه يتوقف على صيرورة الايمان بها اذعاناً وجدانياً حاكماً على القلب ،

راجحاً على ما يخالفه من رغب ورهب، وأمل وألم، وإنما يكون هذا في الأحداث
بالتربية العلمية العملية، والأسوة الحسنة لهم فيمن ينشؤون بينهم من الوالدين
والأقربين والمعاشرين

وأما كبار السن فلا سبيل إلى جعل الإيمان بالحق المطلق والخير العام اذعاناً
وجدانياً لجمهورهم إلا بالاسلوب الذي نزل به القرآن، بل بالقرآن الممتاز بهذا الاسلوب،
فقلب به طباع الكحول والشبان وأخلاقهم وتقاليدهم وعاداتهم، وحولها إلى أضدادها
علماً وعملاً بما لم يعهد له نظير في البشر، فكان القرآن آية خارقة للمعهود من سنن
الاجتماع البشري في تأثيره، بالتبع لكونه آية معجزة للبشر في لغته وأسلوبه،
كما كان آية معجزة في إصلاحه للامم بهديه وتعليمه

﴿ اعتبار الموازنة بين تأثير القرآن في العرب والتوراة في بني اسرائيل ﴾

واعتبر هذا بيني اسرائيل سلالة النبيين، فان كل ما رأوه بمصر من آيات
موسى عليه السلام، ثم ما رأوه في برية سيناء ومدة اثني فيها، ومن عناية الله تعالى
بهم، ومن سماعهم كلام الله تعالى بأذانهم في لهب النار المشتعلة على ما ترويه
توراتهم - ولم يثبت عندنا التشكيم إلا لنبيهم - لم يتغير بذلك كله ما كان
بأنفسهم من تأثير الوثنية المصرية وخرافات الراسخة في قلوبهم، ولا من تأثير
السياسة الفرعونية المستبدة في أخلاقهم، فقد عذبوا موسى عذاباً نكراً، وعاندوه
في كل ما كان يأمرهم به، وعبدوا صنم العجل الذهبي في أثناء مناجاته لربه،
حينئذ إلى ما كان من عبادة مستعبدتهم الفرعونيين للعجل (ايلس) حتى وصفهم الله
في التوراة بالشعب الصلب الرقة، وهو كناية عن البلادة والعناد، وعَصَلَ
الطباع^(١) المانع من الانقياد، وظل ذاك كذلك إلى أن باد ذلك الجيل الفاسد

« ١ » أي اعوجاجها مع صلابتها من عصص الشيء « من باب فرح » اعوج

في صلابة فهو عصص « ككتف » وأعصص والجمع عصاص كسهام

بعد أربعين سنة ، ونشأ فيهم جيل جديد ممن كانوا أطفالا عند الخروج من مصر
وممن ولد في التيه ، أمكن أن يعقلوا التوحيد والشريعة ، وأن يعملوا بها ، ويجاهدوا
في سبيلها ، وانما كان ذلك بعد موت موسى عليه السلام

فأين بنو اسرائيل من أصحاب محمد ﷺ الذين تربوا بسمع القرآن وترتيله
وتدبره ، في رسوخهم في الايمان وصبرهم على أذى المشركين واضطهادهم اياهم ليفتنوهم
عن دينهم ، ثم مجاهدتهم لهم عند الامكان بعد الهجرة ، ومجاهدة أعوانهم من
أهل الكتاب (اليهود) وتطهيرهم الحجاز وسائر جزيرة العرب من كفر الفريقين
في عهده ﷺ وقد كانت مدة البعثة الحمديّة كلها عشرين سنة أي نصف مدة
التيه، وكان ذهب نصفها في الدعوة، وتبليغ الدين للأفراد بمكة، والنصف الآخر
هو الذي تم فيه الانقلاب العربي من تشريع وتنفيذ وجهاد وفتح وتأسيس

ثم تأمل ما كان من تدفقهم هم أنفسهم كالسيل الآتي ^١ على الافطار من
تواحي الجزيرة كلها ، والظهور على ملكي قيصر وكسرى أعظم ملوك الارض،
وإزالة الشرك والظلم منهما ، ونشر التوحيد والحق والعدل فيهما، ودخول الامم
في دين الله أفواجا مختارين اهتداء بهم، وعنايتهم بتعلم العربية بالتبع لعنايتهم بالدين،
حتى فتحوا هم وتلاميذهم نصف كرة الارض في زهاء نصف قرن، وكانوا مضرب
المثل في الرحمة والعدل ^٢ وموضع الحيرة لعلماء الاجتماع وقواد الحرب (٣)

« ١ » الآتي بالتشديد كقوي والآتادي الغريب الذي يأتي من حيث لا يعلم.

« ٢ » قال الفيلسوف الفرنسي غوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب

والاسلام: ما عرف التاريخ فاتحا أعدل ولا أرحم من العرب

(٣) في مقدمتهم نابليون بونابرت أشهر قواد الحرب في العالم وهو الذي قال ان

العرب فتحوا نصف العالم في نصف قرن ، وصرح بأنه يدين بالاسلام كما تراه في

علاوات كتاب حاضر العالم الاسلامي للامير شكيب (ص ٢٤ جزء أول طبعة ثانية)

وأنى يبلغ الشعب الذي وصفه ربه في كتابه بالشعب الصلب الرقبة —
 درجة الذين وصفهم رب العالمين بقوله (٢٩: ٤٨) مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ
 أَشْدَّ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا
 مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا) الآية . فهذا عمر بن الخطاب أمير المؤمنين الذي نشأ
 وشب على الشدة والقسوة في الجاهلية حتى قيل انه واد بنتاً له ، صار بالاسلام من أرحم
 الرحماء بالناس ، حتى انه يطبخ الطعام هو وزوجه ليلاً لامرأة فقيرة في الخوض
 وبعلمها حاضر لا يساعدهما ، ولم يكن يعلم انه أمير المؤمنين

لاجرم أن سبب هذا كله تأثير القرآن بهذا الاسلوب الذي نراه في المصحف
 فقد كان النبي ﷺ يجاهد به الكافرين كما أمره الله بقوله (٥٢: ٢٥) فَلَا تَطِيعِ
 الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا) ثم كان به يربي المؤمنين ويزكيهم ،
 كما قال الله تعالى (١٥٩: ٣) فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْ تُكُونَ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ
 الْقَلْبِ لَافْتَضُوا مِنْ حَوْلِكَ ، فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ
 فِي الْأَمْرِ) الآية وبهدياته والتأسي بمبلغه ﷺ ربوا الامم وهذبوها ،
 وقلما يفرؤه أحد كما كانوا يقرءون ، إلا ويهتدي به كما كانوا يهتدون ، على تفاوت
 في الاستعداد النفسي واللغوي واختلاف الزمان لا يخفى .

المسلمون ارحم البشر بهداية القرآن

وكيف لا يكون المؤمنون بالقرآن أرحم الناس وقد امتن الله عليهم به في قوله
 (٥٧ : ١٠) يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ
 لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ)

وقد قلنا في الكلام على الرحمة من هذه المزايا الاربع للقرآن من تفسير المنار
 (جزء ١١) ما نصه :

(الرابعة الرحمة للمؤمنين) وهي ما تشمره لهم هداية القرآن وتفيضه على قلوبهم من رحمة ربهم الخاصة، وهي صفة كمال من آثارها اغاثة الملهوف، وبذل المعروف، وكف الظلم، ومنع التعدي والبغي، وغير ذلك من أعمال الخير والبر، ومقاومة الشر، وقد وصف الله المؤمنين بقوله (رحماء بينهم) وبقوله (وتواصوا بالصبر وتواصوا بالرحمة) وهذه الصفات الأربع مرتبة على سنة الفطرة البشرية فالموغظة التعاليم التي تشعر النفس بنقصها وخطر أمراضها الاعتقادية والخلقية، وتزعجها إلى مداواتها وطلب الشفاء منها، والشفاء تخليّة، يتبعها طلب التحلية، بالصحة الكاملة، والعافية التامة، وهو الهدى، ومن ثمراته هذه الرحمة التي لا توجد على كمالها إلا في المؤمنين المهتدين، ولا يحرمها إلا الكافرون الماديون، حتى قال بعضهم أنها ضعف في القلب، يجعل صاحبه كالمضطّر إلى الاحسان والعطف، وما هذا القول إلا من فساد الفطرة وقسوة القلب، وفلسفة الكفر، فلقد كان أشجع الناس وأقوام بدناً وقلباً، أرحم الناس وأشدّهم عطفاً، وهو سيد ولد آدم محمد رسول الله وخاتم النبيين، الذي وصفه ربه بما وصف به نفسه من قوله (بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ) وقوله (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) وكذلك كان أصحابه (رض) حتى كان من يوصف بالشدة والقسوة كعمر بن الخطاب (رض) صار من أرحم الناس وسيرته في ذلك معروفة كما أشرنا إليه آنفاً

وقد قال ﷺ « لا تُنزِع الرحمة إلا من شقي » رواه أبو داود والترمذي واللفظ له عن أبي هريرة (رض) وقد صح عنه ﷺ أنه كان إذا سمع وهو في الصلاة بكاء طفل تجوز في صلاته أي اختصرها وخففها رحمة به وبأمه، وروى ابن اسحاق أن بلالا رضي الله عنه مرّ بصفية وبابنة عم لها على قتلى قومها اليهود بعد انتهاء غزوة قريظة فصكت ابنة عمها وجهها وحثت عليه التراب وهي تصيح وتبكي، فقال ﷺ له « أنزعت الرحمة من قلبك حين تمرّ بالمرأتين على

قتلها» وجاء اعرابي اليه صلى الله عليه وسلم فقال : انكم تقبلون أولادكم وما قبلهم . فقال له ﷺ «أو أملك لك (١) أن نزع الله الرحمة من قلبك؟» رواه البخاري ومسلم من حديث عائشة [رض] والمراد إني لا أملك ان أشعرك بما لا تشعر به لأن الله نزع الرحمة من قلبك فأجعلك رحيمًا

بل كان ﷺ شديد الرحمة بالبهائم والطير والحشرات وطالما أوصى بها ولا سيما صغارها وأمهاتها . جاءه مرة رجل وعليه كساء وفي يده شيء قد التفت عليه فقال يا رسول الله انني لما رأيتك أقبلتُ ففررت بغيضة شجر فسمعت فيها أصوات فراخ طائر فأخذتهن فوضعتن في كسائي، فجاءت أمهن فاستدارت على رأسي، وكشفت لها عنهن فوقعن عليهن : فلففتها معهن بكسائي فهن أولاء معي ، فقال «ضعهن» قال : ففعلت فأبت أمهن إلا لزومهن ، فقال ﷺ «أتعجبون لرحمة أم الافراخ بفراخها؟ قالوا نعم» قال : والذي بعثني بالحق لله أرحم بعباده من أم الافراخ بفراخها ، ارجع بهن حتى تضعهن حيث أخذتهن وأمهن معهن » فرجع بهن . رواه ابو داود من حديث عن عامر الرامي (رض) وروى مالك والبخاري ومسلم وابو داود من حديث أبي هريرة مرفوعا حديثين خلاصتهما ان الله غفر لرجل ولا امرأة بغي (أي مومس) لأن كلامهما رأى كلبا قد اشتد به العطش فرحمه وأخرج له الماء من البئر بخفه فسقاه . قالوا له يا رسول الله إن لنا في البهائم أجراً ؟ فقال « في كل كبد رطبة أجر» ورواه احمد عن عبد الله بن عمر وسراقة بن مالك بلفظ « في كل ذات كبد حررى أجر »

وقال ﷺ «الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من في الارض يرحمكم من في السماء» رواه الترمذي وابو داود من حديث عبد الله بن عمرو (رض)

(١) قوله أو أملك همزته للاستفهام الانكاري والواو مفتوحة وما بعدها معطوف على محذوف تقديره ان تكون هكذا وأملك لك من الله شيئاً غيره وقوله أن تزع بفتح همزة أن وتقدير لأم التعليل أو بآء السببية قبلها أي بأن نزع الرحمة من قلبك

ورويناه مسلسلا بالأولية من طريق أستاذنا الشيخ محمد ابي المحاسن القاوقجي وقال **عليه السلام** «إن لله مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والانس والبهائم والهوام فيها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحوش على ولدها، وآخر الله تسعا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة — وفي رواية — ولو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم يئأس من الجنة، ولو يعلم المؤمن بكل ما عند الله من العذاب لم يأمن من النار» رواه البخاري ومسلم والترمذي اهـ

هذا ولو كان القرآن بأسلوب الكتب العلمية والقوانين الوضعية لما كان له ذلك التأثير الذي غيّر ما بأنفس العرب فغيروا به أُمم العجم، فكانوا كلهم كما وصفهم الله عز وجل بقوله (٣ : ١١٠) كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ، وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ، مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ) ولم يكن عند العرب شيء من العلم بسياسة الامم وإدارتها إلا هذا القرآن، والاسوة الحسنة بآخيه ومنفذه الاول عليه الصلاة والسلام، ولن يعود للمسلمين مجدهم وعزهم الا اذا عادوا إلى هدايته وتجديد ثورته، ولعنة الله على من يصدونهم عنه زاعمين استغناءهم عن العمل به وبسنة ميئنه - بكتب مشايخهم الجافة الخاوية من كل ما يحیی الايمان، ويعلي الهمم ويزكي الأنفس ويبعث على الجهاد بالانفس والاموال اما وحق القرآن علينا، والله لم ينزل غيره اليانا، انه لا يخفينا عن تدبره والاهتداء به، ولا عن فهم سورة واحدة من سوره، جميع ما في الارض من الكتب المنزلة ولا من الكتب المصنفة وما فتى الشيطان هذه الأمة بشيء كما فتنتهم بصددهم عن تهذيب أنفسهم وتزكيتها بالقرآن والسنة الميئنه له، وعن دعوة جميع أهل الملل به اليه، وقد بينا لك الفرق بين تأثيره وتأثير التوراة، وهاك إجمالاً لما فعله في الامة العربية ثم في العالم

(فعل القرآن في أنفس الأمة العربية)

وإحداثها به أكبر ثورة عالمية

تهود أناس من العرب وتنصر منهم أناس آخرون من قبل الإسلام بقرون ، وكان كل منهم يمدح دينه ويدعو اليه بالطبع ، فلم يعاد الجمهور أحد منهم أو يحترقه لدينه ، بل كان لزعماء اليهود المستعربين وشعراء النصارى من العرب عندهم مكانتهم اللاتقة بهم كأمثالهم من المشركين ، ولم يكن لليهودية ولا للنصرانية أدنى صولة في مكة ، ولا خافهارؤساء قريش على زعامتهم الدينية ولا الدنيوية ، فلما قام فيهم محمد بن عبد الله يتلو عليهم القرآن باسم الله ، زلزلت الأرض بهم زلزالها ، وثاروا عليه ثورتهم الصغرى ، ثم ثارت الأمة به ومعه ثورتها الكبرى ، وهي التي بدلت الأرض غير الأرض ، والقلوب غير القلوب ، والعقول غير العقول ، وقلبت نظام الاجتماع العام قد كان فعل القرآن في أنفس العرب وإحداثه تلك الثورة الكبرى فيهم على نوعين : أولهما أحدثه من الزلزال في المشركين . وثانيهما تزكيتهم للمؤمنين ونزعه كل ما كان بأنفسهم من جمل وظلم وفساد ، حتى أعقب ما أعقب من الإصلاح في العالم كله ، وأمهّد ليان ذلك بكلمة في حالهم في عصر ظهور الاسلام بينما مراراً أن الله تعالى قد أعد الأمة العربية ولا سيما قريش ومن حولها لما أراد من الإصلاح العام للبشر بكونهم كانوا أقرب الأمم الى سلامة الفطرة ، وأرقام لغة في التعبير والتأثير ، وأقوام استقلالاً في العقل والارادة ، لعدم وجود ملوك مستبدين فيهم يضعفون إرادتهم ويفسدون بأنفسهم ، ويدلون أنفسهم بالقوة القاهرة ، ولا رؤساء دين اولي سلطان روحي يسيطرون على عقولهم وقلوبهم ، ويتحكمون في عقائدهم وأفكارهم ، ويسخرونهم لشهواتهم ، وكانت جميع الأمم ، ذات الحضارة والملل ، مستعبدة مستذلة لزعماء هاتين الرياستين ، حاش العرب فلما بعث فيهم محمد ﷺ بهذا القرآن الداعي الى الحق وإلى صراط مستقيم ،

كانوا على أتم الاستعداد الفطري لقبول دعوته، ولكن رؤساء قريش كانوا على مقربة من ملوك شعوب العجم: في التمتع بالثروة الواسعة، والعظمة الكاذبة، والشهوات الفاتنة، والسرف في الترف، وعلى حظ مما كان عليه رؤساء الاديان فيها من المكانة الدينية بسد انتهم لبيت الله الحرام، الذي أودع الله تعظيمه في القلوب من عهد ابراهيم واسماعيل عليهما السلام - فرأوا ان هذا الدين الحر يوشك أن يسلبهم الانفراد بهذه العظمة الموروثة، وقد يفضل عليهم بعض الفقراء والموالي، وانه يحكم عليهم وعلى من يفاخرون بهم من آبائهم بالكفر والجهل والظلم والفسوق ويشبههم بسائمة الانعام - فوجهوا كل قواهم ونفوذهم الى صد محمد عن دعوته ولو بتسليكه عليهم، وجعله أغنى رجل فيهم، ولكن تعذر إفقاعه بالرجوع عنها بالترغيب، حتى التمويل والتمليك، فقد أجاب عمه ابا طالب لما عرض عليه ما أرادوه من ذلك بتلك الكلمة العليا «يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الامر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته» حينئذ أجمعوا امرهم على صدّه عن تبليغها بالقوة والحيلة بينه وبين جماهير الناس في الاسواق والجامع والبيت الحرام، وبصد الناس عنه أن يأتوه ويستمعوا له، وباضطهاد من اتبعه بالدعوة الفردية الا أن يكون له من يحميه منهم لقرابة او جوار او ذمة، فهو لاء الرؤساء المترفون المسرفون المتكبرون، كانوا أعلم الناس بصدق محمد، وفيهم نزل قوله تعالى (٦ : ٣٣ قَدْ تَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ، فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ يَحْجِدُونَ) فقد كابروا الحق بغياً واستكباراً للحرص على رياستهم وشهواتهم، وكانوا أجدر العرب بقبول دعوة القرآن لأنهم أدق الناس لها فهماء، وأوسعهم باعجازها علماً، ولكنهم عتوا عنها عتواً (٢٧ : ١٤ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا) كفرعون وقارون وهامان في آيات موسى .

فعل القرآن في أنفس مشركي العرب

قلنا ان فعل القرآن في أنفس العرب كان على نوعين : فعله في المشركين وفعله في المؤمنين ، فالأول تأثير روعة بلاغته ، ودهشة نظمه وأسلوبه، الجاذب لفهم دعوته والامان به . إذ لا يخفى حسنها على أحد فهمها ، وكانوا يتفاوتون في هذا النوع تفاوتاً كبيراً لاختلاف درجاتهم في بلاغة اللغة وفهم المعاني العالية فهذا التأثير هو الذي أنطق الوليد بن المغيرة المخزومي بكلمته العالية فيه لأبي جهل التي اعترف فيها بأنه الحق الذي يعلو ولا يعلو ، والذي يحطم ما تحته ، وكانت كلمة فائضة من نور عقله وصميم وجدانه ، وما استطاع ان يقول كلمة أخرى في الصد عنه بعد إلحاح أبي جهل عليه باقتراحها إلا بتكافل لكثرة عقله ووجدانه ، وبعد ان فكر وقدر ، ونظرو عبس وبسر ، وأدبر واستكبر ، كما تقدم (في ص ٩٢) وهذا التأثير هو الذي كان يجذب رؤس أولئك الجاحدين المعاندين ليلاً لاستماع تلاوة رسول الله ﷺ في بيته ، على ما كان من نهيم عنه ونأيهم عنه ، ونواصيهم وتقاسمهم لا يسمعون له ، ثم كانوا يتسللون فرادى مستخفين ، ويتلاقون في الطريق متلاومين .

وهذا التأثير للقرآن هو الذي حملهم على منع أبي بكر الصديق (رض) من الصلاة والتلاوة في المسجد الحرام ، لما كان لتلاوته وبكائه في الصلاة من التأثير الجاذب إلى الاسلام ، وعللوا ذلك بأنه يقتن عليهم نساءهم وأولادهم ، فأتخذ مسجداً له بفناء داره فطفق النساء والاولاد الناشئون ينسلون من كل حذب إلى بيته ليلاً لاستماع القرآن ، فنهاه أشراف المشركين بأن العلة لا تزال ، وانهم يخشون أن يغلبهم نساؤهم وأولادهم على الاسلام ، حتى أُلجئوه إلى الهجرة إلى الهجرة فهاجر فلقي في طريقه ابن الدغنة^(١)

«١» هو بضم الدال المهملة المشددة عند اهل اللغة وكسرها عند رواة الحديث وكسر الغين المعجمة ، وفي تخفيف النون وتشديدها روايتان

سيدقومه فسأله عن سبب هجرته فأخبره الخبر، وهو يعرف فضائل أبي بكر من قبل الاسلام فأجابه وأعادته إلى مكة بجواره ، أي حمايته ومنعه منهم .
 وخبره هذا رواه البخاري في باب الهجرة من صحيحه وفيه ما نصه : فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة (أي أجازته) وقالوا لابن الدغنة مر أبا بكر فليعبد ربه في داره ، فليصل فيها وليقرأ ما شاء ، ولا يؤذينا بذلك ولا يستملن به ، فانا نمحشى ان يقتلن نساءنا وأبناءنا^(١) فقال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر ، فابث أبو بكر بذلك يعبد ربه في داره ولا يستملن بصلاته ولا يقرأ في غير داره ، ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجداً بفناء داره وكان يصلي فيه ويقرأ القرآن فيتقذف عليه^(٢) نساء المشركين وأبنائهم ، وهم يعجبون منه وينظرون اليه ، وكان أبو بكر رجلاً بكاء لا يملك عينه اذا قرأ القرآن ، وأفرغ ذلك أشرف قريش من المشركين ، فأرسلوا إلى ابن الدغنة فقدم عليهم فقالوا إنا كنا أجرنا أبا بكر بجوارك ، على ان يعبد ربه في داره ، فقد جاوز ذلك فابتنى مسجداً بفناء داره ، فأعلن بالصلاة والقراءة فيه ، وإنا قد خشينا ان يقتلن نساءنا وأبناءنا فانهم ، فان أحب ان يقتصر على ان يعبد ربه في داره فعل ، وإن أبي إلا ان يعلن بذلك فسله أن يرد اليك ذمتك ، فانا قد كرهنا ان نمخرك^(٣) ولنا مقرين لأبي بكر الاستعلان . قالت عائشة فأتى ابن الدغنة إلى أبي بكر فقال : قد علمت الذي عاقدت لك عليه ، فاما أن تقتصر على ذلك وإما ان ترجع إلي ذمتي ، فاني لأحب أن تسمع العرب اني أخفرت في رجل عقدت له ، فقال أبو بكر فاني أرد اليك جوارك ، وأرضى بجوار الله عز وجل . اهـ

«١» اي يحولهم عن دينهم الي دينه بتأثير قراءته للقرآن وخشوعه وبكائه فيها

«٢» من التقذف اي يتدافعون ويزدحمون فيقذف بعضهم بعضا عليه ، وفي

رواية فينقذف بالنون . و يروي يتقصف ويتقصف عليه .

(٣) أخفرت نقض عهده وأبطله

قلنا إن هذا التأثير هو الذي حملهم على صد النبي ﷺ بالقوة عن تلاوة القرآن في البيت الحرام وفي أسواق الموسم ومجامعهم ، حتي انهم كانوا يقذفونه بالحجارة ، وهو سبب توأصهم بما حكه الله تعالى عنهم في قوله (٤١: ٢٦) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ

وقد أدرك هذا أحد فلاسفة فرنسة (١) فذكر في كتابه قول دعاة النصرانية إن محمدا لم يأت بآية على نبوته كآيات موسى وعيسى ، وقال في الرد عليهم : ان محمدا كان يقرأ القرآن خاشعا أوها متألها فتفعل قراءته في جذب الناس إلى الايمان ما لم تفعله جميع آيات الانبياء الاولين (أقول) ولو كان القرآن ككتب القوانين المرتبة وكتب الفنون المبوبة ، لما كان لقليله وكثيره من التأثير ما كان لسوره المنزلته ومن الشواهد الكثيرة على صحة قول هذا الفيلسوف ماروي أن كبراء قريش اجتمعوا فقالوا انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر فآيات هذا الرجل الذي قد فرق جماعتنا وشتت امرنا وعاب ديننا ، فليكامه ولينظر ماذا يرد عليه ، فقالوا ما نعلم أحدا غير عتبة بن ربيعة ، فقالوا أنت يا أبا الوليد - فجاء النبي ﷺ فكامه فيما قالوا عنه ، وما يخافون من عاقبة أمره أن يفضي إلى قيام بعضهم على بعض بالسيف ، وعرض عليه كل ما يمكن أن يريده من المال والرياسة والتزوج بعشر من خير نساء قريش ، حتى إذا أتم كلامه تلا عليه النبي ﷺ سورة (حم السجدة) او فصلت (٤١) حتى بلغ قوله تعالى (١٣) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ) قام عتبة فأمسك على فيه وناشده الرحم أن يكف عنه . فلما زجع اليهم وجدوه متغيرا فقالوا قد صبا (أي مال) إلى محمد وقص عليهم خبره وما وقع من

(١) رأيت شيخنا الاستاذ الامام محمد عبده يطالع في كتاب قال لي انه لأحد فلاسفة فرنسة وأسمعي منه ما ذكرت خلاصته هنا ولم أحفظ اسم الكتاب ولا اسم مؤلفه منه ، وقال ان الكلمة التي وصف بها النبي (ص) في حال القراءة تدل على أنه كان يكون متأثرا في نفسه ومؤثرا في غيره ، وأنه لا يعرف كلمة عربية بمعنى هذه الكلمة الفرنسية

للعرب في قلبه من قراءته. ومما قاله: وقد علمتم ان محمدا اذا قال شيئا لم يكنذب، فحفت أن ينزل بكم العذاب. وفي رواية انه قال: كلمني بكلام والله ماسمعت أذناي بمثله قط فما دريت ما أقول له اه مختصر من رواية المحدثين وهو مفصل في السيرة النبوية

كان كل ما يطلبه النبي ﷺ من قومه أن يمكنوه من تبليغ دعوة ربه بتلاوة القرآن على الناس إذ قال تعالى مخاطبا له (١٩:٦) قُلْ أَى شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً؟ قُلِ اللّٰهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وَأُوحِيَ إِلَىٰ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأَنَّذِرَ لِمَن بِهِ وَمَن بَلَغَ) أي وأنذر به كل من بلغه من غيركم من الناس، وقال في آخر سورة النمل (٩١:٢٧) إِنَّمَا أَمَرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَ مَهَا وَلَهُ كُلُّ شَىْءٍ، وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ٩٢ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ: فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَأِنَّمَا يَهْتَدِ لِنَفْسِهِ، وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ (٩٢) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلّٰهِ سِيرُكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ

ان رؤساء قريش عرفوا من قوة جذب الناس إلى الاسلام بوقعه في أنفسهم ما لم يعرفه غيرهم، وعرفوا انه ليس لجمهور العرب مثل ما لهم من أسباب الجحود والمكابرة، فقال لهم عمه ابو لهب من أول الامر: خذوا على يديه، قبل أن يجتمع العرب عليه « ففعلوا. وكان من ثباته ﷺ على بث الدعوة واحتمال الأذى ما أفضى بهم إلى الاضطهاد وأشد الايذاء له ولمن يؤمن به، حتى ألجؤهم إلى الهجرة بعد الهجرة، ثم اجماع الرأي على قتله، لولا أن خرج من وطنه مهاجرا، ثم صاروا يقاتلونه في دار هجرته وماحولها، وينصره الله عليهم، إلى أن اضطروا إلى عقد الصلح معه في الحديبية سنة ست من الهجرة. وكان أهم شروط الصلح السماح للمؤمنين بمخالطة المشركين، وهو الذي كان سبب سماعهم للقرآن، ودخولهم بتأثيره في دين الله أفواجا، فكان انتشار الاسلام في أربع سنين بالاسلم الامان، أضعاف انتشاره في ست عشرة سنة من أول الاسلام

فعل القرآن في أنفس المؤمنين

كان كل من يدخل في الاسلام قبل الهجرة يلقن منازل من القرآن - ليعبأ الله بتلاوته - ويعلم الصلاة ولم يفرض في مكة من أركان الاسلام غيرها، فبرئ ما يحفظه في صلاته اقتداء بالنبي ﷺ إذ فرض الله عليه التهجّد بالليل من أول الاسلام، قال تعالى في أول سورة المزمل ٧٣ (يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا) قال في آخرها (إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِّ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ ، وَاللَّهُ يَقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عِلْمَ أَنْ لَنْ تَحْصُوهُ فَنَابَ عَلَيْكُمْ ، فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ) أي في صلاة الليل وغيرها ، ثم ذكر الاعذار المانعة من قيام الليل كله ما كان منها في ذلك العهد كل مرض والسفر ، وما سيكون بعد سنين وهو القتال في سبيل الله

ومما ورد في صفة الصحابة (رض) ان الذي كان يمر ببيوتهم ليلا يسمع منها مثل دوى النحل من تلاوة القرآن ، وقد غلا بعضهم فكان يقوم الليل كله حتى شكا منهم نساؤهم فنهاهم النبي ﷺ عن ذلك، وكان هو يصلي في كل ليلة إحدى عشرة ركعة يوتر بواحدة منها ، وما قبلها متى متى، وكان هو يطيل قيهن حتى تورمت قدماء من طول القيام فأنزل الله عليه مرّ فيها ومسلها (١: ٢٠ طه ٢ ما أنزلنا عليك القرآن لتشتقى) الخ

قريبة الصحابة التي غيرت كل ما كان بأنفسهم من مفاصد الجاهلية، وزكتها تلك التزكية التي أشرنا إليها آنفاً، وأحدثت أعظم ثورة روحية اجتماعية في التاريخ،

إنما كانت بكثرة تلاوة القرآن في الصلاة وفي غير الصلاة وتدبره ، وربما كان أحدهم يقوم الليلة بآية واحدة يكررها متدبراً لها ، وكانوا يقرءونه في كل حال حتى مستقلقين ومضطجعين كما وصفهم الله بقوله (١٩١: ٣) الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم) وأعظم ذكر الله تلاوة كتابه المشتمل على ذكر أسمائه الحسنى ، وصفاته المقدسة ، وأحكامه وحكمه ، وسننه في خلقه ، وأفعاله في تدبير ملكه ، كما تقدم

وقد وصف الله تعالى فعل القرآن في هؤلاء المؤمنين بقوله (٣٩ : ٢٣) الله نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانًى تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ) الآية

ولو كان القرآن ككتب القوانين والفنون لما كان لتلاوته كل ذلك التأثير في قلب الطباع ، وتغيير الاوضاع ، بل لكانت تلاوته تمل فتترك ، فأسلوب القرآن الذي وصفناه آنفاً من أعظم أنواع إعجازه اللغوي ، وتأثيره الروحي ، ومن ارتاب في هذا فينظر في المسائل التي تشتمل عليها السورة منه وليحاول كتابتها نفسها أو مثلاً ، بأسلوب تلك السورة ونظمها أو أسلوب سورة أخرى ، كالسور التي يتكرر فيها الموضوع الواحد بالاجمال الموجز تارة وبعض التفصيل تارة وبالاطناب فيه أخرى ، كالاختبار بقصص الرسل مع أقوامهم في سور المفصل (كالذاريات والقمر والحاقة) وفيما فوقها (كالؤمنون والشعراء والنمل) وفيما هو أطول منها (كالاعراف وهود) ثم لينظر ما يفيض اليه عجزه من السخرية ، والتكرار الملول ، الذي يفتى منه الذوق غيائنا ، تمجج القلوب وتستفرغه استفرغاً

وقد بين غوستاف لوبون في كتابه (روح الاجتماع) ان تكرار الدعوات

الدينية والسياسية والاجتماعية في الخطب والمقالات التي تثير الجماعات وتدفعهم (بتشديد العين تدفعهم بعنف) إلى الانهماك والتفاني فيها دعاً - هو الذي يثبتها في القلوب ، ولذلك يعتمد عليه خطباء السياسة ورؤساء الاحزاب ومؤسسوها ، وكذلك التجار وغيرهم فيما ينشرونه من الاعلانات في الصحف ويعلقونه في الشوارع ، (وقول) ما كان محمد ولا أحد من أهل عصره يعلمون هذا ، ولكن الله يعلم من طباع الجماعات والاقوام، فوق ما يعلمه حكماء عصرنا وسائر الاعصار، وإنما القرآن كلامه ، وليس فيه من التكرار ، إلا ماله أكبر الشأن في انقلاب الافكار ، وتغيير ما في النفس من العقائد والاخلاق ولوجعت أبلغ خطب رجال السياسة التي أحدثت التأثير في أحزابهم وقرئت بعد ذلك مرارا قليلة لسارع الملل إلى نفس كل قارىء حتى أتباع ذلك الخطيب أنفسهم ، وقراءة القرآن لا يملها أحد يفهم معانيها ، ويذوق حلاوة أسلوبها

ألا وإن تغليب القلوب والافكار ، لأعسر من فلق الصخور وتحويل الجبال ، وقد ضرب الله المثل لهذا بقوله (٢١: ٥٩) لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ، وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) وهكذا كان تأثير القرآن في العرب فهذا مثلهم ، وأما مثل بني اسرائيل بعد رؤيتهم آيات الله لموسى فقوله لهم بعد سردها (٧٤: ٢) ثُمَّ قَسَمْتَ لِقُلُوبِكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً . وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ . وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

حسبنا ما يدين به تأثير القرآن وما أحدثه من الثورة العربية العالمية من ناحية أسلوبه ونظمه، وتكراره المعجز للبشر بشكله ، وتقني عليه باصلاحه واعجازه بموضوعه ، وهو تعاليمه الدينية والسياسية والمدنية وغيرها فنقول :

الفصل الحامِيس

في مقاصد القرآن ، في تربية نوع الانسان وحكمة ما فيه من التكرار في الهداية و اعجازه بالبيان

ان مقاصد القرآن من إصلاح أفراد البشر وجماعاتهم وأقوامهم ، وإدخالهم في طور الرشد ، وتحقيق اخوتهم الانسانية ووحدهم ، وترقية عقولهم ، وتزكية أنفسهم : منها ما يكفي بيانه لهم في الكتاب مرة أو مرتين أو مراراً قليلة ، ومنها ما لا تحصل الغاية منه إلا بتكراره مراراً كثيرة ، لأجل أن يبحث من أعماق الأنفس كل ما كان فيها من آثار الوراثة والتقاليد والعادات القبيحة الضارة ، ويفرس في مكنها أضدادها ، ويتعاهد هذا الفرس بما يذميه حتى يؤتي أكله ، ويدو صلاحه ، ويتسع ثمره ، ومنها ما يجب أن يبدأ بها كاملة ، ومنها ما لا يمكن كماله إلا بالتدرج ، ومنها ما لا يمكن وجوده الا في المستقبل ، فيوضع له بعض القواعد العامة ، ومنها ما يكفي فيه الفحوى والكناية

والقرآن كتاب تربية عملية وتعليم لا كتاب تعليم فقط ، فلا يكفي أن يذكر فيه كل مسألة مرة واحدة واضحة تامة كالمعهود في متون الفنون وكتب القوانين ، وقد بين الله تعالى ذلك بقوله في موضوع البعثة المحمدية (٦٢:١ يسبح لله ما في السموات وما في الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم (٢) هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين) . فآياته التلوة هي سور القرآن ، المرشدة الى سنته في

الاكوان ، والتزكية هي التربية بالعمل وحسن الاسوة ، والكتاب هو الكتابة التي تخرج العرب من أميتهم ، والحكمة هي العلوم النافعة الباعثة على الاعمال الصالحة ، وما يسمى في عرف شعوب الحضارة بالفلسفة ، فجميع مقاصد القرآن وبيان السنة له تدور على هذه الاقطاب الثلاثة

واننا نذكر هنا أصول هذه المقاصد كما وعدنا عند قولنا إن ما جاء به محمد ﷺ هو أعلى وأكمل مما جاء به من قبله جميع الانبياء والحكماء والحكام ، فهو برهان علمي على انه من عند الله تعالى ، لا من فيض استعداده الشخصي ، وانما تقسم هذه المقاصد الى أنواع ، ونبين حكمة القرآن وما امتاز به في كل نوع منها بالاجمال ، لأن التفصيل لا يتم الا اذا يسر الله لنا إنجاز ما وعدنا به من تفسير مقاصد القرآن كلها في أبواب نبين في كل باب منها وجه حاجة البشر الى ذلك المقصد ، وكون القرآن وفي بهذه الحاجة بما تأتي به من جملة آياته فيه ، وانما هذا الفصل نموذج منه

المقصد الاول من مقاصد القرآن

(في بيان حقيقة أركان الدين الثلاثة)

(التي دعا اليها الرسل وضل فيها أتباعهم)

ان أركان الدين الاساسية التي بعث الله تعالى بها جميع رسله، وناط بها سعادة البشر هي الثلاثة المينة بقوله (٢ : ٦٢) **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**) وهالك الكلام على كل واحد منها بالاجاز ، لان المراد هنا بيان أن ما جاء به القرآن منها هو أتم وأكمل من المعروف في سائر الاديان ، وفيه صلاح لما أفسد اهل الملل من دين الانبياء ، بما طرأ على كتبهم من الضياع والتحريف ، وما ابتدعوا فيه من الاهواء والتقاليد ، وليس المراد بيانها في ذاتها بالتفصيل الذي يتوقف عليه العمل ، حتى إذا ثبت ما نقضه من نبوة محمد ﷺ وكون هذا القرآن كلام الله عز وجل أوحاه اليه ، علم منه أنه يجب على المؤمن به أن يتعلم ما فرضه عليه وهذه الاركان الثلاثة تدل عليها آثار الملل القديمة البائدة كالمصريين والكلدانيين ، وبقايا كتب أممها الباقية كالهنود والمجوس والصينيين ، وغرضنا من هذا الكتاب أن نبين لجميع الشعوب المتدينة ان ما هم عليه من الدين ليس هو عين ما أوحاه الله الى رسله الذين ظهروا في أسلافهم ، ولا هو بالمصلح لهم في أنفسهم وأعمالهم ، وأن الاسلام هو الدين الحق الثابت عقلا ونقلا ، المين لكل ما يحتاجون اليه من الهداية . وبهذا الاعتبار جعلناها مقصدا واحدا لا ثلاثة ، وجعلنا المقصد الثاني التالي له في موضوع الرسل والرسالة

(الركن الاول للدين . الايمان بالله تعالى)

إن الركن الاول الأعظم من هذه الاركان — وهو الايمان بالله تعالى — قد ضل فيه جميع الافوام والامم حتى أقربهم عهداً بهداية الرسل ، فاليهود على حفظهم لأصل عقيدة التوحيد ، قد غلب عليهم التشبيه ، وغاب عنهم أن يجمعوا بين النصوص المتشابهة في صفات الله وبين عقيدة التنزيه . فقد جعلوا الله كالانسان يعب ويندم على ما فعل كخلقه الانسان لانه لم يكن يعلم أنه سيكون مثله أو مثل الآلهة (١) ، وزعموا انه كان يظهر في شكل الانسان حتى أنه صارع اسرائيل ، ولم يقدر على التفلت منه حتى باركه فأطلقه (٢) وعبدوا بعلا وغيره من الاصنام

والنصارى جددوا من عهد قسطنطين الوثنيات القديمة ، واتخذوا المسيح رباً وإلهاً وعبدوا القديسين وصورهم حتى صارت كنائس النصارى كنيا كل الوثنية الاولى مملوءة بالصور والتماثيل المعبودة — على أن عقيدة الثليث والصلب والفداء التي جعلوها أساس الدين بل الدين كله — هي عقيدة المهنود في كرسنة وثالوثه في جملتها وتفضيلها ، وهي مدعومة بفلسفة خيالية غير معقولة ، وب نظام يقوم بتنفيذه الملوك والقيصرة ، وتبذل في سبيله القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، ويربى عليه الاحداث من الصغر تربية وجدانية خيالية لا تقبل حجة ولا برهاناً ، فغمر الشرك بالله هذه الارض بطوفانه ، وطغت الوثنية على أهلها

هدم القرآن معاقل هذه الوثنية وحصونها المشيدة في الافكار والقلوب ، وما كان ليتم هذا باقامة برهان عقلي أو عدة براهين على توحيد الله عز وجل ، بل لا بد فيه

(١) في سفر التكوين (٣ : ٢٢) وقال الرب الاله هوذا الانسان قد صار كواحد منا عارفاً بالخير والشر) وفيه (٦ : ٦) فحزن الرب (وفي ترجمة اخرى فندم) أنه عمل الانسان وتأسف في قلبه ((٢) راجع آخر الفصل ٣٢ من سفر التكوين

من دحض الشبهات ، وقصيل الحجج العقلية والعلمية والمواظب الخطائية بالعبارات المختلفة وضرب الامثال، لذلك كان أكثر المسائل تكراراً في القرآن مسألة توحيد الله عز وجل في ألوهيته بعبادته وحده ، واعتقاد أن كل ماسواه من الموجودات سواء في كونهم ملكاً وعبيداً له ، لا يملكون من دونه نفعاً ولا ضرراً لأحد ولا لأنفسهم إلا فيما سخره من الاسباب المشتركة بين الخلق

وأما تكرار توحيد الربوبية وهو انفراده تعالى بالخلق والتقدير والتدبير والتشريع الديني ، فليس لاقناع المعطلين والمشركين بربوبيته تعالى فقط ، بل أكثره لاقامة الحججة به على بطلان شرك العباد ببدعاء غير الله تعالى لاجل التقرب اليه بأولئك الأولياء وابتغاء شفاعتهم عنده، فشر الشرك وأوغله في إفساد عقائد المؤمنين بالله من ضعفاء العقول ، وحلمهم على التدين بالالوهام والخرافات، المخالفة لما أثبتته التجارب من سنن الله في المخلوقات^١ انما هو توجه العبد الى غير الله تعالى فيما يشعر بالحاجة اليه من كشف ضرر وجلب نفع من غير طريق الاسباب ، فقد ذكر الدعاء في القرآن أكثر من سبعين مرة بل زهاء سبعين بعد سبعين مرة ، لانه روح العباد ومخبر بل هو العباد التي هي دين الفطرة كله ، وما عداه من العبادات فوضعي تشريعي من تعليم الوحي فهو يغذيها وينقيها من شوائب الآراء ، وينفي عنها تقاليد الاهواء

(١) اشتدت وطأة البرد في شتاء هذا العام وجاءت الأنباء من الشرق والغرب بكثرة الثلوج في اقطارها الشمالية وبعض المعتدلة فعلم بعض المسلمين سلامة مصر منها بوجود اهل البيت فيها يعني القبور المشيدة لاسماء بعضهم فبينت لمن سمعت منهم ذلك خطأهم من الناحية الدينية ومن ناحية سنن الله تعالى في اسباب الحر والبرد والمطر والثلج، وكون وجود القبور أو اهلها لاشأن له في ذلك. وحدث في هذا الشتاء زلزال عظيم في الهند هدم به بعض البلاد، ماعد المعابد الوثنية في بعضها فاعتقد أهلها ان سبب بقائها عناية الله بحفظها لرضاه عن عبادتهم فيها . وانما سببه قوة بنائها فان أكثر معابد الامم قوية البناء تمر عليها القرون وتبقى سائر الأبنية وهي باقية -

بعض آيات الدعاء أمر بدعائه تعالى وحده ، وبعضها نهي عن دعاء غيره مطلقا ، ومنها حجج على بطلان الشرك أو على إثبات التوحيد ، ومنها أمثال تصور كلامهما بالصور الثلاثة المؤثرة ، ومنها اخبار بأن دعاء غيره لا ينفع ولا يستجاب ، وإن كل من يدعى من دونه تعالى فهو عبد له ، وإن أفضالهم وخيارهم كالملائكة والأنبياء يدعونهم هو ويتبعون الوسيلة اليه ، ويرجون رحمته ويخافون عذابه ، وأنهم يوم القيامة يكفرون بشرك الذين يدعونهم من دون الله أو مع الله ويتبرءون منهم ، وأمثال ذلك مما يطول شرحه ، بل يضيق المقام عن تلخيصه

و ثم أنواع أخرى من آيات الايمان بالله تعالى تغذي التوحيد ، وتساعد بأهله درجات متفاوتة في السمو بمعرفته تعالى والتأله والتو له في حبه ، من التنزيه والتقديس والتسبيح له ، وذكر أسمائه الحسنى منزوجة ببيان الأحكام الشرعية المختلفة حتى أحكام الطهارة والنساء والارث والاموال ، وبحكمه في الخلق والتدبير لأمر العالم ، وسننه في طباع البشر وفي شئونهم الاجتماعية . ووضع كل اسم منها في الموضع المناسب له من علم وحكمة وقدرة ومشئنة وحلم وعفو ومغفرة ورحمة وحب ورضا وما يقابل ذلك ، ومن الأمر بالتوكل عليه والخوف منه لاجلاله أو لعدله ، والرجاء في رحمته وفضله ، وناهيك بما سرد منها سردا لجذب الأرواح العالوية إلى كماله المطلق وفنائها في شهوده عن شهودها ، بله أهواءها وشهواتها ، كما تراه في فاتحة سورة الحديد (٥٧ : ١) سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢) لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُخَيِّ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣) هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (الخوفي آخر سورة الحشر ٢٢: ٥٩) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالَمٌ

الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقَدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهِمِّنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٤) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِي الْمَصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى، يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) فهذه الأسماء الالهية هي ينابيع الحياة الروحية في القلوب، ومشروقات أنوار المعارف الالهية على العقول، ومنها استمد الأولياء العارفون والأئمة الربانيون تلك الحكم السامية، والكتب العالية في معرفته تعالى وأسرار خلقه، والادعية والقصائد في حبه ومناجاته، بعد أن تربوا بكثرة ذكره وتلاوة كتابه وهذا هو الغرض الأول من أمر القرآن المؤمنين بذكر الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم، ليكون الله تعالى غالبا على أمرهم، كما قال في وصف يوسف عليه السلام (١٢ : ٢١) والله غالب على أمره) فيمقتون الباطل والشر، ويكون كل حظهم من الحياة الحق والخير، لما يشره الذكر لهم من صلاة الله عليهم وملائكته ليخرجهم من الظلمات الى النور كما قال عز وجل (٣٣ : ٤١) يَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذَكَرًا كَثِيرًا (٤٢) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٤٣) هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا

بهذا التكرار الذي جعله أسلوب القرآن المعجز مقبولا غير مملول، طهر الله عقول العرب وقلوبهم من رجس الشرك وخرافات الوثنية، وزكاهم بالاخلاق العالية والفضائل السامية، وكذا غير العرب ممن آمن بالله وأتقن لغة كتابه، وصار يرتله في عبادته ويتدبر آياته، حتى إذا دب في الشعوب الاسلامية ديب الجهل بلغة القرآن، وقل تدبره الذي فرضه الله عليهم، واعتمد المسلمون في فهم

عقيدتهم على الكتب الكلامية المصنفة ، وفي أعمال عباداتهم على كتب الفقه الجافة ، وفي تزكية أنفسهم على الايراد البشرية المؤلفة ، ضعف التوحيد في قلوب الكثيرين ، وشابته شوائب الشرك الاصغر ثم الاكبر ، واتبعوا سنن من قبلهم شبراً بشبر وذراعاً بذراع (١) اعتقاداً وعملاً ، وتأثروا وجدلاً ، فصار أدعياء العلم يتأولون تلك الآيات الكثيرة في التوحيد بشبهاتهم وأهوائهم وتقاليدهم المبتدعة ، وهجروا القرآن هجراً غير جميل ، وعاقبهم الله بما أوعدهم كما هو مشاهد ومعلوم .

على أن بعض المتكلمين قد تأولوا صفات الله تعالى بنظرياتهم الجدلية ، وبعض الصوفية قد بالغوا في التوحيد وفهم الصفات أو حملها على الاذواق والوجدانات الروحية ، حتى أنكر بعضهم تأثير الاسباب في مسياتها ، وانتهى بهم ذلك إلى بدعة الجبر التي أفسدت على أهلها كل شيء ، وقال بعضهم بوحدة الوجود ، بيد أن الاولين منهم كانوا يقولون بما يهديهم اليه النظر العقلي . أو رياضة النفس وما تثمره من الشعور الوجداني ، مع الاعتماد في فهم النصوص على صميم اللغة والمأثور عن السلف ، ثم خلف من بعدهم خلف من المقلدين لا حظ لهم من القرآن ولا من البرهان ولا من الوجدان ، وإنما يتبعون أهواء العوام ويتأولون لهم بكلام أمثالهم من المصنفين الجاهلين ، ولو فقهوا أقصر سورة في التوحيد والتنزيه كما يجب — وهي سورة الاخلاص — لما وجد الشرك الى أنفسهم سبيلاً

إن عقيدة التوحيد القرآني هي أعلى المعارف التي ترقى الانسان الى اعلى ما خلق مستعداً له من الكمال الروحي والعقلي والمدني . وقد صرح كثير من علماء (١) أي مصداقاً لقول النبي (ص) « لتتبعن سنن من قبلكم شراً بشراً وذراعاً بذراع ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » قالوا يا رسول الله : اليهود والنصارى ؟ قال « فمن » ؟ رواء البخاري ومسلم وغيرها .

الافرنج ان سهولة فهم هذه العقيدة وموافقتها للعقل والفطرة هما السبب الاكبر لقبول الامم له وانزاع النصرانية من امامه

قد كان توحيد المسلمين الاولين لله ومعرفتهم به وحبه له وتوكلهم عليه هو الذي زكى أنفسهم ، وأعلى همهم ، وكلهم بعزة النفس ، وشدة البأس ، وإقامة الحق والعدل ، ومكنهم من فتح البلاد وسياسة الامم ، وإعتاقها من رق الكهنة والاجبار والرهبان والبوذات والموبذانات الروحي والعقلي ، وتحريرهم من ظلم الملوك واستبدادهم ، وإقامة دعائم الحضارة ، وإحياء العلوم والفنون الميتة وترقيتها فيهم ، وقد تم لهم من كل ذلك ما لم يقع مثله ولا ما يقاربه لأمة من أمم الارض ، حتى قال الدكتور غوستاف لوبون المؤرخ الاجتماعى الشهير في كتابه (تطور الامم) ان ملكة الفنون لا يتم تكوينها لأمة من الامم الناهضة إلا في ثلاثة أجيال : اولها جيل التقليد وثانيها جيل الخضرة وثالثها جيل الاستقلال والاختصاص. قال: الا العرب وحدهم فقد استحكمت لهم ملكة الفنون في الجيل الاول الذي بدءوا فيه بمزاولة التقليد الاصم الاعمى ، وتوطين أنفسهم على إمامة البشر وقيادتها في أمور الدين والدنيا معاً ، وقد خفي كل هذا على سلاسلهم بعد ذهاب الخلافة الاسلامية ، وزوال النهضة العربية. ونحول السلطان إلى الاعاجم الذين لم يكن لهم من الاسلام إلا الظواهر التقليدية المنفصلة عن هداية القرآن

(الركن الثاني للدين. عقيدة البعث والجزاء)

الايمان باليوم الآخر وما يكون فيه من البعث والحساب والجزاء على الاعمال ، هو الركن الثاني للدين الذي بعث الله به الرسل عليهم السلام ، وبه يكمل الايمان بالله تعالى ويكون باعثا على العمل الصالح وترك الفواحش والمنكرات والبغي والعدوان ، وكان جل مشركي العرب ينكرونه أشد الانكار ، وأما أهل الكتاب وغيرهم من الملل - التي كان لها كتب وتشريع ديني ومدني - ثم فقدت كتبهم أو حرفت واستحوذت عليهم الوثنية - فكلمهم يؤمنون بحياة بعد الموت وجزاء يختلفون في صفتها لا في اصلها ، ولكن ايمانهم هذا قد شاب الفساد بينا ثم على بدع ذهبت بجمل فائدته في إصلاح الناس ، وأساسها عند الهنود وغيرهم من قدماء الوثنيين ، وخلائف النصرى المتبعين لدين القيصر قسطنطين ، هو وجود المحلص القادي الذي يخلص الناس من عقوبة الخطايا ويفديهم بنفسه ، وهو الاقنوم الثاني من المألوث الالهي الذي هو عين الاول والثالث ، وكل واحد منهما عين الآخر - وكل ما نقوله النصرى في فداء المسيح للبشر وغير ذلك من ولادته الى رفعه فهو نسخة مطابقة لما يقوله الهنود في كرشنه وبودا في اللفظ والفحوى كما تقدم ، فلما يختلفان إلا في الاسمين كرشنه ويسوع (١)

وأما اليهود فكل ديانتهم خاصة بشعب اسرائيل ، وادعاء محاباة الله تعالى له على سائر الشعوب في الدنيا والآخرة ، ويسمونهم إله اسرائيل ، كأنه ربهم وحدهم لا رب العالمين ، وديانتهم أقرب إلى المادية منها إلى الروحية ، فكان

« ١ » عقيدة التثليث والقداء معروفة في وثنية قدماء المصريين والبابليين والاوربيين أيضاً وقد فصل ذلك في كتاب خاص بالشواهد التاريخية اسمه (العقائد الوثنية ، في الديانة النصرانية) تأليف الأستاذ محمد طاهر التنير البيروتي.

فساد الايمان بهذا الركن من أركان الدين تابعا لفساد الركن الاول وهو الايمان بالله تعالى ومعرفته ومحتاجا إلى الاصلاح مثله
جاء القرآن للبشر بهذا الاصلاح ، فقد أعاد دين النبيين في الجزاء إلى أصله المعقول وهو ما كرم الله تعالى به الانسان من جعل سعادته وشقائه منوطين بايمانه وعمله ، الذين هما من كسبه وسعيه ، لا من إيمان غيره وعمله ، وان الجزاء على الكفر والظلم والفساد في الارض ، يكون بعدل الله تعالى بين جميع خلقه بدون محاباة شعب على شعب ، والجزاء على الايمان والاعمال الصالحة يكون بمقتضى الفضل ، فالحسنة بعشر أمثالها وقد يضاعفها الله تعالى أضعافا كثيرة

وقد نص القرآن على ان ما جاء به من هذا الاصلاح هو ما أوحاه إلى ابراهيم أبي الانبياء المعروفين الذين يدين الله بنبوتهم اليهود والنصارى ، وإلى موسى والانبياء الذين كانوا من بعده على شرعه ، فقال (٥٣ : ٣٥) **أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهَوْا يَرَى (٣٦) أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (٣٨) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (٣٩) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٤٠) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (٤١) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى (٤٢)** أي ان أصل دين الله لجميع رسله أنه لا تحمل نفس وازرة أي خاطئة خطيئة نفس أخرى بقاء ولا غيره ، وأنه ليس للانسان إلا سعيه وعمله فلا يجزى بعمل غيره ، ويدخل في عموم عمله ما يكون سببا له كالذي يعمل له ولده أو تلميذه بتأثير تربيته وتعليمه ، وما يستمن سنة حسنة أو سيئة فله مثل جزاء من يعمل بهما من بعده ، الاصل الجامع في ذلك قوله تعالى (٩١ : ٧) **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۖ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۚ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۚ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (٩٢)**

أي إن الله الذي خلق هذه النفس وسواها بما وهبها من المشاعر والعقل ، قد جعلها بالهام الفطرة والعزيمة مستعدة للفجور الذي يرد بها ويدسيها (١) والتقوى التي تنجيها وتعليها، ومنتكئة من كل منها بارادتها، والترجيح بين خواطرها ومطالبها ، ومنجها العقل والدين يرجحان الحق والخير على الباطل والشر، فبقدر طهارة النفس وأثر تزيينها بالإيمان ومكارم الاخلاق ومحاسن الاعمال يكون ارتقاؤها في الدنيا وفي الآخرة ، والضد بالضد . فالجزء أثر طبيعي للعمل النفسي والبدني ولذلك قال تعالى (١٣٩ : ٦) سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَّهُمْ) ، وهذا هو الحق الذي يثبت من عرف حقيقة الانسان، وحكمة الديان، وهو مما أصلحه القرآن من تعاليم الأديان فاذا علمت ما كان من إنكار مشركي العرب للبعث والجزء ، ومن فساد إيمان أهل الكتاب وسائر الملل في هذه العقيدة ، وعلمت أنها مكحلة للإيمان بالله تعالى، وإن تذكرها هو الذي يقوي الوازع. نسي الذي يصد الانسان عن الباطل والشر والظلم والبغي ، ويرغبه في التزام الحق والخير وعمل البر — علمت أن إصلاحها بما فعل فعله العاجل في شعب كبير إلا بتكرار التذكير بها في القرآن، بالاساليب العجيبة التي فيه من حسن البيان ، وتحرير البعيد من الازدهان ، تارة بالحجة والبرهان، وتارة بضرب الامثال ، وقد تكرر في آيات ينسأ ، لعلمها تبلغ المثات « ومن إعجازه أنها لا تمل ولا تسأم ، بل لا يكاد يشعر قارئها بتكرار معانيها ، وإن تقارب جنسها ونوعها وترادفت سورها . فتأمل ذلك في سور المفصل ، تر تكرار الكلام على البعث والجزء فيها بما لا يخطر على بال بشر من اختلاف الاسلوب والنظم

(١) أصل معنى دساها أخفاها مبالغة من دسه في التراب واستعملت هنا فهدزكاها، فإذا كان معنى زكاها طهرها فظهرها وأعلى قدرها فمعنى دساها دنسها بما يذفن جميع عزايها كأنها ليست نفسها باطقة وأصل دساها دسها فقلت السين الثانية ياء وله نظائر

والفواصل ولا سيما المناسبة المتصلة كالمرسلات مع النبأ ، والتازعات مع عبس ،
والتكوير مع الانفطار ، والمطففين مع الانشقاق ، وغيرهن

فلئان الايمان بالبعث والجزاء وهو الركن الثاني في جميع الاديان ، من لوازم
الركن الاول وهو الايمان بالله المتصف بجميع صفات الكمال ، المنزه عن العيب في
أفعاله وأحكامه ، ولهذا كان من أظهر أدلة القرآن عليه قوله بعد ذكر البعث
وجزاء الكافرين في آخر سورة المؤمنون (١١٥: ٢٣) **أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ**

عَبَثًا وَأَنكُمُ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ؟ (وقوله في آخر سورة القيامة (٣٦: ٧٥)
أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ؟) فكفر الانسان بهذا الركن من
أركان الايمان يستلزم كفره بحكمة ربه وعدله في خلقه ، وكفره بتعمته بخلقها في
أحسن تقويم ، وبتفضيله على أهل عالمه (الأرض) حيث سخرها وكل ما فيها
لنفعه ، وعلى كثير ممن خلق في عالم الغيب الذي وعده بمصيره إليه ، ويستلزم جهله
بما وهبه من المشاعر والقوى والعقل ، وجهله بحكمته في خلقه مستعداً لما ليس له
حد ونهاية من العلم ، الدال على انه خلقه لحياة لاحد لها ولا نهاية في الوجود —
ومن لوازم هذا الكفر والجهل كله احتقاره لنفسه باعتقاده أنه خلق عبثاً للحكمة

بالغة ، وان وجوده في الارض موقوف محدود بهذا العمر القصير البغض بالهموم
والمصائب والظلم والبغي والآثام ، وأنه يترك سدى لا يجزى كل ظالم من أفراد
بظلمه ، وكل عادل وفاضل بعدله وفضله ، وإذا كان هذا الجزاء غير مطرد في الدنيا
لجميع الافراد ، تعين أن يكون جزاء الآخرة هو المظهر الأكبر للعدل العام ، كما
قال تعالى (٣ : ١٨٥) **وَأَنَّمَا تُوقَنُ أَجُورَ كُفْرِكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**

ومن أبدع أساليبه المبكرة الجامعة وأروعها الحاجة في النار بين الاتباع
والمتبعين والغاوين والمغوين والضالين والمضلين من شياطين الانس والجن ،
وبراءة بعضهم من بعض ، ومنه التنادي والتحاوور بين أهل الجنة وأهل النار

البعث الانساني جسماني روحاني

وما جاء في القرآن مخالفا لما عند النصارى من عقيدة البعث والجزاء أن الانسان في الحياة الآخرة يكون انسانا كما كان في الدنيا، إلا أن أصحاب الانس الزكية والارواح العالية يكونون أكل أرواحا وأجساداً ما كانوا بتزكية أنفسهم في الدنيا، وأصحاب الانفس الخبيثة والارواح السافلة يكونون أقص وأخبث مما كانوا بتدسية أنفسهم في الدنيا، ويعلم ما ثبت عن قدماء المصريين وغيرهم من الغابرين، أن الاديان القديمة كانت تعلم الناس عقيدة البعث بالروح والجسد الا أنهم ظنوا بعد رسلهم أن أجسادهم تبقى بعد موتهم فيبعثون بها عنها، ولكن بين القرآن أن كل من على الارض فانٍ، وانها تكون بقيام الساعة هباء منبثا، وقال علماء العقائد من اهل السنة ان بعث الاجساد يكون بعد العدم التام، وقال تعالى (٥٦:٦٠) نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۖ عَلَىٰ أَنْ نَبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ۖ ٦٢ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ

ولو كان البعث للارواح وحدها لنقص من ملكوت الله تعالى هذا النوع الكريم المكرم من الخلق، المؤلف من روح وجسد، فهو يدرك اللذات الروحية واللذات الجثمانية، ويتحقق بحكم الله « جمع حكمة » وأسرار صنعه فيهما معا، من حيث حرم الحيوان والنبات من الاولى والملائكة من الثانية، وما جنح من جنح من أصحاب النظريات الفلسفية إلى البعث الروحاني المجرد إلا لاحتقارهم للذات الجسدية وتسميتها بالحيوانية مع شغف أكثرهم بها، وانما تكون نقصا في الانسان إذا سخر عقله وقواه لها وحدها. حتى صرفه اشتغاله بها عن اللذات العقلية والروحية بالعلم والعرفان أو أضعفها، — وأصل هذا الافراط والتفريط غلو الهنود في احتقار

الجسد، وجعلهم مدار تربية النفس على تعذيبه بالرياضات الشاقة، وتبعهم فيه نساك النصارى كما تبعوهم في عقيدة الصلب والفداء والتثليث، على أنهم نقلوا ابن المسيح عليه السلام شرب الخمر مع تلاميذه لما ودعهم في الفصح وقال لهم: إني من الآن لا أشرب من نتاج البكرمة هذا إلى ذلك اليوم حينما أشربه معكم جديداً في ملكوت أبي (متى ٢٦: ٢٩) وجرى اليهود على عكس ذلك، وجاء الاسلام بالاعتدال فأعطى الانسان جميع حقوقه، وطالبه بما يكون بها كاملاً في إنسانيته، مرجحاً لروحانيته على حيوانيته، منزوداً من ديناه لآخرته

ويؤخذ مما ورد في الآيات والاحاديث النبوية من صفة حياة الآخرة ان القوى الروحية تكون هي الغالبة والمتصرفة في الاجساد فتكون قادرة على التشكل بالصور اللطيفة، وقطع المسافات البعيدة في المدة القريبة، والتخاطب بالكلام بين أهل الجنة وأهل النار — وإن ترقى البشر في علم الكيمياء وخواص الكهرباء والصناعات والآلات في عصرنا قد قرب كل هذا من حس الانسان، بعد أن كان الماديون الملحدون يعدون مثل قوله تعالى (٧: ٤٤) «وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا، فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟ قَالُوا نَعَمْ، فَاذْنُ مُؤَذِّنٌ يَبْنِهِمْ: أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ) من تخیلات محمد صلوات الله وسلامه عليه — وهانحن أولاء نخاطب من مصر أهل عواصم أوربة بالمسرة (بالكسرة آلة التلفون) ونسمع خطبهم ومعازفهم بالمذياع (آلة الراديو) وسنراهم وبروننا بآلة التليفزيون (١) مع التخاطب حينما يعم انتشارها وأما علماء الروح من الافرنج وغيرهم فقد أثبتوا ان الارواح البشرية تكون بعد الموت قادرة على التشكل في أجساد تأخذها من مادة الكون كالملائكة والجن، وكما يقول الصوفية في الانس. وهذه مسألة أو مسائل قد شرحناها من قبل في تفسير المنار وإنما نذكرها هنا بالاجمال رداً على من زعموا ان القرآن مستمد من كتب اليهود

«١» هي آلة حديثة بها ينظر الانسان من يكلمه على بعد مهما يكن سحيقاً

والنصارى ومن عقل محمد صلى الله عليه وسلم الباطن وإلهاماته الروحية ويناسب هذا ما جاء في القرآن من نبأ خراب العالم وقيام الساعة التي هي يده . ما يجب الايمان به من عقيدة البعث والجزاء ، ولم يوجد له أصل عند أهل الكتاب ولا غيرهم ، ولا هو مما يمكن أن يكون قد عرفه محمد ﷺ بذكائه ونظرياته العقلية ، وجلته ان قارة - والظاهر انها كوكب - تفرع الارض قرعاء وتصفها صحراء . وترجها رجاء ، فتكون هباء منبثا ، أى خباراً دقيقاً متفرقا في الفضاء ، وحينئذ . يختل ما يسمى في عرف العلماء بسنة الجاذبية العامة ، فتتناثر الكواكب ثم يدخل العالم في طور جديد هو المراد بالحياة الآخرة (١) . وهذا المعنى لم يكن يخطر ببال أحد من علماء الكون ولا من علماء الدين ، فلا يمكن أن يقال ان محمداً ﷺ سمعه من أحد في بلده أو في سفره ، ولا يعقل أن يكون قاله برأيه وفكره ، فهو من أنباء القرآن الكثيرة التي تدحض زعم القائلين بالوحي النفسي . وقد صرح غير واحد من علماء الهيئة الفلكية المعاصرين بأن خراب العالم بهذا السبب هو أقرب النظريات العلمية لخرابه . وسنفصل ذلك بالشواهد على ما جاء في القرآن موافقاً لأصول العلم الحديث في ملحقات الكتاب ، من الجزء الثاني له ،

ولقد كان اعظم آيات الجزء تأثيراً في انفس العرب وصف نعيم الجنة وعذاب النار ببلاغته العجيبة في المبالغة التي امتازت بها لغتهم ، وفيها ما يدل على أنها غيبية مخالفة للمعهود في الدنيا كقوله تعالى في صفة النار (١٠٤: ٧) الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْنَدَةِ) وفي الجنة (١٧: ٣٢) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ) وقوله بعد ذكر النعيم الحسي (٩ : ٧٢) وَرِضْوَانٍ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ) وناهيك بمناجاة تعالى ورؤيته التي انكرها وتأول نصوصها المعزلة ومن تبعهم وعدوها من المنشابهات ولا غرو فكل أمور الآخرة متشابهات ، قال تعالى في ثمرها (٢ : ٢٥) وَأَتُوا بِهِِ مَتَشَابِهًا) قال ابن عباس (رض) في تفسيرها . لا يشبه شيء مما في الجنة ما في الدنيا الا في الأسماء . فكيف يشبه خالقها شيئاً من خلقه ؟

(الركن الثالث للدين العمل الصالح)

الركن الثالث من مقاصد بعثة الرسل - وهو العمل الصالح - أثر لازم للإيمان بالله وبالْحساب والجزاء في الآخرة ونمرة له ، وهو عمدة ويستمد منه ، فكل من الإيمان والعمل يغذي الآخر ويقويه ، ويتوقف كمال كل منهما على الآخر ، فمن فسد إيمانه فسد عمله وكان رياء ونفاقاً أو تقليداً صورياً ، فلا يكون العمل صالحاً مصلحاً لعامله إلا بمجمله على الوجه الذي شرعه الله لأجله . وهذا مكرز في القرآن في سور كثيرة لإصلاح ما أفسده البشر فيه بجعله تقليدياً غير مزكٍ للنفس ولا مصلح لشئون الاجتماع ، ولكن دون تكرار توحيد الله وتقديسه الذي هو الأصل الذي يتبعه غيره ، على أنه يقرنه به ،

ولولا الحاجة إلى هذا التكرار في التذكير والتأثير لكأنت سورة العصر وحدها كافية في الإصلاح العلمي العملي على قصرها ، كسورة الاخلاص في الركن الاول الاعتقادي ، وكل منهما تكتب في سطر واحد ، فهما من معجزات إيجاز القرآن وهمايته ، وكسورة الزلزال في الركن الثاني وهي تكتب في ثلاثة أسطر ، وقد روى الامام أحمد والطبراني في الكبير أن صعصعة بن معاوية أتى النبي ﷺ فقرأ عليه (٩٩ : ٧) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۖ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) فقال حسبي لا أبالي أن لا أسمع غيرها . وروي أن بعض الأعراب سمع النبي ﷺ يقرأها فقال يا رسول الله : أمثقال ذرة ؟ قال « نعم » . فقال الأعرابي واسمائه : ثم قام وهو يقولها فقال النبي ﷺ « لقد دخل قلب الأعرابي الإيمان » وروي عن زيد بن أسلم (رضي) أن النبي ﷺ دفع رجلاً إلى رجل يعلمه فعلمه حتى بلغ هذه الآية فقال : حسبي فذكر الرجل المعلم ذلك للنبي ﷺ فقال له « دعه

فقد فقه « نقل هذه الروايات وغيرها السيوطي في الدر المنثور عن مخرجها ، ومنها أن بعض كبار الصحابة كان ربما يعطي المسكين حبة غنم ويقول إن فيها ذرات كثيرة ، اهتداء بهذه الآية وقوله ﷺ في حديث مسلم « لا تحقرن من المعروف شيئاً »

فتدبر هذا تعلم منه قدر استعداد عقول العرب لهداية القرآن ، وكيف صالحت به أنفسهم وصاروا أئمة الناس في الإصلاح ، آمن بعضهم بأنه يرى في الآخرة جزاء عمله خيره وشره وإن قل فكان كالذرة ، فوطن نفسه على عمل كل ما استطاع من الخير ، وترك كل عمل من الشر ، وهذا فقه الدين كله كما شهد له مبلغ الدين ﷺ

انما كان العمل الصالح من لوازم الايمان بالله في الدرجة الاولى ، لان من عرف الله تعالى عرف استحقاقه للحمد والشكر والعبادة والحب والتعظيم ، وهو من لوازم الايمان بالجزاء على الاعمال في الدرجة الثانية خوفاً من العقاب ورجاء في الثواب ، فالاركان الثلاثة يمد بعضها بعضاً بمقتضى هداية الانبياء الموافقة للفطرة الانسانية ، دون تقاليد الوثنية التي لا شأن فيها لعلم الانسان ولا عمله في سعادته ، لان مدارها على ايمانه بوجود القادي الشفيع ، أو على إقراره به وإن كان لا يعقله ، بل ينكره عقله ، وتأباه فطرته ، وقد أطل القرآن عقيدة الفداء والشفاعة الوثنية في آيات عديدة ويدخل في الاعمال الصالحة العبادات المفروضة التي يتقرب بها الى الله تعالى ، وسائر أعمال البر التي ترضيه بما لها من التأثير في صلاح البشر كبر الوالدين وصلة الرحم ، وإكرام اليتامى والمساكين : ومن أصوله الوصايا الجامعة في آيات سورة الاسراء وهي (١٧ : ٢٣) وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَيَالِ الْوَالِدِينَ إِحْسَانًا ، إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٌ

وَلَا تَنْهَرُهُمَا ٢٧ وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ٢٨ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَانِي صَغِيرًا ٢٩ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِكُمْ، إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ٣٠ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ تَبْذِيرًا ٣١ إِنْ الْمُبْذُرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ٣٢ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتَغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا ٣٣ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا ٣٤ مَحْضُورًا ٣٥ إِنْ رَبُّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ، إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ٣٦ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ، إِنْ قَتَلْتُمْهُمْ كَانَ خَطِئًا كَبِيرًا ٣٧ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا، إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ٣٨ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ (٣) إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ٣٩ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ، إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ٤٠ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ، ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ٤١ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ، إِنَّ السَّمْعَ

(١) كلمة (أف) تدل على أقل التضجر، والانتهاز الاغلاظ في الانكار، والقول الكريم هو أ لطف ما يقال وأدله على الادب والاحترام (٢) أي ملوما من الناس وفي حسرة من نفسك (٣) السلطان هو القصاص والاسراف فيه قتل من لم يثبت عليه القتل

والبَصَرِ وَالْفُؤَادِ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ٣٧ وَلَا تَمْشِ فِي
الْأَرْضِ مَرَحًا، إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ٣٨
كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ٣٩ ذَلِكَ يَمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ
رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ، وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ
مَلُومًا مَدْحُورًا

هذه الآيات أجمع وأعظم من الوصايا العشر التي في التوراة . وتأمل آيات
الوصايا في سورة الانعام (١٥١ : ١٥٣ وآية البر في سورة البقرة (١٧٧ : ٢)
وغير ذلك من آيات الحث على الفضائل ، والزجر عن الرذائل ، والمعاصي
الضارة بالابدان والاموال ، والأعراض والعقول والاديان ، ومثارها الاكبر
اتباع الهوى وطاعة وسوسة الشيطان ، وبضادها ملكة التقوى ، فهي اسم جامع
لما يحيي النفس من كل ما يندسها وتسوء به عاقبتها في الدنيا والآخرة ، ولهذا تذكر
في المسائل الدينية والزوجية والحرية وغيرها ، وهالك كلمة وجيزة في الموضوع

﴿ سنة القرآن في تهذيب الاخلاق وصلاح الاعمال ﴾

والفرق بينها وبين كتب الفلسفة والآداب

القرآن كتاب هداية فعلية ، لا كتاب فن وعلم نظري ، فهو يرشد متدبره
والمستفهم فيه إلى داعيتي الحق والخير والباطل والشر من نفسه ، وإلى طريق تركيتها
بحاسبتها على أعمالها ، لتغليب الحق والخير على ضدها ، وتجدد هذا التهذيب والتثقيف
فيه يدور على أمرين فطريين لا يتوقف فهمهما على فلسفة أرسطو ولا ابن سينا ،
وهو مجاهدة النفس بالتخلي عن اتباع الهوى ، والتخلي بفضيلة التقوى ، وقد تكرر
فيه ذم اتباع الهوى والنهي عنه وتعليله بأنه يصد متبعه عن الحق والعدل في زهاده

ثلاثين آية ، وتكرر ذكر التقوى والمتقين في زهاء مائتي آية أو أكثر ، وأكثفى هنا بذكر آية واحدة في كل منها

قال الله تعالى في عبادة الهوى بعد أن ذكر لنبيه ﷺ أنه أتى بني اسرائيل الكتاب والحكم والنبوة وفضلهم على عالمي زمانهم ، وآتاهم بينات من الامر أمر التشريع فاختلفوا من بعد ما جاءهم العلم بقياً بينهم . ثم ذكر له أنه جعله على شريعة من الاثر ، وأمره باتباعها ونهاه عن اتباع أهواء الذين لا يعلمون وهم المشركون الذين لا شريعة لهم ، وأعلمه أن الظالمين من الذين يفرقوا بعد العلم فكان ضاراً بهم ومن الذين لا يعلمون بعضهم اولياء بعض والله ولي المتقين دون كل منهم . وان هذا القرآن بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون ، وانه تعالى لن يجعل الذين اجترسوا السيئات ، كالذين آمنوا وعملوا الصالحات ، لا في الحياة ولا في المات . وانه خلق السموات والارض بالحق ولنجزى كل نفس بما كسبت لا كما يزعم المشركون من تركهم سدى ، ولا كما يدعي اهل الكتاب من كونه تعالى يحابي بعض الشعوب وبعض الناس بأنسابهم او لأجل من يهديهم ويشفع لهم . قال تعالى بعد آيات في هذه المعاني :

(٤٥ : ٢٣ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علمٍ وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة ؟ فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون) وفي معناها من سورة الفرقان (٢٥ : ٤٣ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه . كلاً ؟ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ؟ إن هم إلا كالانعام بل هم أضل سبيلاً) وقال تعالى في سورة التقوى للمؤمنين بعد عدة وصايا (٨ : ٢٩ يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم

وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) وقد قلت في تفسير هذه الآية من جزء التفسير التاسع ما مختصره:

هذه الآية آخر وصايا المؤمنين في هذا السياق وهي أعما والاصل الجامع لها وغيرها ، وكلمة الفرقان فيها كلمة جامعة ككلمة التقوى في مجيئها هنا مطلقة ، فالتقوى هي الشجرة ، والفرقان هو الثمرة ، وهو صيغة مبالغة من مادة الفرق ومعناها في أصل اللغة الفصل بين الشئين أو الاشياء ، والمراد بالفرقان هنا العلم الصحيح والحكم الحق فيها ، ولذلك فسروه بالنور ، وذلك أن الفصل والتفريق بين الاشياء والامور في العلم هو الوسيلة للخروج من حيز الاجمال الى حيز التفصيل . وإنما العلم الصحيح هو العلم التفصيلي الذي يميز بين الاجناس والانواع والاصناف والاشخاص ، وإن شئت قلت بين الكليات والجزئيات ، والبسائط والمركبات ، والنسب بين أجزاء المركبات ، من الحسيات والمعنويات ، ويبين كل شيء من ذلك ويعطيه حقه الذي يكون به ممتازاً من غيره ، وإيراد الامثلة على ذلك بطول (وقد ذكرنا نموذجاً منها في التفسير)

فقوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا) معناه إن تقوا الله في كل ما يجب أن يتقى بمقتضى دينه وشرعه ، ويمقتضى سننه في نظام خلقه ، يجعل لكم بمقتضى هذه التقوى ملكة من العلم والحكمة تفرقون بها بين الحق والباطل ، وتفصلون بين الضار والنافع ، ويميزون بين النور والظلمة ، وتزيلون بين الحجة والشبهة . وقد زوي عن بعض مفسري السلف تفسير الفرقان هنا بنور البصيرة الذي يفرق بين الحق والباطل ، وهو عين مافصائناه من الفرقان العلمي الحكمي . وعن بعضهم بالنصر يفرق بين الحق والمبطل ، بما يعز المؤمن ويذل الكافر ، وبالنجاة من الشدائد في الدنيا ومن العذاب في الآخرة ، وهذا من الفرقان العملي الذي هو ثمرة العلمي . ذكر كل ما رآه مناسباً لحال وقته أو حالاً

من لفته ذلك ، ولم يقصد تحديد المدلول اللغوي ، ولا المعنى الكلى الذي هو ثمرة التقوى بأنواعها . وهذا النور في العلم الذي لا يصل اليه طالبه إلا بالتقوى هو الحكمة أمر الله تعالى في مواضع كثيرة من كتابه باتقائه وابتغاء النار وابتغاء الشرك والمعاصي وابتغاء الفتنة العامة في الدول والامم وتقديم في وصايا هذا السياق . وابتغاء الفشل والخذلان في الحرب وابتغاء ظلم النساء وبين أن العاقبة في إرث الارض للمتقين كما أن الجنة في الآخرة للمتقين . وقال (٢: ٦٥) وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ (٤) وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (٥) وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفُرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا) وأمثال ذلك في التقوى العامة والخاصة وأجرها وعاقبتها كثير

فعنى التقوى العام اتقاء كل ما يضر الانسان في نفسه وفي جنسه الانساني القريب والبعيد، وما يحول بينه وبين المقاصد الشريفة والغايات الحسنة والكمال الممكن . ولذلك قال العلماء : انها عبارة عن ترك جميع الذنوب والمعاصي وفعل ما يستطاع من الطاعات . وزدنا على ذلك اتقاء الاسباب الدنيوية المانعة من الكمال وسعادة الدارين بحسب سنن الله تعالى في الكون، كالنصر على الاعداء وجعل كلمة الله هي العليا في الارض، كما هي في الواقع ونفس الامر . وكلمة الذين كفروا السفلى كذلك . وكما ذلك يتوقف على العلم الواسع بالكتاب والسنة، وكما هذا يتوقف على معرفة سنن الله تعالى في الانسان مجتمعا ومنفردا كما أرشد اليه في آيات من كتابه ، ومن ثم كانت ثمرة التقوى العامة الكاملة هنا حصول ملكة الفرقان التي يفرق صاحبها بنوره بين الاشياء التي تعرض له من علم وحكم وعمل، فيفصل فيها بين ما يجب قبوله وما يجب رفضه، وبين ما ينبغي فعله وما يجب تركه . وتنكير الفرقان للتنويع التابع لأنواع التقوى، كالفتن في السياسة والرياسة والحلال والحرام والعدل والظلم،

فكل متق لله في شيء يؤتيه فرقانا فيه، وبذلك كان الخلفاء والحكام من أصحاب رسول الله ﷺ ومن تبعهم من خلفاء العرب أعدل حكام الأمم في الأرض حتى في عهد الفتح . قال بعض حكماء الأفرنج : ما عرف التاريخ قائما أعدل ولا أرحم من العرب ، ولكنهم لم يتقوا فتن السياسة والرياسة لقلّة اختيارهم، فعوقبوا عليها بتفرقهم فضعفهم فزوال ملكهم، وكان من بعدهم من أعاجم المسلمين دونهم لهم بهم بكل نوع من أنواع التقوى الواجبة ، وحرمانهم من فرقانها، فهم يزعمون أنهم يجددون مجدهم، مع جهل هذا الفرقان المبين ، وعدم الاعتصام بالتقوى المزكية للنفس ، المؤهلة لها للإصلاح في الأرض ، بل مع انغماسهم في السكر والفواحش لظنهم أن الأفرنج قد ترقوا في دنياهم بفسادهم وفجارهم ، وإنما ترقوا بحكائهم وأبرارهم، الذين وقفوا حياتهم على العلم والعمل النافع (وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ) هذا عطف على (يَجْعَلُ لَكُمْ فُرْقَانًا) أي ويمحو بسبب هذا الفرقان وتأثيره ما كان من تدنيس سيئاتكم لأنفسكم فتزول منها داعية العود إليها المؤدي إلى الإصرار المهلك ، ويغفرها لكم بسترها وترك العقاب عليها . (وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) ومن أعظم فضله أن جعل هذا الجزاء العظيم بقسميه الساي والايجابي جزاء للتقوى وأثرآ لها اه تفسير الآية مختصراً

سنة القرآن في الارشاد الى العبادات

وأما سنة القرآن في الارشاد إلى الاعمال الصالحة فهي بيان أصولها ومجامعها، وتكرار التذكير بها بالاجمال، وأكثر ما بحث عليه من العبادات الصلاة التي هي العبادة الروحية العليا، والاجتماعية المثلى، والزكاة التي هي العبادة المالية الاجتماعية الكبرى. كرر الامر بهما في آيات كثيرة، وبين أهم منافعهما بقوله (٣٩ : ٤٥) **أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْتَهِي عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، وَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ، وَاللَّهُ يُعَلِّمُ مَا تَصْنَعُونَ** (وقوله (٧٠ : ١٩) **إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ٢٠ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ٢١ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ٢٢ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ٢٣ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ٢٤** والذين في أموالهم حق معلوم ٢٥ للسائل والمحروم)

ولم يذكر فيه ما يحفظ بالعمل والافتداء بالرسول من أحكام الصلاة والزكاة والصيام والحج بل لم يذكر منها الا ما لذكره فائدة خاصة. وذكرت فيه أحكام الصيام في موضع واحد من السورة الثانية، ولم يذكر فيه عدد الركعات في كل صلاة ولا عدد الركوع والسجود، ولا نصاب الزكاة في كل نوع مما يجب فيه، لان كل هذا يؤخذ من بيان الرسول ويحفظ بالعمل، وليس في ذكره تركية للنفس ولا تغذية للإيمان، وسيأتي بعض فوائد الزكاة في الكلام على إصلاح القرآن المالي من المقصد السابع وسنعتقد في ملحقات الكتاب من الجزء الثاني منه فصلا في اسرار العبادات الاسلامية من روحية واجتماعية وصحية نبين به فضلها وامتيازها على جميع عبادات الملل الأخرى. فيعلم به انه لو لم يحى محمد ﷺ بغيرها لنهضت برهاننا على نبوته. وإكمال الله الدين به

ترجيح فضائل القرآن على فضائل الانجيل

نحن نؤمن بأن انجيل المسيح عليه السلام هدى ونور بشهادة القرآن له وان كنا لا نعرفه ، وانما نؤمن انه هداية خاصة مؤقتة ، لاعامة دائمة ، وان الله تعالى انما أكمل دينه ووحيه بالقرآن ، فضائله أتم وأكمل ، وأعم وأشمل وأبقى وأدوم وأذكرفضيلتين من فضائل الانجيل يزعم النصارى أن ما هو مأثور عندهم فيها أكمل وأفضل مما جاء به الاسلام (الاولى) قول المسيح عليه السلام « أحبوا أعداءكم باركوا لاعنيكم ، أحسنوا إلى من يبغضكم ، ومن ضربك على خدك الايمن فأدر له الايسر »* ومن المعلوم بالبداهة أن امثال هذه الاوامر يتعذر على غير الأذلة المستعبدين من الناس ، وانه قد يكون من أكبر المفاصد باغراء الاقوياء بالضعفاء الخاضعين ، وإنك لتجد أعصى الناس لها من يسمون أنفسهم بالمسيحيين أمثال هذه الاوامر لا تأتي في دين الفطرة العام لان امثالها من غير المستطاع ، والله تعالى يقول (٢ : ٢٨٦) لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) وإنما قرر القرآن في موضوعها الجمع بين العدل والفضل والمصلحة . قال تعالى (٤٢ : ٤٠) وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ، فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ٤١ وَلَمَنْ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ٤٢ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٤٣ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)

ولا يخفى أن العفو والمغفرة للمسيح إِمَاتُكُون من القادر على الانتصار لنفسه :

(*) راجع هذه الأوامر في أواخر الفصل الخامس من انجيل متى

وبذلك يظهر فضله على من عفا عنه ، فيكون سبيلاً لاستبدال المودة بالعداوة ، في مكان الاغراء بالتعدي ودوام الظلم . ولذلك قال (٤١ : ٣٤) وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ٣٥ وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (

فانظر كيف بين مراتب الكمال ودرجاته من العدل والفضل ، وكيف استبدل عليه بما فيه من المصلحة وحكم العقل ، أفليس هذا الاصلاح الأعلى على لسان أفضل النبيين والمرشدين ، دليلاً على أنه وحي من الله تعالى قد أكمل به الدين ؟ بلى وأنا على ذلك من الشاهدين . ولا يجحده إلا من سفه نفسه فكان من الجاهلين

(الثانية) مباغة المسيح عليه السلام في التزهيد في الدنيا والامر بتركها وضم الغنى حتى جعل دخول الجمل في ثقب الابرة أبسر من دخول الغني ملكوت السموات . ونقول ان هذه المسألة وسابقتها إنما كانتا إصلاحاً مؤقتاً لا إسراف اليهود وغلوهم في عبادة المال حتى أفسد أخلاقهم ، وآثروا دنياهم على دينهم ، والغلو يقاوم مؤقتاً بضده . وكذلك كانت دولة الرومان السالبة لاستقلال اليهود وغيرهم دولة مسرفة في الظلم والعدوان ، والفسق والطغيان

وأما الاسلام فهو دين البشر العام الدائم فلا يقرر فيه إلا ما هو لمصلحة الناس . كلهم في دينهم ودنياهم . وهو في هذه المسألة ذم استعمال المال فيما يضر من الاسراف والطغيان ، وضم أكله بالباطل ومنع الحقوق المفروضة فيه والبخل به عن الفقراء والضعفاء . ومدح أخذه بحقه وبذله في حقه وإيقافه في سبيل الله بما ينفع الناس ويعز الملة ويقوي الامة ، ويكون عوناً لها على حفظ حقيقتها واستقلالها ؛ وسرى في المقصد الثامن ما هو أعظم من هذا في إصلاحه المالي

فهذه المسألة وما قبلها مما أكمل الله تعالى به الدين، فيما أوجاهه من كتابه الى محمد رسول الله وخاتم النبيين، وما كان لرجل أمي ولا متعلم أن يصل بعقله الى أمثال هذا الاصلاح لتعاليم الكتب السماوية التي يتعبد بها الملايين من البشر ولكتب الحكماء والفلاسفة أيضا فهل الاقرب الى العقل أن يكون بوحى من الله عز وجل، أم من نفس محمد ﷺ؟

ومها أنس من شيء فلن أنسى أول كلمة في المفاضلة بين فضائل الاسلام والمسيحية طرقت سمعي ووعاها قلبي، أنحسبون أنني سمعتها من أحد شيوخنا الاعلام كالعلامة الشيخ حسين الجسر او الاستاذ الامام؟ لا لا، انما سمعتها من أكبر وجهاء النصارى في طرابلس الشام، (اسكندر كاستفليس) الذي كان قنصل دولتي روسية وأمانية معا، جتته من قبل والدي في مسألة مالية وأنا تلميذ، ولكن يسمع اتني عصري حر الفكر، فلما انتهى الحديث الذي جتته من أجله فتح لي باب الحديث في الامور القومية والوطنية والترقي العصري، فسمع مني انتقادا لتقصير مسلمي بلادنا وتأخرهم عن غيرهم خلافا لما يرشدهم اليه دينهم ولم يكن يتوقع هذا مني، فعاملني بمثل حررتي، على ما كان يصفه به وجهاء بلادنا من التعصب الديني السياسي لا الاعتقادي، وكان مما قاله هذه الكلمة: ان في الاسلام فضائل كالجبال أو أشمخ وأرسخ ولكنكم دفتتموها حتى لا تكاد تعرف او ترى، ونحن عندنا شيء قليل ضئيل ككلمة «حب الله واقرب» فازلنا نعطه ونمده وقول الفضائل المسيحية حتى ملأ الدنيا كلها

(شبهة فلسفية على عمل الخير لمرضاة الله تعالى)

على ذكر الفلاسفة أذكر شبهة لمقلدتهم على الفضائل وعمل الخير بهداية الدين يلوكونها بالسنتهم ولا يعقلون فسادها، وهي أن الحال البشري أن يعمل الانسان الخير لنباه أولاده خير لا لعلة، ويعبدون من أكبر العلل أن يعمل لمرضاة الله او رجاء في ثواب الآخرة أو خوفا من عقابها. حتى انني قرأت لكاتب اشهر بأنه يمدح

الاسلام ويدافع عنه مقالا يهذي فيه بهذه الفلسفة. ومعنى هذا إن كانوا يقيمون إن من النقص في الانسان أن يقصد بعمل الخير والبر ما أرشد اليه الدين من تزكية نفسه وترقية روحه، بحيث تكون راضية مرضية عند رب العالمين ذي الكمال المطلق الأعلى وأهلا لجواره في دار كرامته. وإنما يكون كاملا اذا خرج عن طبعه، وقصد بعمله النفع لغيره دون تزكية نفسه ودون إرضاء ربه، أو عمل العمل لذاته أي للمصلحة ولا منفعة فيه، وهذا سفه وعبث ينزه عنه العقلاء

(فان قيل) بل تقصد به المصلحة عامة أو المنفعة الخاصة بغير العامل (قائنا) ان هذا مما شرعه الدين وجعله مما يرضي الله تعالى ونال به ثوابه، فهل تشرطون في كونه خيرا أن يكون فاعله كافرا بالله لا يبتغي رضوانه ولا ثوابه، وأن يحب نفع الناس بشرط أن لا ينتفع هو بعمله فيما لا يضرهم؟ ألا ان هذا من الحماقة والسفه، لا من الحكمة والفلسفة مثال ذلك ان جميع الصدقات اواجبة والمستحبة من الخير الذي يفضل بها المؤمن غيره على نفسه وأهله، وقدمدح الله الا يشار على النفس، حتى مع الحاجة والفقر، من أنصار نبيه ﷺ ورضي عنهم، وذم الرياء فيها وفي كل عمل وهو منعمة دنيوية. ولما يفعل غير المؤمن خيرا إلا لاجل الرياء والسمعة. أفتمولون انه مع هذا من الخير، وإنما يخرج من محيط الخير، أن يرتفع به إلى القربة عند الله عز وجل؟ وأي خير وفضل وكمال. أعلى من القرب إلى ذي العزة والجلال؟

وجملة القول ان أركان الدين الثلاثة مأثورة عن جميع الملل القديمة، وذلك دليل على أن أصلها واحد وهو الوحي وهداية الرسل، وأنه كان قد دب إليها الفساد بتعاليم الوثنية وبدعها، فجاء محمد النبي الأمي بهذا القرآن من عند الله تعالى فأصلح ما كان من فسادها، الذي جعلها غير كافية لسعادة البشر الآخذين بها، من شوب الايمان بالله بالشرك، وتشبيه الخالق بالخلق، وجعل الجزاء بالمحابة وفداء، بالحق والعدل، وجعل العبادات تقاليد كاللعب واللهو، غير مشورة لتزكية النفس، ولا راجحة في ميزان العقل، فجاءت عبادات الاسلام وآدابه كلها معقولة مكملة لفطرة الانسان

المقصد الثاني من مقاصد القرآن

﴿ بيان ما جهل البشر من أمر النبوة والرسالة ووظائف الرسل ﴾

كانت العرب تنكر الوحي والرسالة إلا أفراداً من بقايا الخنفاء في الحجاز وغيره ، ومن دخل في اليهودية والنصرانية لمجاورته لأهلها ، وكانت شبه مشركي العرب وغيرهم على الوحي استبعاد اختصاص الله تعالى ببعض البشر بهذا التفضيل على سائرهم ، وهم متساوون في الصفات البشرية بزعمهم ، ويقرب منهم اليهود الذين أنكروا أن يختص الله تعالى بهذه الرحمة والمنة من يشاء من عباده ، وأوجبوا عليه أن يحصر النبوة في شعب إسرائيل وحده ، كأن بقية البشر ليسوا من عباده الذين يستحقون من رحمته وفضله ما أعطاه لليهود من هداية النبوة . على أنهم وصفوا الانبياء بالكذب والخداع والاختيال على الله ومصارعته ، وارتكاب كبائر المعاصي كما تقدم في المقصد الاول ، ووافقهم النصارى على حصر النبوة فيهم ، وأثبتوا قداسة غير الانبياء من رسل المسيح وغيرهم من البابوات والعباد ، وعبدوهم أيضاً ، على أنهم نقلوا عن بعض خواص تلاميذه إنكارهم إياه في وقت الشدة ، وعن بعضهم أنه أسلمه لأعدائه ، وأنه آمن اكبرهم وسماه شيطانا وأنه قال لهم « كلهم تشكون في في هذه الليلة » واتخذ كل من الفريقين أحبارهم ورهبانهم وقسوسهم أربابا من دون الله تعالى بأن نحلوهم حق التشريع الديني من وضع للعبادات والتحليل والتحریم (١) وكل ذلك من الكفر بالله وإنكار عدله ، وعموم رحمته وفضله ، ومن مفسدات نوع الانسان ، وجعل السواد الاعظم منه مستعبداً لأفراد من أبناء جنسه ، فأبطل الله تعالى كل ذلك بما أنزله من كتابه على خاتم النبيين (ص)

بعثة الرسل في جميع الأمم ووظائفهم

قال الله عز وجل (١٦ : ٣٦) وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ، فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ) وقال (٣٥ : ٢٤) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ) وكرم الله الانسان بجعل التشريع الديني من حقوقه وحده ، وانما النبيون والرسل مبالغون عنه وليسوا بمسيطرين على الاقوام ، وطاعتهم تابعة لطاعته ، فقد أبطل ما محلهم الناس من ربوبية التشريع ، كما أبطل عبادتهم وعبادة من دونهم من القديسين ، وبذلك تحرر الانسان من الرق الروحي والعقلي الذي منيت به الامم المتدنية ولا سيما البوذيين والنصارى ولضلال جميع أهل الملل والنحل في ذلك كرر هذا الاصلاح في كثير من السور بالتصريح بأن الرسل بشر مثل سائر البشر يوحي إليهم ، وبأنهم ليسوا إلا مبلغين لدين الله تعالى الموحى إليهم . قال تعالى لحائتهم الماكل لدينهم في خاتمة سورة الكهف (١٨ : ١١٠) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ) الآية وقال في جملتهم من وسطها (٥٦١) وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ) ومثلها في سورة الانعام (٦ : ٤٨) وفي معناها آيات اخرى بمشهم مبشرين ومنذرين بالقول والعمل ، لا متصرفين في الكون بالنفع والضرر بأنفسهم ولا بتأثيرهم في ارادته تعالى . وقد شرحنا ذلك في تفسير قوله تعالى (٧ : ١٨٨) قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ الشُّوْءُ ، إِنَّ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) وقد بين ذلك النبي ﷺ بأقواله وأعماله وأخلاقه في العبودية والتواضع بما لا يدع لتأويل الآيات سبيلا . حتى

فطن لذلك بعض علماء الافرنج الاحرار فقال: إن محمداً لما رأى خزي النصرارى بتأليه نبيهم وعبادته لم يكتف بتلقيب نفسه برسول الله حتى أمرهم بأن يقولوا: « أشهد ان لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله »

اطوار النصرارى وما انتهوا اليه في الدين

ومن عجيب أمر النصرارى ان وثني أوربة غلبوهم على دينهم لضعفهم وتفرقهم بعدم وجود نظام يجمع أمرهم بقوة حاكمة فتصدى لجمعهم الملك قسطنطين فانزعجهم من دين التوحيد الذي كان عليه ابراهيم وموسى وعيسى وسائر النبيين ، وأسس لهم كنائس كما كل قومه الوثنيين ، ورياسة دينية رومانية تناوبها اليهود والساميين ، إلا فاسفة بولس عدو المسيح والمسيحيين ، ثم وضع لهم الاحبار والاساقفة من اليونان والروم عقائد وعبادات وشرائع وشعائر كثيرة ، لم يبن شيء منها على أساس التوراة التي هي ناموس موسى (ع)م) وقلوا عن المسيح انه قال وقوله الحق انه ما جاء لينقض الناموس وانما جاء ليتممه ، ولكن هؤلاء الاوربيين قضوه ووضعوا لأنفسهم نواميس أخرى مخالفة له ولما تم به المسيح من الزهد وترك عبادة المال والشهوات والرياء وحب الرياسة والبغي والعدوان ، وعادوا أتباعه اليهود في كل شيء . ولما بعث خاتم النبيين الذي بشر به موسى وعيسى والنيبون عليه وعليهم للصلاة والسلام ، وبين للفريقين - اليهود والنصارى - ما اختلفوا فيه من أمر الدين ورأوا اليهود والنصارى يتبعونه لهمهم بأنه جدد لهم دين أنبيائهم عادوه وحاربوه كما تقدم ، ولكنهم استفادوا من نوره ﷺ ما حملهم على إصلاح كثير في دينهم قاتل عليه بعضهم بعضا حتى صارت أوربة فريقين متكاثفين في القوة . وكل ذلك معروف بالتفصيل في العالم كله

ثم حدث بعد ذلك ان حزب دين الإصلاح (البروتستنت) ما زال

يتدرج فيما خالف فيه دين الكاثوليك والأرثوذكس وهو حرية البحث في الدين حتى صار الملايين من أتباعه لا يؤمنون بعصمة كتب العهد القديم ولا العهد الجديد، ثم عقدوا مجامع ومناظرات قرروا فيها بطلان القول بألوهية المسيح ثم حدث في هذا العام ان جاهر الجمهور الاعظم في الممالك الجرمانية بوجوب بناء دين الامة على قواعد جنسها الآري وهدم قواعد الجنس السامي الدينية وأنبيائه من بني اسرائيل فبرز البابا يناهضهم ويصرح بأنهم يعودون الى الوثنية (القديمة) فلم من هذا الحدث الجديد ان الديانة النصرانية التي هدمها الشيوعيون في شرق أوربة وآسية (الروسية) وطفقوا يشنون الدعوة بهدمها هي وسائر الاديان، والتي تلام الفاشيون من الجرمان بهدمها في قلب أوربة - ليست بالديانة التي ثبتت في عواصف هذه الفتن الجديدة، وإنما الذي يقوى على ذلك دين الاسلام وحده، فلا سبيل إلى إنقاذ أوربة وسائر العالم من فوضى كفر التعطيل والاباحة إلا به

مسألة الشفاعة

وأما مسألة الشفاعة التي كان مشركو العرب يثبتونها لمعبوداتهم في الدنيا، وأهل الكتاب يثبتونها لأنبيائهم وقديسيهم في الدنيا والآخرة، فقد نفاها القرآن وأبطلها وأثبت أن الشفاعة لله جميعاً وأنه لا يشفع عنده أحد إلا بأذنه (٢٨: ٢١) يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ٢٩ ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين (وقد فصلنا ذلك في تفسير سورة البقرة وغيرها مراراً) ومنه ان الشفاعة الثابتة في الاحاديث غير الشفاعة الوثنية والنصرانية المنفية في القرآن) وقد كرر هذه المسألة في بضع وعشرين آية من السور المكية والمدنية

فأنت ترى ان القرآن قد بين حقيقة هذه المسألة التي صل فيها الملايين من البشر فأشركوا بالله مالا يضرهم ولا ينفعهم. فهل كان هذا مما استمده محمد ﷺ من علماء أهل الكتاب فجادوا به عليه وبخلوا به على أقوامهم؟ أم هو تابع من نفسه وهو يقتضي أن ما ينبع منها أعلی من وحي الله غيره على حسب دعوى أتباع هؤلاء الرسل؟ كلا انما هي من وحي الله تعالى له

الايمان بجميع الرسل وعدم التفرقة بينهم

وما بينه القرآن في مسألة الانبياء والرسل أنه يجب الايمان بجميع رسل الله تعالى وعدم التفرقة بينهم في الايمان، وان الايمان ببعضهم والكفر ببعض كالكفر بهم كلهم، لان إضافتهم إلى الله تعالى واحدة، ووظيفتهم في إرشاد المنكافين تبليغ رسالته وشرعه واحدة. قال تعالى في خواتيم سورة البقرة (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ) وبين في سورة النساء أن التفرقة بينهم في الايمان هو الكفر حق الكفر، وان الايمان بالجميع بغير تفرقة هو الايمان حق الايمان، وهو في الآيات (١٥٠:٤ - ١٥٢)

وهذا مبني على الايمان بان دين الله تعالى الذي أرسل به جميع رسله واحد في اصوله ومقاصده من هداية البشر وإصلاحهم وإعدادهم لسعادة الدنيا والآخرة، وانما كانت تختلف صور العبادات والشرائع باختلاف استعداد الاقوام، ومقتضيات الزمان والمكان، حتي بعث الرسول العام بالأصول الموافقة لكل زمان ومكان، مع الاذن بالاجتهاد في المصالح التي تختلف باختلاف الاطوار والاحوال، فالايمان ببعضهم دون بعض في رسالتهم الالهية، اتباع للهوى في الايمان وجهل بحقيقة الدين فلا يعتد به لأنه عين الكفر

وقد انفرد بهذه الحقيقة العادلة المسلمون دون أهل الملل الوثنية من المجوس والهندوس، ودون أهل الكتاب الذين لا يؤمنون إلا بأنبياء بني إسرائيل وأبيهم وجدهم، على ما يذكرون في كتبهم من عيوب ومنكرات وفواحش يرمونهم بها (كما تقدم في ص ٢٨ و ٤٣)

وأما المسلمون فيؤمنون بأن رب العالمين أرسل في كل الامم رسلا هادين مهدين، فهم يؤمنون بهم إجمالا، وبما قصه القرآن عن بعضهم تفصيلا، فقد كرم الاسلام بهذا نوع الانسان، ومهد به السبيل للالفة والاخوة الانسانية العامة التي نبينها بعد، فالمسلم صديق ومحب وحيب لجميع الانبياء والمرسلين في الدنيا والآخرة، وتجاه هذا يصح أن يقال ان غير المسلم عدو لله ولهم كلهم، لان تكذيبه لبعضهم تكذيب لرسالتهم ولرسالهم سبحانه

وهذه المزية لامة محمد (ص) من المزايا التي كانت بها حجة على سائر الامم وأهلا لمنصب الامامة فيها، قال تعالى (٢: ١٤٣) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) فهي الوسط العدل في الايمان بجميع الرسل وما جاءوا به من اركان الدين الثلاثة كما بيناه في المقصد الاول وفي غير ذلك

واما شهادتها على الناس فهي تابعة لما كلفته من دعوة جميع الامم الى حقيقة دين الرسل التي تلقتها من خاتم النبيين ﷺ وحلت محلها في الدعوة الى ما جاء به من بعده فهو ﷺ يشهد عليها يوم القيامة كما يشهد كل رسول على قومه الذين كانوا في زمانه كما قال تعالى (٤: ٤١) فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا)

ومن المعلوم بنص القرآن ان بعض الانبياء والرسل أفضل من بعض بتخصيص الله تعالى، وبما كان لكل من عمل في نفع العباد وهدايتهم وهي متفاوتة جداً.

قال الله تعالى (٢: ٢٥٢) تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضُهُمْ دَرَجَاتٍ، وَآتَيْنَا عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ) ومن المعلوم بالدلائل العقلية والنقلية ان محمداً خاتم النبيين ، الذي أكمل الله به الدين ، وأرسله رحمة للعالمين ، هو الذي رفعه الله عليهم كلهم درجات كما بيناه في تفسير تلك الآية بالاجمال ^١ وفصلناه في هذا الكتاب أقصد التفصيل

وانك لتجد مع هذا أنه ﷺ قال لا تباعه « لا تفضلوا بين أنبياء الله » قاله إنكاراً على رجل من المسلمين لطم يهودياً لانه قال : لا والذي اصطفى موسى على البشر . فشكاه إلى النبي ﷺ فغضب غضباً شديداً على صاحبه المسلم وقاله وبين مزية لموسى عليها الصلاة والسلام في الآخرة ثم قال « ولا أقول ان أحداً أفضل من يونس بن متى » والحديث رواه الشيخان في الصحيحين ، وفي روايات أخرى للبخاري « لا تخبروا بين الانبياء » وفي بعضها « لا تخبروني على موسى » والغرض من ذلك كله منع المسلمين من تنقيص أحد من الانبياء عليهم السلام ، ومن التعادي بين الناس لأجلهم ، ومن الغلو فيه ﷺ وإلا فهو قد قال في تعليل نهيه عن سؤال أهل الكتاب عن شيء « والله لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حلّ له إلا أن يتبعني » رواه أبو يعلى من حديث جابر

ذلك بأن مثل الانبياء كمثل ولاية الافطار في مملكة واحدة ، أو مثل قواد الجيش في المعسكرات المتفرقة لدولة محدودة ، ومثل خاتمهم صاحب الرسالة العامة ، كمثل القائد والوالي العام عند ارادة توحيد السياسة والقيادة ، وهذا معنى تبشير الانبياء بمحمد ﷺ (٢) وأخذ الميثاق عليهم بوجوب الايمان به ونصره واتباعه اذا جاءهم فرضاً كما تراه في قوله تعالى (٣: ٨١) وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ (الآية (٣))

«١» راجع أول ج ٣ تفسير (٢) راجع تفصيل ذلك في ص ٢٥١ ج ٩ منه

«٣» راجع تفسيرها في ص ٣٤٩ ج ٣ منه

مبحث في الآيات الكونية التي أيد الله بهارسله (وما يشبه بعضها من الكرامات، وما يشته بها من خوارق العادات) (وضلال الماديين والخرافيين فيها)

تكلمنا في الفصل الثاني في آيات الانبياء التي تسميها النصارى بالعجائب ويسميها علماء الكلام منا بالمعجزات، ويعدونها قسما من خوارق العادات، وكان الكلام فيها هنالك للمقابلة والموازنة بين آيات الانبياء الكونية وآية خاتمهم الكبرى العلمية العقلية الدائمة وهي القرآن، وتأثير كل في الاهتداء الى الايمان. ونأتي هنا بمبحث آخر في تلك الآيات. وما يشبهها أو يشته بها من الكرامات، وسائر خوارق العادات، وما كان من إصلاح الاسلام لضلال البشر فيها. والصعود بهم الى أعلى مراقي الايمان، اللاتق بطور الرشد العقلي لنوع الانسان، والعلم الواسع بسنن الاكوان، الذي منحوه برسالة محمد خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام. فنقول:

آيات الله نوعان

آيات الله تعالى في خلقه نوعان: (النوع الاول) الآيات الجارية على سننه تعالى العامة المطردة في نظام الخلق والتكوين وهي أكثرها وأظهرها وأدلها على كمال قدرته وإرادته، وإحاطة علمه وحكمته، وسعة فضله ورحمته (والنوع الثاني) الآيات الجارية على خلاف السنن المعروفة للبشر. وهي أقلها، وربما كانت أدلها عند أكثر الناس على اختياره عز وجل في جميع ما خلق وما يخلق، وكون قدرته ومشيتته غير مقيدتين بسنن الخلق التي قام بها نظام هذا العالم، فالسنن مقتضى حكمته واتقانه لكل شيء خلقه، وقد يأتي بما يخالفها لحكمة أخرى من حكمه البالغة، ولولا هذا الاختيار لكان العالم كآلات التي تتحرك بنظام دقيق لاعلم لها ولا

ارادة ولا اختيار فيه ، كآلة الساعة الصغيرة التي تعرف بها أوقات الليل والنهار وآلات البواخر والمعامل الكبيرة، والماديون المنكرون لوجود الخالق والفلاسفة الذين يسمونه العلة الفاعلة للوجود يعبرون عن هذا النظام (بنظرية الميكانيكية) وهم يتكلفون اختراع العلل والاسباب لكل ما يرونه مخالفاً لسنة المعرفة، ويسمون مالا يهتمون إلى تعليله من الامور المخالفة لها بفئات الطبيعة، وقيسون ما لم يظهر لهم تعليله على ما اقتنعوا بتعليل له وإن لم يقم عليه دليل يثبت، ويقولون إن ما لم يظهر لنا اليوم فلا بد أن يظهر لنا أو لمن بعدنا غداً . وهذا دأبهم في جميع نظرياتهم العلمية إذ ليس عندهم علم قطعي بشيء منها . وهذا مرادهم من تسميتها بالنظريات ، فمعناها المسائل الموضوعة للنظر والبحث والاستدلال .

سنن الله في عالم الشهادة وعالم الغيب

ونحن معشر المؤمنين بعالم الغيب وما فيه من الملائكة وهم جند الله الاكبر وما لهم من التأثير والتدبير في عالم الشهادة المادي باذن الله تعالى وتسخير، نعتقد أن الله تعالى سنا في نظام ذلك العالم غير سننه الخاصة بعالم المادة ، وأن الانسان هو حلقة الاتصال بين العالمين فجسده ووظائفه الحيوية من عالم الشهادة، وروحه من عالم الغيب ، وهو مادام في عالم الجسد المادي فان جميع مداركه تكون مشغولة بعالم المادة وسننها ، وحاجاته الشخصية والتنوعية منها، فيحجب ذلك عن عالم الروح الغيبي حتى روحه وهي الفصل المقوم لحقيقته ، وانما يكون الظهور والسلطان للروح على الجسد في الحياة الآخرة ، إلا من اصطفى الله تعالى من رسله وأنبيائه فأعدهم بفضل ورحمته للاتصال بملائكته والتلقي عنهم ، وأظهرهم على ما شاء من غيبه ليلفوا عباده عنه ما أمرهم به ، وقد يشرف غيرهم من الاصفياء وأصحاب الرياضات النفسية على بعض الخواص الروحية دون ما يطلع عليه الله أنبياءه ورسله عليهم السلام

الغيب قسمان حقيقي وإضافي

الغيب ما غاب علمه عن الناس وهو قسمان: غيب حقيقي لا يعلمه إلا الله، وغيب إضافي يعلمه بعض الخلق دون بعض لا سبب يختلف باختلاف الاستعداد الفطري والعمل الكسبي، ومن أظهره الله على بعض الغيب الحقيقي من رسله فليس لهم في ذلك كسب لانه من خصائص النبوة غير المكتسبة^(١)

ومن دونهم أفراد من خواص أتباعهم أو توا نصيبا من الاشراف على ذلك العالم بانكشاف ما للحجاب، وإدراك ما لشيء من تلك الانوار، كان بها إيمانهم برسلمهم فوق إيمان أهل البرهان. وقد روي عن أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه أنه قال: لو كشف الحجاب ما ازددت يقينا. يعني والله أعلم أن الله قد شرح صدره للإسلام فكان على نور من ربه بلغ به مقام الاطمئنان. وقد صح عن بعض من دونه من الصحابة في العلم والعرفان، أنهم رأوا النور الغيبي بالعيان، ورأوا الملائكة عليهم السلام، في غير ما كانوا يرون جبريل متمثلا بصورة إنسان

ومن دون هؤلاء أفراد آخرون قد يكون لهم من سلامة الفطرة، أو معالجة النفس بأنواع من الرياضة، أو من طرء مرض يصرف قوى النفس عن الاهتمام بشهوات الجسد، أو من سلطان إرادة قوية على إرادة ضعيفة تصرفها عن حسها، وتوجه قواها النفسية إلى ماشاءت أن تدركه لقوتها الخاصة بها—قد يكون هؤلاء الافراد في بعض الاحوال من قوة الروح ما يلحقون به بعض الاشياء أو الاشخاص البعيدة عنهم، وتمثل لهم بعض الامور قبل وقوعها مرتسمة في خيالهم فيخبرون بها فتقع كما أخبروا، وثبت هذا وذاك عند بعض الماديين في هذا الزمان

(١) راجع تحقيق هذا الموضوع بالتفصيل في الصفحات ٤٢١، ٤٥٦، ٤٦٩

من جزء التفسير السابع وملخصه في (ص) ١٣ من الجزء التاسع

الخوارق الحقيقية والصورية عند الامم

إن الامور التي تأتي في الظاهر على غير السنن المعروفة، أو الخارقة للعادات المألوفة، منقولة عن جميع الامم في جميع العصور تقلا متواتراً في جنسه دون جميع أنواعه أو افراد وقائعه، وليست كلها خوارق حقيقية، فان منها ماله أسباب مجهولة للجهل، وور، وان منها لما هو صناعي يستفاد بتعليم خاص، وان منها لما هو من خصائص قوى النفس في توجيهها إلى مطالبها، وفي تأثير اقوياء الارادة في ضعفائها، ويدخل في هذين المكاشفة في بعض الامور والتنويم المغناطيسي، وشفاء بعض المرضى ولا سيما المصابين بالامراض العصبية التي يؤثر فيها الاعتقاد والوهم، ومنها بعض أنواع العمى والفالج، فان من الناس من يفقد بصره بمزض يطرأ على أعصاب عينيه وهما صحيحتان تلمعان في وجهه، أو يغشاها بياض عارض مع بقاء طبقاتها صحيحة، وليس منه الكه والعمى الذي يقع بطمس العينين وغثورهما كالذي أبرأه المسيح عليه السلام باذن الله تعالى. ومنه انخداع البصر بالتخييل الذي يحذقه المشعوذون، ومنه ما فعله سحرة فرعون الميين بقوله تعالى (فاذا حبا لهم وعصيتهم يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى) ومنه انخداع السمع كالذي يفعله الذين يدعون استخدام الجن إذ يتكلمون ليلاً بأصوات غريبة غير أصواتهم المعتادة فيظن مصدقهم ان ذلك صوت الجنى، وقد يتكلمون نهاراً من بطونهم من غير أن يجر كوا شفاهم (١) فلا ينبغي أن يوثق بشيء من أخبارهم ولا من نقلهم. ومن الدلائل على كذب المنتحلين لهذه الغرائب

(١) قد حدث في هذه السنة افتضاح دجالة اتخذت دعوى استخدام الجن صناعة لها فرفعت عليها قضايا وقد قرأنا في بعض الجرائد عند تقديم هذه الكراسة لجمعها للطبعة الثانية ان حيلتها الصناعية بالكلام الذي يسمع صوته من جوفها وتوهم به المخدوعين انه كلام الجنى قد عرفت في أثناء التحقيق

انهم جعلوها وسيلة لما يشههم الدينثة ، وانهم لو كانوا صادقين فيها لتنافس الملوك وكبار علماء الكون في محبتهم والانتفاع بهم
وقد يلينا هذه الانواع من الخوارق الصورية في بحث السحر من تفسير سورة الاعراف (١) وفي المقالات التي عقدناها للكرامات وأنواعها وتعليقها في المجلد الثاني من المنار وأتمناها في المجلد السادس منه

إن عوام الشعوب الذين يجهلون تواريخ الامم وما وجد عند كل منها من هذه الغرائب وما كشفه العلماء من حيل فيها وعلل ، يقترون بما عندهم منها ، ويخضعون للدجالين والمحتالين الذين ينتحلونها، ويمكنونهم من أموالهم فيسلبونها، ويأمنونهم على أعراضهم فينتهكونها ، ولا سيما اذا كانوا يأتون ما يأتون منها على أنه من كرامات الاولياء وعجائب القديسين، ويقل تصديق هذا والانقياد لأهله حيث ينتشر تعلم التواريخ وما عند جميع الامم من ذلك، على أنه لا يزال كثيراً في جميع بلاد أوربة وأمريكة ولعله دون ما في بلاد الشرق ولا سيما القرى وهمج الزوج وغيرهم

يبد أن آيات الله الحقيقية التي نسميها المعجزات هي فوق هذه الاعمال الصناعية الغريبة لا كسب لأحد من البشر ولا صنع لهم فيها، وإن ما أيد به رسله منها لم يكن بكسبهم ولا عملهم ولا تأثيرهم ، حتى ما يكون بدؤه بحركة إرادية يأمرهم الله تعالى بها . ألم يهد لك كيف خاف موسى عليه السلام حين تحولت عصاه حية تسعى ، فولى مدبراً ولم يعقب^(٢) لشدة خوفه منها، حتى هدأ الله روعه وأمن خوفه ؟ ألم تقرأ قوله لمحمد ﷺ (٨ : ١٧) وما رَمِيتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى) ألم تفهم ما أمره الله تعالى أن يجيب به مقترحي الآيات عليه من قومه بقوله (١٧ : ٩٣) قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا) . وقوله (قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ) وما في معناها

(١) راجع ص ٤٥ - ٦٠ ج ٩ من تفسير المنار
(٢) يعقب بتشديد القاف أي لم يلتفت ولم يرجع

الفرق بين المعجزة والكرامة

ان الله تعالى لم يؤيد رسله بما أيدهم به من المعجزات الا لتكون حجة لهم على أقوامهم يهدي بها المستعد للهداية . وتحق بها الكلمة على الجاحدين المعاندين فتقع عليهم العقوبة ، وذلك لا يكون إلا باظهارها ، فهو واجب لاتمام تبليغ الدعوة التي أرسلوا لتبليغها . وما كان الانبياء يدعون الله تعالى بشيء من خوارق العادات غير ما يؤيدهم به من الآيات الدالة على صدقهم في دعوى الرسالة الا لضرورة كالاستسقاء . وكان خاتمهم وأكرمهم على الله تعالى يصبر هو وأهل بيته وأصحابه على المرض والجوع والعطش ولا يدعو لهم ﷺ بما يزيل ذلك الا نادرا . وقد سأله المرأة التي كانت تصرع أن يدعو الله لها بالشفاء فأرشدتها الى أن الصبر على مصيبتها خير لها ، فشكت إليه انها تتكشف عند النوبة وسألته أن يدعو لها ألا تتكشف فدعا لها واستجاب الله دعاءه

وكان المشركون يقترحون عليه الآيات الكونية كآيات موسى وعيسى (ع.م) فيجيبهم بأمر الله تعالى بما هو صريح في أن الآيات عند الله وهو القادر عليها دون الرسول ومنه التعجب من طلبهم بقوله تعالى له (١٧: ٩٣) قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا (وفي معناه ما حكاه من جواب الرسل الاولين لأقوامهم الذين كانوا يطالبونهم بمثل ذلك بقوله (١٤: ١١) قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ)

والاصل في الكرامة الإخفاء والكتمان وكثيراً ما يكون ظهورها فتنه

وما كان أهلها يظهرون ما لهم كسب فيه منها كالملكاشفة الا لضرورة وقد صرح بهذا محققو العلماء والصوفية فهو متفق عليه بينهم خلافا للمشهور بين العامة

قال التاج السبكي في سياق حجج منكري جواز وقوع الكرامات من طبقات الشافعية :
(الحجة الثانية) قالوا لو جازت الكرامة لاشتبهت بالمعجزة فلا تدل المعجزة

على ثبوت النبوة . والجواب منع الاشتباه بقرن المعجزة بدعوى النبوة دون الكرامة فهي إنما تقتزن بكمال اتباع النبي من الولي . وأيضاً فالمعجزة يجب على صاحبها الاشتهار، والكرامة مبناها على الاخفاء ، ولا تظهر إلا على الندرة والخصوص لا على الكثرة والعموم ، وأيضاً فالمعجزة يجوز أن تقع بجميع خوارق العادات ، والكرامة تختص ببعضها كما بيناه من كلام القشيري وهو الصحيح اه ثم قال

(الحجة الرابعة) قالوا لو جاز ظهور خوارق العادات على أيدي الصالحين لما أمكن أن يستبدل على نبوة الانبياء بظهورها على أيديهم لجواز أن تظهر على يد الولي سرا ، فان من أصول معظم جماعتكم أن الاولياء لا يظهرون الكرامات ولا يدعون بها ، وإنما تظهر سرا وراء ستور ، ويتخصص بالاطلاع عليها آحاد الناس ، ويكون ظهورها سرا مستمرا بحيث لا يلتحق بحكم المعتاد ، فاذا ظهر نبي وتحدث بمعجزة جاز أن تكون مما اعتاده أولياء عصره من الكرامات فلا يتحقق في حقه خرق العادة ، فكيف السبيل إلى تصديقه مع عدم تحقق خرق العوائد في حقه ؟ وأيضاً تكرر الكرامة يالحقها بالمعتاد في حق الاولياء وذلك يصددهم عن تصحيح النظر في المعجزة إذا ظهر نبي في زمنهم »

وقال في الجواب : لأئمتنا وجهان الاول منع توالي الكرامات واستمرارها

حتى يصير في حكم العوائد ، وإنما يجوز ظهورها على وجه لا تصير عادة فلا يلزم ما ذكره . والثاني - وهو لمعظم أئمتنا - قالوا انه يجوز توالي الكرامات على وجه الاختفاء بحيث لا يظهر ولا يشيع ولا يعتاد . لئلا يخرج الكرامات عن كونها كرامات اه

وأقول إن المحققين من الصوفية يوافقون علماء الكلام والاصول على منع
توالي الكرامات وتكرارها ، ومنع إظهارها . قال الشيخ محي الدين بن عربي
ان ما يتكرر لا يكون كرامة لانه يكون عادة وإنما الكرامة من خوارق العادات .
وقال الشيخ احمد الرفاعي ان الاولياء يستترون من الكرامة كما تستتر المرأة من
دم الحيض ، ومزحوا بأنها ليست بشرط للولاية ولا دليل عليها
جهل هذا الاصل المحكم من عقائد الاسلام أدعياء العلم من سدة القبور
المعبودة وغيرهم ، فظنوا أن المعجزات والكرامات أمور كسبية كالصناعات العادية ،
وان الانبياء والصالحين يفعلونها باختيارهم في حياتهم وبعد مماتهم متى شاؤا ،
ويقرون (١) الناس باتيان قبورهم ولو بشد الرحال إليها لدعائهم والاستغاثة بهم عندها
ليدفعوا او يرفعوا عنهم نزول البلاء والشدائد التي يعجزون عن دفعها بكسبهم
وكسب أمثالهم من البشر بالاسباب العادية كالاطباء مثلاً . ويتقربون اليهم بالنذور
والقرايين كما كان المشركون يتقربون إلى آلهتهم من الاصنام وغيرها . وهم يأكلونها
سحتاً حراماً ، ويخبرونهم بأن دين الله تعالى يأمرهم أن يعتقدوا أنهم يقضون
حوائجهم ، حتى قال بعضهم انهم يخرجون من قبورهم بأجسادهم ويتولون قضاء
الحاجات وكشف الكربات . ولو كانت كذلك لما كانت من خوارق العادات .
وقال بعضهم في كتاب مطبوع ان فلاناً من الأقطاب يميت ويحيي ، ويسعد ويشقى
ويقهر وينغي ، بل قالوا وكتبوا ما هو أبعد من ذلك غن نصوص الكتاب والسنة
القطعية المحكمة ، والعقائد المجمع عليها المعلومة من الدين بالضرورة في الاصل وما
كان عليه مسلمو القرون الاولى ، فصارت بانتشار الخرافات والجهل من
الكرامات ، التي تؤول وتحرف لاجلها الآيات المحكمات . وقد فصلنا هذا في
تفسير النار مراراً ونجمله فيما يأتي :

(١) من الاغراء أي يحضونهم على ذلك ويرغبونهم فيه

الكافرون بالآيات صنفان

(مكذبون ومشركون : وعلاج كل منهما)

الكافرون بآيات الله تعالى صنفان : صنف يكذبها كلها ولا يؤمنون بشيء منها، وصنف يشرك بالله غيره فيها فينحلله ما هو خاص به عز وجل لا يقدر عليه سواه، بدعوى أن الله تعالى هو الذي أعطاهم القدرة الغيبية على ذلك وصرفهم في العالم كرامة لهم ، أي هو الذي أشركهم معه كما كان المشركون يقولون في حجهم : لييك لإشريك لك ، لإشريكها هو لك ، تملكه وما ملك ، وإنما يتحامون ألفاظ العبادة والشرك والخلق دون معانيها ، فيكذبون على الله تعالى وعليهم بما يكذبهم به كتابه المنزل ، ونبية المرسل ، وأنكهم يؤولون ما هو حجة عليهم ، ويحرفون ما هو شبهة لهم ، فيحتجون به على جهلهم ، كآية (٣٩ : ٣٤) هُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ) وهي كأمثالها في جزاء جميع المؤمنين المتقين في الآخرة . ويدكرون أن الله كان يرزق مريم عليها السلام بغير حساب ، وما كان رزقها من فعلها ، ولا يدري أحد كيف سخره الله لها ، ويدكرون وحية إلى أم موسى بارضاعه وإلقائه في اليم ، وما هو من فعلها أيضاً ، وقد قيل بنبوتهما ، ويدكرون عرش ملكة سبأ وهو من آياته تعالى لنبيه سليمان ، وليس في الآية تصريح برؤيته مستقرا عنده كيف كانت . فقيل ان الذي جاء به جبريل وقيل ملك آخر وقيل ولي هو وزير سليمان وهذا من الاسرائيليات غير المعقولة

وان إفساد هؤلاء الخرافين للبشر في دينهم ودنياهم لا شد من إفساد المنكرين للآيات المكذبة بها ، ذلك بأنهم أكبر أسباب هذا الانكار والتكذيب ، وصدقهم الآخرون فكذبوا بالدين من أساسه ، فدعوى تصرف الانبياء والصالحين في الكون قول علي الله بغير علم ، واقترأ على الله بكونه شرعاً لم يأذن به الله ، وهو أشد أنواع الكفر بالله ، لان ضرره متعدد بما فيه من إضلال الناس باعتقاد باطل يتبعه عبادة باطلة غير مشروعة

علاج خرافة تصرف الاولياء في الكون

أما الذين يشركون بالله في عبادته بجهلهم لآياته وتقليد أمثالهم من الجاهلين في خرافاتهم ، فلا علاج لهم إلا تعليمهم توحيد الله الخالص في ربوبيته وألوهيته بآيات القرآن ، دون نظريات كتب الكلام ، وتعليمهم وظائف الرسل وكونهم بشرًا اختصهم الله تعالى بوحيه لتبليغ عباده ما ارتضاه لهم من الدين بالقول والعمل ، وحصر اختصاصهم بالتعليم والارشاد تبشيراً واندازاً ، وتنفيذ أحكام شرعه فيهم بالعدل والمساواة ، ولم يؤتهم من التصرف الفعلي في خلقه ما يقدر به على هداية أقرب الناس وأحبهم إليهم بالطبع كالوالد والولد والزوجة ومن دونهم من أولي القربى ، فوالد إبراهيم الخليل عاش كافراً ومات كافراً عدواً لله ورسوله وخليفه ، وولد نوح أول الرسل إلى الامم مات كافراً ولم يأذن الله تعالى لنوح بحمله في السفينة فكان من الكافرين المغرقين ، وكان أبو لهب عم محمد حبيب الله ورسوله أشد أعدائه الصادين عنه المؤذين له ، وأنزل الله في ذمه ووعيده سورة من القرآن يتعبد بها المؤمنون إلى يوم القيامة لم ينزل مثلاً في أحد من أعدائه وأعداء رسوله ﷺ بل كان من كمال حكمة الله تعالى أن عمه الذي كفله ورباه وكف عنه أذى المشركين ما استطاع لم يؤمن به وقد عرض عليه أن ينطق بكلمة «لا إله إلا الله» ليشهد له بها يوم القيامة فامتنع فأنزل الله تعالى فيه (٥٦: ٢٨) إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ (رواه مسلم في صحيحه ، وقد شرحنا هذا الموضوع في تفسير قوله تعالى (٦ : ٧٤) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَسْرَ الْآيَاتِ^(١))ثم بينا في خلاصة هذه السورة (الانعام) وظائف الرسل عليهم السلام بما يحسن أن يراجع من يحب استيفاء هذا الموضوع (٢) وإذا كان الانبياء المرسلون لم يؤثروا القدرة على التصرف في الكون فكيف يؤثرون الاولياء وغيرهم

المنكرون للمعجزات

(وشبهه الخوارق الكسبية عليها)

وأما المنكرون للآيات فلا يمكن أن تقوم عليهم الحجة إلا بالقرآن كما تقدم ، فهم لا يصدقون ما ينقله اليهود والنصارى من آيات موسى وعيسى وغيرهما من النبيين (ع.م) ولا يسمعون صحة تواترها ، إذ يقيسون قلمهم لها على ما ينقله العوام في كل عصر عن بعض المعتقدين في بلادهم من الخوارق الخادعة التي مثارها الوهم والتخيل ، ويحتجون على ذلك بأن يوسفوس المؤرخ اليهودي المعاصر للمسيح (ع.م) لم ينقل للناس أخبار عجائبه التي قصها الاناجيل التي ألفت بعده ، ويعلمونها على تقدير صحة النقل بما يعلمون به الخوارق الصورية التي يشاهدونها في كل عصر ، فان لم يستطيعوا تعليلها قالوا انه لا بد لها من سبب كسبي يظهر لنا أو يعترف به فاعلوا كما وقع في أمثالها من صوفية الهندوس (الفقراء) كالارتفاع في الهواء وغير ذلك مما هو أغرب منه (كما بيناه في الكلام على عجائب المسيح من الفصل الثاني ص ٤٦-٥٢)

﴿عجوبة من خوارق الهند﴾

روت إحدى الجرائد المصرية في هذه الايام (١) من أخبار سائحي الافرنج في الهند حادثة لفقير من هؤلاء الفقراء اسمه سارجو هاردياس وقعت في سنة ١٨٣٧ خلاصتها أن هذا الفقير جاء قصر المهرابا رانجيت سنجأ أمير بنجاب وعرض عليه أن يريه بعض كراماته ، وكان المهرابا لا يصدق ما ينقل من خوارق هؤلاء

(١) هي جريدة الاتحاد وكان هذا في أثناء الطبعة الأولى للكتاب في أوائل

هذا العام (١٣٥٢)

الفقراء فسأله عما يريد إظهاره فقال إنه يدفن أربعين يوماً ثم يعود إليهم حياً، فأحضر المهراجا فرأى من أطباء الانكليز والفرنسيين وأمرءا بنجاب فجلس الفقير القرفصاء أمامهم فكفّفوه بعد أن وضعوا القطن والشمع على أذنيه وأنفه — كما أوصاهم — وخطوا عليه الكفن ووضعوه في صندوق من الخشب السميك وسمروا غطاءه ووضع المهراجا عليه ختمه، ودفنوه في قبو داخل حجرة صغيرة في حديقة القصر وأقبلوا بابها ووضع المهراجا ختمه بالشمع على قفلها، وأمر اثنين من رجال حرسه الامناء بحراستها وطائفة من جنده بمعاونتها، وكان ذلك كله بمشهد من حضر من الاوربيين والبنجابيين وحاشية المهراجا.

ولما تمت الاربعون حضر هؤلاء كلهم قصر المهراجا وشاهدوا ختم الحجرة كما كان، والعشب أمامها في الحديقة لم تطأه قدم أحد، ثم فتحوا باب الحجرة وامتنحوا أختام القبو ثم أخرجوا الصندوق وامتنحوا أختامه فوجدوها كلها على حالها ففتحوه وأخرجوا الفقير منه فاذا هو كما وصفه أحد أولئك من الانجليز. قال: لما فتحوا الصندوق وأخرجوا الفقير منه وجدت الذراعين والساقين صلبة والرأس مائلا على إحدى الكتفين فخلتني أمام جثة هامدة فارقتها الحياة منذ أمد بعيد، فطلبت من طبيبي أن يفحصها فأنحني عليها وجس القلب والصدغين والذراعين وقال انه لم يجد أثراً للنبض البتة ولكنه شعر بحرارة في منطقة الدماغ الخ

ثم نفذ ما أوصى الفقير أن يعمل بعد إخراجه فغسل الجسم بالماء الحار فرد على الاوصال لينها السابق بالتدريج، وأزيل القطن والشمع عن الاذنين والانف ووضعت أكياس دافئة على الرأس فدبت الحياة في الجسد المسجى. وتقلصت الاعصاب والاطراف ثم اضطربت فسال منها عرق غزير وعادت الاعضاء إلى حالتها الاولى، وبعد دقائق اتسعت حدقتا العينين وعاد إليهما لونهما الطبيعي، فلما رأى الفقير المهراجا شاخصاً إليه دهشاً متحيراً قال له « أرايت يا مولاي صدفه قولي

وفعلي؟ وبعد نصف ساعة خرج من التابوت وأنشأ يحدث الحاضرين أحسن حديث ويطرفهم بما يحير العقول . اهـ

إن هذه الحادثة من آيات الله التي أظهرتها الرياضة المكتسبة، وهي أعجب من رواية الانجيل لموت ليعازر ثم حياته بدعاء المسيح بعد أربعة أيام كما تقدم في بحث عجائبه (ع.م) وأغرب من حادثة أصحاب الكهف أيضاً من بعض الوجوه فإن الفقير الهندي قد سد أنفه، ولف في كفن، ووضع في تابوت دفن تحت الأرض، فحبل بينه وبين الهواء الذي لا يعيش أحد بدونه عادة، وأهل الكهف ناموا في فجوة واسعة من كهف بابيه إلى الشمال مهب الهواء اللطيف، وكانت الشمس تصيب مدخله من جانبيه عند شروقها وعند غروبها مائلة متزاورة عنهم، فتلطف هواءه من حيث لا تصيبهم، وإنما كان أكبر الغرابة في نومهم طول مدة لبثهم فيه، وكانت طويلة جداً حتى على نقل البيضاوي وغيره من المفسرين أن قوله تعالى (ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين) الآية - حكاية عن بعض المختلفين في أمرهم. فإن كان خلاف ظاهر السياق فقد يقويه قوله تعالى في الآية بعدها (قل الله أعلم بما لبثوا) والله أعلم بكل حال على كل حال. وإن خفي سر آياته على خلقه ولا شيء من الأمرين بمحال. وقد نام بعض أهل العصر بمرض النوم عدة أشهر.

ولكن ماجرى للفقير الهندي يخالف لسنة الحياة العامة في الناس فإذا ثبت أنه وقع بطريقة كسبية من طرائق رياضة هؤلاء الصوفية لأبدانهم وأنفسهم بما تبقى به الحياة كامنة في أجسادهم مثل هذه المدة الطويلة مع انتفاء أسبابها العامة في أحوال الناس الاعتيادية من دورة الدم والنفس وغير ذلك، فلا وجه لاتخاذ أحد من العقلاء إنكار كل ما يخالف السنن العامة قاعدة عامة، ولا سيما فعل الخالق عز وجل لها وهو خالق كل شيء بقدرته، وواضع نظام السنن والأسباب

بشيئته ، وأكثر منكركي الخوارق يؤمنون به ، وإنما ينكرون وقوع شيء مخالف لسننه بأنه مناف لحكمته ، ومن ذا الذي أحاط بحكمه أو بسننه علما ؟ وإنما الذي يقضي به العقل أن لا تصدق بوقوع شيء على خلاف السنن الثابتة المطردة في نظام الاسباب العامة إلا اذا ثبت ثبوتا قطعيا لا يحتمل التأويل ، وهذا هو المعتمد عند المحققين من المسلمين وعلماء المادة وعلماء النفس وغيرهم . وقد ثبت في هذا العصر من خواص الكهرباء وغيرها مالمالو قيل لعقلاء الناس وحكامهم قبل ثبوته بالفعل إنه من الممكنات ، لحكموا على مدعي إمكانه بالجنون لا بتصديق الخرافات ، كما قلنا من قبل (١)

المعجزات قسمان : تكوينية وروحانية تشبه الكسبية

المعجزات كلها من الله تعالى لا من كسب الانبياء كما نطق به القرآن ولكنها بحسب مظهرها قسمان : قسم لا يعرف له سنة إلهية يجري عليها فهو يشبه الاحكام الاستثنائية في قوانين الحكومات ، أو ما يكون بارادة سنية من الملوك لمصلحة خاصة — والله المثل الأعلى — وقسم يقع بسنة إلهية روحانية لا مادية

أما الماثور من آيات الله التي أيد بها موسى (ع. م) وأثبتها القرآن له كآيات التسع بمصر فهي من القسم الاول ، ولم يكن شيء منها بكسب له حقيقي ولا صوري ، وكذلك الآيات الاخرى التي ظهرت في أثناء خروجه ببني اسرائيل ومدة التيه ، بل كل ذلك كان بفعل الله تعالى بدون سبب كسبي لموسى (ع. م) الا

ما يأمره الله تعالى به من ضرب البحر أو الحجر بعصاه التي هي آيته التكبري : (١) ينقل عن أحد من الانبياء آية كهذه الآيات فضلا عن دونهم ، ولا هي مما يحتمل

(١) ان الصحف قد نقلت لنا في هذا العام من عجائب صوفية الهند ايضا

ما هو أعجب مما تقدم وقد لخصنا بعضه في حاشية ص ٥١

أن يكون بسبب من الاسباب الروحية التي تكون لأحد من الناس بالرياضة وتوجيه الارادة أو خواص المادة وقواها

وأما المسيح (ع.م.) فالآيات التي أيده الله تعالى بها — على كونها خارقة للعادات الكسبية وعلى خلاف السنن المعروفة للناس — قد يظهر فيها أنها كلها أو جابها حدث على سنة الله في عالم الارواح كما كان خلقه كذلك ، فقدحات أمه به بنفخة من روح الله عز وجل فيها (وهو الملك جبريل عليه السلام) كانت سبب علوقها به بفعلها في الرحم ما يفعل تلقيح الرجل بقدره الله عز وجل . فلا غرو أن كانت مظاهر آياته أعظم من مظاهر سائر الروحانيين من الانبياء والاولياء كالكشف وشفاء بعض المرضى وغير ذلك من التأثير في المادة الذي اشتهر عن كثير منهم . والفرق بينه وبين الروحانيين من صوفية الهنود والمسلمين ان روحانيته عليه السلام أقوى وأكمل ، وأقدس وأفضل ، وانها لم تكن بعمل كسبي منه بل من أصل خلق الله عز وجل له بآية منه كقَالَ (٢١: ٩١) وَآلِي أَحْصَنْتَ فَرْجَهَا فَتَفْخُنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَآبِنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ) وقال (٢٣: ٥٠) وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً (فَاَيْتِمَاهِي الْحَمْلُ بِهِ وَخَلَقَهُ بِنَفْخِ الرُّوحِ الْإِلَهِيِّ، لا بسبب التلقيح البشري، ولا بما قيل من احتمال وجود مادتي الذكورة والانوثة في رحمها

وأعظم آياته الروحانية التي أثبتتها له التنزيل ولم ينقلها مؤلفو الاناجيل الاربعة (وروي أنها منصوصة في انجيل الطفولة الذي نبذته المجامع الكنسية قبل البعثة المحمدية ففقد من العالم) هي أنه كان يأخذ قطعة من الطين فيجعلها هيئة طير فينفخ فيه أي من روحه فيكون طيرا باذن الله تعالى ومشيتته. والمروي أنه كان يطير قليلا ويقع ميتا. ودون هذا إحياء الميت الصحيح الجسم القريب العهد بالحياة فان توجيه سيال روحه القوي الى جثة الميت مع توجيه قلبه إلى الله عز وجل ودعائه كان يكون سببا روحانيا

لا إعادة روحه اليه باذن الله ومشيته ، كما يحس النور دبال السراج المنطفى . فقتل
او كما يتصل السلك الحامل للكهربائية الايجابية بالسلك الحامل للكهربائية السلبية
بعد انقطاعها فيتألقى النور منها . وما ينقل عن الهندود من إعادة الحياة الى ميت
مؤقتا فبوان صح مكسوب بالرياضة وقد ثبت عن بعض أطباء هذا العصر إعادة
الحياة الحيوانية إلى فاقدتها عقب فقدانها بعملية جراحية أو معالجة للقلب

ومن دون هذا وذاك شفاء بعض الامراض ولا سيما العصبية سواء أ كان
سببها مس الشيطان وتلبسه بالجنون كما في الاناجيل ام غيره ، فان الشيطان روح
خبيث لا يستطيع البقاء مع توجه الروح الطاهر الذي هو شعلة من روح القدس
جبريل عليه السلام واتصاله بمن تلبس به ، وقد وقع مثل هذا الشيخ الاسلام ابن
تيمية وغيره من الروحانيين حتى ان تلميذه العلامة المحقق ابن القيم ذكر أنه أرسله
أورجلا آخر إلى مصروع وخاطب الجنى الذي فيه بقوله : الشيخ يأمرك أن تخرج ،
فخرج وشني الرجل في الحال . وما من مرض عصبي او غيره إلا وهو ضعف في
الحياة حقيق بأن يزول باتصال هذا الروح بالمصاب به وبما دونه من تأثير النفس
ومن دون هذا وذاك المكاشفات المعبر عنها فيما حكاه تعالى عنه بقوله

(٣ : ٤٩) وَأَنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ) وقد أنبا

غيره من أنبياء بني اسرائيل وغيرهم وكذا غيرهم من الروحانيين ولا سيما
صالحى أمة محمد ﷺ بما هو أعظم من هذا من الامور المستقبلية ولكنها درجات
متفاوتة في القوة والضعف ، وطول المدة وقصرها ، والثقة بالمرئي وعدمها ، وإدراك
الحاضر الموجود . والغائب المفقود ، وما كان في الازمنة الماضية ، وما يأتي في الازمنة
المستقبلية ، فأعلاها خاص بالانبياء إذ لم يوجد ولن يوجد بشر يعلم بالكشف ما وقع
منذ القرون الاولى كأخبار القرآن عن الرسل الاولين مع أقوامهم ، أو ما يقع بعد
سنين في المستقبل كإخباره عن عود الكرة للروم على الفرس ، وإخباره ﷺ

بفتح الامصار واتباع الامم لامته ، ثم بتداعيمهم عليها كما يتداعى الآكلون إلى قصعة الطعام . وقد أخبر بعض أصحابه بأعيانهم بما يقع من ذلك في زمنهم كسقوط ملك كسرى . وسنعتقد فصلاً خاصاً بأخبار الغيب في القرآن والحديث في الجزء التالي كما وعدنا في الفاتحة لهذه الطبعة . ومن المكشفات الثابتة في هذا العصر ما يسمونه قراءة الافكار ، وقد شاهدنا من فعله ، ومنها مرسلات الافكار

فتبين بهذا وذاك أن آيات الله تعالى المشهورة لموسى (ع.م) بمحض قدرته تعالى دون سنة من سننه الظاهرة في قواه الروحية ، وان آياته لعيسى (ع.م) بخلاف ذلك ، والنوع الاول أدل على قدرة الله تعالى ومشيئته واختياره في أفعاله في نظر البشر لبعدها عن نظام الاسباب والمسببات التي تجري عليها أفعالهم

عبادة بعض الناس للمسيح وللأولياء دون موسى

وإنما عبد بعض البشر عيسى وأخذوه إلهاً ولم يعبدوا موسى كذلك وآياته أعظم لأنهم جعلوا أن آيات عيسى جارية على سنن روحية عامة قد يشارك فيها غيره فظنوا أنه يفعلها بمحض قدرته التي هي عين قدرة الخالق سبحانه لحلوله فيه واتحاده به بزعمهم ، وآيات موسى بمحض قدرة الله وحده ، ولم يفتنوا لاتباع عيسى لموسى في شرعه (التوراة) إلا قليلاً مما نسخ الله على لسانه من إحلال بعض ما حرم عليهم بظلمهم عقوبة لهم ، ومن تحريم ما كانوا عليه من الغلو في عبادة المال والشهوات

ومثل النصارى في هذا من يفتنون من المسلمين بعبادة الصالحين بدعائهم في الشدائد لاعتقادهم أنهم يدفعون عنهم الضرر ، ويجلبون لهم النفع بالتصرف الغيبي الخارج عن سنن الله في الاسباب والمسببات الداخلة عندهم في باب الكرامات ، وهو خاص بالرب تعالى ، ولكنهم لا يطلقون على أحد منهم اسم الرب ولا الإله ولا الخالق ، إذ الاسماء اصطلاحية ، وإنما الفرقان بين الخالق والمخلوق والرب والمربوب

ان الرب الخالق هو القادر على النفع والضرر لمن يشاء وصرفهما عن يشاء بما يسخره من الاسباب وبدونها إن شاء - وان المخلوق المربوب هو المقيد في أفعاله الكسبية الاختيارية في النفع والضرر بسنن الله تعالى في الاسباب والمسببات التي سخرها تعالى لجميع خلقه ، ولكنهم يتفاوتون في العلم والعمل بها كما يتفاوتون في الاستعداد لها بقوى العقل والحواس والاعضاء وفي وسائلها ، وقد بلغ البشر بالعلم والعمل الكسبيين من المنافع ودفع المضار ما لم يعهد مثله لأحد من خلق الله قبلهم لا الانبياء ولا غيرهم ، لان الانبياء المرسلين لم يبعثوا لهذا وانما بعثوا لهداية الناس الى معرفة الله وعبادته وتهذيب أخلاقهم بها . فنافع الدنيا لا تطلب منهم أحياء ولا أمواتا ، وإنما تطلب من أسبابها ، وما وراء الاسباب لا يقدر عليه إلا الله عز وجل ، وقد قتل الظالمون بعض الانبياء والاولياء ، وآذوا بعضهم بضروب من الايذاء ، ولم يستطيعوا أن يدفعوا عن أنفسهم ، ولذلك تكرر في القرآن الحكيم نفي هذا النفع والضرر عن كل معبد ومن عبد من دون الله بالذات او بالشفاعة عند الله تعالى كما قال (١٠ : ١٨) وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ (الآية ومثلها آيات . وأمر خاتم رسله أن يعلم الناس ذلك كما فعل من قبله من الرسل فقال (٧ : ١٨٨) قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَا سْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) وقال (٧٢ : ٢١) قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا (الآيات . وقد فصلنا هذه المسألة مرارا .

ونلخص الموضوع هنا في المسائل الآتية :

(١) ان الله تعالى قد أتقن كل شيء خلقه فجعله بحكام ونظام لا تفاوت

فيه ولا اختلال ، وستن مطردة ربط فيها الأسباب بالمسببات . فمخلوقاته العليا والسفلى ، هي مظهر أسمائه الحسنى وصفاته العلى . ولهذا قال حجة الاسلام الغزالي : ليس في الامكان أبدع مما كان . وهذا النظام المطرد في الاكوان ، الثابت بالحس والعقل ونصوص القرآن — هو البرهان الاعظم على وحدانية خالق السموات والارض (٢١ : ٢٢) لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا)

(٢) إن سنن الله تعالى في إبداع خلقه ونظام الحركة والسكون والتحليل والتركيب فيه لا يحيط بها علما غيره عز وجل . وكلما ازداد البشر فيها نظراً وتفكيراً واختباراً وتدبراً وتجربة وتصرفاً ، ظهر لهم من أسرارها وعجائبها ما لم يكونوا يعلمون ولا يظنون ، ومن منافعها ما لم يكونوا يتخيلون ولا يتوهمون ، وهانحن أولاء نرى مراكبهم الهوائية من تجارية وحربية تخلق في الجواء ، حتى تكاد تبلغ محيط الهواء ، وبعض مراكبهم البحرية تغوص في لجج البحار ، وزراهم يتخاطبون من مختلف الاقطار ، كما نطق الوحي بتخاطب أهل الجنة مع أهل النار ، فيسمع أهل المشرق أصوات أهل المغرب ، وأهل الجنوب حديث أهل الشمال وخطبهم وأغانيم ، قبل أن يسمعا بعض أهل البلد أو المكان الذي يصدر عنه الكلام (١) وقد يغمز أحدهم زراً كهربائياً في قارة أوربة فتتحرك بغمزه آلات عظيمة في قارة أخرى في طرفة عين ، وبينهما المهامة الفسيح ، والجبال الشاهقة ، ومن دونها البحار الواسعة ، والجاهلون بهذه السنن الالهية ، والفنون العملية ، لا يزالون ياجثون في طلب النافع ودفع المضار من غير طريق الأسباب — التي ضيق الجهل عليهم سبلها — إلى قبور الموتي من الصالحين المعروفين والمجهولين ، ليقضوا لهم حاجهم ، ويشفوا (١) روي لنا أن آلة المذياع (الراديو) الناقلة للاصوات من أوربة يصل الكلام الذي تحمله إلى مصر وغيرها فتعكسه الآلات التي فيها و يسمعه أهلها قبل ان يسمعه من في الصفوف الخلفية من المكان الذي ألقى فيه

مرضاهم ، ويعينوهم على أعدائهم ، بل ينتقموا لهم من أصدقائهم الذين عادوهم بغيا وفسادا - من زوج وقريب وجار ووطني ، وأعدائهم في دينهم ووطنهم من الأجانب قد سادوا حكومتهم ، واستذلوا أمتهم ، واستاثروا بجمل ثروتهم ، ولا يتصرف فيهم هؤلاء الأولياء بما يدفع عن المسلمين ضررهم وإذلالهم

(٣) ان الأصل في كل ما يحدث في العالم أن يكون جاريا على نظام الأسباب والمسببات ، وسنن الله التي دل عليها العلم ، وأخبرنا الوحي بأنه لا تغيير فيها ولا تبديل لها ولا تحويل ، فكل خبر عن حادث يقع مخالفا لهذا النظام والسنن فالأصل فيه أن يكون كذبا اختلقه المخبر الذي ادعى شهوده أو خدع به ولبس عليه فيه ، فان كان قد وقع فلا بد أن يكون له سبب من الأسباب الخفية التي يحجبها المخبر ، كما حققه علماء الأصول في بحث الخبر وما يقطع بكذبه منه

(٤) ان آيات الله التي تجري على غير سننه الحكيمية في خلقه لا يثبت العلم بها إلا بدليل قطعي ، وقد كان من حكمته أن أيد بعض النبيين المرسلين بشيء منها لإقامة حججهم وتخويف المعاندين لهم ، وقد انتظمت هذه الآيات بختم النبوة والرسالة بمحمد ﷺ وسبب ذلك أو حكمته ختم النبوة برسالته ، وجعل ما أوحاه إليه آية دائمة وهداية عامة لجميع البشرية بقائهم في هذه الدنيا وأنزل عليه (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) لعلمه تعالى بأنهم لا يحتاجون بعد هذا الوحي إلى وحي آخر ، ولا إلى آية على كونه من عند الله تعالى إلا هذا القرآن نفسه ، وهذا الكتاب في جلته وتفصيله ، مشتمل على كثير من الدلائل العقلية العلمية على كونه من عنده ، كما فصلناه من قبل ، ونزيده بيانا فيما بعد

وقد ادعى الباب والبهاء والقادياني الوحي في القرنين الأخيرين فجاءوا بأسخف مما عزي إلى مسيلة الكذاب ، وسأورد نماذج من وحيهم الشيطاني في الجزء الثاني من هذا الكتاب ، مما فيه عبرة لأولي الأبصار .

ختم النبوة وانقطاع الخوارق بها ومعنى الكرامات

(٥) لو كان للبشر حاجة بعد القرآن ومحمد ﷺ إلى الآيات كما يدعي الملتنونون بالكرامات ومخترعو الأديان والنحل الجديدة لما كان لختم النبوة معنى، وقد بلغ من غلو مارقة الصوفية الروحانية أن امتروا في ختم النبوة وتأولوه لدعائهم نوعا منها، ومنهم من ابتدع اسما اووصفا للنبوة التي ادعوها وهو النبوة الظلية، وفتن بفتنتهم الباطنية والبهائية حتى عبدوا الباب والبهاء، إذ ادعيا الالوهية، وفتن بها احمد القادياني فادعى النبوة والمسيحية له ولخلفائه بلا انقطاع، حتى سامها المرتزقة منهم والرعاع وقد بين شيخنا الاستاذ الامام في رسالة التوحيد كيف ارتقى التشريع الديني في الأمم بارتقاء نوع الانسان في الادراك والعقل كارتقاء الافراد من طفولة إلى شباب إلى كهولة حتى بلغ فيها رشده واستوى، وصار يدرك بعقله هذه الهداية العقلية العليا (هداية القرآن) بعد أن كان لا سبيل إلى إذعانه لتعليم الوحي، إلا ما يدهش حسه ويعي عقله من آيات الكون (يعني انه بلغ هذا الرشد في جملته واستعداد كثير من أفراد لا كلهم ولا أكثرهم)

بين في الكلام على وجه الحاجة إلى الرسالة أن سمو عقل الانسان وسلطانه على قوى الكون الأعظم بما هي مسخرة له تنافي خضوعه واستكانته لشيء منها، إلا ما عجز عن إدراك سببه وعلته، فاعتقد أنه من قبل السلطان الغيبي الأعلى لمدير الكون ومسخر الاسباب فيه، فكان من رحمة الله تعالى به « أنه أتاه من أضعف الجهات فيه وهي جهة الخضوع والاستكانة فأقام له من بين أفراد مرشدين هادين، وميزهم من بينها بخصائص في أنفسهم لا يشرّكهم فيها سواهم، وأيد ذلك وزيادة في الاقناع بآيات باهرات تملك النفوس، وتأخذ الطريق على سوابق العقول، فيستخذي الطامح، ويهزل الجامح، ويصدم بها عقل العاقل فيرجع إلى رشده، وينهر لها بصر الجاهل فيرتد عن غيه »

ثم قال في رسالة محمد ﷺ : نبي صدق الانبياء ولكنه لم يأت في الاقناع برسالته بما يلهي الابصار ، أو يحير الحواس ، أو يدهش المشاعر ، ولكن طالب كل قوة بالعمل فيما أعدت له ، واختص العقل بالخطاب ، وحاكم اليه الخطأ والصواب ، وجعل في قوة الكلام ، وسلطان البلاغة ، وصحة الدليل ، مبلغ الحجة وآية الحق الذي (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)

لا يمكن اثبات معجزات الانبياء الا بالقرآن

(٦) انه لا يمكن اثبات معجزات الانبياء في هذا العصر بحجة لا يمكن لمن عقلها ردها إلا هذا القرآن العظيم ، وما ثبت فيه بالنص الصريح منها ، أقول هذا تجاه انكار العلماء الواقفين على كتب الأديان التي قبل الاسلام - حتى كتب اليهود والنصارى - وعلى تواريخها لتواتر ما ذكر فيها من الآيات واشباههم في كونها خوارق حقيقية ، وفي كون الخوارق تدل على نبوتهم ، وحميتهم على الأول أن التواتر الذي يفيد العلم القطعي غير متحقق في نقل شيء منها ، وهو نقل الجمع الكثير الذي يؤمن تواطؤهم على الكذب لخبر أدر كوه بالحس ، وحمله عنهم مثلهم قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل بدون انقطاع ، وانما يكون استحالة تواطؤهم على الكذب بأمر أهمها عدم التحيز والتشيع لمضمون الخبر وعدم تقليد بعضهم لبعض فيه . وآية صحة هذا التواتر حصول العلم القطعي به واذعان النفس له ، وعدم امكان رده اعتقاداً ووجداناً ، وهذا غير حاصل في رواية آيات الانبياء الاولين عندهم ، بل زعم بعض علماء الافرنج ان قصة المسيح وضعية خيالية لا واقعة حقيقية ، ولها أمثال في التاريخ . وتقدم الكلام في آياته والمراء فيها . « ص ٤٨ »

وشبهتهم على الثاني أن وقوع الخوارق المذكورة لا يدل على النبوة والرسالة

وأما آية القرآن فهي باقية ببقائه الى يوم القيامة ، وكل واقف على تاريخ الاسلام يعلم علماً قطعياً أنه متواتر تواتراً متصلاً في كل عصر ، من عصر الرسول الذي جاء به الى الآن ، وأما الذي يخفى على كثير منهم فهو وجوه إعجازه الدالة على أنه وحي إلهي ، وقد شرحنا شبهتهم عليه وبيننا بطلانها في هذا البحث ، وإذا قد ثبت بذلك كونه وحيًا من الله تعالى فقد وجب الايمان بكل ما أثبتته من آياته في خلقه سواء أ كانت لتأييد رسله وإقامة حججهم أم لا ، وكما يجب على كل مؤمن به أن يؤمن بها ، يجب أن يؤمن باقطاع معجزات الرسل بعد ختم النبوة بمحمد ﷺ وإذ كان لا يجب على مسلم أن يعتقد بوقوع كرامة كونية خارقة للعادة بعد محمد خاتم النبيين ﷺ فلا يضر مسلماً في دينه أن يعتقد كما يعتقد أكثر عقلاء العلماء والحكماء من أن ما يدعيه الناس من الخوارق في جميع الأمم أكثره كذب ، وبعضه صناعة علم ، او تأثير نفس ، أو شعوذة سحر ، وأقله من خواص الارواح البشرية العالية وعلامته ان يكون علماً صحيحاً موافقاً للمقول الشرعي ، والمعقول القطعي ، او عملاً نافعا مشروعاً ، وأن يكون من صدر عنه مؤمناً عاقلاً صالحاً ، فكل ما ينقله المتصوفة مخالفاً لذلك من التصرف الضار بالناس في دينهم او صحتهم فهو إن صح من تأثير الأتفس الخبيثة كالإصابة بالعين والتنويم المغناطيسي الضار لا كله

(٧) إن الثابت بنصوص القرآن من آيات الانبياء المرسلين المعينة قليل جداً . فما كانت دلالاته قطعية من هذه النصوص فصرفه عنها بالتحكم في التأويل الذي تأباه مدلولات اللغة العربية ، وبنقض شيئاً من قواعد الشرع القطعية ، فهو ارتداد عن الاسلام ، وما كانت دلالاته ظاهرة غير قطعية وجب حملها على ظاهره إن لم يعارضه نص أو دليل مثله أو أقوى منه ، فان عارضه فحينئذ ينظر في الترجيح بين المتعارضين بالدلة المعروفة ، والخروج عن ذلك ابتداء

الايهان بالقدر والسمن العامة

(وآيات الله الخاصة)

اننا نؤمن بأن الله تعالى هو خالق كل شيء بقدرته وإرادته ، واختياره
 سوحكته، وانه (أحسن كل شيء خلقه) كما قال في سورة الم السجدة (٧: ٣٢)
 (٢٧ : ٨٨ صُنِعَ اللهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ) كما قال في سورة النمل ، وانه
 ليس في خلقه تفاوت ولا فطور كما قال في سورة الملك (٣: ٦٧) وانه خلق كل شيء
 بنظام وتقدير لاجزافا ولا أنفا (١) كما قال في سورة القمر (٤٩: ٥٤) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ
 خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (وقال في سورة الفرقان (٢٥ ٢) وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ
 تَقْدِيرًا) وقال في سورة الحجر (١٥ : ١٩) وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ
 مَوْزُونٍ (٢) ٢٠ وجعلنا لكم فيها معاش ومن أنستم له برازقين ٢١
 وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ)

وان له تعالى في نظام التكوين والابداع، وفيما هدى اليه البشر من نظام الاجتماع،
 سننا مطردة تتصل فيها الاسباب بالمسببات ، لا تبدل ولا تتحول محابة لأحدمن
 الناس، وان سنته تعالى عامة في عالم الاجسام وعالم الارواح، وقد ورد ذكر السنن
 الاجتماعية باللفظ في سور المائدة والانفال والحجر والاسراء والكهف والاحزاب
 وفاطر والمؤمن والفتح

(١) الأنف بضمين هو الذي يفعل ابتداء من غير سبق تقدير ولا نظام
 فهو ضد المقدر (٢) وصف النبات بالموزون من عجائب تعبير القرآن التي أظهرتها
 العلوم الحديثة فكل نوع منه مؤلف من عناصر بمقادير معينة يمكن ضبطها بالوزن
 الدقيق في النسبة المثوية

هذه الآيات البينات ناطقة بان القدر والتقدير عبارة عن النظام العام في الخلق الذي تكون فيه الاشياء بقدر أسبابها بحسب السنن والنواميس العامة التي وضعها الخالق لها ، لا ما اشتهر عند الجماهير من الناس من ان المقدر ما ليس له سبب ، أو ما يفعله الله على خلاف النظام والسنن ، وقد يصح اطلاقه على ما لا يعرفون سببه ، ولا يحيط بأسباب الحوادث علماً إلا خالقها ، ومقدر سببها وسننها

ونؤمن بأن له تعالى في خلقه آيات بينات ، وان له في آياته حكماً جليلة أو خفية ، وان ما منحنا إياه من العقل والشرع يأتينا علينا أن ثبت وقوع شيء في الخلق على خلاف ما تقدم بيانه من نظام التقدير ، وسنن التدبير ، إلا يبرهان قطعي يشترك العقل والحس في إثباته وتمحيصه ، وانه لا بد أن يكون وقوعه لحكمة بالغة لا عن خلل ولا عيب ، وان ما خفي علينا من حكمه تعالى فهو كسائر ما يخفى علينا من أمور خلقه ، نبحت عنها لنزداد علماً بكأله ، ونكمل به أنفسنا بقدر استطاعتنا ، ولا نتخذها حجة ولا عذراً على الكفر به لجهلنا ، وقد ثبت لأعلم علماء البشر في كل عصر ان ما تجهل من هذا الكون أكثر مما نعلم ، ويستحيل أن يحيط البشر به علماً .

أجمع على هذا علماء هذا العصر الماديين على سعة علمهم بالمادة وسننها ، وكثرة ما أحدثوا من الصناعات والمنافع بتسخيرها ، فما قولك بعالم الروح والغيب ؟ انه ليظهر فيهم كمن قبلهم صدق قوله تعالى (١٧ : ٨٥) وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا)

ونؤمن بأن الله تعالى قد أرسل إلى البشر رسلاً هدى بهم إلى الخروج من مضيق مدارك الحس ، وما يستنبطه الفكر منها بادی الرأي ، إلى ما وراءها من سعة عالم الغيب ، ولولا هدايتهم لظل البشر أوف الأوف من السنين ينكرون وجود

مالم يكونوا يدركونه بحواسهم من الاجسام وأعراضها ، وبقياهم ما جهلوا على ما علموا منها . وما ينكره الانسان ويعتقد استحالة وجوده لا يبحث عنه وقد علمنا من التاريخ ان الايمان بالله وبآياته لرسله وباليوم الآخر ، وبما يكون فيه من الحساب والجزاء على الاعمال ، هو الذي وجه عقول البشر إلى البحث في أسرار الوجود ، حتى وصلوا إلى ما وصلوا اليه من الارتقاء في العلوم والفنون والصناعات في الاجيال المختلفة ، ولم يكن لغير المؤمنين بالغيب منهم نصيب في ذلك — فهذا الايمان بالاركان الثلاثة من الغيب هو الذي أوصل البشر إلى علوم وأعمال كان بعدها غير المؤمنين بالغيب من محلات العقول كالغيب الذي أنكره ، حتى لم يعد شيء من أخبار الغيب بعيداً عن العقل بعد ثبوتها فتبين لنا بهذا وبما قبله انه كان للبشر بآيات الانبياء ثلاث فوائد هي من حكم نصبه تعالى لتلك الآيات

(الاولى) جعلها دليلاً حسيّاً على اختياره تعالى في جميع أفعاله ، وكون سنن النظام في الخلق خاضعة له ، لاحاطة عليه ولا مقيدة لارادته وقدرته (الثانية) جعلها دليلاً على صدق رسله فيما يخبرون عنه بوحيه ، ونذر المعاندين لهم من الكفار ، ولو كانت مما يقدر عليه البشر بكسبهم ، أو تقع منهم باستعداد روحي فيهم ، لما كانت آية على صدقهم

(الثالثة) هداية عقول البشر برؤيتها إلى سعة دائرة الممكنات ، وضيق نطاق المحال في العقولات ، وإلى ان كون الشيء بعيداً عن الاسباب المعتادة والامور المهودة والسنن المروفة ، لا يقتضي أن يكون محالاً يجزم العقل بعدم وقوعه ، وبكذب الخبر به ولو مع قيام الدليل على صدقه ، وانما غايته أن يكون الاصل فيه عدم الثبوت فيتوقف ثبوته على الدليل الصحيح ، وهذه قاعدة كبار علماء الكون في هذا العصر ، فلا ينقصهم لتكامل علمهم إلا ثبوت آية الله تعالى لا يمكن أن يكون لها علة من سنن

الكون وسبب من أسبابه المطردة، والماديون المنكرون لآيات الرسل لن يجدوا هذه الآيات في عالم المادة وإنما يجدونها في القرآن

ذلك بأن كل ما في عالم المادة فهو خاضع لما يسمى في عرفهم بالاسباب والنواميس والعلل، وفي لغة القرآن بالسنن والقدر، (كما قرأنا عليك آفا) ولذلك تجدهم يبحثون بالتحليلات المادية عن الموجود الاول في الازل، وما كان يبحث عنه الفلاسفة المتقدمون بالدلائل العقلية ويسمونه علة العلل، وإنما الموجود الاول هو الله تعالى واجب الوجود، الذي صدر عنه كل ما عداه من الموجودات، وهم لما يعرفوا أول ما صدر عنه بمحض قدرته ومشيتته المعبر عنها عندنا بكلمة التكوين، وهي قوله تعالى للشيء (كن فيكون) وهذا غيب الغيوب، ومنهم من يرى ان العلم به متعذر ومنهم من يطلبه ويرجوه .

ولكن الامر قد اقلب عندهم إلى ضده فان كثير من الذين وصلوا إلى هذه العلوم والاعمال المقربة لآيات الرسل وما دعوا اليه من الايمان بالغيب من العقول، قد صارت هذه العلوم نفسها سبباً لانكارهم ما كان سبباً لها وموصلاً اليها (وهو الآيات والايمان بالغيب) لا إنكار إمكانه في العقل، بل إنكار ثبوته بالفعل، فهم ينكرون أن يكون الخالق قد فعل ما صاروا يفعلون نظير آله في الغرابة، وكان ينبغي لهم أن يجعلوه دليلاً عليه مبيناً لحقيقته كما قال تعالى (٤١ : ٥٣) سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ) ولكنهم كلما أراهم آية من آياته الروحية في أنفسهم أو من آياته الكونية في الآفاق التمسوا لها سنة أو فرضوها فرضاً بقياس ما لم يعرفوا على ما عرفوا، فأخرجوها عن كونها بمحض قدرته وابداعه، وظلوا على لبسهم كالذين طلبوا من محمد ﷺ أن ينزل عليهم ملكاً رسولا فقال الله فيهم (٩ : ٦) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلِيسُونِ) أي لما كانوا لا يمكن لهم أن يدرخوا الملك

ويتلقوا عنه إلا إذا كان بصورة رجل مثاهم، وهو ما استنكروه من كون الرسل بشراً مثله، فلو جعل الله ملكاً رسولا إليهم لجعله رجلاً مثاهم، ولا لتبس عليهم أمره بما يلبسونه على أنفسهم من استنكار كون الرسول بشراً مثاهم وهكذا يفعلون الآن: ظهرت لهم في عصر ناعده آيات روحية من المكاشفات والتأثير في المادة، فشبها بما عرفوا من الامور المادية، فأطلقوا على تلك المكاشفات اسمي قراءة الافكار ومراسلة الافكار، وقالوا انها من قبيل نقل الكلام بالسيال الكهربائي من مكان إلى مكان، حتى لا يعترفوا بآية إبداعية او غيبية من الخالق لا تخضع لعلمهم، وهم ما زالوا يرتقون في الاسباب الى ان وصلوا من ظواهر تكوين الكهرباء الايجابية والسلبية (بما يسمونه الالكترن والبروتون) الى مستوى قريب من عالم الغيب، وظنوا أنها أصل لكل ما في عالم الشهادة من شيء، على ان الكهرباء ليست بمادة محض، ولا بقوة محض، ولكنها شيء موجود دخل في حكم علمهم بوجه ما وهم عتاة لا يؤمنون إيماناً تعديداً إلا بآية تعلو على مدارك علمهم وعقولهم

الخطر على البشر من ارتقاء العلم بدون الدين

إن حرمان هؤلاء العلماء من الايمان بآية كونية لله تعالى من هذا النوع قد جعل حظ البشر من هذا الارتقاء العجيب في العلم أنهم ازدادوا به شقاء حتى صارت حضارتهم مهددة بالتدمير العلمي الصناعي في كل يوم، وجميع علمائهم المصلحين، وساستهم الدهاقين، في حيرة من تلافي هذا الخطر، ولن يتلافى إلا بالجمع بين العلم والدين، وهذا ما جاءهم به محمد خاتم النبيين، ولا تجله أثبت الآيات بكتابه وفي كتابه المبين، إذ لا يمكن أن يخضع البشر إلا لما هو فوق استطاعتهم بقيام الدليل على انه من السلطان الغيبي الالهي الذي فوق استعدادهم. ولا يظهر هذا السلطان والبرهان، في علوم الكون، لما ذكرنا من شنشتهم فيها، وإنما يظهر أكل الظهور في هذا القرآن، وستجداهم به أتم التحدي في خاتمة هذا الكتاب

المقصد الثالث من مقاصد القرآن

(إكمال نفس الانسان من الافراد والجماعات والاقوام)

﴿بجعل الاسلام دين الفطرة السليمة ، والعقل والفكر ، والعلم والحكمة ، والبرهان والحجة ، والضمير والوجدان ، والحرية والاستقلال﴾

قد أتى على البشر حين من الدهر لا يعرفون من الدين إلا أنه تعالىم خارجة عن محيط العقل كلف البشر (١) مقاومة فطرتهم بها ، وتعذيب أنفسهم ومكابرة عقولهم وبصائرهم خضوعاً للرؤساء الذين يلقونهم إياها ، فان انقادوا لسيطرتهم عليهم بها كانوا من الفائزين ، وإن خالفوهم سرّاً أو جهراً كانوا من المهالكين ، والحق الواقع أنهم كانوا بهذا الخضوع والخنوع من الخاسرين ، ولكن عجز عقلاؤهم وحكماؤهم عن انتياشهم من مهاوي التهلكة ، وإخراجهم من ظلمات الشرك والظلم والاستبداد ، الى نور التوحيد والحرية والعدل والاستقلال

حتى اذا بعث الله رسوله محمداً خاتم النبيين ، يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم مما كانوا فيه من الضلال المبين — كان هو الذي أخرجهم من الظلمات الى النور ، وبين لهم أن دين الله الاسلام هو دين الفطرة ، والعقل والفكر ، والعلم والحكمة ، والبرهان والحجة ، والضمير والوجدان ، والحرية والاستقلال . وان لاسيطرة على روح الانسان وعقله وضميره لأحد من خلق الله ، وانما رسل الله هداة مرشدون ، مبشرون ومنذرون ، كما تقدم بيانه في المقصد الذي قبل هذا . ونبين هذه المزايا بالشواهد المختصرة من القرآن فنقول :

(١) كلف بالتشديد من التكليف وهو هنا مبني للمجهول لأنه يتعدي بنفسه الى مفعولين وعلماء الاصول والفقه يعدونه الى الثاني بالباء

(١) الاسلام دين الفطرة

قال الله تعالى (٣٠ : ٣٠) فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

الحنيف صفة من الحنف (بالتحريك) وهو الميل عن العوج إلى الاستقامة، وعن الضلالة إلى الهدى، وعن الباطل إلى الحق، ويقابله الزيف وهو الميل عن الحق إلى الباطل الخ وفطرة الله التي فطر الناس عليها هي الجبلّة الانسانية (١) الجامعة بين الحياتين: الجسمانية الحيوانية، والروحانية المملكية، والاستعداد لمعرفة عالم الشهادة وعالم الغيب فيها، وما أودع فيها (أي الجبلّة) من غريزة الدين المطلق الذي هو الشعور الوجداني بسلطان غيبي فوق قوى الكون والسنن والاسباب التي قام بها نظام كل شيء في العالم، قرب هذا السلطان هو قاطر السموات والارض وما فيها، والمصدر الذاتي للنفع والضر المحركين لشعور التعبد الفطري، وطلب المرفان الغيبي المودعين في الغريزة فالعبادة الفطرية هي التوجه الوجداني، إلى هذا الرب الغيبي، في كل ما يعجز الانسان عنه من نفع يحتاج اليه ويعجز عنه بكسبه، ودفع ضرر يمسّه أو يخافه ويرى انه يعجز عن دفعه بحوله وقوته، وفي كل ما تشعر فطرته باستعدادها لمعرفته، والوصول اليه مما لانهاية له - وأعني بالانسان جنسه فاما يعجز عنه المراه بنفسه دون أبناء جنسه فانه يعدّه من مقدوره، وبعد مساعدة غيره له من جنس كسبه، فطلبه

(١) قال في المصباح المنير : الجبلّة بكسرتين وتثقيل اللام والطبيعة والخليقة والغريزة بمعنى واحد، وجبله الله على كذا فطره عليه، وشيء جبلي : منسوب الى الجبلّة كما يقال طبعي أي ذاتي منفعل عن تدبير الجبلّة في البدن بصنع بارئها (ذلك تقدير العزيز العليم)

تلمساعدة من أمثاله ليس فيها معني التعبد عند أحد من البشر: فته ظلم الفقير للغني بوسائل استجدائه ، وخضوع الضعيف للقوي لاستنجاهه واستعدائه على أعدائه، وخضوع السوقة (١) للملك أو الامير لخوفه منه أو رجائه - لا يسمى شيء من ذلك عبادة في عرف أمة من الامم ولا ملّة من الملل ، وإنما روح العبادة الفطرية ونمطها هو دعاء ذي السلطان العلوي والقدرة الغيبية التي هي فوق ما يعرفه الانسان ويعقله في عالم الاسباب ولا سيما الدعاء عند العجز والشدائد ، قال ﷺ « الدعاء هو العبادة » (٢) هكذا بصيغة الحصر أي هو الركن المعنوي الاعظم فيها لانه روحها المفسر برواية « الدعاء مخ العبادة » (٣) وكل تعظيم وتقرب قولي أو عملي لصاحب هذه القدرة والسلطان فهو عبادة له (٤)

هذا أصل دين الفطرة الغريزي في البشر ، لا مازعه بعض الكتاب المعاصرين من أن دين الفطرة في الآية الكريمة أن يعمل الانسان متبعاً لشعوره وأفكاره ووجدانه بمقتضى طبيعته دون تلقي شيء من غيره ، فهذا جهل ، لا يقره دين ولا عقل ، وفوضى لا يستقيم معها أمر ، فان الانسان يجني على فطرته وغرائزها وقواها بجهله وسوء اجتهاده ، فشعوره الفطري الذي يبناه هو الذي ولد له العقائد الوثنية بعبادته كل ذي تأثير لا يعرف له سبباً لحسابه انه هو صاحب الساطان الغيبي القادر على نفعه وضره ، ومن ثم كان محتاجاً الى تكميل فطرته بالوحي الالهي

وعلى هذا الاصل بني الدين التعليمي التشريعي الذي هو وضع إلهي يوحيه الله الى رسله لئلا يضل عباده بضعف اجتهادهم واختلافهم في العمل بمقتضى غريزة

(١) السوقة بالضم (كغرفة) غير الملك يطلق على الواحد والمثنى والجمع

(٢) رواه أحمد وابن أبي شيبة والبخاري في الادب المفرد وأصحاب السنن الاربعة وغيرهم عن النعمان بن بشير (٣) رواه الترمذي عن انس (٤) هذا تحقيق لمعنى العبادة أو حداثتها وكل ما قيل غيره في تعريفها فهو رسم

الدين كما وقع بالفعل ، ولا يقبل البشر هذا الدين التعليمي بالاذعان والوازع النفسي الا إذا كان الملحق لهم إياه مؤيدا في تبليغه وتعليمه من صاحب ذلك السلطان الغيبي الأعلى ، والتصرف المطلق في جميع العالم، الذي تخضع له الاسباب والسنن فيه وهو لا يخضع لهما، سواء كان له هذا التصرف لذاته وهو رب العالمين

او كانت له بولايته له تعالى ونيابته عنه . وقد شرحنا هذه الحقيقة آنفا مختصراً مما بيناه في مواضع من التفسير والمنار في معنى كون الاسلام دين الفطرة، وانه شرع لتكامل استعداد البشر للرقى في العلم والحكمة ، ومعرفة الله عز وجل المعدة إياهم لسعادة الآخرة ، فليس فيه شيء يصادمها

فهذا الدين التعليمي حاجة من حاج الفطرة البشرية لا يتم كمالها النوعي بدونه، فهو لنوع الانسان كالعقل لافراذه كما حققه شيخنا الاستاذ الامام

قد كان دين الله الذي بعث به جميع رسله لجميع الامم مصلحاً لما أفسدته الوثنية من فطرتهم بجهلهم ثم بتقليد بعضهم لبعض، على انهم كانوا إذا طال الامد على بعثة الرسل يضلون عن هدايتهم إلى أن أتم الله الدين وأكمل للبشر كما تقدم بيانه في المقصدين الاول والثاني من مقاصد القرآن . وفي حديث الصحيحين « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » يعني انهما يفسدان فطرته الاستعدادية بتلقيه دينا محرفا منسوخا بدلا من إكمالها

وكان من فضل الله على عباده بعد إكمال دينه أن ضمن لهم حفظ كتابه هذا من التحريف والتبديل والنسيان، والزيادة والنقصان، فقال (١٥: ٩) إِنَّا نَحْنُ نُزِّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) وعصم أمة خاتم النبيين أن تضل كلها عنه كما ضلت الامم قبلهم ، فان كان ﷺ قد أخبر بما أطلع الله عليه من مستقبلها انهم سيتبعون من قبلهم من اليهود والنصارى (كما تقدم في ص ١٣٤) فقد أخبر أيضا بأنه لا بد أن يبقى بعضهم على الحق ليكونوا حجة الله على خلقه فقال ﷺ « لا تزال طائفة من أمتي

ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون» رواه أحمد والبخاري ومسلم عن المغيرة (رض) ورواه الحاكم عن عمر (رض) بسند صحيح على شرط مسلم بلفظ «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق إلى قيام الساعة» وابن ماجه عن أبي هريرة بلفظ «لا تزال طائفة من أمتي قوامه على أمر الله لا يضرها من خالفها» وهو صحيح أيضا . وروى مسلم من حديث جابر بن سمرة مرفوعا « لن يبرح هذا الدين قائما يقاتل عليه عصاة من المسلمين حتى تقوم الساعة » وروى آخرون من طرق ضعيفة يقوي بعضها بعضا ان هذه الامة لا تجتمع على ضلالة والله الحمد

(٢) الاسلام دين العقل والفكر

تقرأ قاموس الكتاب المقدس فلا تجد فيه كلمة (العقل) ولا مافي معناها من أسماء هذه الغريزة البشرية التي فضل الانسان بها جميع أنواع هذا الجنس الحي كاللب والنهي ، لا لان هذه المادة لم تذكر في كتب العهدين مطلقا بل لانها لم ترد فيها أساسا لفهم الدين ودلائله والاعتبار به، ولا أن الخطاب بالدين موجه اليه ، وقائم به وعليه ، وكذلك أسماء التفكير والتدبر والنظر في العالم التي هي أعظم وظائف العقل .

أما ذكر العقل باسمه وأفعاله في القرآن الحكيم فيبلغ زهاء خمسين مرة .
وأما ذكر أولي الالباب اي العقول ففي بضع عشرة مرة ، وأما كلمة أولي النهى أي العقول فقد جاءت مرة واحدة من آخر سورة طه

أكثر ما ذكر فعل العقل في القرآن قد جاء في الكلام على آيات الله وكون المخاطبين بها والذين يفهمونها ويهتدون بها هم العقلاء ، ويراد بهذه الآيات في الغالب آيات الكون الدالة على علم الله ومشيتته وحكمته ورحمته ، كقوله تعالى (٢ : ١٦٤)
إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ
الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ

فأحياه الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون) وبلي ذلك في الكثرة آيات كتابه التشريعية ووصاياه كقوله في تفصيل الوصايا الجامعة من أواخر سورة الانعام (٦ : ١٥١) ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (وكرر قوله (أفلا تعقلون) أكثر من عشر مرار كأمره لرسوله أن يحتج على قومه بكون القرآن من عند الله لا من عنده بقوله (١٠ : ١٦) فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) وجعل إهمال استعمال العقل سبب عذاب الآخرة بقوله في أهل النار من سورة الملك (٦٧ : ١٠) وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ) وفي معناه قوله تعالى من سورة الاعراف (١٧٩ : ٧) وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ، وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا ، وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ، أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) وقوله في سورة الحج (٢٢ : ٤٦) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا) الآية كذلك آيات النظر العقلي والتفكير كثيرة في الكتاب العزيز ، فمن تأملها علم أن أهل هذا الدين هم أهل النظر والتفكير والعقل والتدبر ، وأن الغافلين الذين يعيشون كالأنعام لا حظ لهم منه إلا الظواهر التقليدية التي لا تزكي الانفس ، ولا تنف العقول ، ولا تصعد بها في معارج الكمال ، بعرفان ذي الجلال والجمال ، ومنها قوله تعالى (قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا) وقوله (٣٠ : ٨) أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى) وقوله في

صفات العقلاء أولي الالباب (٣ : ١٩١) ويتفكرون في خلق السموات والأرض (وقوله بعد نفى علم الغيب والتصرف في خزائن الأرض عن الرسول ﷺ وحصر وظيفته في اتباع الوحي (٦ : ٧) قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون)

وقد صرح بعض حكماء الغرب ، بما لا يختلف فيه عاقلان في الأرض ، من أن التفكير هو مبدأ ارتقاء البشر ، وبقدر جودته يكون تفاضلهم فيه

كانت التقاليد الدينية حجرت حرية التفكير واستقلال العقل على البشر حتى جاء الاسلام فأبطل بكتابه هذا الحجر ، وأعتقهم من هذا الرق ، وقد تعلم هذه الحرية أئمة الغرب من المسلمين ، ثم نكس هؤلاء المسلمون على رؤسهم فخر موهنا على أنفسهم الا قليلا منهم حتى عاد بعضهم يقلدون فيها من أخذوها عن أجدادهم . وقد اعترف علماء الغرب لعلماء سلفنا بسبقهم وإمامتهم لهم ، ونقل شيخنا الاستاذ الامام طائفة من أقوالهم في كتاب الاسلام والنصرانية



(٣) الاسلام دين العلم والحكمة

ذكر اسم العلم معرفة ونكرة في عشرات من آيات القرآن الحكيم تناهز المئة ، وذكرت مشتقاته أضعاف ذلك ، وهو يطلق على علوم الدين والدنيا بأنواعها ، فمن العلم المطلق قوله تعالى في وصايا سورة الاسراء (١٧ : ٣٦) لا تقف ما ليس لك به علم . إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا) اي لا تتبع ما ليس لك به علم يثبت عندك بالرؤية البصرية ، أو بالروايات السمعية ، أو بالبراهين القطعية ، فان الله يسألك عما أعطاك من آلات هذا العلم الثلاثة قال الراغب في تفسير « لا تقف » : أي لا تحكم بالقيافة والظن . وقال البيضاوي

ما ملخصه : ولا تتبع ما لم يتعلق به علمك تقليداً أو رجماً بالغيب اه ومنه قوله تعالى في العلم المأثور في التاريخ (اِنتَوْنِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) ومنه قوله تعالى في علوم البشر المادية (٣٠ : ٦) وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٧ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا (الخ وقوله في العلم الروحي (١٧ : ٥٨) وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا)

وهاتان الآيتان في بيان ضعف علم البشر وقلته حتى الديني منه لا يزال يعترف العلماء أيهم أوسع علماً بمضمونهما، وبأن علمهم لا يتجاوز الظواهر، وقد صرح بعض فحول علماء الغرب بأنهم كلما ازدادوا علماً وعلماً من حاجتهم إلى تحقيق ماسبق والزيادة عليه ما لم يكونوا يعلمون كما قال الامام الشافعي :

كلما أدبني الدهر رُأني نقص عقلي

وإذا ما ازددت علماً زادني علماً بحجلي

وقوله تعالى في العلم العقلي (٢٢ : ٨) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ (الظاهر أن المراد بالعلم فيه العلم النظري بدليل مقابلته بالهدى والكتاب المنير وهو هدى الدين والوحي . وقوله في العلم الطبيعي (٣٠ : ٢٢) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ) بكسر اللام أي علماء الكون . ومثله قوله بعد ذكر اخراج الثمرات المختلف ألوانها من ماء المطر واختلاف ألوان الطرائق في الجبال وألوان الناس والدواب (٣٥ : ٢٨) إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) الآية فالمراد بالعلماء هنا الذين يعلمون أسرار الكون وأطواره

وأَسباب اختلاف أجناسه وأنواعه وألوانها وآيات الله وحكمه فيها، وهو يشمل أكثر العلوم والفنون أو جميعها، وفي معناها آيات في سور أخرى

عظم القرآن شأن العلم تعظيماً لا تلوّه عظمة أخرى بقوله تعالى (٣ : ١٨) شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ - وَالْمَلَأْنِيكَهُ وَأَوَّلُوا الْعِلْمَ - قَائِمًا بِالتَّسْطِطِ فبدأ عز وجل بنفسه وثنى بملائكته، وجعل أولى العلم في المرتبة الثالثة، ويدخل فيها الأنبياء والحكماء ومن دونهم من أهل الدرجات في قوله (٥٨ : ١١) يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ (وَأَمْرًا كَرَّمَ رَسُلَهُ وَأَعْلَمَهُمْ بِأَن يَدْعُوهُ بِقَوْلِهِ (٢٠ : ١١٤) وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا) ويؤيد الآيات المنزلة في مدح العلم والحث عليه ما ورد في ذم اتباع الظن كقوله تعالى (١٠ : ٣٦) وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا، إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا) ومثله (٥٣ : ٢٧) وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا) وقوله في قول النصارى بصلب المسيح (٤ : ١٥٦) مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ)

وبلغ من تعظيمه لشأن العلم البرهاني أن قيد به الحكم بمنع الشرك بالله تعالى والنهي عنه وهو أكبر الكبائر وأقصى الكفر فقال (٧ : ٣٢) قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا دَلَّى اللَّهُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) وقال في بر الوالدين الكافرين (٢٩ : ٨) وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا)

ومعلوم من الدين بالضرورة أنّ الشريك بالله لا يكون بعلم ولا يبرهان ، لأنه ضروري البطلان ، وترى تفصيل هذا فيما بعده من تعظيم أمر الحجّة والدليل ، وما يليه من ذم التقليد

الحكمة

وأما الحكمة فقد قال تعالى في تعظيم شأنها المطلق (٢: ٢٦٩) يُوْتَى الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ) وقال تعالى في بيان مراده من بعثة محمد خاتم النبيين (٦٢: ٣) هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيَعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) وفي معناها آيتان في سورتي البقرة وآل عمران . وقال لرسوله ممتاعا عليه (٤: ١١٢) وَأَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ، وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا) وقال له (١٦ : ١٢٥) أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ ، الْمَوْعِظَةُ الْحَسَنَةُ) وقال له في خاتمة الوصايا بأهمّات الفضائل والنهي عن كبار الرذائل ، مع بيان عللها وما لها من العواقب (١٧ : ٣٩) ذَلِكَ بِمَا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ) وقال لنسائه رضي الله عنهن (٢٣ : ٣٤) وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ)

وقد آتى الله جميع أنبيائه ورسله الحكمة ، ولكن أضعاف أقوامهم من بعدهم بالتقاليد والرياسة الدينية ، ونسخها بولس من النصرانية بنص صريح . قال الله تعالى في اليهود (٤ : ٥٤) أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ، فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا)

فالكتاب أعلى ما يؤتاه تعالى لعباده من نعمه وبليته الحكمة وبليها الملك . وقال في نبيه داود عليه السلام (٢ : ٢٥١) وآتاهُ اللهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ) وقال لنبية عيسى عليه السلام (٦ : ١١٣) وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ) وقال (٣١ : ١٢) وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ) وذكر من حكته وصاياه لابنه بالفضائل ومنافعها ونهيه عن الرذائل معطلة بمضارها .

فالحكمة أخص من العلم ، هي العلم بالشيء على حقيقته وبما فيه من الفائدة والمنفعة الباعثة على العمل ، فهي بمعنى الفلسفة العملية كعلم النفس والأخلاق وأسرار الخلق ، ويدل عليه قوله تعالى بعد وصايا سورة الاسراء التي قلناها : آنفا في صفحتي ١٤٤ و ١٤٥ (ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ) . ويكثر في القرآن ذكر الفقه وهو الفهم الدقيق للحقائق الذي يكون به العالم حكما عاملا مثقفا ، فراجع منها في سورة الأنعام ٦ : ٢٥ و ٦٥ و ٩٨ وفي سورة الأعراف ٧ : ١٧٨ وفي سورة الأنفال ٨ : ٦٥ وفي سورة التوبة ٩ : ٨٢ و ٨٨ و ١٢٣ وحسبك ما في هذه السور الأربع تعريفاً بالفقه وأنه هو الحكمة لاعلم ظواهر الأحكام من الطهارة ، والبيع والإجارة الخ فان تسمية هذا بالفقه اصطلاحية لا قرآنية ، ومنه ما هو ضد فقه القرآن كالحيل التي تعلم النامس التفصي من حكمة القرآن

(٤) الاسلام دين الحجة والبرهان

قال تعالى (٤ : ٧٣) يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا) وقال (٢٣ : ١١٧) وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ)

تقيد الوعيد على الشرك بكونه لا برهان لصاحبه يحتاج به مع العلم بأنه لا يكون إلا كذلك تعظيماً لشأن البرهان ، وذلك انه تعالى يبعث الامم مع رسلهم وورثتهم الذين يشهدون عليهم ويطالبهم بحضورهم بالبرهان على ما خالفوهم فيه كما قال (٢٨ : ٧٥) وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ، فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

وأقام البرهان العقلي على بطلان الشرك بقوله بعد ذكر السموات والارض من سورة الانبياء (٢١ : ٢٢) لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهِةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا) ثم ففى عليه بمطالبة المشركين بالبرهان على ما اتخذوه من الآلهة من دونه مطالبه تعجيز فقال (٢٤) أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلَهِةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ) الآية ، ومثله في سورة النمل (٢٧ : ٦٤) أَمْ مَنْ يَبْدؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يَعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ؟ أَلَيْهَ مَعِ اللَّهُ ؟ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

وقال في سياق محاجة ابراهيم لقومه وإقامة البراهين العلمية ثم على بطلان شركهم (٦ : ٨١) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ؟ فَوَيْلٌ لِلْفِرَاقِينَ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) ثم قال في آخره (٨٣) وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ ، إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ) فالدرجات هنا درجات الحجة والبرهان العقلي في العلم ولذلك قدم فيه ذكر الحكمة على العلم ، وتقدم في الكلام على العلم آية رفع الدرجات فيه

ومما جاء فيه البرهان بلفظ السلطان قوله تعالى (٤٠ : ٣٥) الَّذِينَ يَجَادِلُونَ

في آياتِ اللهِ بغيرِ سلطانٍ أتاهم ، كبرَ مقتاً عندَ اللهِ وعندَ الذينِ آمنوا (الآية ، وفي معناها من هذه السورة (٥٦) إنَّ الذينَ يجادلونَ في آياتِ اللهِ بغيرِ سلطانٍ أتاهم إن في صدورهم إلا كبرٌ ما هم ببالغيه) الآية ، وفي عدة سور أخرى أنه تعالى أرسل موسى إلى فرعون بآياته (وسلطان ميين)

(٥) الاسلام دين القلب والوجدان والضمير

قال الفيومي في المصباح : ضمير الانسان قلبه وباطنه والجمع ضمائر ، وقال والقلب من النواد معروف - يعني أنه ضميره ووجدانه الباطن (قال) ويطلق على العقل . اه وقد شرحنا معناه هذا وطرق استعماله في تفسير آية الاعراف (١) وقد ذكر في القرآن الكريم في مائة آية وبضع عشرة آية

منها قوله تعالى في سورة ق (٣٧) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ) وقوله في سورة الشعراء (٨٨) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنَ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) ومنها مدحه لحليله ابراهيم عليه السلام بقوله (إِذْ جَاء رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) وقوله حكاية عنه (٢: ٢٦٠) وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبُ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) وقوله في صفات المؤمنين (١٣: ٢٨) الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) وقوله في صفات الذين اتبعوا عيسى عليه السلام (وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأًوَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا) الخ ووصف قلوب المؤمنين بالخشوع والاخبات لله وتمحيصها من الشوائب ، وقلوب الكفار والمنافقين بالرجس والمرض والفسوة والزيغ ، وعبر عن فقدانها للاستعداد

للحق والخير بالطبع والختم والرين عليها ، أي إنها كالتحتوم المطبوع عليه فلا يدخله شيء جديد ، أو كالمعدن أحاط به وغلب عليه الرين وهو الصدا أو الدنس فلا تقبل انصقل والجلاء .

وإذ كان الاسلام دين العقل والبرهان ، وحرية الضمير والوجدان ، فقد أبطل ما كان عليه النصارى وغيرهم من الاكراه في الدين والاجبار عليه ، والفتنة والاضطهاد لمخالفهم فيه ، والآيات في ذلك كثيرة بينها في محلبا ، ومن دلائلها ذم القرآن للتقليد وتضليل أهله



(٦) منع التقليد والجود على اتباع الآباء والجود

كل ما نزل من الآيات في مدح العلم وفضله واليقين فيه واستقلال العقل والفكر وحرية الوجدان ، والمطالبة بالبرهان ، وذم اتباع الظن والحرص فيما يطلب فيه الايمان والعلم — يدل على ذم التقليد ، وقد ورد في ذمه والنعي على أهله آيات كثيرة كقوله (٢ : ١٧٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ، أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ) وقوله تعالى (٥ : ١٠٤) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ، أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ) ذمهم من ناحيتين (إحداهما) الجود على ما كان عليه آبائهم والاكتفاء به عن الترقى في العلم والعمل ، وليس هذا من شأن الانسان الحي العاقل ، فان الحياة تقتضي النمو والتوليد ، والعقل يطلب المزيد والتجديد (والثانية) أنهم باتباعهم لا بآبائهم قد فقدوا مزىة البشر في التمييز بين الحق والباطل والخير والشر ،

والحسن والقيسح، بطريق العقل والعلم وطريق الاهتداء في العمل ويؤيده قوله (٢٨:٧) وَإِذَا فَعَلُوا فَاحْشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا، قُلْ إِنْ أَلَّاهُ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ، أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (وقال تعالى في عبادة العرب للملائكة (٤٣ : ٢٠) وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ، مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ، إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ٢١ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ٢٢ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ ٢٣ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ)

وتراجع الشواهد على هذا في قصة ابراهيم مع قومه في سور الانبياء والشعراء والصفات فالقرآن قد جاء يهدي جميع متبعي الملل والاديان السابقة الى استعمال عقولهم مع ضمائرهم للوصول الى العلم والهدى في الدين، وألا يكتفوا بما كان عليه آباؤهم وأجدادهم من ذلك، فان هذا جنابة على الفطرة البشرية والعقل والفكر والقلب التي امتاز بها البشر، وبهذا العلم والهدى امتاز الاسلام ودخل فيه العقلاء من جميع الامم أفواجا، ثم نكس المسلمون على رؤسهم إلا قليلا منهم، واتبعوا سنن من قبلهم من أهل الكتاب وغيرهم في التقليد لا بآئهم ومشايخهم المنسوين إلى بعض أئمة علمائهم، الذين نهوهم عن التقليد ولم يأمرهم به، فأبطلوا بذلك حجة الله تعالى على الامم التي وكل الله دعوتها اليهم، وصاروا حجة على دينهم، فكيف يدعون له وحجته القرآن وهم يجرمون الاهتداء به (١) حتى ان أدعياء العلم الرسمي^٢ فيهم ينكرون (١) (راجع ص ١٣٤) (٢) المراد بالعلم الرسمي الذي يعتمد مدعيه في اتحاله على الشهادة الرسمية من المدرسة التي تعلم فيها دينية كالازهر او مدنية، وكم حامل شهادة بالعلم وهو جاهل

أشد الانكار على من يدعونهم إلى اتباع كتاب الله وهدى رسوله وسيرة السلف الصالح من أهله ، ونحن معهم في بلاء وغناء ، نقاسي مهم ماشاء الجهل والجود من استهزاء ، وطعن وبذاء ، وتهكم بقلب (المجتهد) الذي احتكره الجهل لبعض المتقدمين من العلماء.

ولو كن فينا علماء كثيرون يظهرون الاسلام في صورته الحقيقية العلمية العقلية لدخل الناس المستقلون في العقل والعلم فيه أفواجا حتى يعم الدنيا ، لان التعليم العصري في جميع مدارس الارض يجري على طريقة الاستقلال في الفهم واتباع الدليل في جميع بلاد الافرنج والبلاد المقلدة لهم ، ولكن أكثر هؤلاء يرون جميع الاديان تقليدية ويعتدونها نظما أدبية واجتماعية للامم ، فلها يرون الأولى بحفظ نظامهم اتباع دينهم التقليدي ، وبهذا يعسر علينا أن نقنعهم بامتياز الاسلام على دينهم ، لأنه يقل فينا من يقدر على إظهار الاسلام في صورته التي خصه بها القرآن ، وما بينه من سنة خاتم النبيين ﷺ وسيرة خلفائه الراشدين والسلف الصالحين ، رضوان الله عليهم أجمعين

بيد أن محافظة الافرنج على نظام النصرانية بدون إيمان إذعاني سيزول فقد كثرت الجمعيات الدينية والعلمية التي تصرح بانكار ألوهية المسيح وأكثر تقاليد الكنائس كما تقدم تفصيل ذلك في ص ١٥٨

دحض شبهة ، وإقامة حجة

يتوهم بعض المقلدين ان دعوة المسلمين الى الاهتداء بالكتاب والسنة والاستقلال في فهمهما التي اشتهر المنار بها في عصرنا ، هي التي جرأت بعض الجاهلين على دعوى الاجتهاد في الشريعة والاستغناء عن تقليد الأئمة والانتقاد عليهم وعلى أتباعهم بما هو ابتداء جديد ، واستبدال للفوضى بالتقليد ، وهو وهم سببه الجهل

بالدين وبالتاريخ ، فمذاهب الابتداع والاحاد قديمة ، قد نجمت قرونها في خير القرون وعهد أكبر الأئمة ، وكان أشدها إفساداً للدين الدعوة الى اتباع الأئمة المعصومين ، الذين لا يستلون عن الدليل ، على خلاف ما كان عليه أئمة السنة من تحريم اتباع أحد لذاته في الدين بعد محمد المعصوم الذي لا معصوم بعده ﷺ ، ولكن المقلدين لهؤلاء المحرمين للتقليد قد اتبعوا القائلين بعصمة أئمتهم حتى ملاحدة الباطنية منهم ، فهم يردون نصوص الكتاب والسنة بأقوال أئمتهم بل بأقوال كل من ينتمي اليهم من أدياء العلم على اعتقادهم وإقرارهم بأنهم غير معصومين .

وإنما تروج البدع في سوق التقليد الذي يتبع أهله كل ناعق ، لا في سوق الاستقلال والاخذ بالدلائل ، ومن باب التقليد دخل أكثر الخرافات على المسلمين لا تنساب جميع الدجالين من أهل الطرائق وغيرهم الى أئمة المذاهب المجتهدين ، وهم في دعوى اتباعهم من الكاذبين ، ونحن دعاة العلم الصحيح والاهتداء بالكتاب والسنة أحق منهم باتباع الأئمة ، ولا نفي بالاهتداء بالكتاب والسنة ان كل منهم إمام مجتهد مطلق كمالك والشافعي (رض) فهذه أعلى درجة في العلم ، والعلم درجات كما قال الله عز وجل . وقد كان يوجد في السلف قبل تدوين المذاهب عوام وخواص كلهم يهتدون بهما وصاحب المنار قد وقف نفسه على الرد على جميع الملاحدة والبهائية والقاديانية والقبوريين وسائر مبتدعة عصرنا وهو لم يدع مذهبا له يدعو اليه ، ولم يخالف إجماع الامة ، ولا فرق بين الأئمة ، والله الحمد والمنة

(٧) الحرية الشخصية في الدين بمنع الاكراه والاضطهاد ورياسة السيطرة

هذه المزية من مزايا الاسلام هي نتيجة المزايا التي يبنينا بها كونه دين الفطرة فأما منع الاكراه فيه وعليه فالاصل فيه قوله تعالى لرسوله ﷺ بمكة (١٠: ٩٩) وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآ مَنَّ مَنَ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ، فَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ؟ ١٠٠ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا

بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَيَجْمَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْكُمُونَ ١٠١ قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنَّذِيرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ) علم الله تعالى رسوله بهذه الآيات أن من سنه في البشر أن تختلف عقولهم وأفكارهم في فهم الدين وتتفاوت أنظارهم في الآيات الدالة عليه فيؤمن بعض ويكفر بعض ، فما كان يتمناه ﷺ من إيمان جميع الناس مخالف لمقتضى مشيئته تعالى في اختلاف استعداد الناس للإيمان ، وهو منوط باستعمال عقولهم وأنظارهم في آيات الله في خلقه ، والتمييز بين هداية الدين وضلالة الكفر (١)

ثم قوله تعالى له عند ما أراد أصحابه أخذ من كان عند بني النضير من أولادهم عند إجلائهم عن الحجاز وكان قد تهود بعضهم (٢: ٢٥٦) لا إكراه في الدين - قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ (الآية - فأمرهم ﷺ أن يخبروهم فن اختار اليهودية أجلي مع اليهود ولا يكره على الاسلام، ومن اختار الاسلام بقي مع المسلمين كما بيناه في تفسير الآية

وأما منع الفتنة وهي اضطهاد الناس لاجل دينهم حتى يتركوه فهو السبب الاول لشرعية القتال في الاسلام وسيأتي بيانه في المقصد الثامن من هذا الكتاب وأما منع رياسة السيطرة الدينية كالمهودة عند النصارى فيها آيات مبينة في القرآن ، وهي معلومة بالضرورة من سيرة النبي ﷺ وخلفائه الراشدين ، وقد بيناها في الكلام على وظائف الرسل عليهم السلام ، وحسبك منها قوله عز وجل لرسوله ﷺ خاتم النبيين (٨٨: ٢١) فَذَكَرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ ٢٢ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ)

(١) راجع تفسير هذه الآيات من آخر سورة يونس في آخر الجزء ١١ من تفسير المنار

المقصد الرابع من مقاصد القرآن

(الاصلاح الانساني الاجتماعي السياسي الوطني بالوحدات الثمان)

وحدة الأمة - وحدة الجنس البشري - وحدة الدين - وحدة التشريع
بالمساواة في العدل - وحدة الأخوة الروحية والمساواة في التعبد - وحدة الجنسية
السياسية الدولية - وحدة القضاء - وحدة اللغة

جاء الاسلام والبشر أجناس متفرقون ، يتعادون في الانساب والالوان ،
واللغات والاطنان والاديان ، والمذاهب والمشارب ، والشعوب والقبائل ،
والحكومات والسياسات ، يقاتل كل فريق منهم مخالفه في شيء من هذه الروابط
البشرية وإن وافقه في البعض الآخر ، فصاح الاسلام بهم صيحة واحدة دعاهم بها
إلى الوحدة الانسانية العامة الجامعة وفرضها عليهم ، ونهاهم عن التفرق والتعادي
وحرمه عليهم ، وبيان هذا التفرق ومضاره بالشواهد التاريخية ، وبيان أصول
الكتاب الالهي وسنة خاتم النبيين في الجامعة الانسانية . لا يمكن بسطها إلا بمصنف
كبير ، فذكرتني في هذا المقصد من إثبات الوحي المحمدي بسرد الاصول الجامعة
في هذا الاصلاح الانساني الداعي إلى جعل الناس على ملة واحدة ، ودين واحد ،
وشرع واحد وحكم واحد ، ولسان واحد ، كما ان جنسهم واحد ، وربهم واحد . ونبدأ
بالاصل الجامع في هذا ونقفي عليه بالاصول والشواهد المفصلة له

﴿ الاصل الاول للجامعة الاسلامية الانسانية وحدة الامة ﴾

قال الله تعالى في سورة الانبياء مخاطباً أمة الاسلام بعد ذكر خلاصة من قصصهم
(٩٢.٢١) إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (*)

(*) قرأ الجمهور (أمتكم) بالرفع على أنها خبر و (أمة) بالنصب على أنها
حال لازمة و (واحدة) صفة لأمة

ثم بين لها في سورة المؤمنين أنه خاطب جميع النبيين بهذه الوحدة ثلاثة فقال (٢٣ : ٥١) يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوَا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥٢) وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (ولكن كان لكل نبي أمة من الناس هم قومه ، وأما خاتم النبيين فأتمته جميع الناس ، وقد فرض الله عليهم الايمان بجميع رسله وعدم التفرقة بينهم ، فلايمان بخاتمهم كالايمان بأولهم وبمن بينهما ، فمثلهم كمثل الملوك أو الولاة في الدولة الواحدة ، ومثل اختلاف شرائعهم بنسخ المتأخر منها لما قبله كمثل تعديل القوانين في الدولة الواحدة أيضا الى أن كل الدين كما تقدم (ص ١٦٠ - ١٦٢)

(الاصل الثاني) الوحدة الانسانية بالمساواة بين أجناس البشر وشعوبهم وقبائلهم، وشاهده العام قوله تعالى (٤٩ ، ١٣) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ (وقد بلغ النبي ذلك في حجة الوداع ، فتلا الآية وقال ما خلاصته أنه ليس لعربي على عجمي ولا لأبيض على أسود فضل - ولا العكس - الا بالتقوى. من حديث العلاء بن خالد في المعجم الكبير للطبراني. وهذه الوحدة الانسانية تتضمن الدعوة إلى التآلف والتعارف ، وإلى ترك التعادي بالتخالف

(الاصل الثالث) وحدة الدين باتباع رسول واحد جاء بأصول الدين الفطري الذي جاء به غيره من الرسل ، وأكل تشريعه بما يوافق جميع البشر ، وشاهده الأعم قوله تعالى (٧ : ١٦٨) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا (ولما كان الاسلام دين الفطرة وحرية الاعتقاد والوجدان جعل الدين اختياريا بقوله تعالى (٢ : ٢٥٦) لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ، قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ) (الاصل الرابع) وحدة التشريع بالمساواة بين الخاضعين لاحكام الاسلا

في الحقوق المدنية والتأديبية بالعدل المطلق بين المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، والملك والسوقة ، والغني والفقير ، والقوي والضعيف ، وسند ذكر بعض شواهد في إصلاح التشريع من المقصد السادس

(الاصل الخامس) الوحدة الدينية بالمساواة بين المؤمنين بهذا الدين في اخوته الروحية وعبادته ، وفي الاجتماع للاجتماعي منها كالصلاة ومناسك الحج ، فملوك المسلمين وأمرائهم وكبار علمائهم يختلطون بالفقراء والعوام في صفوف الصلاة والطواف بالكعبة المشرفة والوقوف بعرفات وسائر مواطن الحج ، ولا تجد شعوب الافرنج المنتسبين إلى النصرانية يرضون بمثل هذه المساواة المعلومة من دين الاسلام بالضرورة للعمل بها من أول الاسلام الى اليوم ، قال تعالى (٤٩ : ١٠)
إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ وقال في أحكام المشركين المخاريين (٩ : ١١)
فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَأِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ)

(الاصل السادس) وحدة الجنسية السياسية الدولية بأن تكون جميع البلاد الخاضعة للحكم الاسلامي متساوية في الحقوق العامة كحماية أهلها والدفاع عنهم إلا حق الإقامة في جزيرة العرب أو الحجاز فانه خاص بالمسلمين ، لان للحرمين وسيابهما من الجزيرة حكم المعابد والمساجد ، وحكم الاسلام في معابد الملل الداخلة في ذمته انها خاصة بأهلها ولها حرمتها ، لا يجوز لغير أهلها دخولها بغير إذن منهم ، المسلمون وغيرهم في هذا سواء

(الاصل السابع) وحدة القضاء واستقلاله ومساواة الناس فيها أمام الشريعة العادلة ، إلا أنه يستثنى منه الاحكام الشخصية الدينية ، فان الاسلام براعي فيها حرية العقيدة والوجدان بناء على أساسه في ذلك . فهو يسمح لغير المسلمين في أمور الزوجية ونحوها أن يتحاكموا إلى رؤساء ملتهم ، وهذا ضرب من المساواة ليس له في غير الاسلام ضرب ، لانه اشراك في الحكم والتشريع ، وأما إذا تحاكموا لنا

قَانْنَا نَحْكُمَ بِهِمْ يُعَدِّلُ شَرِيعَتَنَا النَّاسِخَةُ لَشَرَائِعِهِمْ ، وَالْأَصْلُ فِيهِ قَوْلُهُ تَعَالَى (٤٢:٥)
 فَإِنْ جَاؤُكَ مَا حَكَمَ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرَضَ عَنْهُمْ ، وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ
 فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا ، وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
 الْمُقْسِطِينَ) وقوله بمد آيات (٤٩) وَأَنْ أَتَحْكُمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ
 وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ)

(الاصل الثامن) وحدة اللغة ، ووجهها أنه لا يمكن أن يتم الاتحاد والاخاء بين
 الناس وصيرورة الشعوب الكثيرة أمة واحدة إلا بوحدة اللغة . وما زال الحكماء
 الباحثون في مصالح البشر العامة يتمنون لو يكون لهم لغة واحدة مشتركة ، يتعاونون
 بها على التعارف والتآلف ، ومناهج التعليم والآداب ، والاشتراك في العلوم والفنون
 والمعاملات الدنيوية ، وهذه الامنية قد حققها الاسلام بمجعل لغة الدين والتشريع
 والحكم لغة جميع المؤمنين به والخاضعين لشريعته ، إذ يكون المؤمنون مسوقين
 باعتقادهم ووجدانهم إلى معرفة لغة كتاب الله وسنة رسوله لفهمها واتعبد بها ،
 والاتحاد باخوتهم فيها ، وهما مناط سيادتهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة ، ولذلك
 كثر في القرآن بيان كونه كتابا عربيا ، وحكما عربيا ، وكررا لا مبر بتدبره والتفقه
 فيه ، والاتعاظ والتأدب به ، وأما غير المؤمنين فيتعلمون لغة الشرع الذي يخضعون
 لحكمه ، والحكومة التي يتبعونها لمصالحهم الدنيوية كما هي عادة البشر في ذلك ،
 وكذلك كان الامر في الفتوحات الاسلامية العربية كلها

وقد فصلت في المنار والتفسير مسألة وجوب تعلم اللغة العربية في دين الاسلام
 وكونه مجمعا عليه بين المسلمين كما قرره الامام الشافعي (رض) في رسالته ، وهو الذي
 جرى عليه العمل في عهد الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين ، ثم خلفاء الامويين
 والعباسيين ، الى أن كثر الاعاجم ، وقل العلم ، وغاب الجهل ، فصاروا يكتفون
 من لغة الدين بما فرضه الله في العبادات من القرآن والاذكار "

الشواهد من السنة على وحدة الجنس واللغة

كان النبي ﷺ ينكر على المسلمين كل نوع من أنواع التفرق الذي ينافي وحدتهم وجعلهم أمة واحدة كالجسد الواحد كما شبههم بقوله «مثل المؤمنين في توادهم وتراحهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» رواه الامام أحمد ومسلم من حديث النعمان بن بشير (رض) وكان يخص بمقتته وإنكاره التفرق في الجنس النسبي أو اللغة . أما الاول فمشهور ومنه ان أباذر (رض) وهو من السابقين الاولين المتقين تغاضب مع بلال الحبشي مولى أبي بكر (رض) وتسابا فقال له أبوذر : يا ابن السوداء فشكاه بلال الى النبي ﷺ فقال لابي ذر «أعيرته بأمة ؟ انك امرؤ فيك جاهلية» رواه البخاري في مواضع ومسلم بدون ذكر اسم بلال، ولفظ البخاري في كتاب الادب عن أبي ذر كان بيني وبين رجل كلام وكانت أمه أعجمية فنلت منها فذكرني إلى النبي ﷺ فقال لي «أسأيت فلانا؟» قلت نعم . قال «أفنت من أمه؟» قلت نعم ، قال «انك امرؤ فيك جاهلية» قلت: على ساعتى هذه من كبر السن ؟ قال «نعم هم اخوانكم» الخ الحديث وسيأتي في الوصية بالرفيق، وروي ان أبا ذر تاب توبة نصوحا حتى أمر بلالا أن يطأ على وجهه

وأما الثاني فيجمله مع الاول ما رواه الحافظ ابن عساکر بسنده إلى مالك عن الزهري عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال جاء قيس بن مطاطية إلى حاقلة فيها سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي فقال : هذا الاوس والخزرج قد قاموا بنصرة هذا الرجل فإبال هذا ؟ (يعني - هذا المنافق - بالرجل النبي ﷺ وان الاوس والخزرج من قومه العرب ينصرونه لانهم من قومه، فما الذي يدعو الفارسي والرومي والحبشي إلى نصره؟) فقام اليه معاذ بن جبل (رض) فأخذ بتلييه (١) ثم أتى النبي ﷺ فأخبره بمقالته ، فقام النبي ﷺ مغضبا يجر رداءه

(١) اللب بففتحين موضع النحر ، وتلييه ما على لبيه ونحوه من الثياب اي قبض عليها وجذبه بها

حتى أتى المسجد ثم نودي : ان الصلاة جامعة * وقال ﷺ « يا أيها الناس إن الرب واحد، والاب واحد، وان الدين واحد، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم ، وإنما هي اللسان، فمن تكلم بالعربية فهو عربي، فقام معاذ فقال فما تأمرني بهذا المنافق يا رسول الله ؟ قال « دعه إلى النار » فكان قيس ممن ارتد في الردة فقتل

أرأيت لو ظل المسلمون على هذه التربية المحمدية أكان وقع بينهم من الشقاق والحروب باختلاف الجنس واللغة كل ما وقع وأدى بهم إلى هذا الضعف العام ؟

أرأيت لو حافظوا على هذه الاخوة الاسلامية أكانت حدثت فيهم تلك الشعوبية المجوسية الاولى ، وهذه العصبية التركية الاخرى ؟ كلا إنهم لو حافظوا عليها لعمموا أخوتها ، ولا صلحوا بها شعوب الارض كلها .

يعترض بعض أولي النظر القصير والبصر الآكليل على توحيد اللغة في الشعوب المختلفة بأنه خلاف طبيعة البشر، ويرد عليهم بأن توحيد الدين أبعد من توحيد اللغة عن طبيعة البشر إن أريد بالجميع أفرادهم ، وان الحكماء ما زالوا يسمعون لجمع البشر على لغة واحدة مشتركة مع علمهم أن ترقى بعض اللغات بترقى أهلها في العلوم والفنون والسياسة والقوة والعصبية يستحيل معه أن يرغبوا عنها إلى غيرها، ولم يسمع أحد منهم لجمعهم على دين واحد . وان القرآن الذي شرع توحيد الدين مع شرعه ولغته لجميع البشر قد علمنا أن حكمة الله تعالى في خلق الانسان تأتي أن يكون الناس كلهم أمة واحدة تدين بدين واحد (١١ : ١١٨) وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلَئِنَّكَ خَلَقَهُمْ - ثُمَّ) وإنما دعاهم إلى هذه الرحمة ليقبل الشقاء الذي يثيره الخلاف فيهم - هذا الخلاف الذي جعل أعظم شعوب الارض وأرقاهم في العمران يبدلون

(*) هذه الجملة يدعى بها الى صلاة العبدن وكل اجتماع عام في المسجد

في هذا العهد أكثر ما تستغله شعوبهم من ثروة العالم في سبيل الحروب التي تنذر
عمرانهم الخراب والدمار

فاذا كان مقتضى طبع البشر أن لا يتفقوا على شيء واحد من لغة ولا دين ولا
غيرها من الامور التي تختلف فيها الآراء فهذا لا يمنع دعوتهم كلهم إلى الحق والخير.
وقد استشكل هذا بعض العلماء من حيث الخطاب بتنفيذه فقلت لهم ان
الخطاب بتعميم لغة الاسلام، هم أولو الامر الخطابون بتعميم دعوة الاسلام، وإقامة
شرع الاسلام، وقد جري على ذلك الصحابة والخلفاء من بعدهم كما تقدم

دعا الاسلام البشر كلهم إلى دين واحد يتضمن توحيد اللغة وغيرها من
مقومات الامم فكانوا يدخلون فيه أفواجا، حتى امتد في قرن واحد ما بين المحيط
الغربي إلى أقصى الهند والصين، ولولا ما طرأ عليه من الابتداع، وعلى حكوماته
من الظلم والاستبداد، وعلى شعوبه من الجهل والفساد، والتفرق بالاختلاف،
لدخل فيه أكثر البشر، واصارت لغته لغة لكل من دخل في حظيرة من الامم،
فمن غرائزهم اختيار الافضل إذا عرفوه، بل علمنا القرآن أن هذا سنة عامة
في الاجتماع البشري بل في كل تنازع بين الحق والباطل، والنافع والضار، والصالح
والفاسد، انما يكون الغلب للافضل، والثبات والبقاء للامثل، فراجع الآيات في

دفع الحق للباطل، ثم اعتبر فيه بهذا امثل المائل (١٧: ١٣) أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا، وَمِمَّا يُوقِدُونَ
عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ
الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ، فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ

فَيَبْقَى فِي الْأَرْضِ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ

قال أحد كبار علماء الالمان في الاستانة لبعض المسلمين وفيهم أحد شرفاء مكة : انه ينبغي لنا أن نقيم تمثالا من الذهب لمعاوية بن أبي سفيان في ميدان كذا من عاصمتنا (برلين) قيل له لماذا؟ قال لانه هو الذي حول نظام الحكم الاسلامي عن قاعدته الديمقراطية إلى عصبية الغلب ، ولولا ذلك لمع الاسلام العالم كله ولكننا نحن الالمان وسائر شعوب أوربة عربا مسلمين

قد أعجبت هذا الالمان عصبية القومية، وخيلاؤه الاوربية ، التي ستات قومه وجيرانهم الى جحيم الحرب الاخيرة عتلا (١) فأخسرت اوربة عشرين مايونا من الرجال، والوف الملايين من الاموال، وباء فيها قومه بالخزي والنكال، وسيطرة الاستدلال ، وانما كان كره ان يكونوا قد اهتمدوا بالاسلام ، بما صرفت بصره عصبية الالمانية ، عن رؤية المصلحة الانسانية الجامعة، ولو نظر فيها فأبصرها لعلم ان الافضل والامثل والاكمل للبشر توحيد شعوبهم بحيث يتفاضلون بعلوم افرادهم واعمالهم ، لا بأنسابهم وأوطانهم ولغاتهم المفرقة بينهم، وهو قد علم من قبل ان هذه الجامعة الانسانية لا سبيل اليها الا بهداية الاسلام فلا تنال الا به، ولو اهتمدت به اوربة اليوم لزال تضاعفها، ووجت علومها وفنونها الى اسعاد البشر وعمارة الارض كلها، فان اصرار الافرنج على الكبرياء بمجلداتهم البيضاء واحتقارهم للسود والحمر والسمر والصفر ، وهضمهم حقوقهم ، واستباحتهم لظلمهم، لمن اكبر العار على حضارتهم ، وان استثناءهم للاصفر الياباني من هذا الاحتقار ، لما ياطخهم بعار فوق عار، وإن حضارة الاسلام الانسانية الجامعة لتعلو عليها الوفا من الاميال لا الامتار ،

فهل يعقل أن يكون تقرير هذه الاصول التي توحد الامم والشعوب وتؤلف بينها بما يجمع كلمتهم عليها بالوازع النفسي ، لا بالقهر العسكري من رأي او الهام من نبع من نفس محمد ﷺ الامي في سن الكهولة ففاق بها جميع الانبياء والحكماء ؟ أم الأقرب الى العقل أن تكون بوحى من الله تعالى أفاضه عليه ؟

المقصد الخامس من مقاصد القرآن

« تقرير مزايا الاسلام العامة في التكاليف الشخصية من الواجبات والمحظورات »

(ونلخص أهمها بالاجمال في عشر جمل)

(الجملۃ الاولى) كونه وسطاً جامعاً لحقوق الروح والجسد ، ومصالح الدنيا والآخرة . وهو نص قوله تعالى (٢ : ١٤٣) وقد تقدم ذكرها وبيان معنى الشهادة على الناس فيها قريبا « ص ١٦١ » وبينافي تفسيرها في أول الجزء الثاني من تفسير المنار ان المسلمين وسط بين الذين تغلب عليهم الحفظ الجسدية والمنافع المادية كاليهود ، والذين تغلب عليهم التعاليم الروحية وتغيب الجسد واذلال النفس والزهد كلهندوس والنصارى . وإن خالف هذه التعاليم أكثرهم

(الثانية) كون غايته الوصول إلى سعادة الدنيا والآخرة بتزكية النفس بالايان الصحيح ومعرفة الله والعمل الصالح ومكارم الاخلاق ، ومحاسن الاعمال ، لا بمجرد الاعتقاد والاتكال ، ولا بالشفاعات وخوارق العادات ، وتقدم بيانه أيضاً

(الثالثة) كون الغرض منه التعارف والتأليف بين البشر لا زيادة التفريق والاختلاف كما يزعم أعداء الاديان ، وتقدمت شواهد في كونه عاماً مكمل ومتما لدين الله على ألسنة رسله في الكلام على آية القرآن وعموم بعثة محمد ﷺ وفي الكلام على الرسل من المقصد الثاني (ص ١٦٠) وإنما تفصيل أصوله في تلك الوحدات الثمان اثني بينها آتينا في المقصد الرابع

(الرابعة) كونه يسراً لا حرج فيه ولا عسر ولا إرهاب ولا إعنت ، قال الله عز وجل (٢ : ٢٨٦) لَا يُكَافُؤُا اللَّهُ تَقْسًا إِلَّا وَسْعَةً) وقال بلغت حكمته (٢ : ٢٢٠) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَخْتَمْتَكُمْ) وقال عظمت رأفته (٢ : ١٨٥) يُرِيدُ

اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ) وقال جلت منته (٢٢ : ٢٧
وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ
مِنْ حَرَجٍ) وقال عمت رحمته (٥ : ٧ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ
مِنْ حَرَجٍ)

ومن فروع هذا الاصل ان الواجب الذي يشق على المكلف اداؤه ويخرجه
يسقط عنه إلى بدل أو مطلقا كالمريض الذي يرجى برؤه والذي لا يرجى برؤه
ومثله الشيخ الهرم - الاول يسقط عنه "صيام وقية ضيه كالمسافر ، والثاني لا يقضي
بل يكفر باطعام مسكين فدية عن كل يوم إذا قدر . وأما المحرم فيباح للضرورة
بنص القرآن ، وإن كان تحريمه أو النهي عنه لسد ذريعة الفساد فيباح للحاجة كما
بيناه في تفسير آيات الربا وآيات الصيام ، وآية محرمات الطعام *

(الخامسة) منع الغلو في الدين وإبطال جعله تعديبا للنفس باباحة الطيبات والزينة
بدون إسراف ولا كبرياء وقد فصّلنا ذلك في تفسير الآيات الواردة في الامر
بالأكل من الطيبات في سورة البقرة وسورة المائدة وفي تفسير (٧ : ٣١) يَا بَنِي آدَمَ
خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا
يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣٢) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ
وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

وقال تعالى (يا أهل الكتاب لا تغلو في دينكم) وهو في (١٥ : ١٧) و (٦ : ٧٧) وفي
هذا النهي اعتبار للمسلمين لأنهم أولى بالانتهاء عن الغلو بأن دينهم دين الرحمة
واليسر . والاحاديث الصحيحة في نهى المسلمين عن الغلو في العبادة وعن ترك

(*) قد بينا يسر الاسلام وسهولته في مواضع من المنار وتفسيره اوسعها في تفسير
« ١٠٤ : ٥ » وقد جمع في رسالة مستقلة

الطيبات وعن الرهبانية والخصاء مينة لهذه الآيات وهي مصداق تسمية النبي ﷺ
لملته بالحنيفية السمحة

(السادسة) قلة تكليفه وسهولة فهمها وقد كان الاعرابي يحییء النبي ﷺ من
البادية فيسلم فيعلمه ما أوجب الله وما حرم عليه في مجلس واحد فيعاهده على العمل
به فيقول « أفلح الاعرابي إن صدق » وكان هذا أعظم أسباب قبول الناس له.
ولكن الفقهاء أكثروا التكاليف بأرائهم الاجتهادية حتى صار العلم بها متعبيرا،
والعمل بها كلها متعبدا، ولا يعترض على هذه المزية بالصلوات الخمس في كل يوم وليلة
فإن أقل ما يجزى به كل صلاة منها يمكن أن يؤدي في خمس دقائق ومنها صلاة وقها
عقب القيام من النوم في الصباح وصلاة قبل النوم في الليل، فهل يشق على المرء
أن يؤدي في سائر يومه ثلاث صلوات متفرقة في ربع ساعة منه ؟

« فان قيل » انه يشترط فيها الطهارة « قلنا » ان طهارة البدن والثياب
مطلوبة شرعا وطبافي كل وقت، فهي تكون قبل الصلاة فلا تضيع على المسلم وقتا ولا
عملا في أثناء النهار إلا نادرا، وكذلك الغسل الواجب فلما يجب إلا في الليل أو
الصباح، وأما الوضوء فلا يشق منه في أثناء العمل الا غسل الرجلين على الذين
يلبسون الجوارب والاحذية العصرية، ومن ابسها على طهارة يجوز له المسح بدلا
من الغسل، وأما فرائد هذه الصلاة وهذه الطهارة في النفس والبدن، فهي لا تقدر
بشئ، فالصلاة تطهير للنفس وتزكية لها بمناجاة المؤمن لربه فتصده عن الفحشاء والمنكر

(السابعة) انقسام التكليف إلى عزائم ورخص، وكان ابن عباس يرجح جانب
الرخص وابن عمر يرجح العزائم والناس درجات في التقصير والتشمير والاعتدال
فيوافق البدوي الساذج والفيلسوف الحكيم وما بينهما من الطبقات قال الله تعالى (٣٥):
٣٢ نَمَّ أَوْزَنَّا لِكِتَابِ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ
وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإذن الله ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ

(الثامنة) نصوص الكتاب وهدى السنة مراعى فيها درجات البشر في العقل
والتفهم وعلو الهمة وضعفها، فالقطعي منها هو العام، وغير القطعي متفاوت فيه الافهام،

فيأخذ كل أحد منه بما أداه اليه اجتهاده ، ولذلك كان ﷺ يقرّ كل أحد من أصحابه فيه على اجتهاده كما فعل عند ما نزلت آية البقرة في الخمر والميسر الدالة على تحريمهما دلالة ظنية فتركهما بعضهم دون بعض ، وأقرّ كلا على اجتهاده الى أن نزلت آيتا المائدة بالتحريم القطعي . قال تعالى (٤٣:٢٩) **وَلَيْكَ الْإِمْتِلَاقُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ**) ويبان ذلك أن الفرائض الدينية العامة فيه والمحرمات الدينية العامة لا يثبتان إلا بنس قطعي يفهمه كل أحد ، والاول مذهب الحنفية . وأما الثاني وهو التحريم فهو مذهب جمهور السلف أيضاً ، وأما الآيات الظنية الدلالة وأحاديث الآحاد الظنية الرواية أو الدلالة ، فهي موكولة إلى اجتهاد من ثبت عنده في العبادات والاعمال الشخصية ، وإلى اجتهاد أولي الامر في الاحكام القضائية والأمر السياسية ، وقد بينا هذا في مواضع من التفسير والنتار (التاسعة) معاملة الناس بطواهرهم وجعل البواطن موكولة إلى الله تعالى فليس لاحد من الحكم ولا الرؤساء الرسميين ولا الخليفة المسلمين أن يعاقب أحداً ولا أن يحاسبه على ما يعتقد أو يضر في قلبه ، وإنما العقوبات على المخالفات العملية للاحكام العامة المتعلقة بحقوق الناس ومصالحهم ، وقد فصلنا هذا في أحكام المنافقين من خلاصة تفسير سورة براءة — التوبة

(العاشرة) مدار العبادات كلها على اتباع ما جاء به النبي ﷺ في الظاهر ، فليس لاحد فيها رأي شخصي ولا رياسة ، ومدارها في الباطن على الاخلاص لله تعالى وصحة النية ، والآيات والاحاديث في الأمرين كثيرة

كل واحدة من هذه العشر: جديرة بأن تجعل مقصداً خاصاً من مقاصد الوحي ، ويستدل بها على أنه من عند الله عز وجل ، لا من الآراء والالهامات النفسية لمحمد ﷺ الامي في عهد الكهولة ، جاءت مصلحة لما أفسده رؤساء الأديان كلها من السيطرة على عقائد الناس وأعمالهم ، واتحكم في وجدانهم ، وهو لم يكن يعلم من تفصيل هذه المفاصد شيئاً ، وإنما غرضنا الاختصار ، لان أهل هذا العصر مترفون كثيرون والشواغل فيملون التطويل

المقصد السادس من مقاصد القرآن

(بيان حكم الاسلام السياسى الدولى: نوعه وأساسه وأصوله العامة)

الاسلام دين هداية وسيادة وسياسة وحكم لان مجاء به من إصلاح البشر في جميع شئونهم الدينية، ومصالحهم الاجتماعية والقضائية، يتوقف على السيادة والقوة والحكم بالعدل، وإقامة الحق، والاستعداد لحماية الدين والدولة، وفيه أصول وقواعد

(القاعدة الاساسية الاولى للحكم الاسلامي)

الحكم في الاسلام للأمة، وشكاه شوري، ورئيسه الامام الاعظم أو (الخليفة) منفذ لشرعه، والامة هي التي تملك نصبه وعزله، قال الله تعالى في صفات المؤمنين (٣٨:٤٢) وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ) وقال لرسوله ﷺ (٣:١٥٩) وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ) وكان ﷺ يشاور أصحابه في المصالح العامة من سياسية وحرية ومالية مما لايص فيه في كتاب الله تعالى، وقد بينت في تفسيرها حكمة ترك الشورى لاجتهاد الامة لانها مصلحة تختلف باختلاف الاحوال والازمنة، ولو قيدت بنظام لجعل تعبدية (١)

وقال تعالى (٤: ٥٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ، فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) وأولو الامر أهل الحل والعقد والرأي الحصيف في مصالحها الذين تثق بهم الامة وتتبعهم فيما يقررونه بدليل قوله تعالى بعد تلك الآية من سورتها

(٨٣) وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ . وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ) فأولو الامر الذين كانوا مع الرسول وكان الامر يرد اليه واليه في الشئون العامة للامة من الامن والخوف وغيرهما هم الذين كان ﷺ يستشيرهم في الامور الدقيقة والسرية المهمة . وكان يستشير جمهور المسلمين فيما لهم به علاقة عامة ويعمل برأي الأكثر وإن خالف رأيه ، كاستشارتهم في غزوة أحد في أحد الامرين : الحصار في المدينة أو الخروج إلى أحد اللقاء المشركين فيه . وكان رأيه ورأي بعض كبار الامة الاول ، ورأي الجمهور الثاني ، فنفذ رأي الأكثر ، ولكنه استشاري مسألة أسرى بدر خواص أولي الامر وعمل برأي أبي بكر كما فصلناه في تفسير سورة الانفال ، ولم تكن آية الامر له بالمشاورة قد نزلت فهي انما نزلت في غزوة أحد

وقد بينت في تفسير الآية الاولى (٥ : ٥٨) ما تدل عليه من قواعد الحكم الاسلامي وكونه افضل من الحكم النيابي الذي عليه دول هذا العصر (١)
ومن الدلائل الكثيرة على أن التشريع القضائي والسياسي هو حق الامة المعبر عنها في الحديث بالجماعة أن القرآن يخاطب بها جماعة المؤمنين في هاتين الآيتين الخاصتين بالحكم العام والدولة وفي سائر الاحكام العامة كقوله (براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين) وما يليها من الآيات المتعلقة بالمعاهدات والحرب والصلح ، وما في معناها من سورة الانفال والبقرة وآل عمران ومثل قوله تعالى (٤٩: ٩) وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا ، فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي

تَبْغِي حَتَّى تَنِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ، فَإِنْ قَامَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ
وَأَقْسُطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)

وكذلك خطابه لهم في أحكام الأموال كالغنائم وتخميسها وقسمتها وأحكام
النساء وغيرها (وقد بينا هذا كله في موضعه من التفسير)

وقد صرح كبار انظار من علماء الأصول بأن السلطة في الاسلام للأئمة يتولاها
أهل الحل والعقد الذين ينصبون عليها الخلفاء والأئمة ويعزلونهم إذا اقتضت المصلحة
عزلهم ، قال الامام الرازي في تعريف الخلافة : هي رياسة عامة في الدين والدنيا
لشخص واحد من الاشخاص . وقال في القيد الأخير (الذي زاده على من قبله)
هو احتراز عن كل الامة إذا عزلوا الامام لفسقه . وقال العلامة السعدا تفتازاني
في شرح المقاصد عند ذكر هذا التعريف وما علل به القيد الأخير : وكأنه أراد
بكل الامة أهل الحل والعقد واعتبر رياستهم على من عداهم أو على كل من أحاد
الامة اه وقد فصلنا مسألة سلطة الأئمة في كتابنا « الخلافة أو الامامة العظمى »
فهذه القاعدة الاساسية لدولة الاسلام أعظم إصلاح سياسي للبشر قررها
القرآن في عصر كانت فيه جميع الامم مرهقة بحكومات استبدادية استعبدتها في
أمور دينها ودنياها ، وكان أول منفذ لها رسول الله ﷺ فلم يكن يقطع أمراً
من أمور السياسة والادارة العامة للامة إلا باستشارة أهل الرأي والمكانة في
الامة ، ليكون قدوة لمن بعده

ثم جرى على ذلك الخلفاء الراشدون فقال الخليفة الاول أبو بكر الصديق
(رضي الله عنه) في أول خطبة خطبها على منبر رسول الله ﷺ عقب مبايعته :
أما بعد فقد وليت عليكم ولست بخيركم ، فاذا استقمت فأعينوني ، وإذا زُغْتُ
فقدوني . وقال الخليفة الثاني عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) من رأى منكم في عوجا

فليقومه . فقال له أعرابي لو رأينا فيك عوجا لقومناه بسيوفنا ، فقال الحمد لله الذي جعل في المسلمين من يقوم عوج عمر بسيفه . وكان يجمع أهل العلم والرأي من الصحابة ويستشيرهم في كل مسألة ليس فيها نص من كتاب الله ولا سنة أو قضاء من رسوله ﷺ وقال الثالث عثمان (رضي الله عنه) أمرني لأمركم تبع . وكذلك كان عمل الخليفة الرابع علي المرتضى رضي الله عنه وكرم وجهه، ولا أذكر له كلمة مختصرة مثل هذه الكلمات على المنبر

وإذا أوجب الله المشاورة على رسوله فغيره أولى ، ولا يصح أن يكون حكم الاسلام أدنى من حكم ملكة سبأ العربية فقد كانت مقيدة بالشورى، ووجد ذلك في أمم أخرى ، وامتاز الاسلام بجملة ديناً ثابتاً بقول الله وسنة رسوله العملية وسيرة الخلفاء الراشدين وإجماع الامة ، وان جهل ذلك من جهله من الفقهاء ، فجعلوها فضيلة مندوبة لا واجبة لارضاء الملوك والامراء

ذلك بأن ملوك المسلمين زاغوا بعد ذلك عن العراط المستقيم إلا قليلاً منهم، وشايهم علماء الرسوم المنافقون ، وخطباء الفتنة الجاهلون ، حتى صار المسلمون يجهلون هذه القاعدة الأساسية لحكومة دينهم، وكان من حسن حظ الافرنج في حربهم الصليبية أن كان سلطان المسلمين الذي نصره الله عليهم يقتني في حكمه أثر الخلفاء الراشدين وعمر بن عبدالعزيز بقدر علمه - وهو صلاح الدين الايوبي (رح) الذي قال لأحد رجاله التميزين عنده وقد استعداه على رجل غشه «ماعسى أن أضنع لك وللمسلمين قاض يحكم بينهم ، والحق الشرعي مبسوط للخاصة والعامة ، وأوامره ونواهيه ممثلة، وإنما أنا عبد الشرع وشحنته ، فالحق يقضي لك أو عليك» ومعنى عبارة السلطان أنه ليس إلا منفذاً لحكم الشرع - كالشحنة وهو صاحب الشرطة - وأن القضاة مستقلون بالحكم لانهم يحكمون بالشرع العادل المساوي بين الناس . وقد اقتبس الصليبيون منه طريقة حكمه، ثم درسوا تاريخ الاسلام فعرفوا منه ما

جهله أ كثر المسلمين المتأخرين، حتى أسسوا حكم دولهم على قاعدة سلطة الامة التي جاء بها الاسلام، وصاروا يدعونها لانفسهم، ويعيرون الحكومات الاسلامية باستبدادها، ثم يجعل الاسلام نفسه سبب هذا الاستبداد والحكم الشخصي، وصار المسلمون الجاهلون بدينهم وبتاريخهم يصدقونهم، ويرى المشتغلون بالسياسة وعلم الحقوق منهم أنه لا صلاح لحكوماتهم إلا بتقليدهم، فكان هذا من أسباب ضياع أعظم مزايا الاسلام السياسية التشريعية وذهاب أكثر ملكه، وصدق عليهم أنهم يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي أعدائهم، وهم يعدون الملايين، فتدبر قوله تعالى في أعدائهم الاواين (٥٩ : ٢) يُخَرَّبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ

اصول التشريع في الاسلام

المعروف عند جمهور أهل السنة أن أصول التشريع الاساسية أربعة :

- (١) القرآن المجيد، والمشهور عند علماء الاصول أن آيات الاحكام العملية فيه من دينية وقضائية وسياسية لا تبلغ عشر آياته وعدها بعضهم خمسمائة آية للعبادات والمعاملات، والظاهر أنهم يعنون الصريح منها، وأكثرها في الامور الدينية لان أكثر أمور الدنيا موكل إلى عرف الناس واجتهادهم
 - (٢) ما سنه رسول الله ﷺ للعمل والقضاء به من بيان وتنفيذ لكتاب الله تعالى وقالوا أيضاً ان أحاديث الاحكام الاصول خمسمائة حديث تمدها أربعة آلاف فيما أذكر
 - (٣) إجماع الامة واتفق أهل السنة على الاحتجاج باجماع الصحابة في الدينيات، والشيعية على اجماع أهل البيت في عرفهم، وفي اجماع المجتهدين من غيرهما تفصيل
 - (٤) اجتهاد الائمة والامراء والقضاة والقواد في الامور القضائية والسياسية والادارية والحربية، وخصه بعض الفقهاء بالقياس وأنكر بعضهم القياس وقيدوه
- اخرجون كما فصلنا ذلك في مواضع أبسطها ما في تفسير آية (٥ : ١٠١)

ورود في هذا الترتيب أحاديث وآثار تدل على العمل به في عهد النبي ﷺ والخلفاء الراشدين (منها) حديث معاذ أن النبي ﷺ لما أرسله إلى اليمن قل له « كيف تصنع إذا عرض لك قضاء ؟ » قال أقضي بما في كتاب الله ، قال « فان لم يكن في كتاب الله ؟ » قال فبسنة رسول الله ﷺ قال « فان لم يكن في سنة رسول الله ؟ » قال أجتهد رأيي لا آلو . قال معاذ : فضرب رسول الله ﷺ صدري ثم قال « الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله ﷺ » رواه أبو داود والترمذي من طريق الحارث بن عمرو وفيه مقال وله شواهد ، وأما العمل بهذا الترتيب فهو معروف عن الخلفاء الراشدين وقدينا في محله وبه أمر عمر (رض) قاضيه شريح في كتابه المشهور في القضاء ولكن الفقهاء يقدمون الاجماع حتى العرفي عند علماء الاصول - وهو مختلف فيه - على النص المختلف في حكمه

والاصل في شرعية اجتهاد الرأي للحكام حديث « إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر واحد » رواه الجماعة كلهم عن أبي هريرة وإلا الترمذي عن عمرو بن العاص

بل كان النبي ﷺ يعطي أمراء الجيوش والسرايا حق الحكم بما يرون فيه المصلحة بقوله للواحد منهم « وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك على أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله ولكن أنزلهم على حكمك فانك لا تدري أتصيب فيهم حكم الله أم لا » رواه أحمد ومسلم والترمذي وابن ماجه من حديث بريدة . وقال مثل ذلك في انزالهم على ذمة الامير دون ذمة الله ورسوله لئلا يخفروها . وهذا من أوسع النصوص الصحيحة في تفويض الاحكام السياسية والعسكرية إلى الخلفاء والامراء وقواد الجيوش لانها من المصالح العامة التي تختلف باختلاف الزمان والمكان . والاحوال وهو مذهب الامام مالك (رح)

قواعد الاجتهاد من النصوص

أحكام الكتاب والسنة منها أحكام خاصة بالأعمال والوقائع ومنها قواعد عامة للتشريع ، والاحكام الخاصة منها ما هو قطعي الرواية والدلالة لا مجال ، للاجتهاد فيه ولا معدل عن الحكم به إلا لما نفع شرعي من فوات شرط كدره حد بشبهة أو عذر ضرورة ، وقد أمر عمر (رض) في المجاعة ألا يحدسارق . ومنها ما هو غير قطعي يعمل فيه باجتهاد من يناط به الحكم والتنفيذ من أمير أوقاض أو قائد جيش كما تقدم قريباً في العبادات والمحرمات

وأما القواعد العامة فهي ما تجب مراعاته في الاحكام المختلفة ، وأهمها في الاسلام تحري الحق والعدل المطلق العام، والمساواة في الحقوق والشهادات والاحكام، وحفظ المصالح ، ودرء المفاسد، ومراعاة العرف بشرطه، ودرء الحدود بالشبهات ، وكون الضرورات تبيح المحظورات ، وتهدير الضرورة بقدرها ، ودوران المعاملات على اكتساب الفضائل ، واجتناب الرذائل ، وحسبك بالشواهد من القرآن على قاعدة إيجاب العدل المطلق والشهادة وتحريم الظلم

(نصوص القرآن في إيجاب العدل المطلق والمساواة فيه وحظر الظلم)

لما كان العدل أساس الاحكام وميزان التشريع وقسطاسه المستقيم ، أكد الله تعالى الامر به والمساواة فيه بين الناس في السور المكية والمدنية . قال تعالى (١٦ : ٩٠ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ) وقال (٤ : ٥٧ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ، وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ) وقال (٥ : ١٣٥ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ

إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَآلَهُ أُولَىٰ بِهِمَا ، فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا ^(١) وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ نَعَرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا

أمر تعالى المؤمنين بالمبالغة في القيام بالقسط وهو العدل فان القوام (بتشديد الواو) صيغة مبالغة للفاعل بالقيام بالامر وعدم التهاون والتقصير فيه، وبأن تكون شهادتهم في المحاكمات وغيرها لله عز وجل لا لهوى ولا مصلحة أحد، ولو كانت على أنفسهم أو والديهم والاقربين منهم ، وأن لا يحابوا فيها غنياً لغناه تقرباً اليه أو تكريماً له ، ولا فقيراً لفقره رحمة به وشفقة عليه ، ونهاهم عن اتباع الهوى في الحكم أو الشهادة كراهة أن يعدلوا فيهما لمراعاة من ذكر من الناس ، وأنذرهم عقابه إن لورا أي مالوا عن الحق أو أعرضوا عنه

وقال تعالى (٨:٥) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَنْ لَا تَعْدِلُوا ، اْعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) فبهذه الآية متممة لما قبلها ، فهناك يأمر بالمساواة في العدل والشهادة بين النفس وغيرها ، وبين القريب والبعيد ، وبين الغني والفقير ، وههنا يأمر بالمساواة فيهما بين الانسان وأعدائه مهما يكن سبب عداوتهم ، لا فرق فيها بين ديني ودنيوي ، فالشنان البغض والعداوة وقيل مع الاحتقار ، فمضى قوله (وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَنْ لَا تَعْدِلُوا) لا يحملنكم بغضهم وعداوتهم لكم أو بغضكم وعداوتكم لهم على ترك العدل فيهم ، فالعدل بالمساواة أقرب إلى تقوى الله . وأنذر تارك

(١) «أن تعدلوا» بفتح أن لتقدير لام التعليل وهو قياسي ، والتقدير فلا تتبعوا الهوى كراهة أن تعدلوا - أو لئلا تعدلوا ، اختلف النحاة في تقدير الاعراب واتفقوا على أن المراد ألا يكون الهوى سببا لترك العدل . ويؤكد الآية الثانية

العدل لاجل الشئان بمثل ما أنذر به تاركه للمحابة ، أنذر كلا منهما بأن الله خير بما يعمل لا يخفى عليه منه شيء ، فهو يحاسبه على عمله وعلى نيته وقصده منه ، فيثيبه أو يعاقبه على ما يعلم من أمره

فالعدل هو الميزان في قوله تعالى (٤٢ : ١٧) الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان) وقوله (٥٧ : ٢٥) لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ، وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ) الآية . فخير الناس من يصدح عن الظلم والعدوان هداية القرآن ، ويلبهم من يصدح العدل الذي يقيمه السلطان ، وشرهم من لا علاج له إلا حديد السيف والسنان ، والمراد به العقاب

فقوام صلاح العالم بالايان بالكتاب الذي يحرم الظلم وسائر المفاسد ، فيجتنبها المؤمن خوفاً من عذاب الله في الدنيا والآخرة ورجاء في ثوابه فيها ، وبالعدل في الاحكام الذي يردع الناس عن الظلم بعقاب السلطان

الشواهد على حظر الظلم ومفاسده وعقابه

ويؤيد قاعدة إقامة العدل ماورد في تحريم الظلم والوعيد الشديد عليه ، فقد ذكر الظلم في مئات من آيات القرآن أسوأ الذكر ، وقرن في بعضها بأسوأ العواقب في الدنيا والآخرة ، وبأن الجزاء عليه فيها أثر لازم له لزوم المعلول للعللة ، والمسبب للسبب ، وان الناس هم الذين يظلمون أنفسهم (ولا يظلم ربك أحداً) ومن أثره وعاقبته في الدنيا أنه مهلك الامم ، ومخرب العمران . قال تعالى (١١ : ١١٧) وما كان ربك ليهلك القرى بظلم أهلها مصلحون) أي ماكان من شأنه ولا من سنته في نظام الاجتماع أن يهلك الامم بظلم منه لهم ، أو بشرك به يقع منهم “

وهم مصلحون في سيرتهم وأعمالهم، وإنما يهلكهم بظلمهم وإفسادهم، كما قال (١٨ : ٥٩) **وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمِيسِرِهِمْ وَعِدًا** وقال في الاحكام ٥:٥ **وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** (ورد هذا في حكم القصاص وحسبنا هذه الشواهد القليلة من الآيات الكثيرة المكررة في نوعي الظلم ظلم الافراد وظلم الامم، ومن الاول ظلم الانسان لنفسه وظلمه لغيره، ومنه الظلم في الحكم والظلم في القول والعمل من ابتداء بدني أو مالي او غيرها . وفاقا لحكمة التكرار التي بينها من قبل

﴿قواعد مراعاة الفضائل في الاحكام والمعاملات﴾

من استقرأ الاحكام الشرعية في الكتاب والسنة بأنواعها من شخصية ومدنية وسياسية وحرية يرى أن الغرض منها كلها قاعدة مراعاة الفضائل فيها من الحق والعدل والصدق والامانة والوفاء بالعهود والعقود، والرحمة والمحبة والمواساة والبر والاحسان، واجتناب الرذائل من الظلم والغدر ونقض العهود والعقود والكذب والخيانة والقسوة والغش والخداع وأكل أموال الناس بالباطل كالربا والرشوة والسحت، وشره وأضره التجارة بالدين والرياء فيه وهو أساس النفاق الديني الذي هو شر الكفر وأحقره .

وأما العقوبات في الاسلام فهي قسمان (أحدهما) الحدود وهي أقلها وهي ما فرض من عقاب معين على جرم معين بالنص كالقتل لحفظ النفس، والزنا لحفظ العرض والنسل، والسرقه لحفظ المال، والفساد في الارض بقطع الطرق لحفظ الأمن، والسكر لحفظ العقل. وبعض العلماء لا يجعل عقابه حداً لعدم النص في القرآن ولا في السنة في تحديده والحكمة في هذه الحدود المعينة إرهاب الاشقياء والفساق، واشترط في اثبات الزنا شروط قلما تتحقق إلا باقرار الفاعل . وورد في السنة أمره بالستر

على نفسه وترغيبه عن الاقرار ، مع الامر بدء الحدود بالشبهات ، روي مرفوعا بلفظ الشبهات وبدونه من طرق فيها مقال . ويقويه روايته عن عمر (رض) وفيه زيادة في الخبر والاثار « فان الامام لأن يخطيء في العفو خير من أن يخطيء في العقوبة » وهو مشهور وعليه عامة الفقهاء .

وقالوا إن إقامة الحدود من حق الامام الاعظم « الخليفة » دون غيره من الحكام (وثانيهما) التعزير ، وهو مفوض إلى اجتهد الحكام مع وجوب العدل وحفظ المصالح العامة والخاصة ، وهو الأعم الأشمل

والعبرة في كل هذه القواعد التي فضل بها الاسلام جميع شرائع الانبياء وقوانين الحكماء والعلماء ، أنها قد جاءت على لسان نبي أمي نشأ بين أميين ليس عندهم شرع منزل ، ولا قانون مدون ، فهل يعقل أن يكون إلهاما فجأه في سن الكهولة منبجسا من نفسه ، ولم يؤثر عنه شيء من مثله ؟ كيف يكون هذا وهو مخالف لاستعداد البشر من قبله ومن بعده ؟ أم العقول أنه كما بلغنا وحى من ربه ؟ ألا انه لهو وحى ربه (٣٣) وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ)

المقصد السابع من مقاصد القرآن

﴿الارشاد إلى الإصلاح المالي﴾

بيننا مقاصد القرآن أو أصول فقهه في إصلاح البشر من طريق التدين والايان، والعمل والاذعان، ومن طريق العقل والبرهان، والفكر والوجدان، ومن طريق الحكم العادل والسلطان، ومن طريق إكمال نوع الانسان، ما يتعلق منه بالافراد، وما يتعلق منه بوحدة الجماعات والاجناس، وبقي ما يتعلق بفقهه في إصلاح المفاصد الاجتماعية الكبرى الذي يتوقف كماله على ما تقدم كله وهي :

(١) طغيان الثروة ودولتها (٢) عدوان الحرب وقسوتها (٣) ظلم المرأة واستباحتها (٤) ظلم الضعفة والأسرى وساب حريتهما، وهو الرق المطلق — ذلك بأن جميع حظوظ الدنيا منوطة بها، ولا يتم الإصلاح فيها إلا بتماون الدين والعقل، والعلم والحكمة والحكم، وإنا نتكلم عليها بالاجمال، مبتدئين بارشاده إلى مسألة المال، والآيات فيها تدور على سبعة اقطاب، وهما البيان

القطب الاول

القاعدة العامة في المال كونه فتنه واختباراً في الخير والشر

القاعدة الاساسية للقرآن في المال أنه فتنه أي اختبار وامتحان للبشر في حياتهم الدنيوية من معاش ومصالح، إذ هو الوسيلة إلى الإصلاح والافساد، والخير والشر، والبر والفجور، وهو مثار التنازع والتنافس في كسبه وإنفاقه، وكنزه واحتكاره، وجعله دُولة بين الاغنياء، وتداوله في المصالح والمنافع بين الناس وقد كان وما زال مثيراً للعداوات بين الافراد والجماعات من الافوام

والدول ، وحلال المشكلات وشفاء المعضلات فيها ، حتى ذهب بعض علماء الاجتماع الى جملة هو السبب لجميع الانقلابات السياسية والاجتماعية وكذا الدينية حتى الاسلامية كما بينت هذا في التفسير ونقضته بما يعلم برهانه مما هنا ، وناهيك من المبالغة في اكبار أمر المال قول الحريري في قصيدة الدينار من المقامة الدينارية

* لولا انتقى لقات جأت قدرته *

وقد قصر علماء الفقه والادب والزريعة من امتداني إعطاء المال حقه من المباحث المختلفة المناحي والمقاصد التي دونت في هذا العصر في زدة علوم ، ولكن هذه العلوم ما زادت البشر لإفساداً ، ولا يجدون علاجاً لهذا الفساد إلا في القرآن

قال الله عز وجل (٣ : ١٨٦) **لَتَبْلُوَنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ**) وقال حكاية عن نبيه سليمان عليه السلام حين رأى عرش ملكة سبأ مستقراً عنده . (٢٧ : ٤٠) **هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ**) الآية وقال (٣٤ : ٣٧) **وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرَّبُكُمْ عِنْدَنَا زُفَى ، إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا)** الآية وقال (٣٠ : ٣٩) **وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا يُبْرِئُو فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَزِيدُو عِنْدَ اللَّهِ ، وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْمِفُونَ)** وقال (٣ : ١٤) **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ)** الآية وقال تعالى (٨ : ٢٨) **وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ**) ومثلها في سورة التغاب (٦٤ : ١٥) **وَلِيَهَا التَّغْيِبُ فِي الْإِنْفَاقِ وَقَصْرُ الْفَلَاحِ**

على الوقاية من شح النفس . وقال تعالى (٤٦: ١٨) المال والبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلًا) انظر هذا مع قوله تعالى في أول هذه السورة وهي الكهف (٧) إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) والمراد من العمل ما يتعلق بما على الأرض من العمران وأحسنه أنفعه للناس وأرضاه الله بشكره ، ثم ما ضربه فيها من المثل بصاحبي الجنتين ، والمثل للحياة الدنيا نبات الارض (١) وقال تعالى في تعليل قسمة الفيء بين مستحقته (كَي لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ) والدولة بضم الدال المال المتداول أي لثلا يكون المال محصوراً في الاغنياء متداولاً بينهم وحدهم . (وهذا يسمونه اليوم بالرأسمالية)

والشاهد في فتنة الكلام في القرآن كثيرة تجد الكلام عليها في مواضع من تفسير المنار ولا سيما الجزء العاشر منه (٢)

فمن الآيات في ارتباط السعادة والفلاح بانفاق المال ، والشقاء بمنعه ما هو للترهيب وما هو للترغيب ، وجمع بين الترغيب والترهيب في قوله (٢ : ١٩٥) وَأَقْبِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ) الآية (٣) أي إن منع انفاق المال في سبيل الله من أسباب التهلكة . ثم قال في الترغيب (وَأَحْسِنُوا ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) وكذا قوله تعالى من سورة الليل (٩٢ : ٦) فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٧) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٨) فَسَنِيَسِرُهُ لِلْيُسْرَى (٩) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (١٠) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (١٠) فَسَنِيَسِرُهُ

(١) راجع فيها الآيات ٣٨ - ٤٦ (٢) راجع في الفهرس كلمة المال فتنته

(٣) ص ٣٠٩ ج ٢ تفسير .

لِلْعَسْرَى (١١) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى

هذا كله تفصيل لقوله تعالى قبله (إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى) ومعناه بالاجمال والايجاز
 إن سعيكم في الكسب والاتفاق مختلف مبدأ وصفة وغاية وعمرة (فأما من أعطى) ما عليه من
 الحقوق الشخصية والقومية والمصالح الواجبة والمندوبة (واتقى) سوء عاقبة منها وضرره
 في الافراد وفي الامة (وصدق بالحسنى) وهي ما وعد الله من الجزاء على الاحسان
 بما هو أحسن منه من مضاعفة الثواب بمثل قوله (لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا
 عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى) وهو شامل لجزاء الدنيا والاخرة
 (فسنيسره) بمقتضى سنتنا في تأثير صفات النفس في الاعمال ، وتأثير الاعمال في
 الاحوال الخاصة والمامة (للعسرى) أي الخطة أو الطريقة الفضلى في اليسر والسهولة
 والمنفعة له وللناس فيحبه الناس ويحبه الله (وأما من بخل) بما عليه من هذه الحقوق
 (واستغنى) بماله عن حب الناس وحمدهم، وعن حب الله ومثوبته (وكذب بالحسنى)
 التي ينهانا عنها بعدم طلبها وتحريمها بالاعطاء والاتفاق ، وإن اعترف بها باللسان ،
 (فسنيسره) بمقتضى سنتنا المبينة آنفاً (للعسرى) من الخطتين ، وسوءى الطريقتين ،
 فيكون سبباً لعسر البشر وعدواً لهم ولربهم ، ويكون له شر الجزاء منهم ومنه
 عز وجل في الدارين

ويؤيد ذلك شواهد القطب الثاني من آيات المال وهي:

القطب الثاني

(ذم طغيان المال وغروره وصدده عن الحق والخير)

قال تعالى في سورة العلق (٦:٩٦) كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَبَطْغَىٰ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَىٰ) أي حقاً إن الانسان ليتجاوز حدود الحق والعدل والفضيلة برؤية نفسه غنياً بالمال ، مستغنياً بعينه وكنزه أو قصره على شهواته عما في بدله من نفع الناس ومرضاة الله تعالى وثوابه في الآخرة . وقد نزلت هذه وما بعدها في أبي جهل أشد أعداء النبي ﷺ والاسلام من أول ظهوره وهي أول ما نزل في ذلك . ومثلها في سورة ١١١ (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ) الخ (١) ومثلها في سورة الحمزة (١٠٤) وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ * الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ * يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ) نزلت في الوليد وأمّية بن خلف وكذا قوله تعالى (٧٤) ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا * وَبَيْنَ يَدَيْهِ شُهُودًا * وَمَهَّدْتُ

(١) «تب» : خبر أو دعاء بالتهاب وهو خسران يفضي الى الهلاك ، ومعنى تبت يداه : خسر ما جمعه بهما من المال ، ومعنى (وتب) وخسر نفسه بعد خسران ماله «ما أغني عنه ماله» أي ما منع التهاب عنه ماله «وما كسب» من النتائج والأرباح والجاه والولد الذي ظن أنه ينفعه ، وكان أمر ابنه بفراق بنت النبي «ص» بعد النبوة عداوة له . وما كان أسوأ ما أصابه من التهاب : افترس ابنه عتبة أسد في طريق الشام وقد أهدقت به العير تحمل التجارة . ومات هو بعده بالعدسة بعد غزوة بدر التي ساعد المشركين عليها بماله، وترك ميتاً حتى ألقوا ، ثم استأجروا بعض السودان حتى دفنوه . اهـ ملخصاً من البيضاوي قال وهو إخبار عن الغيب طابق وقوعه

لَهُ تَمِيمًا * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لَا يَأْتِنَا غَمِيدًا * سَأَرْهِفُهُ
صَعُودًا (الح الآيات ، وقد نزلت في الوليد بن المغيرة . وكذا آيات سورة
(ن ٦٨) من قوله (١٠) وَلَا تَطْمِئِ كُلَّ حَلَّافٍ * يمين - الى قوله - ١٤
أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ * إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)
وكان هؤلاء أغنى زعماء قريش الذين عادوا النبي ﷺ واستكبروا عن اتباعه بغناهم من
أول عهده بتبليغ الدعوة ثم قال تعالى فيهم إذ كن يجمع المال منهم أبو سفيان لقتاله يوم بدر
(٣٦: ٨) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ،
فَسَيَنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ) وكذلك كان وفيهم
وفي أمثالهم من مترفي أقوام الانبياء نزل قوله تعالى (٢٥: ٣٤) وَقَالُوا
نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ)

ومن الآيات العامة في غريزة البشر قوله تعالى (١٢٨: ٤) وَأُخْضِرَتِ
الْأَنْفُسُ الشُّحَّ) وقوله من سورة المارج (٧٠) إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ
هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَرُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا) الخير المال
الكثير وأكثر الاغنياء مناعون للمال إلا من استثنى الله بعد هذه الآيات بقوله
(إِلَّا الْمَصَّائِينَ) (الح

بمثل هذه الآيات ينفر الوعاظ الناس ويزهدونهم في المال والدنيا فيبغون
وأما المذموم الغرور والطفيان والبطر والاستكبار عن الحق افتتاناً بالمال، ولذلك
قرنه في بعض الآيات بالاولاد، وكذا البخل به والشح وأكل أموال الناس بالباطل
كالربا والرشوة والسحت ، وشواهد في آيات القطب الثالث وهي :

القطب الثالث

(ذم البخل بالمال والكبرياء به والرياء في انفاقه)

قال تعالى (١٨٠.٣) وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ، سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) وقال في سياق الترغيب في الانفاق في سبيل الله من طيبات الكسب والاخلاص فيه والنهي عن الرياء والمن والاذى فيه (٢٦٠:٢) الشيطانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ (الآيه . فسروا الفحشاء بالبخل أي الشيطان يصدكم عن الانفاق في سبيل الله بتخويفكم من الفقر وبأمركم بالبخل الذي فحش شره وضرره . وقال بعد الامر بالاحسان بالوالدين وبذي القربى واليتامى والمساكين والجيران (٣٥ . ٤) وَاللَّهُ لَا يَحِبُّ كُلَّ مَحْتَالٍ خُورٍ ٣٦ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبَخْلِ) وقال فيمن عاهد الله لئن آتاه من فضله مالا وخيرا ليمدقن منه (٧٧:٩) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ٧٨ فَأَعْتَبْهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ) وقال (٤٧ : ٣٨) هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ ، وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنِ نَفْسِهِ ، وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ ، وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ، ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ) أي وان تولوا عن الانفاق في سبيل الله يهلككم بزوال دولتكم ويستبدل بكم قوما آخرين ينفقون

أموالهم في المصلحة العامة من الدفاع عن الملة ، وإقامة الحق والعدل في الامة .
 وقال تعالى (١٩:٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ
 بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ) وقال (٢٨٨ ٢)
 وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْأَبُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِنَأْكُلُوا
 فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) وقال في اليهود (١٦١:٤)
 وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ)
 وقال فيهم (أَكَّاالُونَ لِلسَّحْتِ) أكل أموال الناس بالباطل يشمل كل ما
 ليس له مقابل صحيح مشروع ويدخل فيه الغش والحيل والخداع الدنيوي والديني
 والرشوة ، والسحت بالضم الحقيق الذي يلزم صاحبه العار ويوصف بالخسة فهو
 يسحت مروءته أي يذهب بها وقد قلت في وطن الحكم الظالمين من المقصورة الرشدية
 وكيف لا يسحته الله وهم للسحت أكلون فيه والرشا
 وقال (٣٤:٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن كَثِيرًا مِنْ الْآحِبَّارِ وَالرُّهْبَانِ
 لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ
 يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ
 بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٣٥ يَوْمَ يُخْفَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتَكُونُ بِهَا جِبَاهُهُمْ
 وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ : هَذَا مَا كُنْتُمْ لَا نَفْسَكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ
 تَكْنِزُونَ) الوعيد على كنز المال بمنع تداوله والانتفاع العام به ، ومنع
 الحقوق منه (١)

القطب الرابع

مدح المال والغنى بكونه من نعم الله وجزائه على الايمان والعمل الصالح

قال تعالى في سورة نوح عليه السلام (٧١) حكاية عنه (١٠) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبِّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ١١ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ١٢ وَيُمْدِّدْكُمْ يَأْمَالًا وَيُبَيِّنَ وَيَجْعَلَ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلَ لَكُمْ أَنْهَارًا) وفي معناه ما حكاه عن هود عليه السلام في سوره (١١ : ٥٢) بل قال تعالى في بيان نعمته على آدم وحواء وذريتهما بهداية الدين في آخر قصته من سورة طه (٢٠ : ١٢٢) قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَأَيُّ بَاطِلٍ تَبْنُونَ مَنِ هَدَىٰ فَمَنْ أَتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا) الآيات . فجزاء انباع هداية الدين الحفظ من شقاء الدنيا والفوز بنعمة المعيشة الراضية فيها ، وجزاء من أعرض عنها الشقاء ومعيشة الضنك فيها . وفي منناه قوله تعالى من سورة الجن (٧٢ : ١٣) وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْمَدَىٰ آمَنَّا بِهِ ، فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَحْزَنُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا) أي لا يهضم حقه ، ولا يظلم بذل يرهته ، لأن عزة الايمان تمدمه وتحفظه ، وهذا يشمل الدنيا والآخرة ، ثم قال في أمر الدنيا منها (١٦) وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الدَّارِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً غَدَقًا ١٧ لَنَنْفِثَنَّهُمْ

فِيهِ وَمَنْ يَرْضَ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (١)

ومن الشواهد على هذه الحقيقة التي غفل عنها المفسرون وغيرهم قوله تعالى عطفًا على الأمر بمنع المشركين من دخول المسجد الحرام (٢٧: ٩) وَإِنْ خِفْتُمْ عِيلَةً فَسُوفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ) أي وإن خفتم فقرًا يعرض لكم بحرمان مكة مما كان ينفقه فيها المشركون في موسم الحج وغيره فسوف يغنيكم الله تعالى بالاسلام وفتوحه وغنايمه (٢) وكذا قوله تعالى للذين أعطوا الفداء من أسرى بدر (٨: ١٠٠) إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ) وكذلك كان ، فقد أغنى الله العرب الفقراء بالاسلام فجعلهم أغني الامم والاقوام (٣)

وقد امتن الله تعالى على نبيه الاعظم بالغنى بعد الفقر بقوله (٣٠٩: ٣) وَوَجَدَكَ عَالًا لَئِنْ أَغْنَى) وامتن على قومه بتوفيرهم للتجارة الواسعة برحلة الشتاء والصيف في سورة خاصة بذلك (هي سورة قريش ١٠٦) وسمى المالك الكثير خيراً بقوله في صفات الانسان (وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ) وقال فيمن يحضره الموت (٢: ١٨٠) إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ) الآية

وإنما كان المؤمنون المتقون لله الشاكرون لنعمه أحق بنعم الدنيا من الكافرين

(١) هذا معطوف على ما قبله من أول السورة (قُلْ أُوْحِيَ إِلَى)

أي وأوحى إلي أنهم لو استقاموا على الطريقة المثلى التي جاءهم بها الاسلام لوسعنا عليهم الرزق وأصله الماء الغدق أي الكثير الذي ينبت به الزرع ويدركه الضرع - (لنفتنهم) أي نمتحنهم فيه يشكرون النعم أم يكفرونها ومن يعرض منهم عن هداية ربهم بالقرآن يدخله

في عذاب صعد (بفتحتين) أي شديد المشقة فتكون النعم سبباً لتعبه وشقائه

(٢) راجع تفسير الآية في ص ٢٧٧ ج ١٠ تفسير (٣) راجع ص ١٠٠ منه

لنعمه والفاسقين الظالمين ، لانهم أحق وأجدر بالشكر عليها ، والشكر استعمال النعمة في الحكمة التي منحت لاجلها من الحق والعدل والاحسان والبر والعمران ، وهو الذي يرضي الله تعالى فيها ، ومن سنده تعالى فيها ان الشكر لها بهذا المعنى سبب للمزيد منها ، وان الكفر لها بسوء استعمالها سبب لسلبها او سلب فوائدها كما قال تعالى (١٤ : ٧) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ) وقال (٨ : ٥٣) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

فالْمؤمنون والكافرون يشتركون في أسباب سعة الرزق وكسب المال من زراعة وصناعة وتجارة ، لان هذه الاسباب دنيوية لا تختلف باختلاف الاديان كما قال تعالى (١٧ : ٢٠) كُلًّا نُمِدُّ هُوْلًا وَهَوْلًا مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ، وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا) أي ما كان ممنوعا عن يريد به لذات العاجلة ، ولا عن يريد به سعادة الآخرة ، وإنما يفضل بعضهم بعضاً في استعمال المال ، فاستعماله في الفسق والشر والظلم والسرف والخيلاء كفر للنعمة وسبب لحقها نفسها أو محق بركتها ، بكثرة الضرر والفساد المترتب عليها ، فمن المشاهد أن أكثر الاغنياء المسرفين الفاسقين يفتقرون أو يصابون بالأدواء المنغصة ، وأما الامم المترفة المسرفة الظالمة فتضعف وقد تفقد استقلالها . واستعماله في البر والخير سبب للمزيد فيها . وقد حققنا هذا الموضوع في مواضع أخرى ، ومنه قوله تعالى في الزينة والطيبات من الرزق (٧ : ٣٢) قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ) أي هي لهم في الدنيا بالاستحقاق ، ويشار لهم فيها غيرهم بمقتضى الاسباب ، ولكنها تكون في الآخرة خالصة لهم ^١ لانهم يتوسلون بالشكر لله عليها إلى سعادة الآخرة .

الكاملة الدائمة ، ولولا ذلك لجعل زينة الدنيا خاصة بالكافرين كما قال (٤٣ : ٣٣) وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لَبُيُوتَهُمْ سُرُفًا مِنْ فُضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ٣٤ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابُ وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ ٣٥ وَزُخْرُفًا. وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ)

أي ولولا كراهة أن يكون الناس كلهم كفاراً بجعل نعيم الدنيا وزينتها للكافرين وحدهم لجعلنا لبُيوتهم سقفاً وأبواباً من فضة وسلاماً من فضة يصعدون عليها إلى غرفات قصورهم ، وجعلنا لهم فيها سرراً كذلك وزخرفاً أي ذهباً ، وما كل ذلك إلا متاع الدنيا وهو قليل زائل ، بالنسبة إلى نعيم الآخرة العظيم الدائم ، ولكن الإنسان يفتن بالحاضر المشاهد ، ولذلك جعل الله سعة الدنيا وزينتها بالاسباب المكسبية المشتركة ، وجعل المؤمنين أحق بها وأكثر انتفاعاً لشكره تعالى عليها بالاعتدال والقصد في أنفسهم ، والتوسعة على غيرهم كما قرناه آفاً . ويؤيده ما في القطب الخامس من إرشاد القرآن إلى حفظ المال والاقتصاد فيه .

وهذا التشريع والتثقيف والأدب العالي في الحضارة الإسلامية يعلو بها على حضارات جميع الأمم المسرفة الفاسقة ، فهل كان هذا وما قبله وما يذكر بعده مما نبع من نفس محمد الأمامي في العقد الخامس من عمره خلافاً لطباع البشر ، إذ لم يعهد منهم أن تفيض من عقولهم في هذه السن ، ما لم يكونوا فكروا فيه وزاولوه في سن الصبا والشباب ، أم الأقرب إلى عقل المؤمن أن يكون وحيًا من الله تعالى ؟ كلا ، إن الأمرين من الخوارق والعجائب فمن يؤمن بالله يجب عليه أن يقول إنه لا يقدر عليه غيره . ومن لا يؤمن به لا يجد أمامه إلا أن يقول إن محمداً أفضل من جميع البشر بنفسه ، إذ صدر عنه ما لم يصدر مثله عن غيره ، ولا هو من شأن طبيعته وغريزته

القطب الخامس

﴿ ما أوجب الله من حفظ المال من الضياع والاقتصاد فيه ﴾

قال تعالى (٤: هـ) وَلَا تُؤْثِرُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا

قيام الشيء وقوامه (بالكسر والفتح) ما يستقيم به ويحفظ ويثبت . أي جعلها قوام معاشكم ومصالحكم ، والسفهاء هم المسرفون المبذرون لها لصغر سنهم دون الرشد أو لفساد أخلاقهم وضعف عقولهم (وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قَوْلًا مَعْرُوفًا) (٦) وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ ، فَإِنْ أَتَيْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ) الآية . الابتلاء التجربة والاختبار ، أمر باختبارهم وألا تدفع إليهم أموالهم إلا بعد ظهور الرشد في أعمالهم ، وهو الصلاح والاستقامة في معاملتهم ، لئلا يضيعوا الأموال فيما يضر أو فيما لا ينفع

وقال تعالى في صفات المؤمنين (٢٥ : ٦٧) وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا) الاسراف التبذير والافراط ، والقتل والقتور والإقتار الاقلال والتضييق في النفقة . يقال قتر على عياله ، ومثله قدر له بالدال مكان التاء ومنه (اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ) وهو مكرر في عدة سور

وقال تعالى (٦٥ : ٧) لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ ، وَمَنْ قُدِّرَ عَلَيْهِ

رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ) وهذا نزل في النفقة على المرأة المطلقة في العدة ، وهو إرشاد عام ، والقاعدة في الأصول ان العبرة بدلالة العموم ، لا يقيد بخصوص سبب النزول . وقال في النفقات العامة (٢ : ٢) وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) و« من » للتبعض ،

فكلُّ من الغني ذي السعة، والفقير ذي العسرة، مأمور بأن ينفق مما آتاه الله لا كل ما آتاه الله، وهذا أعظم أصول الاقتصاد، فمن أنفق بعض ما يكتسب قلما يفتقر، وتقدم في وصايا سورة الاسراء الحكمة (ص ١٤٥) ذكر آيات النهي عن التبذير والمبالغة في بسط اليد والمبالغة في قبضها، وما لكل منهما من سوء العاقبة، (١٧ : ٢٦) وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا

ولولا اقتران تلك الوصايا بحكمها وعللها ومنافعها الماسميت بحكمة. ألا ترى أنه قال عقب النهي عن التبذير (إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين) لأنهم يفسدون نظام المعيشة بأسرافهم، ويكفرون النعمة بعدم حفظها ووضعها في مواضعها بالاعتدال، ولذلك قال عقبه (وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا) ثم قال (٢٩) وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا) فعمل الاسراف في الانفاق بأن عاقبة فاعله أن يكون ملوما من الناس ومحسورا في نفسه، والمحسور من حسر عنه ستره فأنكشف منه المغطى، ويطلق على من انحسرت قوته وانكشف عن عجزه، والمحسور المغموم أيضا. وكل هذه المعاني تصح في وصف المسرف في النفقة، بوقعه اسرافه في العدم والفقير الخ وحسير البصر كليله وقصيره ويكنى به عن لا يفكر في عواقب الامور،

ولو أن المسلمين تدبروا هذه الآيات الحكيمه في الاقتصاد واهتدوا بها لاستغنوا بارشادها عن جميع الكتب والوصايا في حفظ ثروتهم، ولندر أن يوجد فيهم فقير. ولو كان هذا القرآن نابعا من غريزة محمد ﷺ ورأيه وشعوره لما وجدت فيه، فقد كان حب البذل والاحسان هو الغالب على طبعه، وصاحب هذه الخلقا قايما يفكر في الاقتصاد، وإماما هي وصايا رب العباد

القطب السادس

(إنفاق المال في سبيل الله آية الايمان)

(والوسيلة حياة الامة وعزة الدولة وسعادة الانسان)

هذا هو القطب التهديبي الاعظم من أقطاب الآيات المنزلة في المال وأكثرها فيه، وما ذكر قبله فهو وسائل له، وما يذكر بعده فهو بيان للعمل به، وأظهر الشواهد فيه ان الله تعالى جعله هو الفصل بين الاسلام الصحيح المقترن بالاذعان، المبني على أساس الايمان، وجعل دعوى الايمان بدون شهادته باطلة، وإن كانت دعوى الاسلام قبل مطلقاً لأن أحكامه العملية تبنى على الظواهر، والله تعالى هو الذي يحاسب على السرائر، وعليها مدار الجزاء في اليوم الآخر، فالاسلام عمل قد يكون صورياً غير صادر عن اخلاص وإذعان، والايمان يقين قلبي يستلزم أعمال الاسلام، ولكن الاسلام الصوري الصادر عن استحسان لا عن نفاق، يكون أقرب الوسائل إلى يقين الايمان، والاصل في هذه المسألة قول الله عز وجل (٤٩ : ١٤) قَالَتِ الْأَعْرَابُ (١) آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ، وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ) فقدم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس في تحقيق صحة الايمان وصدق مدعيه، وقوله (لا يليتكم) معناه لا ينقصكم

(١) الأعراب اسم لسكان البوادي دون سكان المدائن والقرى والآيات نزلت في مكة بني أسد أسلموا في قحط ومجاعة ليتصدق عليهم المسلمون ثم حسن إسلامهم.

ويلي هذا الشاهد آية البر الناطقة بأن بذل المال على حبه بالاختيار ، أول آيات الايمان ، ويليه إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة التي يجيئها إمام المسلمين وسلطانهم بالالزام ، ويليهما سائر أمهات الفضائل ومعالي الاخلاق ، وهي قوله تعالى (١٧٧:٢) لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ، وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ، وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) وفي قوله تعالى (وآتي المال على حبه) قولان (أحدها) أعطى المال وبذله على حبه إياه كقوله (لن تنالوا البرَّ حتى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) (والثاني) ان الضمير في حبه لله تعالى كقوله (ويُطعمونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا) أي حب الله تعالى . وتجد بيان الذروة العليا من تفضيل حب الله ورسوله على المال وغيره من متاع الدنيا في قوله تعالى (٢٤:٩ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَسَارِكُنْ تُرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ آلِهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

ومن الايات في تفضيل المؤمنين المنفقين على غيرهم وتفاوتهم في ذلك قوله

تعالى (٤ : ٩٥) لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ
وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ، فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ
بَأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ، وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى)
وقال تعالى (٥٧ : ١٠) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ
مِيرَاتُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ؟ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ
الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ، أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ
وَقَاتِلُوا ، وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى) الْآيَةُ

وقد ذكر اتفاق المال في وجوه البر والخير من أمر ونهي ووصف في عشرات
من آيات الذكر الحكيم ، وكذلك الصدقة وما تصرف منها من فعل ووصف ،
وكذلك الزكاة ، وأبلغ من ذلك التعبير عن التصديق والاتفاق باقراض الله
تعالى ووعد مقرضه بالمضاعفة له

ومن الآيات البليغة في الترغيب فيه ومضاعفة ثوابه ، وبيان آدابه ، عشرون
آية من أواخر سورة البقرة هي من أواخر ما نزل من القرآن يتخللها الوعيد الشديد
على أكل الربا فراجعها من آية ٢٦١ - ٢٨١ مع تفسيرها من جزء التفسير الثالث^{١١}
ومن البلاء المبين أن نرى الشعوب الإسلامية في هذه القرون الأخيرة قد
قصرت عن جميع الشعوب القوية في بذل المال للجهاد في سبيل الله الذي يحفظ استقلالهم ،
ويعتز به ملكهم ، وتعلو به كلمة الله تعالى فيهم ، ثم في غيرهم ، وفي طرق البر التي
ترتقي بها أمتهم ، وتكون حجة على سائر الأمم في تفضيل دينهم على سائر
الاديان ، وحاجة الامم اليه لا تقاذا الحضارة من جشع عباد المال واستدلالهم للملايين
من البشر به ، وما افضى اليه من فوزى الشيوعية الدينية والادبية المشار اليهما فيما يلي

المقطب السابع

(في الحقوق المفروضة والمندوبة في المال والاصلاح المالي في الاسلام)
 قد عثقت لتفسير قوله تعالى (٩: ١٠٣) **خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً**
تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا فصلاحي فوائد الزكاة المفروضة والصدقات والاصلاح
 المالي للبشر وامتياز الاسلام بذلك على جميع الاديان . بينت فيه مكانة المال
 من حياة الناس ، وما له من التأثير في الثورات والحروب والسياسة والعمران ،
 وغلو بعض الجماعات في جمعه وادخاره وأنظمته واستغلاله ، واستعباد الالوف
 وألوف الالوف من البشر به ، ويدعون في عرف هذا العصر بالرأسمالين ، وقيام
 جماعات أخرى بالدعوة إلى إبطال النظام الدولي العام في المال ، ووضع نظام آخر
 لاشترائك جميع الناس فيه ويلقبون بالبلشفيين ، وما بين هذين الفريقين من الجماعات
 من التعادي والخصام

ثم بينت ان هذه الفتن وما تنذر العالم به من الخراب والدمار لاعلاج لها إلا
 اتباع هداية الاسلام في الاصلاح المالي ، ولخصت أصول هذا الاصلاح في أربعة
 عشر أصلا هي (١) اقرار المادية الشخصية وتحريم أكل أموال الناس بالباطل
 (٢) تحريم الربا والتمار (٣) منع جعل المال دولة بين الاغنياء (٤) الحجر على السفهاء
 في أموالهم حتى لا يضيعوها فيما يضرهم ويضر أمتهم (٥) فرض الزكاة في أول
 الاسلام وجعلها اشتراكية مطلقة باعثها الوجدان لا إكراه الحكام ، وانما تكون كذلك
 حيث لا حكومة ولا دولة للاسلام (٦) نسخها بد وجود الدولة والحكومة بالزكاة
 المحدودة بربع العشر في النقدين والتجارة في كل عام مادام النصاب تاما ، وبالعشر
 ونصف العشر في غلات الزراعة التي عليها مدار الاقوات أو مطلقا ، وزكاة الانعام
 المعروفة ، وفاتني هناك ذكر الخمس في الركاز وهو ما ينبش من المال المكتنوز
 القديم والمعدن (٧) فرض نفقة الزوجية والقرابة (٨) إيجاب كفاية المضطر من كل
 جنس ودين وضيافة الغرباء (٩) بذل المال في كفارات بعض الذنوب (١٠) ندب

صدقات التطوع للمحتاجين (١١) ' ذم الاسراف والتبذير والبخل والتقتير (١٢) إباحة الزينة والطيبات من الرزق بشرطهما ، لتوقف ترقى الصناعة والحضارة عليها ، (١٣) مدح القصد والاعتدال بل إيجابه (١٤) تفضيل الغني الشاكر على الفقير الصابر ، باختصار ، وكنت قد شرحت قبله مناصرف الزكاة في تفسير آيتها (٦٠:٨) إنما الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ) الخ

ثم عقدت فصلاً آخر في خلاصة السورة « وهي سورة التوبة » المشتملة على هذه الآيات في أحكام الاموال في الاسلام يدخل في ثلاثة أقسام (١) المسائل الدينية والاجتماعية في الاموال (٢) أنواع الاموال ومصارفها (٣) فوائد إصلاح الاسلام المالي للبشر فالرجوع إلى هذه المباحث في هذا الجزء من التفسير يغنيننا عن اعادة هنا وخلاصة القول في هذه القواعد العلمية في إصلاح ثروة البشر وجعلها خيراً عاماً كما سماها الله تعالى في كتابه ، واتقاء شرور التنازع عايتها - بالوازع الديني ، والتشريع الدولي ، أنها هي التي يصلح بها أمر البشر على اختلاف أحوالهم واستعدادهم ، فيكونون سعداء في دنياهم وفي دينهم ، ولن نجد مثلها في دين من الاديان ولا شيء من كتب القوانين والحكمة البشرية ، وان البشر لعل خطر عظيم مما سقطوا فيه من التعادي على المسال حتى أعيتهم الحيل ، وسبيل النجاة ممهدة معبدة أمامهم وهم لا يبصرونها وهي الاسلام وهداية القرآن (٢٠٢ . ٥٢١ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ)

وموضوع بحثنا في هذا المقصد وهو دلائل الوحي المحمدي انه لا يعقل أن يكون محمد النبي الأمي الذي عرفنا خلاصة تاريخه قد اهتدى بوحى من نفسه لنفسه في العقد السادس من عمره - اي بعد هجرته - إلى هذه الحقائق التي فاقت وعلت جميع الكتب الالهية والبشرية والنظم الدولية في أرقى عصور العلم والحكمة والقوانين ؟ وانما المعقول عند من يؤمن بأن للعالم رباً حكيماً راجحاً مدبراً أن يكون هذا بوحى منه نزولاً أقاضه على خاتم النبيين عند استعداد البشر له لاحتاجون بعده إلى وحي آخر

المقصد الثامن من مقاصد القرآن

﴿إصلاح نظام الحرب ودفع مفسادها وقصرها على مافيه الخير للبشر﴾

﴿نظرة عامة في فلسفة الحرب والسلام والمعاهدات﴾

التنازع بين الاحياء في مرافق المعيشة ووسائل المال والجاه غريزة من غرائز الحياة، وإفضاء التنازع إلى التعادي والافتتال بين الجماعات والاقوام، سنة من سنن الاجتماع، أو ضرورة من ضروراته قد تكون وسيلة من وسائل العمران، فان كان التنازع بين الحق والباطل كان الفلج للحق، وإن كان بين العلم والجهل كان الظفر للعلم، وإن كان بين النظام والاختلال كان النصر للنظام، وإن كان بين الصلاح والفساد كان الغلب للصلاح، كما قال تعالى في الحق والباطل (٢١: ١٨) بل نَقَذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ) وقال في بيان نتيجة المثل الذي ضرب به لهما (١٧: ٣) فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً (١) وأما ما ينفعُ الناسَ فيمكثُ في الارضِ) وسبق ذكر هذه الآية كلها (في ص ٢١٥)

وأما التنازع والتعادي والتقاتل على الشهوات الباطلة، والسياسة الظالمة، واستعباد القوي للضعيف، والاستكبار والعلو في الارض، فان ضرره كبير، وشره مستطير، يزيد ضراوة البشر بسفك الدماء، ويورثهم الحقد ويورث بينهم العداوة والبغضاء، وقد اشتدت هذه المفاصد في هذا الزمان، حتى خيف أن تقضي على هذا العمران العظيم في وقت قصير، بما استحدثه العلم الواسع من وسائل

١ ﴿الزبد) بالتحريك ما يكون في أعلى السيل أو القدر التي تفور من الغناء والرغوة. (الجفاء) بالضم ما يقذفه الوادي أو القدر من جوانبه عند امتلائه من ذلك وهو ما لا تقع فيه، وأما إلبيز السيل الذي يرسب منه وإلبريز الصائغ من الذهب الذي توقد النار عليه لتصفيته وهو النافع للناس (فيمكث في الارض) ويبقى في بوط الصائغ «بوقتته»

التخريب والتدمير ، كالمغازات السامة ومواد الهدم والتحريق تذفها الطيارات المحلقة في جو السماء ، على المدائن المكتظة بالآلوف من الرجال والنساء والاطفال ، فتقتلهم في ساعة واحدة أو ساعات معدودة

وقد حارت الدول الحربية في تلافي هذا الخطر حتى ان أشدهن استعداداً للحرب بالاساطيل الهوائية والبحرية وآلات التدمير وكثرة الاموال لأشدهن خوفاً على حياة أمتها المستعدة لجميع أنواع القتال ، وعمران بلادها المحصنة بأحدث وسائل الوقاية ، وترى دهاقين السياسة في كل منها يتفاوضون مع أقرانهم لوضع نظام لتقرير السلام ، ودرء مفاسد الخصام ، بمعاهدات يعقدونها ، وأيمان يتقاسمونها ، ثم ينفثون خائبين ، أو ينفضون ما أبرموا متأولين ، ويعودون إلى مثله مخادعين اعجوبة القرآن في فساد معاهدات الزمان

وقد بين الله تعالى في كتابه سبب هذه الخيبة بما وجدنا مصداقه في هذه الدول الاوربية بأظهر ما كان في عرب الجاهلية الذين نزل هذا البيان في عهدهم ، كأنه نزل في هؤلاء الافرنج دون غيرهم ، وهو من عجائب القرآن في لفظه ومعناه ، وذلك قوله تعالى بعد الامر بالايفاء بعده ، والنهي عن نقضه (١٦ : ٩٢) ولا تكونوا كآتي نقضت غزها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة) والمعنى لا تكونوا في نقض عهودكم والعود إلى تجديدها كالمرأة الحمقاء التي تنقض غزها من بعد قوة إبرامه نقض أنكاث « وهو جمع نكث بالكسر ما نقض ليغزل مرة أخرى » حال كونكم تتخذون عهودكم دخلاً بينكم « والدخل بالتحريك الفساد والغش الخفي الذي يدخل في الشيء وما هو منه » لاجل أن تكون أمة أربى وأزید رجالاتها ، وأكثر ربحاً ومالاً وأقوى أسنة ونصلاً ، من أمة أخرى والمراد ان معاهدات الصلح والاتفاق بين الامم يجب أن يقصد بها الإصلاح والعدل والمساواة فتبنى على الاخلاص دون الدخل والدغل الذي يقصد به أن

تكون أمة هي أربي نفعاً وأ كثر عدداً وجمعاً من الامة الاخرى، وهو ما عليه هذه الدول في جميع معاهداتها ولا سيما المعاهدة الاخيرة بعد الحرب العامة (معاهدة فرساي) ولو طالبوا المخرج والسلامة من هذا الخطر لوجدوها في دين الاسلام، فهو هو دين الحق والعدل والسلام، وهالك بعض قواعد الحرب والسلم في القرآن ﴿أهم قواعد الحرب والسلام، في دين الاسلام، وشواهد من القرآن﴾ قد استنبطنا من آيات سورة الانفال ٢٨ قاعدة من القواعد الحربية العسكرية والسياسية في القتال والصلح والمعاهدات أجمالناها في الباب السابع من خلاصة تفسير السورة وأحلنا في تفصيلها على تفسير الآيات المستنبطة منها، ثم استنبطنا من آيات سورة التوبة (١٣) قاعدة حربية أكثرها في المعاهدات ووجوب الوفاء بها وشرط نبذها، وفي الهدنة وتأمين الحربي للدخول في دار الاسلام - ٢٠ حكماً من أحكام الحرب والجزية سردناها في خلاصة تفسير هذه السورة* نكتفي هنا بضع قواعد منها ومن غيرها من السور، لأن المقام مقام إيراد الشواهد المجهلة على أنواع الإصلاح الاسلامي من القرآن للاستدلال به على أن جملة هذه العلوم لا يعقل أن تكون كلها من آراء محمد النبي الامي الذي عاش قبل النبوة عيشة العزلة والانفراد، إلا قليلا من رعي الغنم في الصبا والتجارة في الشباب، وقد قصرت عن كل نوع منها كتب الاديان الالهية، وكتب الحكمة والقوانين البشرية، فنقول:

﴿القاعدة الأولى في الحرب المفروضة على الأعيان﴾

ورد الامر بقتال المعتدين لكفّ عدوانهم ولما سيأتي من درء المفساد وتوطيد المصالح مقترنا بالنهاي عن قتال الاعتداء والبغي والظلم، والشاهد عليه قوله تعالى (٢: ١٩٠) وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا، إن الله لا يحبُّ المعتدين وتعليل النهي عن قتال الاعتداء بأن الله تعالى لا يحب المعتدين مطلقا دليل على أن هذا النهي بحكم غير قابل للنسخ، ومن ثم يلنا في تفسير هذه الآية من جزء التفسير

الثاني أن حروب النبي ﷺ للكفار كانت كلها دفاعاً ليس فيها شيء من العدوان ، ثم فصلت في تفسير آية السيف من سورة التوبة أن قتال مشركي العرب وبند عهودهم بعد فتح مكة كان جارياً على هذه القاعدة ، مع كون سياسة الإسلام في العرب غير سياسته في سائر الاقوام ، من حيث إرادة إسلامهم باختيارهم وإبطال ما كانوا عليه من الشرك غير المقيد بشرع متبع ، وإرادة جعل جزيرتهم معقلاً للإسلام وحده على اتساع سياسته مع غيرهم بإقرارهم على أوطانهم وأديانهم

وبينت فيه أن بعض الصحابة كان قد ثقل عليهم بند عهود المشركين المقتضي لقتالهم مع سبقهم لنقض العهد مع النبي ﷺ حتى بين الله لهم ذلك بأنهم إنما نقضوا عهدهم ونكثوا أيمانهم ، لأنهم لا عهود لهم يلتزمونها بعقيدة وجدانية ، ولا نظام متبع ، وقال (أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُواكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ؟) أي بالقتال ثم بنقض العهد فهم المعتدون (١)

وإنما اشتبه على الغافلين الأمر بما كان في بعض الغزوات والسرايا من بدء المسلمين بها ذاهلين عن حالة الحرب بينهم وبين المشركين باعتداء المشركين الأول واستمراره ، فالدفاع لا يشترط أن يكون في كل معركة وكل حركة

وهذا الذي كان في آخر أحكام القتال معهم يؤيد ما نزل في أول الاذن للمسلمين بالقتال وهو قوله تعالى في سورة الحج (٢٢ : ٣٩) أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۚ الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَغْيٍ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ) وتمة الآيات في القاعدة الثانية :

ولما نقضوا العهد الذي عقده النبي ﷺ معهم في الحديبية في أواخر سنة ست للهجرة وعزم على فتح مكة سنة ثمان نزلت سورة الممتحنة (٦٠) في النهي عن ولاية المشركين ، وفيها التصريح بأن النهي خاص بالذين قاتلوا المؤمنين وأخرجوهم من وطنهم لأجل دينهم ، فهو نهى عن موالاتهم ومودتهم دون البر والعدل إلى كل مشرك . فتأمل الآيات ٨٧ و ٩٠ منها

(١) راجع تفسير هذه الآيات من أوائل سورة التوبة في جزء التفسير العاشر

﴿ القاعدة الثانية في الغرض من الحرب ونتيجتها ﴾

وهي أن تكون الغاية الإيجابية من القتال — بعد دفع الاعتداء والظلم واستتباب الأمن — حماية الأديان كلها وعبادة المسلمين لله وحده وإعلاؤهم كلمته، وتأمين دعوته، وتنفيذ شريعته، وهي في مصلحة البشر كلهم، وإسداء الخير إليهم، لا الاستعلاء عليهم والظلم لهم، والشاهد الأول عليه قوله تعالى بعد ذلك الاذن لهم الذي تلوناه آثفا (٢٢ : ٤٠) وَلَا تُؤْثِرُوا عَلَى النَّاسِ أَلَّا يَتَذَكَّرُوا فِيهَا وَلَكُمْ فِيهَا لَعْنٌ كَثِيرٌ، وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤١ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ، عَاقِبَةُ الْأُمُورِ)

ذكر في تحليل إذنه لهم بالقتال المذكور ثلاثة أمور (أولها) كونهم مظلومين معتدى عليهم في أنفسهم، ومخرجين نفيًا من أوطانهم وأموالهم لأجل دينهم وإيمانهم، وهذا سبب خاص بهم بقسميه الشخصي والوطني، أو الديني والدينيوي

وقد جعلنا هذه الغاية للقتال قاعدة مستقلة من قواعد سورة الانفال معبرين عنها « بحرية الدين ومنع فتون أحد واضطهاده لارجاعه عن دينه » واستدلنا عليها بقوله تعالى (٨ : ٣٩) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ، فَإِنَّ انْتِهَاءَ الْأَمْرِ لِلَّهِ بِمَا يَعْمَلُونَ بِصِيرٍ) وقد كان المشركون يضطهدون المسلمين بكل ما قدروا عليه من الايذاء والتعذيب لأجل ردهم عن دينهم، وأما المسلمون فلم يفعلوا ذلك في الصدر الأول ومن عساه شذ عن ذلك قليلا بعده فقد خالف حكم الاسلام الذي حرم الفتنة والاضطهاد والاكره في الدين وشرع فيه الاختيار بل جعله شرطًا لصحته

(ثانياً) انه لولا إذن الله للناس بمثل هذا الدفاع لهدمت جميع المعابد التي يذكر فيها اسم الله تعالى أتباع الانبياء كصوامع العباد وبيع النصارى وصلوات اليهود « كئنا نسهم » ومساجد المسلمين ، بظلم عباد الاصنام ومنكري البعث والجزاء ، وهذا سبب ديني عام صريح في حرية الدين في الاسلام وحماية المسلمين لها ولمعابد أهلها وكذلك كان .

(فان قيل) ولماذا لم يقر الاسلام المشركين على دينهم كما أقر اليهود والنصارى والمجوس ؟ (قلت) ان الشرك الذي كان عليه العرب لم يكن ديناً مبنياً على عبادة الله ومصلحة عباده كسائر الاديان حتى انني خالطها الشرك ، فانهم لم يكونوا يؤمنون بالبعث والجزاء على الاعمال عند الله تعالى على قاعدة « إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر » ولا كانوا يدينون الله تعالى بعمل الصالحات وتحريم المنكرات وأصول الدين العامة قوله تعالى (مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

(ثالثاً) أن يكون غرضهم من التمكّن في الارض والحكم فيها إقامة الصلاة المزكية للأفئس بنهيا عن الفحشاء والمنكر كما وصفها تعالى ، والمرية للأفئس على مراقبة الله وخشيته ومحبته - وإيتاء الزكاة المصلحة للأمور الاجتماعية والاقتصادية والامر بالمعروف الشامل لكل خير ونفع للناس - والنهي عن المنكر الشامل لكل شر وضر يلحق صاحبه أو غيره من الناس

إن جميع الدول الحربية تدعي بعض هذه المقاصد العالية في حروبها رياء وانتفاء لحسن السمعة ، ولكن أفعالها تكذب دعاويها كلها ، ولا سيما النهي عن المنكر فهي تبيح للناس - الذين تملكها القوة الحربية في بلادهم - جميع المنكرات والفواحش التي تفسد الاخلاق والآداب وروابط الاجتماع . بل تحول بينهم وبين العلم والتمهيد والصالح بقدر الطاقة ، إلا تعليم لغاتها وتاريخ عظمها وديانة شعبيها ، لاجل هدم

مقوماتهم المادية وقومية حتى لا يرجى لهم النجاة من رق الاستعمار وذه، لا يكونوا مساوين للفتح المستعمر في العلم والثروة والعزة والقوة ، كما هو معروف في جميع الملكات والمستعمرات الاوربية ، خلافا لما كان عليه المسلمون الاولون في فتوحهم العدل

﴿ القاعدة الثالثة إيثار السلم على الحرب ﴾

هذه القاعدة مبنية على القاعدتين اللتين قبلها إذ علم بهما ان الحرب ضرورة يقتضيها ما ذكر فيهما من المصالح ودفع المفاسد ، وأن السلم هي الاصل التي يجب أن يكون عليها الناس ، فلماذا أمرنا الله بإيثارها على الحرب اذا جنح العدو لها ، ورضي بها ، والشاهد عليه قوله تعالى (٨: ٦١) وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (فراجع تفسيرها في ص ٦٩ و ١٤٠ من جزء التفسير العاشر

﴿ القاعدة الرابعة الاستعداد التام للحرب لاجل الارهاب المانع منها ﴾

إن الذي يجب أن تكون عليه الدولة قبل الحرب هو إعداد الامة كل ما تستطيع من أنواع القوة الحربية ومن رباط الخيل في كل زمان بحسبه على أن يكون القصد الاول من ذلك إرهاب الاعداء وإخافتهم من عاقبة التعدي على بلادها أو مصالحها أو على أفراد منها أو متاع أو مصلحة لها حتى في غير بلادها ، لأجل أن تكون آمنة في عقر دارها ، مطمئنة في حريتها بدينها ودماء أهلها ومصالحها وأموالها، وهذا ما يسمى في عرف هذا العصر بالسلم المسلحة أو التسليح السلمي، وتدعيه الدول العسكرية فيه زوراً وخداعاً فتكذبها أفعالها، ولا تكن الاسلام امتاز على الشرائع كلها بأن جعله ديناً مفروضاً فقيد به الأمر بأعداد القوى والرابطة للقتال ، وذلك قوله عز وجل (٨ : ٦٠) وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ) - فراجع تفسيرها في ص ٦١ ج ١٠ أيضاً

﴿ القاعدة الخامسة الرحمة في الحرب ﴾

إذا كان الغلب والرجحان في القتال للمسلمين المعبر عنه بالأثخان في الأعداء ، وأمنوا على أنفسهم ظهور العدو عليهم، فأنه تعالى يأمرهم أن يكفوا عن القتل، ويكفوا بالأسر، ثم يخبرهم في الأسارى إما بالمن عليهم بإطلاقهم بغير مقابل ، وإما بأخذ الفداء عنهم ، وذلك نص قوله تعالى في سورة محمد ﷺ (٤٧ : ٤٠) :
 فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ ، حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا
 الْوَتَاقَ فَإِمَّا مِمَّنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ، ذَلِكَ وَلَوْ
 يَشَاءُ اللَّهُ لَا تَنْصَرِمُ مِنْهُمْ ، وَلَسَكِنْ لَيَبْلُوَنَّ بَعْضَكُمْ بَعْضًا (الآية ١) وقد
 أوردناها وبيننا معناها في تفسير (٨ : ٩٧) ما كان لنبيٍّ أن يكون له أنصرى
 حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ (الآية (ص ٨٣ ج ١٠ تفسير)

﴿ القاعدة السادسة الوفاء بالمعاهدات وتحريم الخيانة فيها ﴾

وجوب الوفاء بالعهود في الحرب والسلام وتحريم الخيانة فيهما سرّاً أو جهراً
 كتحریم الخيانة في كل أمانة مادية أو معنوية من أحكام الاسلام القطعية، والآيات
 (١) أذاع أعداء الاسلام فيما تجنوا به عليه ان معنى هذه الآية ان القرآن يأمر
 أتباعه أن يقتلوا الكفار حينما يقومون حتى إن لورد كرومر الشهير الذي كان عميد
 الدولة البريطانية بمصر ذكر هذا في خطبة له . وإنا الآية في لقاء الأعداء الحربيين
 في القتال ، والكفار في شرع الاسلام ثلاثة أصناف : حربيون وتعرف أحكامهم
 من هذه القاعدة وما قبلها - ومعاهدون ويعرف بعض أحكامهم مما بعدها ، ومنهم
 المستأمنون ، وذميون وهم الذين يدخلون في حكم المسلمين وقد تقدم ان الاسلام
 يسوي بينهم وبين المسلمين في جميع أحكامه القضائية والسياسية ويوجب حمايتهم
 والدفاع عنهم حتى بالقتال لمن يعتدي على دينهم أو أنفسهم أو أموالهم

في ذلك متعددة محكمة لا تدع مجالاً للإباحة نقض العهد بالخيانة فيه وقت التوبة ،
 وعده قصاصة ورق عند إمكان نقضه بالخيلة «منها» قوله تعالى (١٦ ، ٩١)
وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا (الآية
 جمع بين الأمر بالإيفاء بها والنهي عن نقضها ثم أكد ذلك بالمثل البليغ في قوله
 (٩٢) **وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَضَتْ غَزَاهُمْ** (وقد بيناه آتفاً في مقدمة هذا المقصد «ومنها»
 أنه وصف المؤمنين الأبرار بقوله في آية البر (١٧٧:٢) **وَالْمُؤْمِنُونَ بَعْدَهُمْ إِذَا عَاهَدُوا**
«ومنها» أنه عاب اليهود الذين نقضوا عهدهم مع النبي ﷺ وجعلهم من شر الدواب
 (٥٥:٨ و٥٦) **«ومنها»** أنه لما أمر بنبذ عهود المشركين الذين نقضوا عهد النبي
 والمؤمنين استثنى منهم على كونهم أهل دار واحدة فقال (٩:٤) **إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ**
مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْهَضُوا بِكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا ، فاتموا إليهم
 عهدكم إلى مدتهم ، إن الله يحب المتقين) ثم قال (كيف يكون للمشركين
 عهدٌ عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا
 لكم فاستقيموا لهم ، إن الله يحب المتقين) وبلغ من تأكيد الوفاء بالعهد أن
 الله تعالى لم يبح لنا أن نصر إخواننا المسلمين غير الخاضعين لحكمنا على المعاهدين
 لنا من الكفار كما قال في غير المهاجرين منهم (٧٢:٨) **وَأِنْ أَسْتَضَرُّوْكُمْ فِي الدِّينِ**
فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ (١) **فَهَلْ يُوْجَدُ وِفَاؤُهُ**
 بالعهد أعظم من هذا في حكومة دينية بأمر الله تعالى ؟

﴿ القاعدة السابعة الجزية وكونها غاية للقتال لآلة ﴾

قلت في تفسير قوله تعالى في قتال أهل الكتاب من آية الجزية (٩: ٢٩)

حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (مانصه:

(١) راجع تفسيرها في صفحة ١٠٨ ج ١٠ تفسير

هذه غاية الامر بقتال أهل الكتاب ينتهي بها إذا كان الغالب لنا ، أي قاتلوا من ذكر عند وجود ما يقتضي وجوب القتال كالاعتداء عليكم أو على بلادكم ، أو اضطهادكم وفتنتكم عن دينكم ، أو تهديد أمنكم وسلامتكم وحرية دعوتكم ، كما فعل الروم فكان سبياً لغزوة تبوك ، حتى تأمنوا عدوانهم بإعطائكم الجزية في الحالين اللذين قيدت بهما ، فالقيد الاول لهم وهو أن تكون صادرة عن يد أي قدرة وسعة فلا يظلمون ولا يرهقون . والثاني لكم وهو الصغار المراد به خضدشو كتهه ، والخضوع لسيادكم وحكمكم ، وهذا يكون تيسير السبيل لاهتدائهم إلى الاسلام بما يرونه من عدائكم وهدايتكم وفضائلكم التي يرونكم بها أقرب إلى هداية أنبيائهم منهم ، فان أسلموا عم الهدى والعدل والاتحاد ، وإن لم يسلموا كان الاتحاد بينكم وبينهم بالمساواة في العدل ولم يكونوا حائلاً دونهما في دار الاسلام والقتال لما دون هذه الاسباب التي يكون بها وجوبه عينياً أولى بأن ينتهي بإعطاء الجزية ، ومتى أعطوا الجزية وجب تأمينهم وحمايتهم والدفاع عنهم وحريتهم في دينهم بالشروط التي تعقد بها الجزية ، ومعاملتهم بعد ذلك بالعدل والمساواة كالمسلمين ، ويحرم ظلمهم وإرهاقهم بتكليفهم ما لا يطيقون كالمسلمين ، ويسمون أهل الذمة لان كل هذه الحقوق تكون لهم بمقتضى ذمة الله وذمة رسوله ﷺ ، وأما الذين يعقد الصلح يلنا وبينهم بعهد وميثاق يعترف به كل منا ومنهم باستقلال الآخر فيسمون بأهل العهد والمعاهدين (*)

حكمة الجزية وسببها وما تسقط به

هذا - وان الجزية في الاسلام لم تكن كالضرائب التي يضعها الفاتحون على من يتغلبون عليهم فضلاً عن المغارم التي يرهقونهم بها ، وإنما هي جزاء قليل على ما تلزمه الحكومة الاسلامية من الدفاع عن أهل الذمة وإعانة للجدد الذي يمنهم أي يحميهم ممن يعتدي عليهم كما يعلم من سيرة أصحاب رسول الله ﷺ وهم أعلم الناس

(*) راجع القواعد في ٦ - ٩ ص ١٤٠ و ١٤١ ج ١٠ تفسير وما تحيل عليه من الآيات

بمقاصد الشريعة وأعد لهم في تنفيذها . والشواهد على ذلك كثيرة أوردنا طائفة منها في تفسير الآية بعد ما تقدم آنفا

« منها » ما كتبه خالد بن الوليد رضي الله عنه لصلوبا بن نسطونا حينما دخل الفرات وهو « هذا كتاب من خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا وقومه ، أي عاهدتكم على الجزية والمنعة ، فلك الذمة والمنعة ، وما منعناكم فلنا الجزية وإلا فلا ، وكتب سنة اثنتي عشرة في صفر » اه وهو صريح في أن الجزية جزاء على المنعة والحماية تدوم بدوامها ، وتمتنع بزوالها

ويؤيده بالعمل ما ذكره البلاذري في فتوح البلدان والازدي في فتوح الشام من رد الصحابة « رض » لما كانوا أخذوه من أهل حمص من الجزية حين اضطروا إلى تركهم لحضور وقعة اليرموك بأمر أبي عبيدة « رض » وقد صرحوا لهم أنهم قد أخذوها جزاء منعتهم فوجب ردها للمجز عن هذه المنعة . فعجب أهل حمص نصاراهم ويهودهم أشد العجب من رد الفاتحين أموالهم اليهم ودعوا لهم بالنصر على الروم فظهر بما ذكرنا أن الاسلام حرم حرب الاعتداء والظلم ، وقصر حرب الدفاع على دفع المفساد وتقرير المصالح العامة للبشر فجعلها ضرورة تقدر بقدرها ، وأن السلام الصحيح الشريف لا يمكن تمتع العالم به إلا بهداية الاسلام ، ووضع قوانين الحرب على قواعده

ومن تأمل هذه القواعد رأى انه لم يسبق الاسلام إلى مثلها دين من الاديان ، ولا قانون دولي ، ولا إرشاد فلسفي أو أدبي ، ولا تبعته بها أمة بتشريع ولا عمل ، أفليس هذا وحده دليلا واضحا لدى من يؤمن بوجود رب للبشر عليم حكيم ، بأن محمداً العربي الامي قد استمدّها بوحى منه عز وجل ، وان عقده وذكاه لم يكن ليبلغ هذه الدرجة من العلم والحكمة في هذه المعضلات الاجتماعية بدون هذا الوحي ؟ فكيف إذا أضفنا اليها ما تقدم وما يأتي من المعارف الالهية والادبية والاجتماعية والأبناء الغيبية وغير ذلك من دلائل نبوته ﷺ ؟

المقصد التاسع من مقاصد القرآن

(إعطاء النساء جميع الحقوق الانسانية والدينية والمدنية)

كان النساء قبل الاسلام مظلومات ممتنات مستعبدات عند جميع الامم وفي جميع شرائعهم وقوانينها حتى عند أهل الكتاب، الى أن جاء الاسلام، وأكمل الله دينه ببعثة خاتم النبيين محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، فأعطى الله النساء بكتابه الذي أنزله عليه ، وبسنته التي بين بها كتاب الله تعالى بالقول والعمل ، جميع الحقوق التي أعطاها للرجال، إلا ما يقتضيه اختلاف طبيعة المرأة ووظائفها النسوية من الاحكام ، مع مراعاة تكريمها والرحمة بها والعطف عليها ، حتى كان النبي ﷺ يقول « ما أكرم النساء إلا كريم ، ولا أهانهن إلا لئيم » رواه ابن عساکر من حديث علي كرم الله وجهه

كان كبار العقول من الصحابة رضي الله عنهم يرون ما أصلحه الاسلام من فساد وظلم ورذيلة في الامة العربية فيكبرونه إكباراً ويعمدونه من دلائل نبوة محمد ﷺ إذ لم يكن يمتاز عليهم قبل النبوة بشيء من العلم ولا البلاغة ، بل بالاخلاق وسلامة الفطرة فقط ، ولذلك كان عمر بن الخطاب المصلح الكبير والمنفذ الأكبر لسياسة الاسلام وهدى محمد ﷺ من بعده في الفتوح والعدل وإدارة شئون الشعوب يقول : إنما تنقض عُرَى الاسلام عروة عروة إذا نشأ في الاسلام من لم يعرف الجاهلية . ولو كان رضي الله عنه واقفاً الى تواريخ الامم والشعوب لعلم أن ما جاء به الاسلام إنما هو إصلاح لشئون البشر كافة ، وتثيهم وكتابتهم ، همجيهم وحضرهم ، لافي شيء واحد بل في كل شيء ، واتي أشير هنا إلى أهم أصول الإصلاح النسوي التي بسطها في كتاب وسيط في حقوق النساء في الاسلام

بينت في مقدمته حالهن قبل البعثة المحمدية عند أمم الارض اجمالا بقولي :
 « كانت المرأة تشتري وتباع ، كالبييمة والمتاع ، وكانت تكره على الزواج
 وعلى البغاء ، وكانت تورث ولا ترث ، وكانت تملك ولا تملك ، وكان أكثر
 الذين يملكونها يحجرون عليها التصرف فيما تملكه بدون إذن الرجل ، وكانوا
 يرون للزوج الحق في التصرف بما لها من دونها ، وقد اختلف الرجال في بعض
 البلاد في كونها انسانا ذات نفس وروح خالدة كالرجل أم لا؟ وفي كونها تلقن الدين
 وتصح منها العبادة أم لا ؟ وفي كونها تدخل الجنة أو الملكوت في الآخرة أم لا ؟
 فقرر أحد المجامع في رومية أنها حيوان نجس لاروح له ولا خلود ، ولكن يجب
 عليها العبادة والخدمة ، وأن يكفها كالبعير والكلب العقور لمنعها من الضحك
 والكلام ؛ لأنها أحبولة الشيطان ، وكانت أعظم الشرائع تبيح للوالد بيع ابنته
 وكان بعض العرب يرون ان للأب الحق في قتل بنته بل في وأداها «دفعها حية»
 أيضاً . وكان منهم من يرى انه لا فصاص على الرجل في قتل المرأة ولا دية »

و كتبت في مقدمة الكلام على حقوق النساء المالية في الاسلام مانصه
 « قد أبطل الاسلام كل ما كان عليه العرب والعجم من حرمان النساء من
 التملك أو التضيق عليهن في التصرف بما يملكن ، واستبداد أزواج المتزوجات
 منهن بأموالهن ، فأثبت لهن حق الملك بأنواعه والتصرف بأنواعه المشروعة ،
 فشرع الوصية والارث لهن كالرجال ، وزادهن ما فرض لهن على الرجال من
 مهر الزوجية والنفقة على المرأة وأولادها وإن كانت غنية ، وأعطاهن حق البيع
 والشراء والاجارة والهبة والصدقة وغير ذلك . ويتبع ذلك حقوق الدفاع عن
 مالها كالدفاع عن نفسها بالتقاضي وغيره من الاعمال المشروعة ، وإن المرأة الفرنسية
 لا تزال إلى اليوم مقيدة بارادة زوجها في جميع التصرفات المالية ، والعقود القضائية »
 واتي ألخص من ذلك الكتاب المسائل الآتية بالابحاج

(١) كان بعض البشر من الافرنج وغيرهم يعدون المرأة من الحيوان الاعجم أو من الشياطين لامن نوع الانسان وبعضهم يشك في ذلك فجاء محمد ﷺ بتلو عليهم امثال قول الله تعالى (١٣:٤٩) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى الْآيَةِ . وقوله (١:٤) يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً (٢) كان بعض البشر في أوربة وغيرها يرون ان المرأة لا يصح أن يكون لها دين حتى كانوا يحرمون عليها قراءة الكتب المقدسة رسمياً فجاء الاسلام لمخاطب بالتكاليف الدينية الرجال والنساء معاً بلقب المؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات، والآيات في ذلك معروفة .

كان أول من آمن بمحمد خاتم النبيين ﷺ امرأة وهي زوجته خديجة بنت خويلد (رض) وقد ذكر الله تعالى مبايعته ﷺ للنساء في نص القرآن ثم بايع الرجال بما جاء فيها - ولما جمع القرآن في مصحف واحد جمعاً رسمياً وضع عند امرأة هي حفصة أم المؤمنين وظل عندها من عهد الخليفة الاول أبي بكر الصديق إلى عهد الخليفة الثالث عثمان (رضي الله عنهم) فأخذ من عندها واعتمدوا عليه في نسخ المصاحف الرسمية التي كتبت وأرسلت إلى الامصار لاجل النسخ عنها والاعتماد عليها .

(٣) كان بعض البشر يزعمون ان المرأة ليس لها روح خالدة فتكون مع الرجال المؤمنين في جنة النعيم في الآخرة - وهذا الزعم أصل لعدم تدينها - فنزل القرآن يقول (١٢٣:٤) لَيْسَ بِأَمَانِيَّتِكُمْ وَلَا أَمَانِيَّ أَهْلِ الْكِتَابِ: مَنْ يَعْمَلْ سُوْءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يُجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ١٢٤ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ

يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا) ويقول (٣: ١٩٥) فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَابِدٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ (الآية). وفيها الوعد العريض بدخولهم جنات تجري من تحتها الأنهار

(٤) كان بعض البشر يحتثرون المرأة فلا يعدونها أهلاً للاشتراك مع الرجال في المعابد الدينية، والمحافل الادبية، ولا في غيرها من الامور الاجتماعية والسياسية، والارشادات الاصلاحية، فنزل القرآن يصارحهم بقوله تعالى (٩: ٧١) وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

فأثبت للمؤمنات الولاية المطلقة مع المؤمنين، وتدخل فيها ولاية النصره في الحرب ولكن الشرع أسقط عنهم فريضة القتال فكان حظهم من النصره تهيئة الطعام والشراب للمقاتلين ومداواة جراحهم، وكن يصاين الجماعة مع الرجال ويحججن معهم، ويأمرن بالمعروف، وينهين عن المنكر، حتى إن بعضهن كن يشكرن على عمر بن الخطاب قوله جبراً فيرجع عنه إذا كان خطأ، وهو الذي كن يهابه الرجال كالنساء.

وقد فني الله تعالى على هذه الآية بأعظم آية في جزاء الفريقين جمعت بين بيان النعيم الجنائي والنعيم الروحاني وهي (٩: ٧٢) وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

(٥) كان بعض البشر يحرمون النساء من حق الميراث وغيره، وبعضهم

يضيق عليهن حق التصرف فيما يملكن ، فأبطل الاسلام هذا الظلم ، وأثبت لهن حق الملك والتصرف بأنفسهن في دائرة الشرع ، قال الله تعالى (٧:٤) للرجال نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا)

ونحن نرى أن دولة الولايات المتحدة الاميركية لم تمنح النساء حق الملك والتصرف إلا من عهد قريب في عصرنا هذا ، وان المرأة الفرنسية لا تزال مقيدة بارادة زوجها في انصرفت المالية والعقود القضائية ، وقد منحت المرأة المسلمة هذه الحقوق منذ ثلاثة عشر قرنا وتصف قرن

(٦) كان الزواج في قبائل البدو وشعوب الحضارة ضربا من استرقاق الرجال للنساء فجعله الاسلام عقداً دينيا مدنيا لقضاء حق الفطرة بسكون النفس من اضطرابها الجنسي بالحب بين الزوجين وتوسيع دائرة المودة والالفة بين العشيرتين واكتمال عاطفة الرحمة الانسانية وانتشارها من الوالدين إلى الاولاد ، على ما أرشد اليه قوله تعالى (٢١:٣٠) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

(٧) ان قرآن ساوى بين المرأة والرجل باقتسام الواجبات والحقوق بالمعروف مع جعل حق رياسة الشركة الزوجية للرجل لانه أقدر على النفقة والحماية بقول الله عز وجل في الزوجات (٢ : ٢٢٨) وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ) وقد بين هذه الدرجة بقوله تعالى (٤ : ٣٤) الرِّجَالُ قَوَّامُونَ

على النساء بما فضل الله بعضهن على بعض وبما أنفقوا من أموالهم) فجعل من واجبات هذه القيامة على الزوج نفقة الزوجة والاولاد لا تكلف الزوجة منه شيئاً ولو كانت أغنى منه، وزادها المهر، فالمسلم يدفع لامرأته مهرأ عاجلاً مفروضاً عليه بمقتضى العقد حتى إذا لم يذكر فيه لزمه مهر مثلها في الهيئة الاجتماعية، ولها أن يؤجل بعضه بالتراضي على حين ترى بقية الامم حتى اليوم تكلف المرأة دفع المهر للرجل وكان أولياء المرأة يجبرونها على التزوج بمن تكره أو يعضلونها بالمنع منه مطاقاً وإن كان زوجها وطلقها فحرم الاسلام ذلك، والنصوص في هذا معروفة في كلام الله وكلام رسوله وسنته

(٨) كان الرجال من العرب وبني اسرائيل وغيرهم من الامم يتخذون من الازواج ماشاءوا غير مقيدين بعدد، ولا مشترط عليهم فيه العدل، فقيدهم الاسلام بأن لا يزيدوا على أربع، وان من خاف على نفسه أن لا يعدل بين اثنتين وجب عليه الاقتصار على واحدة، وإنما أباح الزيادة لمحتاجها القادر على النفقة والاحصان لانها قد تكون ضرورة من ضرورات الاجتماع في أحوال : منها أن تكون الاولى عقماً أو تدخل في سن اليأس من الحمل، أو تكون ذات مرض مانع منه أو من إحسان الرجل، وقد يكون التعدد من مصالح النساء خاصة إذا كثرن في أمة أو قبيلة كما يكون في أعقاب الحروب، أو هجرة كثير من الرجال لاجل الكسب وناهيك بأمة تحرم شريعتها الزنا وتعاقب عليه، فهل من مصلحة النساء أو الانسانية أن تبقى النساء الزائدات على عدد الرجال محرومات من الحياة الزوجية وحصانتها وكفالة الازواج ومن نعمة الامومة وهل من المصلحة أو المنفعة العامة أو الخاصة أن يباح لهن الزنا وما يترتب عليه من المصائب البدنية والاجتماعية التي تراهن مرهقات برجسها في بلاد الافرنج والبلاد التي ابتليت بسيطرتهم عليها أو تقليدها لهم ؟

وقد فصلنا ذلك في تفسير آية التعدد من سورة النساء ثم زدنا عليه في كتاب «حقوق النساء في الاسلام» ما هو مقنع لكل عاقل منصف بأن ما شرعه الاسلام في التعدد هو عين الحق والعدل ومصلحة البشر كافة، والنساء خاصة، فهو قد أباح ذاك بشرطه الشديد ولم يوجب، وهن في شريعته مخيرات في قبول العقد على رجل متزوج وعدمه، بل تجز الشريعة للمرأة أن تسترط في عقد نكاحها جعل عصمتها بيدها لتطابق نفسها اذا شاءت بناء على ما ذهب اليه بعض أئمة الفقه في صحة كل شرط يتعاقد عليه الناس غير مخالف لنص قطعي في الكتاب والسنة ولا سيما شروط الزوجية عملاً بمحدث «أحق الشروط ان توفوا به ما استحلتم به الفروج» رواه البخاري في مواضع من صحيحه، واصحاب السنن

(٩) الطلاق قد يكون ضرورة من ضروريات الحياة الزوجية اذا تعذر على الزوجين القيام بحقوق الزوجية من إقامة حدود الله وحقوق الاحصان والنفقة والمعاشرة بالمعروف، وكان مشروعا عند أهل الكتاب والوثنيين من العرب وغيرهم، وكان يقع على النساء منه وفيه ظلم كثير وغبن يشق احتماله فجاء الاسلام فيه بالاصلاح الذي لم يسبقه اليه شرع ولم ياحقه بمثله قانون، وكان الافرنج يجرمونه ويعيبون الاسلام به، ثم اضطروا إلى إباحته، فأسرفوا فيه اسرافا منذراً بفوضى الحياة الزوجية وانحلال روابط الاسرة والعشيرة، وبما نقلته الصحف من أسباب حكم القضاة بالطلاق عندهم مسائل شعر رأس المرأة ووجه الرجل في إرساله أو قصه وحاقه، وشكوى المرأة من اشتغال الرجل عنها بمطالعة الكتب أو الصحف في الدار، وشكواها من تنن رأيته لعدم استحمامه، وشكوى الرجل من كثرة كلام المرأة حتى بالمدرة (التلفون) ومثله كثير

جعل الاسلام عقدة النكاح بيد الرجال ويتبعه حق الطلاق لانهم أحرص على بقاء الزوجية بما تكلفهم من النفقات في عقدتها وحلها وكونهم أثبت من النساء

جأشاً وأشد صبراً على ما يكرهون ، وقد أوصاهم الله تعالى فوق هذا بما يزيدهم قوة على ضبط النفس وجبسا على ما يكرهون من نسايم فقال (١٩:٤) وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً) وأعطت الشريعة المرأة حق طلب فسخ عقد الزواج من القاضي اذا وجد سببه من العيوب الخلقية أو المرضية كالرجل وكذا اذا عجز الزوج عن النفقة . وجعلت للمطلة عليه حق النفقة مدة العدة التي لا يحل لها فيها لزواج ، وذم النبي ﷺ الطلاق بأن الله يبغضه للتفكير عنه - إلى غير ذلك من الأحكام التي بينها في تفسير الآيات المنزلة فيها وفي كتابنا الجديد في حقوق النساء في الاسلام ، (نداء للجنس اللطيف)

(١٠) بالغ الاسلام في الوصية ببر الوالدين ففرنه بعبادة الله تعالى ، وأكد النبي ﷺ فيه حق الأم فجعل برها مقدماً على بر الأب . ثم بالغ في الوصية بتربية البنات وكفالة الاخوات ، بأخص مما وصى به من صلة الارحام ، بل جعل لكل امرأة قماً شرعياً يتولى كفايتها والعناية بها ، ومن ليس لها ولي من أقاربها وجب على أولي الامر من حكام المسلمين أن يتولوا أمرها ، وقد أثبتنا في ذلك الكتاب طائفة من تلك الوصايا

وجملة القول انه ما وجد دين ولا شرع ولا قانون في أمة من الامم أعطى النساء ما أعطاهن الاسلام من الحقوق والعناية والكرامة ، أفليس هذا كله من دلائل كونه من وحي الله العليم الحكيم الرحيم ، إلى محمد النبي الامي المبعوث في الاميين ؟ بلى وأنا على ذلك من الشاهدين المبرهنين ، والحمد لله رب العالمين .

المقصد العاشر من مقاصد القرآن

﴿ تحرير الرقبة ﴾

ان استرقاق الاقوياء للضعفاء قديم في شعوب البشر ، بل هو معهود في الحشرات التي تعيش عيشة الاجتماع والتعاون أيضاً كالفحل ، فاذا حاربت قرية منه أخرى فظفرت بها وانتصرت عليها فانها تأسر ماسلم من القتال وتستعبده في خدمة الظافر من البناء وجمع المثلثة وخزنها في مخازنها وغير ذلك

كانت شعوب الحضارة القديمة من المصريين والبابليين والفرس والهنود واليونان والروم والعرب وغيرها تتخذ الرقيق وتستخدمه في أشق الاعمال ، وتعامله بمنتهى القسوة والظلم ، وقد أقرته الديانتان اليهودية والنصرانية ، وظل الرق مشروعاً عند الافرنج إلى أن حررت الولايات الاميريكية المتحدة رقيقها في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي ، وتلتها انكلترة بأخذ الوسائل لمنع من العالم كله في أواخر القرن التاسع عشر ، ولم يكن عمل كل منهما خالصاً لمصلحة البشر العامة ، فان لهم فيه مصالح خاصة ولاجنوحاً للمساواة بينهم ، فان الاولى لا تزال تفضل الجنس الابيض الاوربي المتغلب على الجنس الاحمر الوطني الاصلي بما يقرب من الاستعباد السياسي المباح عند جميع الافرنج للشعوب ، بل يستبيح الشعب الابيض تعذيب المخالف له في لونه في الولايات المتحدة على كل ذنب بما لا يبيحه القانون ، فيتخطفه دعارهم من أيدي الحكم والشرطة وينكفون به أشد تنكيل ، ويمثلون به أفظع تمثيل ، كما أن انكلترة تحتقر الهنود وتستذلهم ، ولكن النهضة الهندية في هذا العهد قد خفضت من غلاوتهم ، وطأمت من إشتاق كبرياتهم^(١)

(١) آخر ما نشرته الجرائد في هذه الأيام من هذه السنة الميلادية (١٩٣٤) عنهم أن طلبة جامعة أكسفورد انتخبوا رئيساً لبعض جماعاتهم فقال أكثر الأصوات طالب هندي فاضطرب الشعب الانكليزي لهذه النازلة ، وارتفعت في إنكارها الأصوات من كل مكان : أهندي أسمر يكون فوق الانكليزي البيض في شيء ما ??

وغيرهما من الافرنج المستعمرين شر منها ظاماً وقسوة وكل منهم يأبون أن يصلوا في كنائس مستعمراتهم مع أبناء البلاد فيتناوبون الصلاة فيها فلما ظهر الاسلام ، وأشرق نوره الماسحي لكل ظلام ، كان مما أصلحه من فساد الامم إبطال غلم الرقيق وإرهاقه . ووضع الاحكام لإبطال الرق بالتدريج السريع ، إذ كان إبطاله دفعة واحدة متعذراً في نظام الاجماع البشري من اناحيتين : ناحية مصالح السادة المسترقين ، وناحية معيشة الأرقاء المستعبدين فان الولايات المتحدة لما حررت رقيقها كان بعضهم يضرب في الارض يلتمس وسيلة للرزق فلا يجدونها فيحور إلى سادته يرجو منهم العود إلى خدمتهم كما كان وكذلك جرى في السودان المصري ، فقد جرب الحكم من الانكليز أن يجدوا لهم رزقا بعمل يعملونه مستقايين فيه مكتفين به فلم يمكن ، فاضطروا إلى الاذن لهم بالرجوع إلى خدمة الرق السابقة بشرط أن لا تسمح للمخدومين ببيعهم والاتجار بهم

هداية الاسلام في تحرير الرقيق وأعطاه

قد شرع الله تعالى لإبطال الرق طريقتين : تحديد تجديد الاسترقاق في المستقبل أو تقييده . وتحرير الرقيق القديم بالتدريج ، الذي لا ضرر ولا ضرار فيه ﴿الطريقة الاولى﴾ منع الاسلام جميع ما كان عليه الناس من استرقاق الاقوياء للضعفاء بكل وسيلة من وسائل البغي والعدوان ، وقيده باسترقاق الاسرى والسبايا في الحرب التي اشترط فيها ما تقدم بيانه من دفع المفاصد وتقرير المصالح ، ومنع الاعتداء ومراعاة العدل والرحمة ١١ وهي شروط لم تكن قبله مشروعة عند المللين ولا عند أهل الحضارة فضلاً عن المشركين الذين لا شرع لهم ولا قانون ، ولست أعني بالاستثناء أن الله تعالى شرع لنا من هذا النوع من الاسترقاق كل ما كانت الامم تفعله معاملة لهم بالمثل ، بل شرع لأولي الامر من المسلمين مراعاة المصلحة للبشر في إمضائه أو إبطاله بأن خيرهم في أسرى الحرب الشرعية بين أمرين (أولهما) المن

عليهم بالحرية فضلا وإحسانا ورحمة (ثانيهما) الفداء بهم وهو نوعان فداء المال ، وفداء الأنفس اذا كان لنا أسارى أو سى عند قومهم، بنص الآية ٥٧: ٤: التي أوردناها في القاعدة الخامسة من قواعد الحرب^١ ولما كنا نخير بين إطلاقهم بغير مقابل والفداء بهم جاز أن يعد هذا أصلا شرعيا لا بطل استثناف الاسترقاق في الاسلام، فان ظاهر التخير بين هذين الامرين ان الامر الثالث الذي هو الاسترقاق غير جائز لو لم يعارضه أنه هو الاصل المتبع عند جميع الامم وأقره الاسلام لانه أمر عالمي دولي يقع به التعامل بين الاعداء في الحرب، فمن أكبر المفسد والضرر أن يسترقوا أسرانا ونطلق أسراهم ونحن أرجمهم وأعدل كما يعلم ما يأتي، ولكن الآية ليست نصا في الحصر، ولا صريحة في المنع عن الاصل، فكانت دلالتها على تحريم الاسترقاق مطلقا غير قطعية، فبتي حكمه محل اجتهاد اولي الامر^٢ إذا وجدوا المصلحة في إبقائه أبقوه، وإذا وجدوا المصلحة في ترجيح المن عليهم بالحرية وهو إبطال اختياري له أو الفداء بهم عملوا به

ورأيت بعض المشتغلين بالفقه يقولون ان الاسترقاق والسبي من حقوق المحاربين الخاصة لا من حقوق أولي الامر العامة، فليس للامام الاعظم ولا للقائد العام في الحرب المفوض من قبله مع أركان حربه أن يجبروا المتقاتلين على المن عليهم ولا على الفداء بهم لاقتضاء المصلحة العامة لأحد الامرين، بدليل ان النبي ﷺ لم يجبر المسلمين على التخلي عن سبي هوأزن إجبارا، بل جعله بتطبيب أنفسهم، ووعد من لا تطيب نفسه بترك حصته بالتعويض عليه، وفي هذا الفهم غلط من وجوه كثيرة «منها» ان مثل هذه المسألة إذا لم تكن من المصالح العامة التي تناط بأولي الامر فليس في الامم مصالح عامة قط «ومنها» انه يعارض نصا في القرآن بواقعة حال عملية «ومنها» ان النبي ﷺ جمع في تلك الحال بين حكمة الدين ورحمته العامة وبين تربية المسلمين التي اقتضاها الزمان والمكان، والقوة والضعف في الايمان، وحال طلقاء مكة والمؤلفة

قلوبهم في إظهار الاسلام فوعد وفد هوازن باحدى الطائفتين مع علمه بأنهم يختارون السبي . ثم انه أعطى المؤلفه قلوبهم من الغنائم أكثر من غيرهم ، ولم يعط الانصار شيئاً . وقد فصلنا ذلك في تفسير اليتين (٢٥ و ٢٦) من سورة التوبة (٩) *
وإنما تكون مصلحة الاسترقاق أرجح من هاتين المصلحتين — أي المن على الاسرى والفداء بهم — في حالات قليلة لاتدوم كأن يكون المحاربون للمسلمين قوما قليلي العدد كـبعض قبائل البدو يقتل رجالهم كلهم أو جلهم فاذا ترك النساء والاطفال والضعفاء من الرجال لأنفسهم لا يكون لهم قدرة على الاستقلال في حياتهم ، فيكون الخير لهم أن يكفلهم الغالبون ويقوموا بشؤونهم المعاشية ، ثم تجري عليهم أحكام الطريقة الثانية في تحريرهم ، وقد يتسرون بالنساء فيكن أمهات أولاد وربات بيوت فخرائر ، أو محصنات من الفواحش مكفيات أمر المعيشة على الأقل . وكذلك الاطفال يكفلهم المسلمون ويروبونهم على عقائد الاسلام وفضائله ، ثم ينالهم العتق في الغالب لما سيأتي في وجوهه ، فيكونون كسائر أحرار المسلمين علماء وأغنياء وحكاماً وأمرأ . وقد أفضى هذا إلى تغلب المالك من الاعاجم على السيادة والسلطان في الامة ، بعد إهمال هداية الدين في دولها

وقد سن النبي ﷺ لأمته ترجيح المن على الاسارى والسبايا بالعتق قولاً وعملاً في غزوة بني المصطلق وغزوة فتح مكة وغزوة خيبر كما هو مفصل في كتب السيرة النبوية وغيرها ، إذ لم يكونوا أسروا من المسلمين أحداً لأن المسلمين قد اتخنوهم وظهروا عليهم ، فلم منها ان روح الشريعة الاسلامية ترجيح جانب الفضل والاحسان عند القدرة ، ومنه عتق الاسرى والسبايا والمن عليهم بالحرية بلا مقابل حاضر ، ولا خوف مستقبل ، بل لمحض الاحسان

ولانتس أن أكثر المشركين الذين كانوا يقاتلون النبي ﷺ من الاعراب (البدو) وكانت حالة الحرب معهم مستمرة كما تقدم (ص ٢٥٤) فلم يكن من المصلحة ارجاع سبيهم اليهم يشقى بشقايتهم وشركهم ، وظلمهم وقساوتهم ، من قتل للاولاد ووأد البنات ، وتأمل فعله ﷺ مع بني النضير من اليهود اذ استأذنه أصحابه بأخذ أولادهم الذين تهودوا معهم فأمرهم بتخييرهم (راجع ص ٢٠٨)

الطريقة الثانية

﴿ماشرعه لتحرير الرقيق الموجود وجوبا وندبا وهو أنواع﴾

(النوع الاول من أحكام الرق ووسائل تحريره اللازمة وفيه عشر مسائل)

(١) الحرية في الاسلام هي الاصل في الانسان كما كتب أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب «رض» إلى عامله على مصر عمرو بن العاص « وقد اشتكى عليه قبطي » ياعمر و منذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ وقد أخذ الفقهاء من هذا الاصل ان الرق لا يثبت باقرار المرء على نفسه ، وجعلوا قول منكره راجحاً على قول مدعيه فيكلف إثباته

(٢) ان الاسلام حرم استرقاق الاحرار من غير أسرى الحرب الشرعية العادلة بشروطها كما تقدم وجعل ذلك من أعظم الآثام . روى البخاري وغيره من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال « قال الله تعالى ثلاث أنا خصمهم يوم القيامة ومن كنت خصمه خصمته : رجل أعطى بي ثم غدر ، ورجل باع حراً ثم أكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيرأ فاستوفى منه ولم يعطه أجره » وفي حديث الثلاثة الذين لا يقبل الله منهم صلاة « ورجل اعتبد محرراً » أي جعله كالعبد في استخدامه كرها أو أنكر عتقه أو كتمه ، وهو في سنن أبي داود وابن ماجه

(٣) شرع الله تعالى للمملوك أن يشتري نفسه من مالكة بما ل يذفعه ولو أقساطاً ، ويسمى هذا في الشرع الكتاب والمكاتبة وأصله قوله تعالى (والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً وآتوهم من مال الله الذي آتاكم) أمر بمكاتبتهم إن علم المالك أنهم يقدرون على الكسب والوفاء بما التزموه وأنه خير لهم ، وأمر باعانة المالك لمكاتبة على أداء ما باعه نفسه به ، ويدخل فيه الهبة وحط بعض الاقساط عنه ، وجعل في مال الزكاة المفروضة سهماً تدخل فيه هذه الاعانة ، وندب غير المالك لذلك ايضاً

ذهب بعض العلماء إلى أن الامرين في الآية للوجوب : الامر بالمكاتبة

والامر بالاغانة عليها ، والاكترون على أن الاول للثب والثاني للوجوب ، وفي صحيح البخاري بعد ذكر الآية : قال روح عن ابن جريج قلت لعطاء : أوجب علي إذا علمت ان له (أي لمولوكه) مالا أن أكتبه ؟ قال ما أراه إلا واجبا . وقال عمرو ابن دينار قلت لعطاء : أنأثره عن أحد ؟ قال لا ، ثم أخبرني ان موسى بن أنس أخبره ان سيرين (١) سأل أنسا المكاتبه وكان كثير المال فأبى فانطلق سيرين إلى عمر فدعاه عمر فقال كاتبه ، فأبى فضر به بالدره وتلا (فكانتوهم إن علمتم فيهم خيراً) فكاتبه اه (٢) إذا خرج الارقاء من دار الكفر ودخلوا دار الاسلام يصيرون أحراراً وعلى الحكومة الاسلامية تنفيذ ذلك ومستنده في السنة معروف ، وقد انعكس الامر في هذا العصر فصار الارقاء الذين يخرجون من دار الاسلام الى دار الكفر أو مافي حكمها هم الذين يعتقون ، والمراد بالكفر هنا غير الاسلام

(٥) ان من أعتق حصه له من عبد عتق كله عليه من ماله إن كان له مال ، وإن كان لغيره حصه فيه فله أحكام ، وفي ذلك أحاديث في الصحيحين وغيرهما ، منها حديث ابي هريرة ان النبي ﷺ قال «من اعتق نصيبا او شقيصا في مملوك فخلاصه عليه في ماله إن كان له مال وإلا قوم عليه فاستسعى^٢ به غير مشقوق عليه» وحديث ابن عمر مرفوعا ايضا «من اعتق نصيبا له في مملوك او شركا له في عبد فكان له من المال ما يبلغ قيمته بقيمة العدل فهو عتيق» والشقيص كالنصيب وزنا ومعنى

(٦) من عذب مملوكه او مثل به او خصاه عتق عليه ، فقد روى الامام احمد إن زبعا أبا روح وجد غلاما له مع جارية له فجذع أنفه وجبه ، فشكاه إلى النبي ﷺ فسأله فاعترف وذكر ذنبه فقال النبي ﷺ للغلام « اذهب فأنت حر » ويؤخذ منه أن الحب والخصاء حرام وموجب لعق العبد ، وينفذه الحاكم عليه ، فكل ما كان يخص من المالك ففيه مخالفة للشرع الاسلامي بخصائهم وعدم عتقهم

(١) هو والد محمد بن سيرين العالم التابعي المشهور

(٢) أي كلف المملوك أن يسعى في جمع المال الباقي من ثمنه بما لامشقة عليه

فيه ، فيالله ما أعجب هذه الرحمة في الاسلام

وفي رواية له (الامام احمد) أخرجها أبو داود وابن ماجه : جاء رجل إلى النبي ﷺ صارخا فقال له « مالك ؟ » قال سيدي رأيي أقبل جارية له فخبّ ماذا كيري فقال النبي ﷺ « علي بالرجل » فطلب فلم يقدر عليه فقال ﷺ « للغلام » اذهب فأنت حر » وفي جامع الاصول من حديث سمرة بن جندب وابي هريرة أن النبي ﷺ قال « من مثل بعبد عتق عليه »

(٧) إيذاء الملوك بما دون التمثيل والتعذيب الشديد حرام ولا كفارة لذنبه إلا عتقه فقد روى أحمد ومسلم وأبو داود عن عبد الله بن عمر قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته أن يعتقه » وللشيخين والترمذي عن سويد بن مقرن قال : كنا بني مقرن على عهد رسول الله ﷺ ليس لنا إلا خادمة واحدة فلطمها أحدنا فأنخ ذلك النبي ﷺ فقال « أعتقوها » وقيل له أنه ليس لبني مقرن خادم غيرها فرخص لهم باستخدامها ما دامت الحاجة واطلاقها إذا زالت. وروى مسلم وغيره عن أبي مسعود البصري قال كنت أضرب غلاما بالسوط فسمعت صوتا من خلفي « اعلم أبا مسعود » فلم أفهم الصوت من الغضب، قال فلما دنا مني إذا هو رسول الله ﷺ فإذا هو يقول « اعلم أبا مسعود، اعلم أبا مسعود » فألقيت السوط من يدي ، وفي رواية فسقط من يدي السوط من هيئته فقال « اعلم أبا مسعود ان الله أقدر منك على هذا الغلام - وفي رواية عليه - فقلت يا رسول الله هو حر لوجه الله فقال « أما لو لم تفعل للفتحك النار - أو - لمستك النار »

فهذا وما قبله بعض هدي محمد ﷺ في الرحمة ومعاملة الرقيق الذي لا يزال يصفه رجال الكنيسة ورجال السياسة من الافرنج وتلاميذهم، اعلم القاضي والدان من الكذب والافتك والبهتان. كيف لا وهو الرحمة العامة للعاطلين (راجع ص ١١٤-١١٧) (٨) التدبير عتق لازم، وينعقد بقول السيد لعبد أنه تدبير وأنت حر عن دبره أي بعد أن تدبر عن هذه الدنيا وكذا أنت حر بعد موتي، إذا قصد

به التدبير، فإن أطلق ولا قرينة فبعض العلماء يرجح أنه تدبير تقوية لجانب العتق الذي هو من مقاصد الشرع الأساسية ومنهم من يرجح جانب الوصية

ومن أحكام التدبير أنه لازم في الحال لا يجوز الرجوع عنه كالوصية، وأنه لا يجوز للمدبر (بالكسر) بيع المدبر (بالفتح) عند مالك وأبي حنيفة وإن من دبر بعض مملوكه وهو مالك له كله سرى العتق إلى باقيه، وقال جمهور العلماء إن أولاد الجارية المدبرة تابعون لها في العتق والرق فإذا عتقت عتقوا معها

(٩) عتق أمهات الأولاد - وهو إن الجارية التي تلد لسيدها ولدًا تصير حرة من رأس ماله بعد موته فلا تدخل في ملك الورثة ولا يجوز له بيعها في حياته عند جمهور السلف والخلف وأولهم عمر وعثمان (رض)

ففي حديث عمر عند الإمام مالك «أما وليدة ولدت من سيدها فانه لا يبيعها ولا يهبها ولا يورثها وهو يستمتع منها فإذا مات فهي حرة» ولو أن أم الولد تورث لورثها أولادها فكانت ملكاً لهم وهذا مناف لمقاصد الشرع وأصوله وآدابه

(١٠) إن ملك أحد أحدًا من أولي القربى عتق عليه وأعم ما ورد فيه حديث سمرة بن جندب مرفوعاً «من ملك ذارحم محرم فهو حر» رواه أحمد وأصحاب السنن إلا النسائي والحاكم وصححه وهذا بمعنى ما قبله من عتق أمهات الأولاد

(النوع الثاني من وسائل تحرير الرقيق الموجود الكفارات)

والمراد بها القربات التي تمحو الذنوب وأعظمها عتق الرقاب وهي ثلاثة أقسام (أحدها) واجب حتم على القادر على العتق بملك الرقبة أو ثمنها ككفارة قتل النفس خطأ، وكفارة الظهار وهو تشبيه الرجل وزوجه بأمة وكان طلاقاً في الجاهلية، وكفارة إفساد الصيام عمداً بشرطه وقيد المعروفين في الفقه

(ثانيها) واجب مخير فيه وهو كفارة اليمين فمن حلف يميناً وحنث فيها فكفارته اطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة كما قال الله تعالى وحكمة التخيير ظاهرة

(ثالثها) مندوب وهو العتق لتكفير الذنوب غير المعينة وهو من أعظم مكفراتها

(النوع الثالث من وسائل إلغاء الرق الموجود)

جعل سهم من مصارف الزكاة الشرعية المفروضة في (الرقاب) بنص القرآن هو يشمل العتق والاعانة على شراء المملوك نفسه (الكتابة) ومن المعلوم ان زكاة الامة الاسلامية قد تبلغ مئات الالوف وألوف الالوف من الدراهم والدنانير، فلو نفذت أحكام الاسلام فيها وحدها لا يمكن تحرير جميع الرقيق في دار الاسلام (النوع الرابع منها العتق الاختياري لوجه الله تعالى أى ابتغاء مرضاته)

قد ورد في الكتاب والسنة وآثار السلف من الترغيب في العتق ما يدخل تدوينه في سفر كبير ، ومما يدل على أنه من أعظم العبادات وأصول البر آية البر من سورة البقرة (١٧٦:٢)

ومن أشهر أحاديث الترغيب في العتق قوله ﷺ « أيما رجل أعتق امرءاً مسلماً » استنقذ الله بكل عضو منه عضواً من النار « متفق عليه من حديث أبي هريرة ، وفي رواية « عضواً من أعضائه من النار حتى فرجه بفرجه » وحديث أبي ذر قال سألت رسول الله ﷺ أي العمل أفضل ؟ قال « إيمان بالله، وجهاد في سبيله » قلت فأبي الرقاب أفضل ؟ قال « أعلاها ثمنا وأنفسها عند أهلها » الحديث ومن أشهرها حديث أبي موسى الأشعري « أيما رجل كانت له جارية أدبها فأحسن تأديبها، وعلمها فأحسن تعليمها واعتقها وتزوجها فله أجران » رواه البخاري ومسلم وغيرهما. وفي الصحيحين أيضاً ان أبا هريرة لما روى قوله صلى الله عليه وسلم « للمملوك الصالح أجران » قال : والذي نفسي بيده لولا الجهاد والحج وبر أمي لأحييت ان أموت وأنا مملوك .

(١) انفق العلماء على ضرورة عتق الكافر وأنه قربة وإنما اختلفوا في عتقه في الكفارة

(الوصية بالماليك)

أضف إلى هذا وصايا الله ورسوله بالماليك ومنها تخفيف الواجبات عليهم ، وجعل حد المملوك في العقوبات نصف حد الحر ، وقد قرن الله الوصية بهم بالوصية بالوالدين والاقربين ، ونهي النبي ﷺ عن قول السيد «عبي وأمتي» وأمره أن يقول « فتاي وفتاتي وغلامي » وأمر بأن يطعموهم مما يأكلون ويلبسوهم مما يلبسون ، ويعينوهم على خدمتهم إن كفوهم ما يغلبهم كما في حديث أبي ذر في الصحيحين وغيرهما الذي تقدم في (ص ٢١٣) والناسب منه هنا أن المرور بن سويد قال رأيت أبا ذر بالبدعة وعليه حلة وعلى غلامه حلة فسأله عن ذلك ، وذكر ما تقدم من الحديث وتمتته هي قوله ﷺ في الماليك « إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا تكفوهم ما يغلبهم ، فان كفتموهم فأعينوهم » أي عاملوهم معاملة الأمثال . وفي الصحيح أيضاً أنه كان يوصي بالنساء وما ملكت الايمان حتى في مرض موته إلى أن التحق بالرقيق الا على ﷺ وسأله ابن عمر كرم أعف عن الخادم ؟ قال « اعف عنه كل يوم سبعين مرة » وهذه مبالغة معناها اعف عنه كلما أذنب ،

وقد تفلسف بعض المتنتطين فيما يسمونه النقد التحليلي فقال إن محمداً ﷺ كان يوصي بالرقيق لأنه ربي في حجر أمة - يعني به إرضاع ثوية مولاة عمه أبي لهب - وان هذا التعليل لجهل عميق بالتاريخ وعلم النفس والفلسفة جميعاً ، فثوية أرضعته أياما عقب ولادته ولم تكن مربية له ولا أدرك ذلك فيؤثر في نفسه . ولكن هذا التشريع العظيم الذي جاء في كوله الأمية فوق جميع شرائع البشر وفلسفتهم وآدابهم شيء آخر لا ينبغي لعاقل ، أن يعالجه بما عاله به هذا المنتطع المتحدلق ، وما كان هذا التشريع وحده هو الذي يعالجه هذا التعليل ويحطمه بل كل نوع من شريعتيه مثله ، ثم ماذا يقال في مجموعها وجملتها ؟ ولهذا كان المسلمون في الصدر الاول يبالغون في تكريم الرقيق ومعاملتهم بالحلم حتى صاروا يقصرون في الخدمة . ولعمر الحق ان العبد المملوك في حكم الاسلام الاول كان أعز نفساً وأطيب عيشاً من جميع الاحرار الذين ابتلوا في هذه العصور بحكم دول الافرنج من غيرهم أو نفوذهم

خلاصة البحث

(في تحرير الدلالة على إثبات الوحي ، وحجة الله به على جميع الخلق)

راجع ما تقدم من الكلام على الوحي والنبوة وآيات الانبياء عندنا وعند النصارى ، ومن الكلام في تفنيد شبهة الوحي النفسي ، والكلام في إعجاز القرآن الغوي والعلمي . وما أحدثه من الثورة العالمية والانقلاب الانساني من كل وجه ، ثم أضف اليها هذه العشرة الانواع من مقاصد القرآن، في إصلاح البشر وتكميل نوع الانسان، من جميع نواحي التشريع الروحي والادبي والاجتماعي والمالي والسياسي ، وهي التي اشتدت حاجه الشعوب والدول في هذا العصر اليها موضحة بأصول وقواعد هي أصح وأكمل وأكفل للمصالح العامة ، ودفع المفاسد القديمة والطائرة ، من كل ماسبقها من تعاليم الانبياء ، وفلسفة الحكماء ، وقوانين الملوك والحكام ، على اختلاف الاعصار ، مع العلم القطعي من تاريخ محمد ﷺ انه كان أمياً يؤثر بطبعه عيشة العزلة، فلم يتفق له الاطلاع على كتب الانبياء ولا غيرها من الكتب والقوانين ، وانه لم يعرف عنه انه كان يبحث في شيء من العلوم ، ولا انه نطق بشيء من مسائلها ، ولا أنه عرف بالبلاغة والفصاحة ، أو عني بالشعر أو الرجز أو الخطابة، والعلم القطعي بأنه انما جاء بها في هذا القرآن بعد استكمال سن الأربعين ، وهي سن لم يعرف في استعداد أنفس البشر ومدرجات عقولهم ولا في تاريخهم ان صاحبها يأتي تف مثلاً اثنان لم يسبق له البدء بشيء منه في أنف عمره، وآفة شبابه وشره راجع هذا كله وتأمله جملة واحدة تجد عقلك مضطراً إلى الجزم بأن هذا كله فوق استعداد بشر أمي أو متعلم ، وانه لا يعقل الا أنه وحي من الله تعالى

فاذا فرضنا انه يحتمل أن يكون شيء منها من تأثير الوراثة والبيئة والتربية، وأن يكون قد تسرب إلى ذهنه بعض مسائلها من أفواه عقلاء قومه أو غيرهم ممن لقي في أسفاره القليلة، ولو انه فكر في حاجة البشر الى مثلها مما أدركه بذكائه الفطري من سوء حللم، فهل يعقل أن تكون تلك الفلتات الشاردة، وهذه الخطرات الواردة، تبلغ هذا الحد من التحقيق والوفاء بحاجة الأمم كلها، وأن تظل كلها مكتومة من سن الصبا وعهد حب الظهور إلى أن تظهر في سن الكهولة، بهذه الروعة من البيان، وسلطان البلاغة على القلوب، وقوة البرهان في العقول، فتحدث هذه الثورة في الامة العربية المغيرة لطباعها، المبدلة لأوضاعها، بحيث تسود بها شعوب المدينة كلها، ويتلو ذلك ما قصه التاريخ من الانقلاب في العالم كله بها ؟

وتعجب من هذا كله أن يظهر في هذا العصر ان أمم العلم والحضارة العجيبة أشد حاجة اليها ممن قبلهم ؟ كلا إن هذا لم يعرف مثله في البشر

وإذ قد ثبت هذا فالواجب على كل من بلغه من البشر أن يتبعه ويهتدي به لتكامل إنسانيته، واعدادها لسعادة الدنيا والآخرة. فان اعتراضه شبهة عليه فليبحث عنها أو لينبذها، فما كان لعاقل ثبت عنده نفع علم الطب أن يترك مراعاته في حفظ صحته، أو مداواة مرضه لشبهة في بعض مسأله، أو خيبة الاطباء في بعض معالجاتهم للمرضى . فهو أعظم خوارق العادات فيهم ، فلم يبق إلا انه علم موحى به من الله عز وجل مفروض على كل عاقل بافته دعوته ان يتبعه ويدعو اليه ،

قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (١٤٩:٦)

« وضيت بالله ربا ، وبالا سلام ديناً ، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً »

أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد ان محمداً رسول الله ، وانه خاتم النبيين ، ورحمته العامة للعالمين ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين

الخاتمة

في تجديد التحدى، بتهاليم الوحي المحمدي

(ودعوة شعوب الحضارة إلى الدين الاسلامي)

تلك عقائد دين محمد وقواعد تشريعه ، وأصول اصلاحه الديني والاجتماعي والمالي والسياسي ، مسرودة بالاجمال ، مؤيدة بشواهدا من آيات القرآن ، مجردة من حلل المبالغات الخطائية ، وعاطلة من حليّ الخلاطة الشعرية ، ونحن المسلمين نتحدى الفلاسفة والمؤرخين من جميع الامم ، ولا سيما أحرار الافرنج ، بأن يأتونا بمثلا أو بما يقرب منها من تاريخ أعظم الانبياء ، وأشهر الحكماء ، وأبلغ الادباء ، وأنبيغ ساسة الاولين والآخرين ، مع صرف النظر عن كونه ﷺ كان (كما بينا أولا وآخرآ) أميآ ، وجاء بذلك كله بعد استكمال السن التي صرح علماءهم بأن الانسان يستحيل أن يتديء او يتدع فيها علما او فنا ، او يسن فيها شرعا او يضع قانونا ، أو ان ينهض في العالم بانقلاب عظيم او عمل خطير ، مما لم يكن قد ظهر استعداد له واخذه بمقدماته في ريعان الصبا ، وشرخ الشباب ، وقد بينا الفرق العظيم بينه وبين موسى وعيسى أعظم أنبياء بني اسرائيل صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين

نتحداهم بهذا القرآن تحديا علميا إصلاحيا سياسيا في ارقى عهد للبشر في العلم الكسبي ، مع صرف النظر عما كان من تحدي سلفنا بأعجاز عبارته واسلوبها وبلاغتها العربية في ارقى عصورها ، ونتحداهم به تحديا عمليا من حيث ان تنفيذ محمد ﷺ لاصلاحه في تأثيره وسرعته وعمومه من أكبر المعجزات التي تفوق استعداد البشر ، فكيف وقد اجتمع العلم والعمل

وبيانه ان العلم بما يصلح به حال البشر في أفرادهم وجماعاتهم وشعوبهم علم واسع يقل في الاذكياء من يتقن المدون منه في الكتب الذي يلقي في المدارس، ثم يقل من يستطيع تنفيذ ما يتعلمه منه في أمة يتولى أمر سياستها وإدارة الاحكام فيها، فهل في الامكان أن يوجد انسان يضع هذا العلم ذا الشعب الكثيرة، بل العلوم العالية، ثم يكون هو الذي يتولى تنفيذها وإصلاح أمة كبيرة بها، ويتم له النجاح في ذلك بنفسه في عصره ؟

ان هذا ليس في استطاعة أحد من البشر، ولم يقع من أحد منهم فيما خبر، وأصول هذا الإصلاح وفروعه محفوظة إلى اليوم وقد فسد أكثر البشر لتركم الاهتداء بها!! وأما تنفيذ محمد ﷺ لهذه التعاليم فقد تم في عشرين من تاريخ الهجرة الذي كان بدء حياة الحرية، وقد ظل قبلها يدعو إلى أصولها الجملة عشرين أولاً بالسري ثم بالجهر، مع احتمال الاضطهاد والايذاء والتعذيب والتهديد بالقتل والنفي، الذي اضطر المؤمنين إلى هجرة بعد هجرة، وبعد الهجرة العامة بالتبعية له ﷺ دار لهم قوة فكان المشركون يعتدون عليهم ويقاثلونهم في دار هجرتهم، فكانوا في حالة حرب وقتال مع المشركين كافة، وكذا أهل الكتاب المجاورين له. وكان ﷺ عقد لليهود معاهدة بتأمينهم على دينهم وأنفسهم وأموالهم بشرط ألا يظاهروا المشركين عليه، فنقضوا عهده المرة بعد المرة وظاهروهم بل اغروهم بقتله، فاضطر إلى قتالهم واجلالهم من جوارده في الحجاز، وظل المسلمون في نضال مع المشركين مدة ست سنين، مدافعين عن أنفسهم في كل قتال دفاع الضعيف المؤيد من الله - للأقوياء المخدولين، وفي أواخر السادسة عقد معاهدة الحديبية مع المشركين على وضع ائقتال عشرين سنين، ثم غدر المشركون ونقضوا العهد، فعادت حالة الحرب، وفتح المسلمون مكة عاصمة قريش الدينية والدنيوية، ومثابة جميع الأمة العربية، في سنة ثمان من الهجرة، وحج النبي ﷺ حجة الوداع في آخر سنة عشر، وأنزل الله تعالى عليه في يوم عرفة (٣: ٥) الْيَوْمَ يَكْتُبُ

الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي ۚ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ
لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا

ففي عشر سنين تم توحيد الامة العربية التي كانت أعرق أمم الارض في
الشقاق والتفرق والعداء، وانما كان ذلك بتأثير كتاب الله وتأيدته عز وجل لرسوله

كما قال (٦٢:٨) هُوَ الَّذِي آيَدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلْفَ بَيْنَ
قُلُوبِهِمْ ، لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ،

وَلَسَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ ، إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) وبما أعده تعالى لمن مكارم

الاخلاق، وما وفقه وأرشده اليه من حسن السياسة المبينة في قوله تعالى (١٥٩:٣)

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ ، وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا

مِنْ حَوْلِكَ ، فَادْفَعْ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ) الآية

وذلك ان العرب كانت أعصى خلق الله على الخضوع والطاعة والانقياد، لعراقبتهم

في الحرية ، وشدة بأسهم ، وعدم ابتلائهم بالملوك المستبدين القاهرين ، والرؤساء

الروحيين المسيطرين ، الذين يذلون الامم ويخضعونها لكل ذي سلطان قوي

فليد لنا علماء التاريخ العام على نبي من الانبياء ، أو حكيم من الحكماء ، أو

ملك من الملوك الفاتحين والمشرعين ، ربى أمة من الامم في عشر سنين او عشرين ،

فجعلها أهلاً لفتح الامصار ، والسيادة على الامم الحضرية ، وسياستها بالعدل والرحمة ،

وتحويلها عن أديانها ولغاتها بالافتناع وحسن القدوة ، ولا نشترط ان تكون هذه

الامة التي عليها وهذها ووحدتها رجل واحد كالامة العربية ولا ان يكون هذا

الرجل امياً كـ محمد ﷺ

فأين الوحدة الجرمانية والوحدة الطليانية في عصر العلوم والفنون والفلسفة والقوانين ونظم الاجتماع والحرب، من الوحدة العربية المحمدية في عهد الامية والجاهلية؟ بل أين الوحدة الاسرائيلية، في عهد الآيات والمعجائب السكونية، من الوحدة العربية الخاصة ثم الوحدة الاسلامية العامة في عهد آيات القرآن وعلومه الالهية؟ ثم نفذ ذلك التشريع الاعلى، والهداية المثلى، خلفاء محمد الراشدون، وكثير من ملوك المسلمين الصالحين، بما شهد لهم به تاريخهم، واعترف لهم به المؤرخون المنصفون من الافرنج وغيرهم، بالجمع بهما بين العدل والرحمة، وبأنهم جدوا بهما الحضارة الانسانية ورقوها، وأحيوا العلوم والفنون الميته وهدبوها واستثمروها وكانوا أساتذة العلم فيها .

ثم كان من قوة هذا الدين في الحق والفضائل ان عادته جميع أمم الافرنج وحاربه بجميع قواتها الصليبية، الهمجية منها والمدنية، ثم بعلومها وفنونها ونظمها المدهشة، ولا تزال تحاربه وتبذل الملايين من الدنانير لتحويل أهله عنه، بعد زوال قوة دوله، وغلبة الجبل على شعوبه، بجميع أساليب الدعوة المسماة بالتبشير، وبجميع وسائل القوة والنظام، وتحترف دولهم وجمعياتهم الدينية في ذلك من رذائل الظلم والبغي والكذب ما يتبرأ من مثله شرار المجرمين، ولم يستطيعوا له هدمًا، ولا ان ينصروا مسلما واحداً .

يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ، وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ
نُورُهُ وَكَوْكَرَةِ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ
الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (التوبة: ٣٢ و٣٣)

نتيجة التحدي بالروحي المحمدي

(دعوة شعوب المدينة : أوربة وأمريكا واليابان، بلسان علمائها إلى الاسلام)
 (لإصلاح فساد البشر المادى وتمتيعه بالسلام، والاخاء الانساني العام)
 اذا عجز حكماء هذا العصر وعلماء الحياة والاجتماع والاخلاق والمؤرخون
 من أحرار الافرنج وغيرهم عن إخبارنا بوجود رجل مثل محمد فيما علم من تاريخه
 المعروف المشهور جاء بمثل هذا القرآن، في خصائصه ولا سيما التعاليم التي لحصنها
 كلياتها في هذا الكتاب وقدر ان ينفذها ويربي بها أمة كالامة العربية يكون لهاها
 من الاثر الديني والمدني في العالم مثل أثرها - وانهم عاجزون عن ذلك قطعاً -
 أفلا يكون عجزهم هذا برهاناً على ان دين محمد وكتاب محمد وهدى محمد وتربية
 محمد للامة العربية، بما قلب به نُظْمُ العالم الانساني كلها، وحولها إلى ما هو خير منها،
 كل اولئك من خوارق العادات، وما لا يقبل المرء الظاهر من المعجزات ؟ بلى
 واذ كان حقاً واقعاً ماله من دافع، فما المانع من عد هذه التعاليم وحياً من
 رب العالمين، العليم الحكيم، وما معنى كونها وحياً إلا انها علم أفاضه الله تعالى
 على روح محمد وقلبه، بطريقة خفية غير طرق العلم الكسبية المعروفة للبشر عامة،
 وفوق الالهامات القليلة التي تؤثر عن بعض الخاصة ؟ وما معنى كونها معجزة إلا
 انها جاءت على غير المهود في علم البشر الكسبي، وخلاف المقرر في علم النفس
 والفلسفة العقلية وسنن الاجتماع، وتواريخ الامم، وسير الحكماء والعلماء والملوك،
 وفوق المعروف عن الانبياء أيضاً. وإن كانت من جنسها. فالانبياء قد أنبؤا
 ببعض الغيوب الحاضرة في عصرهم والتي تأتي بعدهم - وأنبا محمد ﷺ بما
 هو أصرح منها وأظهر وأكثر، وغيوب سابقة كانت قبل نبوته بقرون،
 ولكن لم يحمي أحد منهم بمثل ما تقدم اجماله في المقاصد العشرة العالية من العلم
 والحكمة والتشريع.

قد بينا لكم أيها العلماء الاحرار، بطلان ما اخترعته عقول المنكرين لنبوة محمد ﷺ من العال والآراء، لجعل ما جاء به من العلم الالهي الأعلى، والتشريع المدني الأسمى، والحكمة الادبية المثلى، نابعا من استعداده الشخصي، وما اقتبسه من بيئته ومن أسفاره، مع تصغيرهم لهذه المعارف جهلا أو تجاهلا، وعلمهم أن بعض ما قالوه اقتراء على التاريخ، وأن ما يصح منه عقيم لا ينتج ما ادعوه، وعلمهم انه في جلته مخالف للعلم والفلسفة وطباع البشر وسنن الاجتماع ووقائع التاريخ ونحن نتحداكم الآن بالاثبات بعلم أخرى لما عرضناه على أنظاركم من وحي الله تعالى وكتابه لمحمد ﷺ مع القطعي من تاريخه — علل يقبلها ميزان العقل المسمى بعلم المنطق، وسنن الانسان وعلم الاجتماع

فان لم تستطيعوا — ولن تستطيعوا — أن تأتونا بعلم تقبلها العقول، وتؤيدها النقول، فالواجب عليكم أن تؤمنوا بنبوة محمد ﷺ ورسالته. وبكتابه المنزل عليه من عند الله تعالى لإصلاح البشر، وأن تتولوا الدعوة إلى هذا الايمان، ومعالجة أدواء الاجتماع الحاضرة به، بعد أن عجزت علومكم الواسعة، وفلسفتكم الدقيقة، عن وقف عدوى فساد الاباحة وعبادة الشهوات وفوضى الافكار في الامم، وعجزت عن منع ذل حضارتكم أن تنفق معظم أموالها المنزعة من شعوبها ومستعمراتها في الاستعداد لحرب البغي والعدوان المدمرة، وتأريث العداوات بين شعوب الارض كافة، بل زادوا شعوبهم عداوة وشنا، وبغيا وعدوانا، بما هو شر مما عليه قبائل الهمج، وسباع الوحش والطير والسمك، فقد كان غاية شوط هذه العلوم الواسعة عند هذه الدول أعظم نكبة على البشر، فان أليتكم وتوليتم أيها العلماء عن دعوة الاسلام إلى السلام، فعليكم إنم شعوبكم ودولكم وسائر الانام

(علوم البشر لا تستقل بهدايتهم)

﴿ لانهم لا يدينون إلا لوهي ربهم ﴾

ألا انه قد ثبت بالحس والعيان، ان العلم البشري وحده لا يصلح أنفس الناس، لانهم لا يخالفون أهواءهم وشهواتهم الشخصية والقومية الى إتباع آراء أفراد منهم، وإنما يدينون بوازع الفطرة لما هو فوق معارفهم البشرية، وهو ما يأتهم من ربهم، ولا يوجد في الارض دين عام كامل صحيح ثابت إلا دين الاسلام، وقد بينا لكم أصول تشريعه الروحي والسياسي والاجتماعي الصالح لكل زمان ومكان، وانه دين السلام والحق والعدل والمساواة التي تعطي كل شعب وكل فرد حقه، فبها وحدها يمكن البرء من الأدواء المالية والسياسية والحربية والاجتماعية كلها : فاليهودية دين موقت خاص غير عام وانتهى زمانها، والمسيحية إصلاح روحي لليهودية ليس فيها تشريع، ولا تصلح وصاياه الزهدية التواضعية لحضارة هذا العصر، وإنما هي موقوتة لإصلاح غلو اليهود والروم في الطمع الدنيوي والشهوات كما تقدم، والبرهمية والنبوذية والمجوسية، على ما تعلمون فيهن من وثنية وخصوصية، وخرافات وعداوات، وتفاوت طبقات، وعد بعضها كالحشرات أو رجساً من عمل الشيطان، فلا يصلح شيء منها لتثقيف البشر بالتوحيد والعرفان، والاخاء الانساني العام، فلا ملجأ ولا وزر، ولا ملتحذ للبشر، إلا بدين الاسلام (٣ : ١٩) إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ، وَمَا اخْتَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (فلئن اهدت به أمة قوية منظمة لتصلحن به سائر الامم، ولتكون لها السيادة العليا في جميع الارض، وليدخلن العالم الانساني في طور جديد من الترقى، والجمع بين منافع القوى المادية، والمعارف الروحية، ومنتهى السعادة الانسانية

الرجاء في العلماء المستقلين دون السياسيين

بلغنا انه دعا بعض العلماء منكم إلى عقد مؤتمر من كبار علماء الشعوب كلها للبحث في الوسائل التي يمكن أن تقي حضارة العصر من غوائل الشحناء القومية والدولية ، ولئن عقد هذا المؤتمر فلن يكون أمثل ولا أرجى من هذه المؤتمرات التي تعقدها الدول في جامعة الامم وعواصم السياسة ، وهي لما تزد الأذواء القومية إلا إعضالا ، والأخطار الدولية إلا تفاقمًا ، وإنما الدواء الواقي المضمون بين أيديهم وهم لا يبصرون ، وحجته البينة تناديهم ولكنهم لا يسمعون (٨ : ٣٣ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ خَيْرٌ خَيْرًا لَأَنصَحَهُمْ ، وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ)

وأما انتم ايها العلماء المستقلو العقول والافكار ، فالرجو منكم أن تسمعوا وتبصروا . وأن تعلموا ففعلوا ، فان كانت دعوة القرآن لم تباعدكم حقيقتها السكافة لاصلاح البشر ، على ألوجه الصحيح الذي يحرك إلى النظر ، لما ضرب دونه من الحجب ، أولانكم لم تبحثوا عنها بالاخلاص ، مع التجرد من التقاليد المسلمة عنكم والاهواء ، ولان الاسلام ليس له زعامة ولا جماعات تبث دعوته ، ولادولة تقيم أحكامه وتنفذ حضارته ، بل صار المسلمون في جماتهم حجة على الاسلام وحجابا دون نوره ، الى غير ذلك من الحجب والاسباب ، التي يبتها في مقدمة هذا الكتاب ، فالرجو أن يكون هذا الكتاب كافيًا في بلوغ الدعوة اليكم بشرطها المناسب لحال هذا العصر ، فان ظهر لكم بها الحق فذلك مانبغي ونرجو لخير الانسانية كلها ، وإن عرضت لكم شبهة فيها ، فالرجو من حبكم للعلم ، وحرصكم على استبانة الحق ، أن تشرحوها لنا لنعرض عليكم جوابنا عنها ، والحقيقة بنت البحث كما تعلمون ولا أراكم تعدون من الشبهات الصادة عن الاسلام (بعد أن ثبتت أصوله بما ذكرنا) ان فيه اخباراً عن عالم الغيب الذي وراء المادة لادليل عليها عندهم ، فانما

مصدر الدين عالم الغيب، ولو كان مما يعلمه البشر بكسبهم لما كانوا في حاجة إلى تلقيه من الوحي، وقد بينا أن تعاليم القرآن قد أثبتت أنه وحي من عالم الغيب، وقامت برهاناً على وجود الله وعلمه وحكمته، فوجب أن تؤخذ أخباره بالتسليم، وحسبكم أنه ليس فيه منها ما يقوم البرهان على استحالة، وإن منها ما كان يعد من وراء إدراك العقل، ثم كان من ثمرات العلم وجوده بالفعل، كمتخاطب أهل الجنة وأهل النار على ما بينهما من البعد، ولا تكونوا ممن قال الله تعالى فيهم (٣ : ٦٦) هَاءُ تَمْ هُوَ لَا حَاجَتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ، فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ؟ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ

معجزات القرآن الطبيعية والفلكية

وأما أخبار القرآن عن عالم الغيب المادي من تكوين وتاريخ، فن معجزاته الإيجابية أنه جاء فيه كثير من التعبيرات التي كشف العلم والتاريخ في القرون الأخيرة من معانيها ما لم يخطر في بال أحد من أهل العصر الذي نزل فيه، ومن معجزاته السلبية أنه لم يثبت على توالي القرون بعد نزوله شيء قطعي ينقض شيئاً من أخباره القطعية، على أن أخباره هذه إنما جاءت لأجل الموعظة والعبرة والتهذيب، ويكفي في مثل هذا أن تكون الأخبار على المألوف عند الناس، ولا ينتقد عليها إذا لم تشرح الحقائق الفنية والوقائع التاريخية، لأنها ليست مما يبعث الرسل ليأنه، ومنها ما لا يمكن الوقوف عليه إلا بالتعمق في العلم، أو الاستعانة بالآلات التي لم تكن معروفة عند المخاطبين الأولين بالوحي، بل لا يصح أن يأتي فيها ما يجزمون بانكاره بحسب حالهم العلمية، لثلا يكون فتنة لهم، وقد قال نبي الإنسانية العام « أنتم أعلم بأمور دنياكم » رواه مسلم في صحيحه

ومن دقائق تعبير القرآن في النوع الأول (التكوين) التي اختلف في فهمها الناس،

ان مادة الخلق «دخان» وهو عين ما يسمى السديم ، وان السموات والارض كانتا رتقا أي مادة واحدة متصلة ففتقهما الله وجعل كلا منهما خلقا مستقلا ، وبث فيهما أنواع الدواب ، ولم يكن أحديهما قد أوتى تصور أن في شيء من هذه الاجرام السماوية حيوانا ، وانه جعل من الماء كل شيء حي ، وانه خلق جميع الاحياء النباتية والحيوانية أزواجا ، فجعل في كل منها ذكرا وأنثى ، وانه جعل كل نبات موزونا ، يعني ان عناصره متوازنة على نسب مقدرة ، وانه أرسل الرياح لواقع ، وانه «يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل» والتكوير هو اللف على الجسم المستدير ، وهو صريح في كروية الارض ودورانها للذين كانا موضوع الجدال والنضال بين العلماء الى عهد قريب بعد الاسلام ، وأمثال هذا فيه كثير حتى ان بعض آياته في الشمس والقمر والنجوم وسبحها في أفلاكها وجريانها إلى أجل مسمى ، وفي تناثر الكواكب عند خراب العالم لا تفهم فهما صحيحا الا في ضوء علم الفلك الحديث . وأعجب منه إثباته ان للخلق سننا لا تبدل وبيانه لكثير منها ، ومن سنن الاجتماع التي لم يهتد البشر اليها بالبحث العلمي إلا بعد بيان القرآن لها بقرون . ولم أوردتها في هذا البحث ، لأنها قد يقال انها مما يعرف بالعقل ، وليس من موضوع الوحي . وسأفصلها في الجزء الثاني المتمم لهذا الكتاب ، وأختم دعوتي هذه بتلاوة قول الله عز وجل في (آخر - حم - فصلت) :

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ نَمٌّ كَفَرْتُمْ بِهِ ؟ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ؟ * سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ، أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ؟ * أَلَا لَإِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ . أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ)
اللهم إني قد بلغت ، اللهم إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ، اللهم أشهد فأنتم خير الشاهدين ، والحمد لله رب العالمين .

فهرس كتاب الوحي المحمدي

الطبعة الثالثة

٥	تصدير الطبعة الثانية
	تقاريز كتاب الوحي المحمدي
١٥	كتب الأئمة
١٦	كتاب جلالة الملك عبد العزيز
١٧	كتاب إمام الاباضية والأستاذ المراغي الأكبر
١٨	تقريظ الأستاذ العدوي
٢٠	تقاريز علماء الشام الأعلام
٣٣	طائفة من التقاريز التي نشرت في الصحف
٥٠	تقريظ الأمير شكيب أرسلان
٥٩	مقدمة الطبعة الأولى
٥٩	ارتقاء البشر المادي وهبوطهم الأدبي . وحاجتهم الى الدين
٦١	الحجب بين الافرنج وحقيقة الاسلام
٦٣	الأسباب الأربعة العائقة عن فهمهم القرآن . أولها جهل بلاغته

٦٤	قصور ترجمات القرآن
٦٦	أسلوب القرآن المزجي
٦٧	الاسلام ليس له دولة
٦٨	بيان حقيقة الاسلام بما تقوم به الحجة على جميع الناس

فائحة الطبعة الثانية وأهم مسائلها

٧١	ثلاث عشرة آية في الوحي المحمدي وخطابها العام والخاص بأهل الكتاب
٧٣	تلخيص دعوة الوحي المحمدي فيها بعشر جمل
٧٨	اهتداء العرب فسائر الأمم بهذا الوحي واشتداد حاجة البشر الى هدايته في هذا العصر ورواج هذا الكتاب وترجمة الناس له بعدة لغات
٨٠	مزية الطبعة الثانية على الأولى

الفصل الأول وأهم مسائله

٨١	في تحقيق معنى الوحي والرسالة وحاجة البشر إليها وأصولها الثلاثة
٨١	تعريف الوحي لغة وشرعاً
٨٤	النبي والرسول معناهما
٨٥	حاجة البشر الى الرسالة وأصول دين الرسل ثلاثة
٨٧	عصمة الأنبياء عندنا وعند أهل الكتاب
٨٩	العقل والعلم لا يغنيان عن هداية الرسل وضرب مثل لذلك ابن سينا وخادمه

الفصل الثاني

٩٣	في إقامة الحجة على مثبتي الوحي المطلق في إثبات نبوة محمد (ص)
٩٥	تعريف الوحي والنبوة والأنبياء عند النصارى وما يرد عليه
٩٩	امتياز نبوة محمد على من قبله والموازنة بينه وبين موسى وعيسى
١٠٣	صد الكنيسة عن الاسلام وبغية عوجا وما قاله درمنغام في كتابه (حياة محمد)
١٠٥	الآيات والعجائب والنبوة عندنا وعندهم
١٠٧	عجائب المسيح وما يرد عليها من إنكار ومعارضة بعجائب الهندوس ومنها إحياء الموتى

- آية نبوة محمد العقلية العلمية وسائر آياته الكونية ١١٢
تأثير العجائب في الأفراد والأمم ١١٤
ثبوت نبوة محمد بنفسها وإثباتها لغيرها ١١٥
درس علماء الافرنج للسيرة المحمدية وشهادتهم بصلته (ص) ١١٦

الفصل الثالث

في شبهة منكري عالم الغيب على الوحي المحمدي وما يسمونه الوحي النفسي

١٢٩

- شبهة مسلم على الوحي بمكاشفات جان دارك وجوابها ١٢٠
تفصيل الشبهة، دحضها بالحجة، وفيها عشر مقدمات ١٢٧
١ - الأخذ عن بحيرا الراهب.
٢ - الأخذ عن ورقة بن نوفل.
٣ - انتشار اليهودية والنصرانية في بلاد العرب.
٤ - ٦ - اسلام سلمان الفارسي ورحلة قريش وادعاء وجود يهود ونصارى بمكة.

٧ - ما زعمه درمنغام من سبب نشوء محمد أمياً وما استفاده من رحلاته التجارية.

- ٨ - تصويره لمجامع قريش وشأن محمد فيها.
٩ - تأثير موت أبناء محمد في نفسه.
١٠ - ضعف الوثنية في العرب وتأثير تعبد محمد في الغار.
نتيجة تلك المقدمات العشر في إعداد محمد للوحي النفسي وبلاغة درمنغام في وصف تعبد (ص) في الغار ١٣٧

الرد على مقدمات درمنغام ونتيجتها

- باب كيف كان بدء الوحي الى رسول الله (ص) ١٤١
(من صحيح البخاري).
بسط ما يصورون به الوحي النفسي من ٨ وجوه ١٤٩
تفنيد تصويرهم للوحي النفسي من عشرة وجوه ١٥١

١٥٩	القول الحق ، في استعداد محمد للنبوة والوحي
١٦٣	الأمثلة النورانية ، لفطرة محمد وروحه ووحيه وكتابه ودينه
١٦٧	آية الله الكبرى القرآن العظيم

الفصل الرابع

	في إعجاز القرآن بأسلوبه وبلاغته ، وتأثيره وثورته
١٧١	أسلوب القرآن في تركيبه المزجي ، وحكمته وإعجازه به
١٧٥	الثورة والانقلاب الذي أحدثه القرآن في الأمة العربية
١٧٧	الموازنة بين تأثير القرآن في العرب والتوراة في بني اسرائيل
١٧٨	المسلمون أرحم البشر بهداية القرآن
١٨٢	فعل القرآن في أنفس الأمة العربية عامة ، وإحداثه أكبر ثورة عالمية
١٨٤	فعل القرآن في أنفس مشركي العرب خاصة
١٨٨	فعل القرآن في أنفس المؤمنين خاصة

الفصل الخامس

	في مقاصد القرآن ، في تربية نوع الانسان وحكمة ما فيه من التكرار في الهداية وإعجازه بالبيان
١٩١	

المقصد الأول من مقاصد القرآن

١٩٣	في حقيقة أركان الدين الثلاثة وضلال أتباع الرسل فيها
١٩٤	الركن الأول للمدين الايمان بالله تعالى وحكمة تكرار القرآن في بيانه
٢٠٠	الركن الثاني للمدين عقيدة البعث والجزاء
٢٠٤	البعث الانساني ، جسماني وروحاني
٢٠٧	الركن الثالث للمدين العمل الصالح
	سنة القرآن في تهذيب الأخلاق ، وكتب الفلسفة والآداب . النهي عن اتباع الهوى والترغيب في التقوى
٢١٠	
٢١٥	سنة القرآن في الارشاد الى العبادات
٢١٦	ترجيح فضائل القرآن على فضائل الانجيل
٢١٨	شبهة فلسفية ، على عمل الخير لمرضاة الله وثوابه

المقصد الثاني من مقاصد القرآن

- ٢٢١ بيان ما جهل البشر من أمور النبوة والرسالة ووظائف الرسل
٢٢٢ بعثة الرسل في جميع الأمم ووظائفهم
٢٢٣ أطوار النصارى وما انتهوا إليه في الدين
٢٢٤ مسألة الشفاعة الوثنية والنصرانية
٢٢٥ الايمان بجميع الرسل وعدم التفرقة بينهم
٢٢٦ المسلمون كونهم وسطاً وشهداء على الناس
آيات الأنبياء الكونية وما يشبهها من الكرامات وما اشتبه بها من خوارق
٢٢٨ العادات
٢٢٩ سنن الله في عالم الشهادة وعالم الغيب
٢٣٠ الغيب قسمان حقيقي وإضافي
٢٣١ الخوارق الحقيقية والصورية عند الأمم
٢٣٣ الفرق بين المعجزة والكرامة
٢٣٦ الكافرون بالآيات : مكذبون ومشركون
٢٣٧ علاج خرافة تصرف الأولياء في الكون
٢٣٨ المنكرون للمعجزات وشبهة الخوارق الكسبية
أعجوبة من خوارق الهنود
٢٤١ المعجزات قسمان تكوينية وروحانية
٢٤٤ عبادة بعض الناس للمسيح وللأولياء دون موسى
٢٤٨ ختم النبوة وانقطاع الخوارق ومعنى الكرامات
٢٤٩ لا تثبت معجزات الأنبياء إلا بالقرآن
٢٥١ الايمان بالقدر والسنن العامة وآيات الله الخاصة

المقصد الثالث من مقاصد القرآن

- الاسلام دين الفطرة السليمة، والعقل والفكر، والعلم والحكمة، والبرهان
٢٥٨ والحجة، والضمير والوجدان، والحرية والاستقلال
٢٧٠ منع التقليد والجمود، على اتباع الآباء والجدود
٢٧٢ دحض شبهة، وإقامة حجة، في مسألة الاجتهاد والتقليد

المقصد الرابع من مقاصد القرآن

- الاصلاح الانساني الاجتماعي السياسي الوطني بالوحدات الثمان
وحدة الأمة (الانسانية) والدين والتشريع والأخوة الدينية والجنسية السياسية
والقضاء واللغة ٢٧٥
الشواهد من السنة على وحدة الجنس (العرق) واللغة ٢٧٩

المقصد الخامس من مقاصد القرآن

- في مزايا الاسلام العامة في التكاليف الواجبة والمحظورة ٢٨٣
في عشر جمل .

المقصد السادس من مقاصد القرآن

- في حكم الاسلام السياسي الدولي : نوعه وأساسه وأصوله العامة
الحكم للأمة ، نوعه شورى ، ورئيسه ٢٨٧
أصول التشريع الأربعة ٢٩١
قواعد الاجتهاد : العدل المطلق والمساواة فيه ٢٩٣
خطر الظلم ومفسده وعقابه ٢٩٥
قواعد مراعاة الفضائل في الأحكام ٢٩٦

المقصد السابع من مقاصد القرآن

- في الاصلاح المالي وهو يدور على ٧ أقطاب :
القطب الأول كون المال فتنة وامتحاناً ٢٩٩
القطب الثاني ذم طغيان المال وغروره وصدده عن الحق والخير ٣٠٣
القطب الثالث ذم البخل بالمال والكبرياء والرياء فيه ٣٠٥
القطب الرابع مدح المال وكونه نعمة وجزاء على الايمان والعمل الصالح ٣٠٧
شكر نعمة المال وكفرها وأثر كل منهما في الافراد والأمم ٣٠٩
نعم الدنيا مبدولة للمؤمن والكافر
القطب الخامس ما أوجب الله من حفظ المال والاقتصاد فيه ٣١١
القطب السادس انفاق المال في سبيل الله آية الايمان ، ووسيلة السعادة لنوع
الانسان ٣١٣

القطب السابع في الحقوق المفروضة والمندوبة في المال والاصلاح فيه ٣١٦

المقصد الثامن من مقاصد القرآن

- إصلاح نظام الحرب، ودفع مفسادها، وفلسفتها
٣٢٠ أعجوبة القرآن في فساد المعاهدات الدولية في هذا الزمان
(أهم قواعد الحرب والسلام في الاسلام)
٣٢١ القاعدة الأولى في الحرب المفروضة على الأعيان
٣٢٣ القاعدة الثانية في الغرض من الحرب ونتيجتها
٣٢٥ القاعدة الثالثة إثبات السلم على الحرب
٣٢٥ القاعدة الرابعة الاستعداد التام للحرب لارهاب العداء (والسلم المسلح)
٣٢٦ القاعدة الخامسة الرحمة في الحرب
٣٢٦ القاعدة السادسة الوفاء بالمعاهدات
٣٢٧ القاعدة السابعة في الجزية وكونها غاية للقتال لا سبباً وعلة

المقصد التاسع من مقاصد القرآن

- إعطاء النساء جميع الحقوق الانسانية والدينية والمدنية
٣٣١ خلاصة تاريخية في حال النساء في العالم قبل الاصلاح الاسلامي
٣٣٣ الحقوق التي منحها الاسلام للنساء وهي عشرة
(١) حق الانسانية التامة (٢) حق الدين والتدين (٣) كونها ذات روح
خالدة كالرجال (٤) حق الولاية السياسية وغيرها كالرجال (٥) الحق
المالي في الميراث والكسب والملك (٦) جعل الزواج عقداً مدنياً بين
الرجل والمرأة (٧) المساواة بين الزوجين في الأحكام الزوجية إلا درجة
رياسة الأسرة (٨) تحديد ما كان من فوضى تعدد الزوجات وإطلاقه
بتحديد العدد وتقييده بالعدل والقدرة (٩) أحكام الطلاق وما للمرأة من
حق الفسخ واشتراط العصمة لتطلق نفسها (١٠) الوصية ببر الوالدات
والأخوات الخ.

المقصد العاشر من مقاصد القرآن

- هداية الاسلام في تحرير الرقيق، ولها طريقتان ٣٤٠

٣٤٠	الطريقة الأولى منع الرق القديم وكون الحرية هي الأصل
٣٤٣	الطريقة الثانية تحرير الرقيق وهو أربعة أنواع
٣٤٨	الوصية بالماليك
٣٤٩	خلاصة البحث في الدلالة على إثبات الوحي ، وحجة الله على جميع الخلق
٣٥١	الخاتمة في تجديد التحدي ، بتعاليم الوحي المحمدي والدعوة الى الاسلام
٣٥٥	نتيجة التحدي بالوحي المحمدي وتوجيه دعوة الاسلام الى العالم المدني
٣٥٧	علوم البشر لا تستقل بهدايتهم لأنهم لا يدينون إلا لوحي ربهم
٣٥٨	الرجاء في العلماء المستقلين دون السياسيين
٣٥٩	معجزات القرآن الطبيعية والفلكية
٣٦١	فهرست الكتاب

طبع على مطابع
مؤسسة عز الدين
للطباعة والنشر

ضرب: ١٣٠٥١ بيروت - لبنان

هاتف: ٨٣١٦٤٠٠